ليزا سي

فتاة الشاي

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة

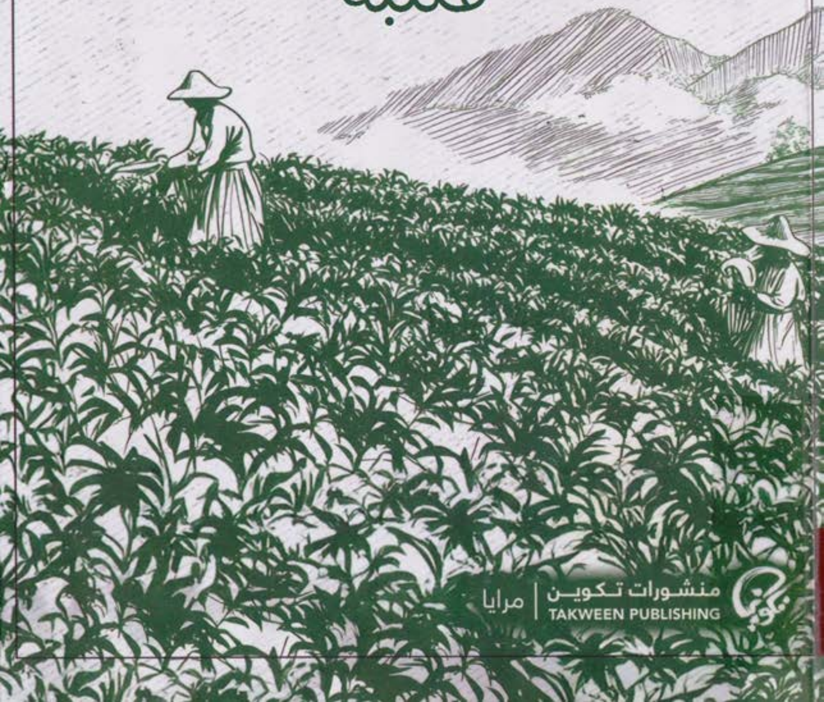

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

فتاة الشاي

الكاتب: **ليزا سي**

عنوان الكتاب: **فتاة الشاي**

ترجمة: **الحارث النبهان**

العنوان باللغة الأصلية: The Tea Girl Of Hummingbird Lane

الكاتب: Lisa See

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-88-9

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2025

1000 نسخة

THE TEA GIRL OF HUMMINGBIRD LANE © 2017 by Lisa See
First published by Scribner, an imprint of Simon & Schuster, Inc.
Translation rights arranged by Sandra Dijkstra Literary Agency working in conjugation with Arabian leopards Literary Agency.

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليزا سي

مكتبة
t.me/soramnqraa

فتاة الشاي

رواية

ترجمة

الحارث النبهان

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

في ذكرى أمي، كارولاين سي

ملحوظة الكاتبة

وقت بداية الرواية، سنة ١٩٨٨، كانت أوراق الشاي المقطوفة في جبال يونان تباع بأربعة يوان للكيلو الواحد (قرابة خمسين سنتًا وفق قيمة عملة الولايات المتحدة الآن). وكان المتوسط الشهري لدخل مزارعي الشاي يبلغ مئتي يوان (قرابة خمسة وعشرين دولارًا أميركيًّا).

يُرجى ملاحظة أن ثمة أشكالًا مختلفة لكتابة ونطق اسم فئة الشاي الأسود المدعو بيوَّر[١] «Pu'er»: Pu'erh بحسب نظام ويدز ـ كايلي لكتابة الحروف الصينية الذي ابتكره المبشرون في القرن التاسع عشر، و«Puerh» في تايوان، و«Pu'er» بحسب نظام بيناين في جمهورية الصين الشعبية، وهو النظام الذي اعتمدته الأمم المتحدة رسميًّا سنة ١٩٨٦، وكذلك «Ponay» أو «Bonay» في اللغة الكانتونية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) الكتابة الشائعة بالحروف العربية، وربما تكون الصحيحة هي بوير أو بو-إر.

عندما يولد لك ابن،
دعه ينام على فراش،
وألبسه أحسن ملبس،
وأعطه حجارة من جادٍ يلعب بها.

وعندما تولد لك ابنة،
دعها تنام على الأرض،
ولفّها بخرق بسيطة،
وأعطها بلاطات مكسرة كي تلعب بها...

كتاب الأغاني (١٠٠٠-٧٠٠ ق. م.)

القسم الأول

شريعة أكها

١٩٨٨-١٩٩٠

كلبٌ فوق السطح

تقول آما بعد فراغ الأخ الأكبر من إخبارنا عن حلم أتاه الليلة الماضية: «لا مصادفة، لا قصة»، فيبدو قولها هذا كأنه يسوّي كل شيء، مثلما يفعل عادة. لست أدري كم مرة حتى الآن استخدمت أمي هذه الحكمة المحبَّذة خلال السنين العشر التي أمضيتُها على هذه الأرض. أشعر أيضًا أن هذه القصة التي سمعتها الآن ليست إلا واحدة من نسخ كثيرة من حلم الأخ الأكبر. فلاح فقير يحمل ثمار اللِّفت التي اقتلعها ويذهب بها إلى سوق البلدة كي يقايضها بالملح. يخطو خطوة خاطئة فيسقط من فوق الجرف. من الممكن أن ينتهي هذا بـ«موت رهيب» بعيدًا عن البيت (أسوأ ما يمكن أن يقع لواحد من الأكها)، لكنه يسقط في مخيم تاجر مِلح ثري. يخمّر تاجر الملح شايًا، ويبدأ الرجلان الكلام، و... ومن الممكن أن تكون المصادفة أي شيء: إما أن يطلب تاجر الملح من الفلاح أن يزوجه ابنته، أو أن يكون سقوط الفلاح قد أنقذه من سيل آتٍ. هذه المرة، تمكَّن الفلاح من إبرام صفقة المقايضة مع تاجر المِلح من غير اضطرار إلى السير طوال المسافة حتى سوق البلدة.

كان حلمًا حسنًا من غير أي فأل سيئ، وهذا ما سرَّ كل من كان جالسًا على الأرض حول حفرة النار. مثلما تقول آما، تكون كل قصة وكل حلم وكل لحظة من لحظات اليقظة في حياتنا ممتلئة مصادفات مُقدَّرة، مصادفة تلو أخرى. البشر والبهائم وأوراق الأشجار والنار والمطر... ندور كلنا، الواحد حول الآخر، مثلما تدور حفنات من حبات الأرز الجافة قُذف بها صوب السماء. لا تستطيع حبة أرز واحدة أن تغير اتجاهها ولا تستطيع اختيار أن تطير صوب اليمين أو صوب اليسار ولا يد لها في تقرير مكان سقوطها... تستقر متوازنة فوق حجر فتكون قد نجت، أو تسقط عن ذلك الحجر نفسه إلى الطين فتصير من غير نفع ولا قيمة. حيثما تهبط يكون مصيرها! وما من شيء، ما من شيء أبدًا، يستطيع تغيير أقدارها.

يأتي دور الأخ الثاني كي يحكي حلمه. حلمه عادي!

ويحكي الأخ الثالث حلمه فيكون أكثر من مُضجِر.

يلكزني آبا بمرفقه. «يا بنت، احكي لنا حلمًا جاءك ليلة أمسِ».

«حلمي أنا؟». يفاجئني طلبه لأن أيًّا من والديَّ لم يطلب مني هذا قبل الآن. لست أكثر من بنت. وأنا غير مهمة. هذا ما قيل لي مرات كثيرة. فلماذا اختارني آبا هذا اليوم، ولماذا أفردني؟ لست أدري، لكني آمل أن أكون مستحقة هذا الاهتمام. بدأتُ قصتي: «كنت سائرة في طريق العودة إلى القرية بعد قطاف أوراق الشاي. كاد الظلام يحلّ. وكنت أرى الدخان متصاعدًا من نيران البيوت. لا بد أن رائحة الطعام جعلتني جائعة». (أنا جائعة دائمًا)... «لكن معدتي وعيني وذراعي وساقي كانت كلها فرحة لمعرفة أنني حيث يُنتَظر أن أكون في بيت أسلافنا». أنظر إلى

وجوه أفراد أسرتي. أود أن أكون صادقة، لكني لا أستطيع إثارة ذعر أيٍّ منهم بأن أنطق بالحقيقة.

تسألني آما: «ماذا رأيتِ أيضًا؟».

في قريتنا، تسير السلطة والأهمية وفق هذا الترتيب: رئيس القرية، ثم الـ«روما» الذي هو كاهن الأرواح المسؤول عن حفظ التناغم بين الأرواح والبشر، والـ«نيما»، وهو الشامان الذي له قدرة على الدخول في حالة وَجْدٍ سحرية والذي يزور الأشجار التي غرسها الرب في عالم الأرواح كي تكون تمثيلًا لكل روح على هذه الأرض ويقرر أي تميمة يصح استخدامها لشفاء واحد من الناس أو لتعزيز عافيته ونشاطه. ثم يأتي الرجال جميعًا، أي كل من في القرية من أجداد وآباء وذكور من أي سنٍّ كانت. وتحتل أمي المرتبة الأولى بين النساء، لا في قريتنا وحدها بل في الجبل كله. فهي القابلةُ، بل هي أكثر من ذلك كثيرًا لأنها تعالج الرجال والنساء والأطفال أثناء مضيِّهم في حياتهم. وهي معروفة أيضًا بقدرتها على تفسير الأحلام. ترتعش الكرات الفضية التي تزيّن غطاء رأسها وتلتقط ضوء النار وهي منتظرة سماع إجابتي. ويطرق الآخرون برؤوسهم فوق قصعاتهم... متوترين من أجلي.

أقسر نفسي على الكلام. «حلمت بكلب».

يفزع الجميع لهذا البوح.

تقول آما بنبرة موحية بالاطمئنان محاولة تهدئة الأسرة: «نحن نترك الكلاب تعيش بيننا لأسباب ثلاثة. هي مهمة للأضاحي، وهي تنبهنا إلى كل فأل سيئ، وهي صالحة للأكل. فمن أي نوعٍ كان كلبك؟».

أتردد مرة أخرى. كان الكلب في حلمي واقفًا فوق سطح بيتنا، متأهبًا، خطمه متجه صوب الأعلى، وذيله منتصب. في نظري، بدا كأنه يحرس قريتنا، وقد جعلتني رؤيته أحس نفسي واثقة بأنني سأصل البيت سالمة. لكن شعب أكها يؤمن...

ترمقني آما بنظرة حادة. «الكلاب ليست بشرًا، لكنها تعيش في عالم البشر. هي ليست من عالم الأرواح، لكن بها قدرة على رؤية الأرواح. عندما تسمعين كلبًا يعوي في الليل تعلمين أنه رصد روحًا وتأملين أن يكون قد أفزعها ففرت. والآن، أجيبيني يا بنت». تقول هذا وتدفع أساورها الفضية فوق معصمها... «من أي نوع كان كلبك؟»

«كانت الأسرة كلها جالسة في الخارج عندما بدأ الكلب يعوي». أقول هذا وأعلم أن تمام العلم أن وقوف الكلب فوق السطح يعني أنه لم ينجح في مهمته وأن روحًا تسللت متجاوزة حماية بوابة الأرواح في القرية وأنها تجوس الآن بيننا... «لقد أفزع روحًا شريرة فهربت. كافأه آ-بو-مي-يه بأن أعطى كل واحد في أسرتنا دجاجة كي يأكل لـــــــ...

يقول الأخ الأول ساخرًا: «هل أعطى ربنا الأكبر كل رجل وكل امرأة دجاجة؟».

«وكل طفل أيضًا! كان لكل شخص بمفرده دجاجة كاملة...».

ينظر الأخ الأكبر إلى آبا ساخطًا. «هذا غير ممكن! لا معنى له! اختلاق! اجعلها تكف عن...».

يقول آبا: «يعجبني حلمها حتى الآن. تابعي، يا بنت!».

كلما ازداد ما أحسه من ضغط عليَّ كي أتابع قصتي صار الكذب سهلًا. «رأيت طيورًا في عش. كانت صغارها قد فقست فورًا. ربتت أمها على كل واحد منها بمنقارها ربتًا لطيفًا. تاب، تاب، تاب».

تمر لحظة يتأمل فيها والداي وإخوتي في هذه الإضافة الجديدة. تتفرس آما وجهي فأحاول إبقاء تعابيره ساكنة كسكون قصعة من حليب الصويا تُركت في الخارج طوال الليل. أخيرًا، تومئ برأسها محبِّذة.

«تحصي عدد أطفالها. حيوات جديدة. وأم تحميها». تبتسم... «هذا كله حسنٌ».

ينهض آبا واقفًا مشيرًا بأن وجبة الإفطار قد انتهت. لست أدري أيهما يقلقني أكثر... عدم قدرة آما على رؤية كل شيء داخل رأسي مثلما كنت أظنها قادرة دائمًا أم إفلاتي بهذه القصة التي اختلقتها. ينتابني شعور رهيب إلى أن أذكِّر نفسي بأنني حميت أفراد أسرتي من القلق الذي كان من شأن حلمي أن يسببه لهم. أرفع قصعتي إلى شفتي وأشرب بقية حسائي. تنزلق في فمي بضع أوراق أشجار جبلية داخلة مع السائل الناري. شذرات الفلفل الحار تحرق مسارها حرقًا حتى تبلغ معدتي.

سأظل أحس شبعًا طالما استمرت هذه الحرارة.

*

نخرج من البيت قبيل الفجر. لا تزال نجوم الليل متلألئة فوق رؤوسنا. أحمل سلة صغيرة على ظهري. مع بقية أفراد أسرتي سلال أكبر حجمًا معلقة بأكتافهم. نسير معًا في الطريق الترابية الماضية عبر قرية «بئر النبع» التي فيها نحو أربعين أسرة، هذه القرية المختبئة في واحدة من

الوهدات الكثيرة على جبل نانوو. يحتمي أكثر البيوت بأشجار شاي عتيقة. إلا أن مصاطب الشاي المُدرَّجة وبساتين الشاي حيث نعمل واقعة كلها خارج القرية.

نسير مع جيراننا القاطنين بعيدًا عنا مسافة أربعة بيوت فقط. ابنتهم الصغرى في مثل سني. اسمها سي-ته. أستطيع العثور على صديقتي هذه أينما كانت لأن قبعتها عليها من الزينة أكثر مما على قبعة أي فتاة في بئر النبع. فضلًا عن الشاي، تزرع أسرتها القرع والملفوف وقصب السكر والقطن. وهم يزرعون الأفيون أيضًا، ويشتريه منهم كاهن الأرواح كي يستخدمه في طقوسه، وتشتريه آما كي يكون دواءً لمن يعانون عذاب العظام المكسورة وآلام الأمراض المُهلِكة والعناء الذهني الآتي من فقدان الأحبة. يعني المال الإضافي الذي تكسبه أسرة سي-ته أنهم يستطيعون تقديم حيوانات أكبر وأكثر عددًا من أجل النذور ما يعني بدوره أن قطع اللحم التي توزَّع على كل مَن في القرية تكون بدورها أكبر حجمًا وأكثر عددًا. فوق هذا، يعني ثراء أسرة سي-ته أن تكون قبعتها مزيّنة بتعاويذ فضية كثيرة. لكننا، سي-ته وأنا، صديقتان حميمتان كأننا شقيقتان بصرف النظر عن هذه الفوارق بيننا، بل ربما أكثر من شقيقتين لأننا نمضي جنبًا إلى جنب وقتًا طويلًا.

نتابع سيرنا في اتجاه عملنا ونخلّف آخر بيوت القرية وراءنا ونتابع المضي قليلًا فنبلغ «بوابة الأرواح». شكلان منحوتان معلقان بعمودين يمثلان امرأة ورجلًا. للمرأة ثديان ضخمان. وللرجل قضيب ثخين منتصب كجذع بامبو ضخم يتجاوز طوله علو قامتي كله. وعلى عارضة

البوابة العلوية نُقشت صور كلاب شرسة وطيور كاسرة. *فلتنتبهوا!* إن لم يعبر شخص من الأشخاص هذه البوابة عبورًا صحيحًا (قد يمسّها)، فقد يقع أمر فظيع، كالموت مثلًا. علينا جميعًا أن نحترس عند عبور البوابة.

نبدأ الصعود. نثرثر معًا، أنا وسي-ته، ونتبادل الأنباء كأن أسابيع قد انقضت منذ لقائنا، لا ليلة واحدة فقط.

تُسِرّ إليَّ: «عملت على تطريزي قبل النوم».

أقول لها: «وأنا نمت قبل أن يدخن آبا غليونه».

«ماء حار أم شاي على الإفطار؟»

«شاي».

«والأحلام؟»

لا أود إخبارها بأي شيء من هذا. أمامنا مسافة طويلة، وما من طريقة أخرى لجعل الزمن يمضي سريعًا غير الألعاب والحزازير.

أصيح عليها: «ما عدد النباتات الطفيلية المختلفة التي تستطيعين العثور عليها على الأشجار قبل أن نبلغ تلك الصخرة؟».

«تسعة. أنا الفائزة».

«ما أخبار تقدمك في الحياكة؟». تسألني سي-ته عارفة أنني لم أُظهِر أي موهبة في هذا الأمر.

أصيح: «مضجرة جدًّا»، فيلتفت الرجال خلفهم وينظرن إليَّ مستائين مني... «دعينا نرى كم قفزة تلزمنا من هذه الصخرة حتى تلك الصخرة التي في الأعلى، هناك!».

سبع قفزات. أفوز من جديد.

«الليلة الماضية قالت ديه-جا إنها تود أن تنجب ابنًا». ديه-جا هي زوجة شقيق سي-ته.

«هذا ليس أمرًا جديدًا». أشير إلى رابية صغيرة: «أراهنك على أنني سأسبقك إلى قمتها».

تعرف قدماي هذا الطريق معرفة حسنة، وأنا أثب من صخرة إلى صخرة وأقفز من فوق الجذور الظاهرة. وفي بعض الأماكن، أحس التراب الناعم بين أصابع قدمي. وفي أماكن أخرى، أحس وخز الحجارة الصغيرة على المواضع الطريّة أسفل قوس قدمي. لا تزال الظلمة مخيمة، وأنا أحس أكثر مما أرى أشجار الشاي والكافور والجينكو والقرفة، وأحس أجمات قصب البامبو المنتصبة حولي.

أفوز من جديد، وهذا ما يغيظ سي-ته. لكن هذا أيضًا واحد من الأمور التي تكون بين أي شقيقتين. أنا وسي-ته لصيقتان، لكن كل واحدة منا في منافسة مع الأخرى... دائمًا. أفوز في ألعابنا هذا اليوم، لكنها تذكرني بأنها أشد مني مهارة في الحياكة والتطريز. يقول معلمنا إن في وسعي إثبات أنني ذكية إن بذلت جهدًا أكبر، لكنه لا يقول هذا عن سي-ته.

«أقول عندما تلحق سي-ته بأمها التي تسلك مسارًا آخر، «أراك في مركز استلام الشاي». أتمهل قليلًا وأنظر إليهما تصعدان المنحدر الحاد في الجبل وسلتاهما تتراقصان على ظهريهما، ثم أغذّ الخطى كي ألحق بأمي.

بعد المشي نصف ساعة، يبدأ الليل الأسود تراجعه وتستحيل السماء زرقاء شاحبة. في الغيوم تلوينات من ورد وخزامى. ثم يتألق كل شيء عندما تعتلي الشمس ظهر الجبل. تستيقظ الجنادب وتبدأ غناءها. ونحن نتابع الصعود. يظل آبا وإخوتي متقدمين علينا مسافة كي يستطيعوا الحديث في ما يتحدث فيه الرجال. آما لا تَقِلُّ قوة عن أي رجل، لكنها تتمهل في سيرها قليلًا وتنظر حولها باحثة عن أعشاب وفطور تستخدمها في تركيب مراهمها. ظلت الكِنَّة الكبرى في البيت مع الأطفال الذين لا يزالون أصغر من أن يخرجوا لقطاف الشاي لكنهم صاروا أكبر من أن يحتاجوا إلى أن تحملهم أمهاتهم. لكن كنّتانا الثانية والثالثة تصطحبان طفليهما الصغيرين مربوطين إلى صدريهما وتشاركان أيضًا في البحث في أرض الغابة الندية عن أي شيء يمكن أن نأخذه معنا إلى البيت كي نضعه في حساء العشاء.

وأخيرًا، نبلغ أول مدرجات الشاي التي يملكها الأخ الأول. أسير بخطًى بطيئة بين صفوف الشجيرات المتراصة وتجول عيناي على الأغصان الخارجية باحثتين عن برعم بدأ تفتحه، مع ورقتين أو ثلاث أوراق، في دفء أشعة الشمس. أقطف المجموعة الصغيرة بلطف مستخدمة ظفر إبهامي وجانب سبابتي فوق مفصلها الأول. ظفر إبهامي متلوّن ومساحة صغيرة من لحم سبابتي صارت مُتَقَرّنَة. وأنا مُعتَبرة، منذ الآن، قاطفة شاي.

تأتي إليَّ آما بعد ساعتين. تمر بيديها عبر الأوراق التي جمعتها وتقلّبها وتتفحصها. «أنت جيدة جدًّا، يا بنت، جيدة في العثور على أفضل

البراعم والأوراق. ولعلك جيدة أكثر مما ينبغي». تلقي نظرة سريعة في اتجاه آبا البعيد عنا مسافة بضع مصاطب، ثم تنحني فوقي وتهمس إليَّ: «كوني أسرع قليلًا. وفي وسعك أن تأخذي بعض الأوراق القديمة القاسية. نحن في حاجة إلى مزيد من الأوراق من كل شجيرة، لا البراعم والأوراق المثالية فقط».

أنا أفهم هذا. أوراق أكثر تعني مالًا أكثر يدفعه إلينا مركز استلام الشاي. وعندما تمتلئ سلتي، أذهب إلى الأخ الأول الذي ينقل ما جمعت إلى كيس من الخيش، ثم تبدأ العملية من جديد. نستريح لتناول وجبة الغداء المكونة من كرات أرز ملفوفة بطحالب مجففة، ثم نتابع العمل خلال فترة بعد الظهر. أظل قريبة من أمي التي تغني كي تحافظ على إيقاع عملية القطاف وكي تبعد أذهاننا عن الحر والرطوبة. وأخيرًا، أسمع صوت آبا ينادي، «هذا كافٍ!». نتقاطر كلنا إلى حيث كان الأخ الأول يجمع ما جنيناه. توضع أوراق الشاي كلها في أكياس من الخيش. ثم يُربط كل كيس بالحبال ويثبت إلى لوح مستوٍ. تضع آما أصغر تلك الأكياس على ظهري وتوثق الحبل إلى كتفي وتثبت اللوح على جبهتي. هذا كله لإعانتنا على حمل الثقل متوازنًا، إلَّا أنَّ شدَّ الحبال على كتفي وضغط اللوح الخشبي على جبهتي يؤلمانني على الفور.

بعد أن صارت الأكياس على ظهور الجميع وجرى جمعُ سلالنا معًا ووضعها في مكان واحد كي نستعيدها في طريقنا إلى البيت، نبدأ مسيرنا إلى مركز استلام الشاي الواقع على مسافة ساعتين. ندرك جميعًا أن علينا أن نسرع، لكن تقدمنا لا يمكن إلا أن يكون بطيئًا. خطوة إلى الأمام بقدم

متورمة ألمًا من بعدها خطوة أخرى بقدم متورمة ألمًا. نسير صاعدين متجاوزين مزيدًا ومزيدًا من مصاطب الشاي وأحس أن الصعود يصير أشد صعوبة عند كل واحدة منها. ثم نعود إلى الغابة المحتوية على حقول وحدائق من أشجار الشاي المنسية. عرائش العنب ملتفة حول الجذوع التي صارت موطنًا للأوركيد والفطور ولنباتات طفيلية من بينها «مخلب السرطان». ما عمر هذه الأشجار؟ هل يبلغ عمرها خمس مئة عام؟ هل يبلغ عمرها ألف عام؟ لست أعلم إجابات عن هذه الأسئلة. ما أعلمه أنهم كفوا منذ زمن طويل عن بيع أوراقها. لا يستخدم الناس أوراق هذه الأشجار لشرب الشاي في البيت إلا إن كانوا من أسر فقيرة مثل أسرتنا.

نصل مركز استلام الشاي وأكون موشكة على البكاء من شدة الإرهاق. ندخل الفناء عبر البوابة الكبيرة. تجول عيناي في المكان المفتوح باحثتين عن قبعة سي-ته المتميزة. نحن بني الأكها، وكذلك قبائل داي ولاهو وبولانغ وغيرها من الأقوام التي تعيش هنا، معنا. الجميع مرتدٍ ملابس العمل، لكن كل غطاء رأس وقبعة ووشاح مزين بحسب تقاليد القبيلة وبحسب الذوق الفردي لكل امرأة أو فتاة. لا أعثر على سي-ته. لا بد أن أسرتها وصلت وانصرفت قبل وصولنا. من الممكن حتى أن يكونوا قد صاروا الآن في بيتهم، يتناولون طعام العشاء.

تناديني معدتي عندما تهاجمها روائح آتية من أكواخ بائعي الطعام وتسحرها. يملأ رأسي عطر اللحم المشوي على نار مكشوفة. يتحلّب فمي. سأتذوق واحدًا من أسياخ اللحم المشوي هذه... ربما. بعض

الأحيان ندعو أنفسنا إلى تناول فطائر البصل الأخضر التي تبيعها امرأة عجوز من قبيلة داي على عربة صغيرة إلى اليسار تمامًا داخل الفناء حيث روائح الطعام مغرية... ليست غنية كرائحة اللحم المشوي، لكنها فائحة برائحة البيض الطازج. آما والكنتان وأنا نجلس جميعًا على الأرض الترابية في حين يأخذ آبا وإخوتي الأكياس ويمضون بها عبر باب مزدوج مفضٍ إلى منطقة الوزن. وإلى الناحية الأخرى من ذلك الفناء، أرى صبيًّا في مثل سني تقريبًا واقفًا إلى جانب جبل من أكياس الخيش الممتلئة التي تنتظر نقلها إلى مدينة مينغاي الكبيرة حيث تجري معالجتها في مصنع تديره الحكومة. شعره أسود مثل شعري. وهو حافي القدمين أيضًا. لا أعرف فيه واحدًا من الأولاد الذين في المدرسة. لكني لست مهتمة بشخصه بقدر اهتمامي بفطيرة البصل الحارة في يده التي صبغتها أوراق الشاي. ينظر حوله كي يتأكد من أن ما من أحد يرقبه (واضح أنه لا يراني) قبل أن يختفي عن الأنظار مختبئًا عبر كدس من الأكياس. أنهض واقفة وأعبر الفناء وأسترق النظر حول زاوية جدار أكياس الشاي.

أسأله: «ماذا تفعل هنا؟».

يلتفت إليَّ ويبتسم. وجنتاه لامعتان بزيت الفطيرة. وقبل أن يفلح في الكلام، أسمع آما تناديني: «يا بنت! يا بنت! ابقي قريبة مني!».

أسرع عائدة وأصل إلى أمي لحظة خروج آبا وإخوتي من منطقة الوزن. السرور غير بادٍ عليهم.

يقول آبا: «تأخرنا كثيرًا. لقد اشتروا الحصة المقررة لهذا اليوم».

أئنُّ في داخلي. نحن أسرة مكونة من ثمانية أشخاص بالغين ومن أطفال كثر. يصعب العيش على ما نكسبه في عشرة أيام من السنة هي أوج موسم قطاف أوراق الشاي وفي فترتي قطاف ثانويتين تمتد كل واحدة منهما عشرة أيام أيضًا، إضافة إلى ما نزرعه من أرز وخضار وما يصطاده آبا وإخوتي. علينا الآن أن نأخذ أوراق الشاي هذه إلى البيت آملين أن تبقى طازجة، ثم نعود بها صباح يوم غد في وقت مبكر، مبكر، ونصعد حتى هذا المكان ونبيعها قبل انقلابنا إلى بستان الأخ الثاني كي ننجز عمل النهار هناك.

تتنهد آما. «سيكون لدينا غدًا يوم عمل مضاعف آخر».

تعض الكنتان على شفتيهما. وأنا بدوري، لست مسرورة لفكرة السير إلى هذا المكان مرتين يوم غد. لكني أرى كيف يتجنب أخواي الثاني والثالث النظر إلى أعين زوجتيهما فأدرك أن أنباء أشد سوءًا آتية في الطريق.

يقول آبا: «لا حاجة إلى هذا. لقد بعت الأوراق بنصف ثمنها».

يعني هذا يوانين اثنين فقط للكيلو غرام. الصوت الصادر عن آما أقرب إلى النشيج منه إلى الأنين. *ذلك العمل كله بنصف ثمن.* تسير الكنتان بخطوات بطيئة صوب صنبور الماء لإعادة ملء جرارنا الفخارية الصغيرة. يقعي الرجال على الأرض. تعود الكنتان وتقدمان الماء إليهم. بعد ذلك، تجلسان على مقربة من آما، وتعدّل كل منهما وضع صغيرها في قماطه ثم تلقمه ثديها كي يرضع. هذه هي استراحتنا قبل انطلاقنا نازلين مدة ساعتين كي نصل إلى بئر النبع.

ومع استرخاء الجميع، أعود فأعبر الفناء إلى حيث الصبي. أسأله كأن زمنًا لم ينقضِ مذ كنت هناك: «ألن تقول لي ما سبب اختبائك هنا؟».

«أنا لست مختبئًا». يجيبني بهذا على الرغم من ثقتي بأنه مختبئ... «أنا آكل فطيرتي. هل تريدين لقمة منها؟».

أريد... أكثر من أي شيء.

ألتفت وألقي نظرة في اتجاه آما والآخرين. لست أعلم مشكلتي، لكن ما بدأ بالأكاذيب وقت الإفطار يتواصل الآن. أخطو خلف جدار الأكياس الفائحة منه رائحة أوراق الشاي المقطوفة حديثًا. لكنني أصير هناك فلا يبدو لي الصبي واثقًا بما ينبغي حدوثه بعد ذلك. لا يقتطع لي جزءًا من الفطيرة ولا يمدها إليَّ كي آخذ منها لقمة. لكنه عرض عليَّ تلك اللقمة، وسوف أحصل عليها. أنثني عند خصري وأغرس أسناني في طراوة الفطيرة وأنتزع ملء فمي مثلما يفعل كلب يخطف كسرة خبز من يد سيده.

يسألني، «ما اسمك؟».

أجيبه بفم ممتلئ سعادة: «لي-يان». هذا هو اسمي الرسمي الذي لا أستخدمه إلا في المدرسة ولغايات شعائرية واحتفالية. ففي قريتي، يدعوني الناس «ابنة شا-لي» (ابنة آبا) أو «ابنة سو-سا» (ابنة آما). وفي أسرتي، يخاطبونني بـ«يا بنت».

يقول لي: «أنا اسمي سان-با-وأنا من قرية ظل السقيفة. أبي هو لو-سان. وجدي اسمه باه-لو. وجد أبي ذا باه،...». لا بد لكل صبيّ من قبيلة أكها أن يذكر نسبه بأن يتلو أسماء أسلافه الذكور رجوعًا حتى

خمسين جيلًا... يصير المقطع الأخير من كل اسم مقطعًا أول في اسم السلف في الجيل التالي. أتوقع أن يحدث هذا، لكن صوتًا نسائيًا غاضبًا يقاطعه. «ها أنت هنا، أيها اللص الصغير!».

ألتفت فأرى تلك المرأة من قبيلة داي، صاحبة عربة الفطائر، أراها تنظر تارة إلينا وتارة إلى الفناء المفتوح. تمسك بطرف سترتي، وتمسك بيدها الأخرى أذن سان-با. يصرخ محتجًّا وهي تقودنا خارجة بنا من مكمننا.

«يا للشمس ويا للقمر! انظروا! سارقان!». يعلو صوتها فوق الجلبة التي في الفناء... «أين أهل هذين الاثنين؟»

تنظر آما إلى اتجاهنا وتميل برأسها غير مصدقة. حتى هذا اليوم، لم تكُن لي أي مشكلات أبدًا. أبدًا، لا أضع ساقًا فوق ساق في حضور الكبار، وأنا أقبل كلمات أبي وأمي وأراها دواء شافيًا، وكلما تكلمت أو ضحكت أغطي فمي كي أخفي أسناني. ربما أضفت هذا الصباح ألوانًا إلى حلمي، لكني لست لصة، ولست أغش في المدرسة. لسوء حظي، كانت بقايا الزيت حول فمي تظهر أنني، على الأقل، أكلت جزءًا من تلك الفطيرة حتى إن كنت لم أسرقها من عربة تلك المرأة من قبيلة داي.

يعبر آبا وآما الفناء. تشتعل نار الخجل في وجنتي عندما أرى الحيرة الظاهرة على وجهيهما. أخفض عيني وأنظر إلى أقدامهما المتشققة وهما يكلمان البائعة. سرعان ما انضم إلينا زوج أقدام آخر إلى جانبي سان-با: والداه.

«ما الأمر؟». صوت آبا مهذب، هادئ. قد نكون أجلافًا في بيتنا، لكن من الواضح أنه يحاول تهدئة غضب بائعة الفطائر بأساليب الأكها المهذبة.

تشدّ المرأة العجوز أذن سان-با. «كانت لي من قبل مشكلة مع هذا الولد. هو لص حيثما ذهب، وعسى أن يأكله نمر. وإذا مر بماء فعسى أن يسقط في أعماقه. وإذا مشى تحت شجرة فعسى أن تسقط عليه».

هذه لعنات شائعة، لكنها مؤثرة لأنها تدعو أن يعاني موتًا رهيبًا، لكن الصبي الواقف جانبي لا يبدو عليه أنه مبالٍ بها، بل هو لا يغطي فمه كي يخفي ابتسامته العريضة.

تنظر المرأة من قبيلة داي إلى أمي مشفقة. «والظاهر الآن أنه ضم ابنتك إلى حلقته».

تسألني آما: «أهكذا هو الأمر، يا بنت؟ لماذا تفعلين هذا؟».

أرفع ناظري إليها. «لم أعتقد أنني أفعل شيئًا خاطئًا».

تقول آما: «ليس شيئًا خاطئًا!».

«هو أعطاني الفطيرة. لم أعلم أنها مسروقة».

يتجمع آخرون حولنا كي يروا ما هو جارٍ هنا.

يقول الرجل الذي أظنه والد سان-با: «ليس لنا أن نلقي باللائمة على هذه الفتاة الصغيرة. أنت صاحب مشكلات سابقة في هذا المكان نفسه. قل الحقيقة أمام الجميع».

يقول سان-با أمام الجميع معترفًا: «لقد أخذتها». لكن هذا الاعتراف لا يبدو أنه يسبب له أي ألم.

يتكلم كمن يقرر حقيقة وكأنه يتكلم عن هطل المطر أو عن عدد البيضات التي وضعتها الدجاجات الليلة الماضية.

أقول: «هو عرض عليَّ لقمة منها. أراد أن يشاركني...».

لكن آما غير مهتمة بأعذاري. تعلن قائلة: «الآن، صار العالم مختلًّا بالنسبة إلى الطفلين معًا. نحن نلتزم شريعة أكها...». يقول والد سان با: «ونحن أيضًا نلتزم شريعة أكها. يتذكر كل أكها على وجه الأرض ما يجوز لنا فعله وما لا يجوز».

«علينا إذًا إقامة طقوس التطهير لهذين الطفلين ولعائلتينا ولقريتينا. السؤال الوحيد الباقي: هل نقيم الطقس للطفلين مجتمعين أم منفصلين؟». تطرح آما هذا السؤال. آبا هو رأس أسرتنا، لكن آما تدير هذا التفاوض لأن لها منزلة إضافية من حيث هي قابلة... «تكون النتيجة أفضل إن استطاعت أسرتانا فعل ذلك معًا». بالنسبة إلى هؤلاء الغرباء، لا بد أن صوتها يبدو ناعمًا دافئًا مثلما يبدو صوت آبا في هذه المواجهة -*إزالة هذا التباغض ممكنة. نستطيع أن نكون كلنا أصدقاء*- لكني أعرفها معرفة جيدة جدًّا. فما أسمعه هو خيبة أملها فيَّ وقلقها من هذا الموقف... «هل لي أن أسألكما: في أي يوم من أيام هذا الدور الزمني كانت ولادة ابنكم؟».

تجيبها والدته محاولة أن تمد يد العون: «وُلد سان-با في يوم النمر، أي في اليوم التاسع من الدور».

يتململ أفراد أسرتي في وقفتهم عند سماعهم هذه المعلومات المؤسفة. يتألف الدور الزمني عندنا، نحن الأكها، من اثني عشر يومًا يحمل كل يوم منها اسم حيوان. وقد كان مولدي في يوم الخنزير. يعلم

العالم كله أن النمور والخنازير لا يصح أن يكون بينها زواج أو صداقة أو عمل مشترك في الزراعة، وذلك لأن النمور تحب أن تأكل الخنازير.

تعلن آما النبأ السيئ. «هذه البنت مولودة في يوم الخنزير. وسوف يكون من الأفضل أن نفصل بين طقسي التطهر». تومئ برأسها تأدبًا فترن الكرات وقطع النقود المعلقة بغطاء رأسها. ثم تضع يدها على كتفي وتقول، «فلنذهب إلى البيت!».

تصيح بائعة الفطائر: «انتظروا! وماذا عني أنا؟ من سيدفع إليَّ ثمن الفطيرة؟».

يضع والد سان-با يده في كيسه ذي اللون النيلي المعلق عند وسطه، لكن آبا يقول: «ليس للفتاة غير سمعتها. وبما إنني والدها، فسوف أدفع المبلغ المطلوب». يأخذ من المبلغ الزهيد الذي كسبناه اليوم قطعتين نقديتين ويضعهما في يد بائعة الفطائر.

كان شعوري سيئًا، لكنه صار الآن فظيعًا. لو كانت صديقتي سي-ته هنا لما دخلتُ خلف جدار أكياس الشاي ولما التقيت سان-با، ولما أكلت لقمة من تلك الفطيرة...

تشد بائعة الفطائر أذن سان-با مرة أخرى. «دعني أراك ذاهبًا، ولا تعد أبدًا!». هذه أيضًا لعنة مألوفة، لكنها مقلقة لأنها توحي بموت فظيع. ولحسن حظي، لم توجه إليَّ هذه الكلمات. يبدأ والدا سان-با جرّه بعيدًا. يلتفت وينظر إليَّ من فوق كتفه مبتسمًا ابتسامة أخيرة. لا أستطيع منع نفسي. أجيبه بابتسامة مثلها.

تلازمني تلك الشرارة الأخيرة من التواصل بيننا وتبقى معي طوال طريق العودة. من الواضح أن أفعالي قد أزعجت أسرتي، لكنهم لا يقولون لي أي شيء بصوت عالٍ. نتوقف مرة واحدة كي نأخذ السلال التي تركناها عند مصاطب أشجار الأخ الأول. نبلغ قرية بئر النبع بعد وقت طويل من حلول الظلام. في البيوت أَلَقٌ ذهبي منبعث من مصابيح الزيت ومن المواقد المفتوحة. نكون جائعين جميعًا عندما ندخل بيتنا فيكاد شم رائحة الأرز المطهو على البخار الذي أعدته الكنة الأولى يصير أمرًا مؤلمًا. لكننا لا نبدأ الأكل. ففي البداية، يُرسَل الأخ الأول إلى الخارج كي يأتي بدجاجة. ويُكلف الأخ الثاني بمهمة الذهاب إلى الكاهن والإتيان به حارمًا إياه من تدخين غليونه المسائي. ويمسح الأخ الثالث براحة يده حجرًا مستويًا مثبتًا في التربة المرصوصة أمام باب البيت. تنظر آما إلى سلالها باحثة عن أعشاب وجذور، في حين تزوّد الكنة الأولى الموقد بالحطب. يجتمع أبناء شقيقاي وبناتهما من حول والدتيهما وينظرون إليَّ جميعًا... عيونهم متسعة.

يعود الأخ الثاني بالكاهن الذي ارتدى ثوبه الشعائري (ثوب تزينه كمية كبيرة من الرياش والعظام وذيول حيوانات صغيرة) وفي يده عصًا مصنوعة من سوق نبتة التيول. إنه وسيط بين عالم الأرواح، سواء أكانت أرواحًا داخلية كأرواح أسلافنا أم أرواحًا خارجية كالتي تأتي بالملاريا أو تسرق أنفاس المولودين حديثًا أو تلتهم قلوب الأجداد والجدات الذين نحبهم، وبين عالم البشر الذين في قرية بئر النبع. وقد جاء الليلة من أجلي.

يتجمع أفراد أسرتي في المساحة المفتوحة بين بيتنا وبين أكواخ المتزوجين حديثًا حيث ينام شقيقاي مع زوجتيهما. يحمل الأخ الأول الدجاجة ممسكًا إياها بساقيها. جناحاها يرفرفان رفرفة بائسة عديمة الجدوى. وكبار القرية الذين يقودوننا ويرعوننا يخرجون إلى شرفات بيوتهم وينزلون الدرجات. سرعان ما يظهر جيران آخرون خارجون من بيوتهم فينضمون إلينا لأنه لا يصح أن أواجه الإذلال وحيدة.

أرى الحداد مع أسرته، والصياد الأفضل مع أسرته، وسي-ته مع والديها، وشقيق سي-ته مع زوجته (سي-دو وديه-جا) اللذين ينامان في كوخ المتزوجين حديثًا على مقربة من والديه. لطالما كان سي-دو لطيفًا معي، وأنا أحب زوجته ديه-جا. شعر وجه سي-دو ورأسه صار طويلًا مشعثًا لأن الرجل لا يجوز أن يحلقوا ذقنه ولا أن يقصوا شعره بعد أن تبلغ زوجته الشهر الخامس من الحمل. ستظل قريتنا كلها حابسة أنفاسها (مثلما يحدث كلما حبلت امرأة) إلى أن يولد طفل ديه-جا، فعندها يُعلَم إن كانت تلك ولادة طيبة (أي طفلًا ذكرًا صحيحًا، أو حتى أنثى) أم ولادة سيئة تكون علامة على مجيء ما ندعوه «غلطة بشرية».

عينا الكاهن تتفرسان عينيَّ. يبدأ الارتعاش فتهتز تلك القطع الصغيرة على غطاء رأسه وملابسه وتقعقع كلها. تصطك أسناني وأرتجف، وأحس حاجة إلى التبول.

«كانت آما ماتا والدة البشر والأرواح». يقول هذا بنبرة خفيضة تجعل لزامًا علينا جميعًا أن نميل صوبه كي نستطيع سماعه... «آما تعني أم، وماتا تعني معًا. وفي وقت من الأوقات، كان البشر والأرواح

يعيشون معًا متناغمين. كان لآما ماتا ثديان في الأمام تطعم منهما أطفالها البشريين. وكان لها ستة أثداء على ظهرها كي تطعم أطفالها من الأرواح. وعلى الدوام، يعمل البشر في النهار، وتعمل الأرواح في الليل. جاموس الماء والنمر والدجاجة والنسر كانوا بدورهم يعيشون معًا. ولكن، ينبغي دائمًا أن يكون هناك من يدمر الفردوس». يشير إليَّ بعصاه... «فماذا كانت النتيجة؟».

أتلو التتمة بصوت متوتر، «البشر والأرواح، وجاموس الماء والنمور، والدجاج والنسور كان عليهم جميعًا أن ينفصلوا».

يقول: «ينفصلون. تمامًا. وبما إن قرار قسمة الكون اتخذ نهارًا، فقد كان للبشر اختيار العالم الذي يريدون العيش فيه. اختاروا الأرض بأشجارها وجبالها وثمارها وطرائدها. وكانت السماء من نصيب الأرواح فبقوا بعد ذلك غاضبين إلى الأبد. حتى هذه اللحظة، ينتقمون بأن يسببوا مشكلات لبني البشر».

سمعت هذه القصة مرات كثيرة، لكن معرفتي أنه يرويها من أجلي تجعلني أحس ألمًا في قلبي.

يتابع الكاهن: «في الفصل الرطب، تنزل الأرواح إلى الأرض مع المطر جالبة الأمراض والطوفان. وفي الربيع، مع بداية الفصل الجاف، نحدث ضجيجًا كي ندفع الأرواح الشريرة إلى الرحيل. لكنها لا تتركنا دائمًا. وهي نشيطة في الليل خاصة. فالليل وقتها، لا وقتنا».

أسرتي تستمع بكل انتباه، وكذلك قريتنا كلها. وهناك وهناك، يطقطق الناس بألسنتهم معبرين عن استيائهم مما فعلت. لا أريد النظر

عن كثب إلى أيٍّ منهم لأنني لا أريد أن أجد نفسي مرغمة على رؤية ما يحسونه إزائي من عار. مع هذا، لا أدري كيف عثرت عيناي على سي-ته. تنظر إليَّ مشفقة عليَّ. لا يستطيع شيء إخفاء الخزي الذي يخترق لحمي.

«نعبد آلهة كثيرة، لكن ليس منها ما هو أعظم من آ-بويه-مي-يه الذي يعني اسمه *سلف القوة العظمى*. لقد خلق العالم وخلق هذه الروح الواقفة أمامي». يتمهل الكاهن لحظة كي يتأكد من انتباه الجميع إلى ما يقول... «عندنا محرّمات كثيرة. لا ينبغي أن يدخن الرجال ولا أن تمضغ النساء جوز التنبول عند مرورهم عبر بوابة الأرواح. ولا يجوز أن تذهب امرأة حبلى، مثل ديه-جا لزيارة قرية أخرى وإلا فقد تُجهض هناك. ولا يجوز أبدًا أن تخطو امرأة من فوق ساق زوجها النائم على حصيره. نحن حذرون دائمًا، ونحن نحاول دائمًا التكفير عن خطايانا. لكن، عفوكم، ابنتنا لي-يان لم تقصد أي إساءة».

هل يقول إن ما شيء سيئ سيصيبني؟

وبعد ذلك، وضع إصبعه تحت ذقني ورفع وجهي صوبه. إنه يرى ما لم تستطعِ آما رؤيته فيَّ. أعلم أنه يرى. يرى كل شيء. لكن ما يقوله للآخرين مختلف جدًّا.

يقول موضحًا: «هي ليست إلا طفلة صغيرة جائعة. ومثلما تشرق الشمس دائمًا، وتكون الأرض دائمًا تحت أقدامنا، وتجري الأنهار نازلة من الجبال وتنمو الأشجار صاعدة صوب السماء، دعونا كلنا معًا نعيد لي-يان إلى طريق أكها القويم!».

يضرب الأرض بعصاه ثلاث مرات. ينثر عليَّ الماء ويربت على رأسي. يظهر لي قدرًا كبيرًا من الرحمة والغفران فأقرر ألا أخافه بعد الآن. لكنه يستدير مبتعدًا عني كي يؤدي الطقس الذي ينجز به تطهيري فتنقبض معدتي وتغور من جديد. يأخذ الدجاجة من يد الأخ الأول ويضغط جسدها على الحجر المسطح الذي نظفه الأخ الثالث من قبل، ثم يقطع رأسها. دجاجات أسرتي قليلة جدًّا، وهذا يعني أن البيض قليل جدًّا. والآن، أنا السبب في خسارة عائلتي قسمًا من طعامها. الكنة ترمقني بعينين غاضبتين. لكن، بعد ذلك...

تأخذ آما الدجاجة من الكاهن وتعكف سريعًا على نتف الريش عن جسدها الذي لا يزال ينتفض. ثم أسمع صوت ضربات قوية سريعة وأرى قطع الدجاجة يُلقى بها في قدرٍ متدلٍّ فوق النار التي ترعاها الكنة الأولى.

وبعد عشرين دقيقة، تسكب آما الحساء في القصعات. يجتمع الرجال في ناحية من بيت أسرتي، وتجتمع النساء في الناحية الأخرى. نجلس على الأرض كي نتلقى قصعاتنا. أصوات المضغ والمص والشَّرْق من أسعد الأصوات التي أسمعها في حياتي كلها، لكن الضفادع والبعوض ونداءات طيور الليل تذكرني كلها بأن نومنا تأخر ساعات كثيرة. وبينما أنتزع فتات اللحم عن العظم، تتطاير في رأسي شرارات من أفكار. في الحلم الذي أتاني ليلة أمس، أنبأني الفأل السيئ الذي كان رؤية كلب فوق السطح بأنني سأقع في مشكلة. وقد وقعت في مشكلة. وأما الآن، في هذه اللحظة، فقد حظي كل فرد من أفراد أسرتي، فضلًا

عن الكاهن، بقطعة دجاج يأكلها وبحساء غنيّ يشربه. يماثل هذا أيضًا ما كان في حلمي. حلمي المزيف... الحلم الذي كذبت في شأنه... لكن كل واحد منا حَظِيَ في ذلك الحلم بدجاجة كاملة. مع هذا...

لا مصادفة، لا قصة.

شلال من دموع السماء

نحن قوم نحب التجول والارتحال من مكان إلى مكان مستفيدين من أسلوبنا التقليدي في قطع الغابات وإحراقها لخلق حقول نزرع فيها، ثم ننتقل عندما ينتهي استخدام عطايا الأرض من أجل المحاصيل. إلا أن الحصول على أرض جديدة في نانوو، أو في أي جبل من جبال الشاي في مقاطعة تشيشوانغبانا صار أمرًا صعبًا خلال الأجيال القليلة الأخيرة، وهذا ما جعلنا (وجعل غيرنا أيضًا) نبقى هنا.

بقاء دائم مثلما يقول آبا مع أن هذه الفكرة تخالف طبيعتنا. إلا أن بيتنا، كمثل بقية البيوت كلها في قرية بئر النبع، بُني كي يكون بيتًا مؤقتًا. وقبل مولدي، كان أبي وجدي يذهبان إلى الغابة لجمع القش الذي هو سقفنا. يقطعان قصب البامبو، وينتزعان الأوراق عنه، ثم يربطان الأعمدة معًا بسيور مجدولة باليد فيصنعان منها جدرانًا يقيمان بها قسمين منفصلين، قسمًا للرجال وقسمًا للنساء. بيتنا مبني على ركائز من البامبو توفر لنا منطقة محمية تحت أقدامنا تعيش فيها حيواناتنا مع أننا لا خنازير لدينا ولا ثيران ولا بغال ولا جواميس مائية. ليس لدينا غير دجاجات يتساقط ريشها وديك واحد وبطتان اثنتان. مسكننا الرئيسي وأكواخ

المتزوجين حديثًا الثلاثة تشكل كلها البيت الوحيد الذي أعرفه، لكن في دمي شيء يجعلني تواقة إلى تركه خلفي والرحيل إلى موقع جديد مختلف حيث يستطيع أقاربي وضع مذبح أسلافنا وبناء مسكن جديد يكون كبيرًا ويسري عبره الهواء مثلما هي الحال هنا. تشتد هذه المشاعر القلقة خلال فصل الرياح الموسمية... خلال الشهور التي تنشط فيها الأرواح وتصير كلمتها هي العليا.

نساء أسرتنا وبناتها مجتمعات اليوم من حول حفرة النار في قسم النساء في البيت، وهن عاكفات على التطريز. تمنحنا النار دفئًا ونورًا في حين يساهم دخانها الخانق في إبعاد البعوض. الكنة الأولى والكنة الثانية ماضيتان في حديث خاص بينهما وقد تقاربت رأساهما. وكرات منفوشة ملونة على نهايات أسلاك مزينة بخيوط التطريز ممتدة على غطاء رأس الكنة الأولى كأنها مرج زهور برية. وعلى حاشية غطاء رأس الكنة الثانية خيط ثخين فيه كرات فضية مجوفة بحجم حبات البازلاء تتراقص على جبهتها كأنها خصلات شعر. أتململ في جلستي بينما تتفحص الكنة الثالثة تطريزي. عادة ما تكون سي-ته إلى جانبي وقت هذا التفتيش، لكنها صارت غير مسموح لها أن تزورني منذ مسلكي الرديء عند مركز استلام الشاي قبل زمن طويل.

يقطع وصول ديه-جا وحماتها جلسة بعد الظهر هذه. جاءتا بكمية من الفستق هدية لآما. لا يجوز أبدًا التأخر عن تعزيز العلاقة مع المرأة التي ستأتي بطفلك إلى العالم. لكن ديه-جا مسكينة. فعادة ما تصعب معرفة متى تكون المرأة حبلى. نخيط ثيابنا بحيث تكون فضفاضة بالقدر

الكافي لجعلها مريحة لنا، في حين تمنحنا طبقاتها الكثيرة دفئا إضافيا وتُظهِر ثراء الأسرة، ولها أيضًا قدرة ذكية على إخفاء ما تحتها. فضلا عن ذلك، تتعلم البنات من أمثالي، منذ طفولتهن، كيف يكون السلوك السليم أثناء الحمل بحيث يصير لدينا فهم عميق جدًّا لمسؤولياتنا عندما نتزوج. وعندما يأتي الوقت، علينا أن نكون خجلات من وضعنا وأن تكون وقفتنا منحرفة قليلا كي تبدو بطوننا أقل بروزا. بل إن لدينا أيضًا أسلوبا لبقا في الإشارة إلى المرأة المتزوجة التي تحمل طفلا في أحشائها بعبارة «شخص يعيش تحت آخر»، وذلك لأن على المرأة أن تطيع زوجها وألا تهرب منه أبدا. لكن من الصعب تخيل أن تهرب ديه ـ جا، التي هي تحت سي ـ دو، لأن انتفاخ بطنها بطفلها الأول كبير جدًّا يجعلها تبدو أشبه ببطيخة تُركت متصلة بأمها زمنا أطول مما ينبغي فصارت موشكة على الانفجار.

تقول آما وهي ترفع غلاية الماء عن النار، «لا بد أن هناك طفلا ضخما. إنه راغب في الخروج وفي إلقاء التحية على أبيه وأمه، وعلى والدي أبيه خاصة.

تبتسم ديه–جا ابتسامة سرور. «فليكن صبيًّا! فليكن صبيًّا! فليكن صبيًّا!».

أنا واثقة بأنها صادقة في مناجاتها هذه. وأستطيع أيضًا رؤية أن حماتها مسرورة بولائها مثلما كانت مسرورة بما قالته أمي من أن الطفل راغب في لقاء جده وجدته. الحمل هبة للقرية كلها. حتى أنا أستطيع معرفة متى تكون امرأة قد «وقعت في مشكلة» لأن غثيانها الصباحي

يبين ذلك. وقد علمتني آما كيف أعلم إن كان الطفل صبيًّا أم بنتًا اعتمادًا على طريقة نومه في رحم أمه. إذا كان الطفل أكثر ميلًا إلى الجهة اليمنى، فسوف يكون صبيًّا. وإذا كان أكثر ميلًا إلى الجهة اليسرى، فسوف يكون بنتًا. لا بد لي من تعلم هذه الأشياء إن أردت السير على خطى آما كي أصير ذات يوم قابلة القرية مثلما تريد لي أن أصير.

لا تكتفي ديه-جا بمواصلة دعائها، بل إنها حفظت أيضًا أصول إدخال طفلها ضمن قرية بئر النبع. وهي حريصة كل الحرص على عدم إطلاق الشتائم أو الأكل على شرفة مكشوفة، لأن من شأن هذين الأمرين كليهما أن يجعلا أنظار الناس منصبة عليها أكثر مما يصح. وعندما تقول: «سي-دو وأنا سنمتنع عن الجماع مدة عشرة أدوار بعد ولادة ابننا مثلما ينبغي أن نفعل»، تبتسم حماتها ابتسامة عريضة وترد بهذه الإجابة الفرحة اللائقة: «أباركك وأتمنى لك ولادة هيّنة».

تقول آما وهي تصب الشاي للجميع، «أمر حسن أن نرى سي-دو يفعل بدوره ما يتعين عليه فعله. يتجنب تسلق الأشجار لأن العالم كله يعرف أن من الممكن لهذا أن يجعل الطفل كثير البكاء، وهذا ما لا يريده أحد في القرية».

تقول والدة سي-دو مباهية بابنها: «وهو لا يشارك إلا في نشاطات الرجال، الصيد خاصة. يحرص على هذا كي يضمن أن يكون طفله الأول صبيًّا».

«إذًا، ينبغي أن يسير كل شيء على ما يرام». تخلص آما إلى هذه النتيجة مع أنني سمعتها تعبر للكنة عن قلقها لشدة انتفاخ بطن ديه-جا.

الكنة الثالثة تتجاهل هذا الحديث كله. ينعقد حاجباها وهي تعيد إحصاء القطبات في تطريزي. هذه ليست علامة حسنة. يُعتبر تطريزها أروع تطريز في قرية بئر النبع. وغطاء رأسها مزين برسوم مطرزة ومعلقة تمثل مخلوقات مختلفة لها معانٍ خاصة: ضفدع وقرد يلعبان معًا لإظهار التناغم، وعصفورة في منقاره دودة إشارة إلى حبها الأمومي، وفراشة طُرّز رأسها بحيث صارت كأنها زهرة خزامى وكأنها سرطان أصفر. ولمّا كانت شديدة البراعة في عملها هذا، فهي قادرة على المباهاة بخبرتها وإبداعها لمجرد استمتاعها بذلك.

ترفع رأسها أخيرًا بعد انتهاء الفحص وترمي بقطعة القماش في حجري. «عليكِ أن تفكي كل قطبة منها وأن تعيدي العمل من جديد». الكنة الثالثة هي المفضلة عندي، لكني أحس أحيانًا أنها لا تفعل شيئًا غير إصدار الأوامر إليَّ. لقد أنجبتْ صبيًّا! في يوم من الأيام، سأتزوج وأذهب إلى بيت زوجي. هذا سبب تسامح آما معي. إلا أن الكنة الثالثة تمضي بعيدًا في الشموخ بأنفها وفي استخدام لسانها الحاد. «لن يأتيك أي عرض زواج إذا ظللت معتمدة على تطريزك هذا».

ترفع آما يدها كي تمنعها من نطق أي كلمة أخرى. كلام غير لبق إلى هذا الحد لا يجوز قوله مباشرة.

تقول آما بنبرة قاطعة بحيث تضع حدًّا لأي مزيد من الكلام في هذا الأمر: «دعيها وشأنها. ستذهب البنت يوم زواجها حاملة مهرًا ثمينًا. وسوف تجد شخصًا راغبًا في الزواج بها، حتى لو لم يكن ذلك إلا من أجل المهر».

الغرفة صغيرة، ولا شك عندي في أن آما ترى تلك النظرات التي سرت بين الكنات الثلاث وبين جيراننا. صحيح أن عندي مهرًا، لكنه ليس ثمينًا. إنه بستان شاي في مكان بعيد مرتفع، مرتفع، مرتفع في الجبل آل إلى أمي من نساء في عائلتها. موقعه سر لأن هذا ما تقتضيه التقاليد ولأن البستان نفسه يجلب سوء الطالع لمن يعتدي عليه، مثلما يقال. بل إن من الناس من يمكن أن يعتبره ملعونًا...

«تعالي واجلسي معي، يا بنت!». تقول آما هذا، ثم تتابع كلامها في ذلك الصمت الغريب... «أود أن أعطيك شيئًا».

هل يعقل أن يكون ذلك أهم مقتنياتها وأغلاها، السوار الفضي ذو التنينين اللذين يواجه كل منهما الآخر أنفًا لأنف، السوار الذي توارثته النساء في عائلتها إلى أن وصل إليها؟ لا... لأن يدها ترتفع وأصابعها تتراقص خفيفة على غطاء رأسها. لقد عملت عليه سنين كثيرة، وأضافت إليه خرزات وكرات فضية وأجراسًا وأجنحة خنافس. قد يكون في غطاء رأس الكنة الثالثة تطريز ممتاز، لكن غطاء رأس آما هو الأروع حقًّا في قريتنا، غطاء رأس لائق بمكانة القابلة. تعثر أصابعها على مبتغاها. تستخدم مقصًّا صغيرًا تقطع به شيئًا، ثم تخفي ذلك الكنز في يدها. تكرر الأمر مرتين قبل أن تضع المقص على الأرض. يزداد الصمت في الغرفة عمقًا وتنتظر بقية النساء رؤية ما ستفعله آما بعد ذلك.

«الآن، بعد أن تجاوزت سن الخامسة والأربعين عندما تكف المرأة عن التفكير في ولادة الأطفال، حان الوقت لأن ينصب تركيزي على ابنتي الوحيدة، على المرأة، الزوجة، الأم التي ستصيرها. أعطني يدك!».

تشرئب رؤوس النساء كأنهن إوَّزات محلقات في السماء. تضع آما واحدة من هداياها الثمينة في راحة يدي الممدودة من غير أن تكشف عنها. إنها قطعة نقدية فضية على واحد من وجهيها كتابة أجنبية وعلى الوجه الآخر صورة معابد مصغّرة خيالية.

تقول موضحة: «هذه القطعة من بورما. لا أعلم ما تقول هذه الكتابة التي عليها».

لقد رأيت بورما على الخريطة في مدرستي. إنها أقرب البلاد إلينا، لكن لا فكرة عندي عمَّا تعنيه هذه الحروف البورمية.

«ثم، خذي هذه الصدفة!».

في الناحية الأخرى من الغرفة تنفخ الكنة الأولى الهواء هسيسًا عبر أسنانها المطبقة. لقد امتدحت هذه الصدفة أمام آما... مرات كثيرة. أظنها كانت تتوقع دائمًا أن تؤول إليها. خيبة الأمل ظاهرة على وجهها، لكن من غير الجائز لها ولبقية الكنات تقاسم الزينات التي على غطاء رأس أمي منذ الآن.

«وهذه الأخيرة واحدة من أفضل الزينات عندي. إنها ريشة ارتحلت على «طريق الشاي والخيل» من التيبت إلى جبلنا. فكري في هذا الأمر، يا بنت! ارتحلت هذه الأشياء عبر محيطات وأنهار، واجتازت جبالًا، ومضت مع طرق التجارة. سرعان ما تصيرين قادرة على تعليقها على غطاء الرأس الذي تتمرنين على صنعه والذي سيكون علامة على أنك بنت في سن صالحة للزواج».

يخفق قلبي لشدة فرحه، لكنني أعلم أن السبب الوحيد الذي جعلها

تفعل هذا كان رغبتها في إبعاد الحديث عن قطعة الأرض المنكودة التي ستكون مهري.

*

بعد أسبوع من ذلك، يسري في القرية نبأ يقول إن المخاض قد جاء ديه-جا. حماتها تعتني بها مثلما ينبغي أن تفعل في الساعات الأولى من المخاض. تُمضي آما الصباح في البحث في رفوفها وفي انتقاء أدوية وأدوات من سلال وعلب مختلفة ووضعها كلها في كيسها بحيث يكون كل شيء جاهزًا عندما يأتي سي-دو لأخذها. يتكسر الهدوء الحذر عندما يُسمع صوت أحدهم يجري صاعدًا درجات السلم المفضي إلى شرفة الرجال. وحتى قبل أن يدق الأخ الثالث على الجدار الفاصل بين قسمي البيت، تنهض آما وتحمل كيسها. الكنة الأولى منتظرة عند الباب حاملة رداء آما المصنوع من لحاء الأشجار وأوراقها.

«أعطيه للبنت!». تقول آما هذا وتتناول رداء آخر معلقًا من المشجب. تعثر عليَّ عيناها: «سوف تأتين معي اليوم. أنت كبيرة بما فيه الكفاية. إن كنت ستصيرين قابلة، فعليك أن تباشري التعلم منذ الآن».

نظرت الكنات الثلاث إليَّ بمزيج من الاعتزاز والخوف. وكان إحساسي مثل إحساسهن. فكرة أن ألبس رداء آما كافية وحدها لتجعل جلدي يتنمّل لشدة الإثارة وكأن نمالًا تجري على ذراعي وساقي، صاعدة هابطة،... وأما مساعدتها في الولادة!؟

تسألني آما: «هل أنت مستعدة؟». لا تنتظر إجابتي. تفتح الباب المؤدي إلى شرفة النساء. كان سي-دو دار من حول البيت وصار الآن

واقفًا في الدرب الموحل الذي يمضي وسط القرية. يفرك راحتيه معًا متلهفًا، مستعجلًا. جعلتني رؤيته مضطرة إلى مقاومة رغبتي في أن أجري عائدة إلى البيت. لا بد أن آما ترى هذا، فهي تقول لي بصوت آمر: «هيا!».

نذر الشؤم مقلقة جدًّا. إنه موسم الأرواح. والسماء ممطرة. وطفل ديه-جا آت أبكر مما كان متوقعًا مع أن تضخم بطنها كان كبيرًا منذ عدة أدوار. ما من علامة دالة على التفاؤل غير أن هذا اليوم هو يوم الجرذ، فالجرذان تعيش في الوديان الخصيبة. ينبغي أن يكون هذا عونًا لديه-جا في الساعات القادمة.

مع اقترابنا من منزل أسرة سي-دو، أرى سي-ته تسترق النظر من خلف الباب. تتعزز ثقتي فور رؤية ابتسامتها الجريئة. آما تواصل السير في اتجاه كوخ المتزوجين حديثًا، وأنا معها. يتركنا سي-دو عند أول درجات السلم. من حقائق الشمس والقمر أن الزوج الذي يرى زوجته أثناء ولادتها قد يموت نتيجة ذلك. صرنا داخل الكوخ. خالات سي-دو الكبيرات تساعدننا في خلع رداءينا. تنفض آما قطرات المطر عن رأسها وتجول عيناها في الغرفة العابقة بدخان النار أكثر مما هو بيتنا. والدة سي-دو جاثمة عند حصيرة الولادة. يداها تحت ديه-جا، تدلكانها.

«تحركي!». تختصر آما كلماتها حتى لتكاد تلغيها كلها. لقد أزاحت جانبًا تلك الأجزاء من نفسها التي هي ابنة وأخت وزوجة وأم وصديقة. هي الآن موجودة هنا لأنها قابلة.

في حركة أحسستها حركة واحدة فقط (مثلما تنحني معًا ثلاث أشجار في مهب الريح)، تنزاح والدة سي-دو صوب اليمين مبتعدة عن

حصير الولادة وتحتل آما مكانها جاذبة إياي كي أظل معها. حرت في ما كانت والدة سي-دو تفعله لحظة دخولنا. عيون كثيرة تنظر بحركة تلقائية بين ساقي ديه-جا. تحتها بِركة من دم ومخاط. واه! لم أتوقع هذا! ترفرف عيناي وتصعدان إلى وجه ديه-جا. فكاها مشدودان ألمًا، ووجهها محمر لشدة الجهد، وعيناها مغمضتان إغماضًا محكمًا. وعندما يبدو أن ذلك الذي كان يحدث قد تراجع، تتحرك يدا آما سريعًا فتمضيان أولًا بين ساقي ديه-جا ثم تعلوان إلى بطنها بسلسلة من حركات ضاغطة.

تقول آما: «ابنك يرهقك كثيرًا».

أهي كلمة آما -ابنك- أم طريقتها البهيجة في نطقها؟ ... وكأن وضع ديه-جا غير مختلف عن وضع أي امرأة تلد طفلها في جبل نانوو، لكن ديه-جا تستجيب بابتسامة.

تفرش آما قطعة قماش زرقاء مطرزة فوق حصير الولادة. تضع على قطعة القماش سكينها وخيطًا متينًا وبيضة.

تقول آما: «ديه-جا، أريدك أن تجرّبي وضعية مختلفة. اجثمي على يديك وركبتيك. صحيح. هكذا!. هذه المرة، عندما يأتي الألم، أريد أن تستنشقي نفسًا ثم تطلقيه بطيئًا. لا تحاولي دفع الطفل».

انقضت ثلاث ساعات ولم يحدث شيء. تجلس آما القرفصاء وتعبث أصابعها بسوار التنين عند معصمها، وتفكر.

«أظن أن علينا استدعاء الشامان وكاهن الأرواح».

تتجمد والدة سي-دو وخالته مثلما يتجمد أيل فوجئ في الغابة.

«الروما والنيما؟». في صوت والدة سي-دو ذعر غير خافٍ أبدًا.

تأمرها: «الآن، من فضلك!».

وبعد عشر دقائق، تعود والدة سي-دو ومعها الرجلان. لا يضيعان وقتًا. يدخل النيما غشيته، لكن آلام ديه-جا لا تتوقف، بل تزداد. تظل عيناها مغمضتين. لا أستطيع تخيل الأهوال التي لا بد أنها تراها على باطن جفنيها. عذاب أحمر. تريحني قليلًا معرفة أن هذا العذاب لا تمر به كل امرأة.

وأخيرًا، يعود النيما من غشيته. «الخطيئة لا يمكن إخفاؤها. لحقت إهانة بروح خارجية لأن ديه-جا ارتكبت غلطة في نذر من النذور المكرسة لأسلافها».

لا يحدد النيما خطيئة بعينها، لكن ذلك يمكن أن يكون أي شيء. نحن نقدم النذور إلى الجبال والأنهار والتنانين والسماء. ونحن نقدم أيضًا، في كل دور، نذورًا من أجل أسلافنا. ثمة طعام في تلك النذور كلها، ومن الممكن أن يكون واحد منها لم يُقسم قسمة صحيحة أو يكون كلبٌ قد أخذ جزءًا من النذر وأكله تحت البيت.

يتولى الروما الأمر. يطلب بيضة... ليست البيضة الموضوعة على حصير الولادة، بل بيضة جديدة. يطلق أمره: «غير مسلوقة».

يؤتى بالبيضة فيمر بها ثلاث مرات على جسد ديه-جا ويقول مخاطبًا الروح: «لا تأكلي في هذا البيت بعد الآن، ولا تشربي! عودي إلى موضعك!».

يضع البيضة في جيبه، ثم يخاطب ديه-جا مباشرة: «أنت في مخاض مستمر منذ زمن طويل، وقد صرنا الآن في يوم الجاموس. الجاموس

يساعد البشر في عملهم. والآن، سوف تساعدك روح النهار في كنس الخبث من هذه الغرفة».

تطلق ديه-جا أنينًا في حين تساعدها كل من حماتها وأمي في الوقوف على قدميها، لا تستطيع الوقوف منتصبة القامة. تجران ديه-جا عبر الغرفة إلى حيث المكنسة. أفتح فمي وأكاد أنطق بكلمات اعتراض. تلمحني آما فترمقني بنظرة شديدة الصرامة. أطبق فمي. أظل واقفة من غير حول في حين يراقب كل من النيما والروما ديه-جا كي يتأكدا من أنها تكنس كل زاوية من زوايا الغرفة. إنها عارية تحت قميصها، والسائل المدمى جارٍ على ساقيها.

ينصرف النيما والروما عندما يطمئنان أن الغرفة صارت خالية من الروح الشريرة، وذلك بعد تلقيهما هدايا من مال ورز... والبيضة التي في الجيب. تتهاوى ديه-جا على حصير الولادة فتسألها آما: «هل لديك قوة لأن تجلسي القرفصاء؟» تطلق ديه-جا أنينًا شاكيًا وهي تفعل ما قيل لها... «فكري في أن طفلك ينزلق خارجًا من جسدك كأنه سمكة رطبة زلقة».

أصوات فظيعة تطلقها ديه-جا... ككلب يجري خنقُه. تواصل آما تشجيعها وتواصل تدليك الفتحة التي سيخرج منها الطفل. كل شيء شديد الحمرة أمام عيني، لكني لا أشيح بوجهي. لا أستطيع الإشاحة بوجهي بعد أن خيّبت أمل آما. لقد أعطتني هذه الهدية، وعليَّ أن أحاول جعلها ترى أنني أستحقها. يتوتر جسد ديه-جا بأسره، وتدفع بكل قوتها. عندها، تمامًا مثلما قالت آما، إنه سيحدث، ينزلق الطفل خارجًا ويسقط

على الحصير. تنهار ديه–جا ساقطة على جنبها. تحدق النساء الكبيرات إلى الطفل. إنه صبي، لكن أيًّا منهن لا تتحرك كي تمسه أو ترفعه.

تقول آما: «*لا يكون الطفل قد وُلد حقًّا قبل أن يصيح باكيًا ثلاث مرات*».

الطفل أصغر كثيرًا مما توقعت مع أن بطن ديه–جا كانت كبيرة جدًّا وهو داخلها. ونحن نحصي: عشر أصابع في قدميه، وعشر أصابع في يديه، وأطرافه لا ينقص منها شيء... ساقان متساويتا الحجم، وذراعان متساويتا الحجم. ما من شفة مشقوقة. تام الخلقة. سمعت في ما مضى كلمات مهموسة تتحدث عمّا يمكن أن يحدث إذا كان المولود «غلطة بشرية». سيكون على سي–دو أن...

آخر الأمر، يصرخ ذلك الشيء الصغير باكيًا. صوت كصوت عصفور في الغابة.

تتلو آما الكلمات الطقسية: «*الصرخة الأولى للبركة*».

يستنشق الهواء إلى رئتيه الجديدتين. بكاؤه هذه المرة يكون أشد من ذي قبل.

«*الصرخة الثانية للروح*».

ثم يأتي عويل باكٍ يصم الآذان.

«*الصرخة الثالثة لطول العمر*». تبتسم آما وترفع الصغير وتقدمه إلى جدته. تربط حبله السري بالخيط وتقصه بالسكين. تواصل ديه–جا الدفع مرة، أو مرتين، فيخرج ما تدعوه آما «الصديق الساكن مع الطفل» ويسقط على حصير الولادة. كتلة حمراء لزجة. توضع هذه الكتلة جانبًا

كي يأخذها سي-دو ويدفنها أسفل بيت والديه، تحت مذبح الأجداد بالضبط.

تستنشق آما نفسًا عميقًا وتهم بإعطاء الطفل اسمه المؤقت كي لا تحتله الأرواح الشريرة قبل أن يمنحه والده اسمه الحقيقي، لكن ديه-جا تطلق أنينًا مفاجئًا. ينبئني التعبير الذي أراه على وجوه النساء الكبيرات بأن ثمة أمرًا شديد السوء. تجذب ديه-جا ركبتيها ويتكور جسدها. تتحسس آما بطن ديه-جا وتسحب يدها سريعًا كأن نارًا أحرقتها أسمعها تتمتم: *«تساو كاو»*. «توأمان. غلطتان بشريتان».

تضع خالة سي دو يدها على فمها مذعورة. تُسقط والدة سي-دو الطفل الأول على الأرض. يعبّ هواء الغرفة المشبع بالدخان عبًّا شديد الهياج، ويلوّح في الهواء بيديه الصغيرتين كأنه باحث عن أمه. فماذا عن ديه-جا؟ هي في ألم شديد، لا تدرك أن أسوأ ما يمكن أن يقع قد وقع. تخرج والدة سي-دو وخالته كي تحملا إليه النبأ المخيف. أتحرك فوق الحصير، وأود أن أجري هاربة، لكن آما تمسكني بذراعي: «ابقي هنا!».

الطفل المولود أولًا راقد وحيدًا، عاريًا، غير محمي. والمولود الثاني -بنت- يخرج سريعًا. لكننا لا نمسها. لا نحصي صرخاتها.

تقول لي آما: «التوائم أكبر المحرمات في ثقافتنا لأن الحيوانات والشياطين والأرواح وحدها من تلد هذه القمامة. الغلطة الحيوانية تخالف الطبيعة أيضًا. لكنها غلطة مختلفة: إذا وضعت خنزيرة مولودًا واحدًا فقط، فلا بد من قتلها على الفور. وإن وضعت كلبة جروًا واحدًا، فلا بد من قتلها على الفور. ولا يجوز أكل شيء من ذلك اللحم.

وأن تلد امرأة توأمين -لم يحدث هذا من قبل في قرية بئر النبع- فهذه مصيبة تنزل لا بالأم والأب والأقارب فقط، بل بقريتنا كلها».

ومن الخارج، أسمع أصوات صرخات وبكاء.

يدخل سي-دو الغرفة. دموعه ممتزجة بقطرات المطر على وجنتيه. في يده قصعة، وأصابعه تعجن محتوياتها بإيقاع مخيف.

تقول له آما بصوت حزين: «أنت تعلم ما ينبغي فعله».

ينظر سي-دو إلى ديه-جا الراقدة على الأرض. وجهه شاحب كوجهها. تحاول ابتلاع شهقاتها، لكنها لا تفلح في ذلك. لا أكاد أسمع كلماتها: «آسفة. آسفة».

يجثو سي-دو عند الطفل الأول.

تأمرني آما: «أغمضي عينيك! لست في حاجة إلى رؤية هذا».

ها هي ترحمني أخيرًا، لكن أجفاني ترفض أن تنطبق.

تتساقط دموع سي-دو على الصبي الوليد الذي لا يزال يتلوى ويصرخ بتلك الطريقة الغريبة الأشبه بالفواق. وديه-جا تنظر إلى زوجها بعينين فائضتين حزنًا. وأنا أحدق أيضًا فأراه يغرف من القصعة قليلًا من مزيج الرماد وقشور الأرز ويحشوه، حشوًا لطيفًا، داخل فم ابنه ومنخريه. يتلوى الوليد بضع ثوانٍ أخيرة يائسة. جسدي كله يرفض ما أراه. كيف يحدث هذا؟ لا يمكن أن يحدث هذا.

ينتقل سي-دو إلى الطفلة الوليدة.

«لا!» صوتي خافت، ضئيل.

يأتيني صوت آما الحاد: «يا بنت!».

«لكن، لا يمكنه...»

راحة يد آما المفتوحة تهوي سريعًا وتفاجئني حين تصطدم بوجهي فأكاد أسقط على الأرض. صدمني الألم اللاسع، لكنه لم يخدّر عقلي مثلما خدرته الصفعة نفسها لأن الأطفال، في ثقافتنا، لا يُضرَبون ولا يُرفَسون.

تقول بنبرة فظة: «نحن من الأكها. وهذه هي شريعتنا. إن كنت ستصيرين قابلة، فعليك أن تلتزمي عاداتنا. ينبغي إرسال كل غلطة بشرية إلى بحيرة الدم الغالي العظيمة. هكذا نحمي قريتنا من المعتوهين أو المشوهين أو ممن يكونون صغارًا جدًّا فلا يستطيعون شيئًا غير إطالة أمد موتهم. ونحن القابلات من نحفظ قومنا أنقياء متسقين مع صلاح الطبيعة، وذلك لأن السماح لحالات الأغلاط البشرية بالجماع يؤدي، مع الزمن، إلى إمكانية أن تصير القرية كلها مسكونة بمن هم على شاكلتهم».

كلماتها موجهة إليَّ، لكن فيها أيضًا تشجيع لسي-دو. أدفن وجهي في تنورة آما عندما أراه يركع إلى جوار وليدته الصغيرة. يد أمي على كتفي أحسها ثقلًا يبلغ ألف كيلو غرام. يكون موت الوليدة أسرع من موت شقيقها، لكن هذا لا يجعل الموت أقل هولًا. إن كانت لكل كائن حي روح مثلما نتعلم جميعًا أفلا يكون لهذين التوأمين روحان أيضًا؟ إن كان الرب قد خلق شجرة تمثل كل واحد من الأكها، فهل سقطت الآن شجرتان في عالم الأرواح؟ ألا ينبغي أن نسمع صوت تحطمهما ورفرفة الطيور الهاربة وزعيق السعادين المفزوعة؟ عندما ترفع آما يدها

عني آخر الأمر، أحسني صرت خفيفة جدًّا كأن من الممكن أن أطفو إلى السقف فأمر عبر القش الذي يغطيه ماضية صوب النجوم.

تضع يدها في سلتها وتخرج منها قطعة قماش تقدمها إلى سي-دو. يفرد القماش صامتًا ويضع الوليدين عليه جنبًا إلى جنب، ثم يغطيهما. كيف يعلم ما ينبغي فعله؟ كيف علم ما ينبغي عليه فعله في هذا الأمر كله؟

تقول له آمرة: «سي-دو، انتبه إلى وجهك! عندما تخرج، عليك أن تجعل الجيران يرون شدة غضبك وحنقك على الأرواح التي سمحت لهذا الأمر الفظيع بأن يحل لعنة عليك وعلى أسرتك. هكذا هي عادتنا. التزامك بها سوف يعينك».

بحركة خشنة، يمسح الدموع عن وجنتيه بظاهر يديه، ثم يومئ لزوجته برأسه ويحمل الحزمة تحت ذراعه ويخرج.

تأمرني آما: «انظري إليه!». وعندما تضيف: «لا تخطئي في هذا الأمر! اذهبي وتأكدي من أن أحدهم سيلاقيه. ينبغي أن يكون معه شخص آخر عند مضيه في الغابة». أعلم أنها لا تزال غاضبة مني لمحاولتي إيقافه قبل قليل.

أمضي مسرعة صوب الباب. المطر منهمر شلالًا من دمع السماء. اثنان من الكبار واقفان في الطين عند أسفل السلم. سي-دو لم يعد ذلك الرجل منكسر القلب الذي كان معنا في الكوخ. يخطو نازلًا الدرجات شادًّا كتفيه، نافخًا صدره. يبلغ الرجلين فيشير بيده اليمنى إشارة غاضبة. لا تصلني كلماته عبر حبال المطر. يحف به الرجلان الكبيران من الناحيتين ويسيران معه خارجين من القرية جميعًا.

الغرفة الآن هادئة جدًّا. تبكي ديه-جا من غير صوت وترسم دموعها بقعة على حصير الولادة، لكن عذابها لم ينتهِ بعد. دم يتسرب من حيث خرج الوليدان من جسدها. تضع آما على ذلك المكان حفنة من تراب وأوراق أشجار، لكن ذلك السائل الأحمر يعاود التسرب بعد لحظة واحدة. تجول عينا آما في الغرفة إلى أن تجدانني.

تأمرني: «يا بنت، عودي إلى البيت راكضة. اجلبي من فوق الرف العلوي في غرفة النساء ثالث سلة من جهة اليسار».

وفي الخارج طوفان. الدرب الذي يعبر القرية صار نهرًا موحلًا. لا أرى إنسانًا، ولا حيوانًا.

تدير كنّاتي ظهورهن إليَّ ويحجبن عيون أطفالهن عني لحظة دخولي غرفة النساء. آخذ السلة التي طلبتها آما وأجري سريعًا إلى كوخ المتزوجين حديثًا. جلد ديه-جا صار الآن أشد شحوبًا، لكنها كفَّت عن البكاء. وإلى جانبها، صارت أوراق الأشجار التي خضّبها الدم كومة صغيرة على الأرض. لقد أتت ديه-جا إلى العالم بغلطتين بشريتين اثنتين، وإذا ماتت الآن فسوف يكون ذلك انتصارًا أكبر تحققه الأرواح الشريرة.

تبحث آما في السلة.

تقول بصوت خافت: «درع البانغولين»[١].

لست أدري إن كانت تكلمني أو تكلم ديه-جا. لعلها تخاطب الأرواح! ... تكاد هذه الفكرة تفزعني مثلما أفزعني كل ما جرى حتى الآن.

---

(١) حيوان آسيوي صغير له ما يشبه درعًا من حراشف أو قشور aaidv.

تدعك آما الدرع بين يديها كأنها تريد أن تدفئه. ثم تحرك يدها به، كأنها تعجنه، على بطن، ديه-جا. تسألني: «هل ترين ما أفعله الآن؟ خذي الدرع. واصلي دفعه على اللحم في دوائر لطيفة لمساعدة رحمها في التقلص».

ترتعش يدي وأنا أحرك ذلك الدرع على بطن ديه-جا. أحس اللحم إسفنجيًّا متألمًا تحت صلابة الدرع الصقيلة. لا يزال الدم يخرج منها ويتجمع تحتها. أحوّل عيني فأرى آما تفتح علبة صغيرة جدًّا.

تقول لي: «أريد أن تنتبهي جيدًا إلى ما أفعله الآن». أراها تخرج من العلبة خصلًا من شعر كانت مربوطة في حلقة صغيرة كي لا تتشابك معًا... «هذه الشعرات مأخوذة من امرأة قتلتها صاعقة».

تضع مصباح الزيت بيننا، ثم تحرق الشعرات بشعلته وتجعل رمادها يسقط في فنجان فيه ماء. وبعد احتراق الشعر كله، تخاطب ديه-جا وهي تناولها الفنجان.

«اشربيه كله. عند فراغك من شربه، يتوقف النزيف وتحسين تحسنًا».

يتوقف النزيف، لكن لعل ديه-جا ما عاد فيها دم تنزفه. لا أستطيع القول إنها تحس تحسنًا.

تخرج آما من كيسها قطعة حجر كلسي صغيرة مصقولة حتى صارت مستوية ناعمة. تضعها في راحة يد ديه-جا. «لن يفلح شيء في تخليصك من عذاب حليبك الذي سيأتي من غير أن يكون لديك طفل يرضعه، لكن الألم يصير أخف إذا دلّكت ثدييك بهذا الحجر». تصمت

آما لحظة. وعندما تنطق أخيرًا، يكون ذلك كأنها تبلغها أسوأ خبر... «سيكون عليك أن تنهضي عمَّا قريب».

أنا حائرة لأن كل امرأة في قريتنا تنهض واقفة بعد الولادة. رأيت كنّاتنا يفعلن ذلك. تساعدهن آما في وضع مواليدهن. وتنتظر معهن من أجل طقس الصرخات الثلاث. ثم ينهضن ويعدن إلى العمل. لكن ديه-جا لم تلد طفلًا تنقصه إصبع أو طفلًا أعمى (ينبغي أيضًا أن يخنقه والده)، بل توأمين اثنين، أي أسوأ حالة من حالات الغلطة البشرية. وأنا الآن مذعورة مما سيحدث بعد ذلك.

«أظن أنك ستظلين تعانين ألمًا ونزفًا من هنا». تمس آما بطن ديه-جا مسًّا لطيفًا. ثم تفك قطعة قماش مربوطة وتخرج منها عش عصفور. تنظر إليها ديه-جا بعينين غائرتين وهي تكسر قطعة من ذلك العش لا يزيد كبرها عن رأس إصبعها. تقول لها آما: «هذا من عش طائر أبي قرن العظيم. يبني هذا الطائر منزله من تراب ومن دماء فرائسه. التراب والدم مفيدان في هذه الحالات. وأخيرًا...». أراها تأخذ البيضة التي كانت على بساط الولادة طوال هذا الوقت... «عليك أن تأكلي هذه البيضة. إنها بيضة طائر «نسيان القلب». ينبغي أن تعينك على نسيان ألم الولادة. وقد تعينك أيضًا على نسيان ألم...».

لا حاجة إلى إكمال الجملة.

نظل طوال الليل جالستين مع ديه-جا. وخلال تلك الساعات الطويلة، تظل خيبة أمل آما إزائي مشعة من جسدها كله كأنها نار خفيضة. لعلها كانت قادرة على التغاضي عن هفواتي لأنها جزء من

تعليمي. لكن محاولتي منع سي-دو من أداء واجبه يمكن أن تكون خرقًا لشريعة الأكها، وهذه غلطة قد لا يزول أثرها عني. أكره نفسي لأنني خذلت آما، لكنني أكره نفسي أكثر لأنني لم أوقف سي-دو. وجود هاتين الفكرتين معًا في رأسي في وقت واحد يجعلني واحدة من الأكها غير جيدة تمامًا.

تعلن الديكة طلوع الصباح، ويبدأ الضياء تسربه عبر جدران البامبو. وصوت كاهن الأرواح ينادي عبر انصباب المطر الذي لم ينقطع.

«يا أهل قرية بئر النبع، تعالوا!».

نفعل ما طُلب منا، ونترك ديه-جا وحدها. كاهن الأرواح واقف على شرفته، عصاه بيده، يلوّح للجميع مشيرًا إليهم بأن يتجمعوا. سي-دو والشخصان الكبيران يظلان واقفين على مسافة صغيرة من الآخرين. لا يزال الغضب باديًا على سي-دو، تمامًا مثلما أوصته آما.

يرفع الروما ذراعيه وهو يخاطب الحشد. «قوة عظيمة أرسلت إلى قريتنا ولادة غير طبيعية. هذه مصيبة كبيرة نزلت بكل من سي-دو وديه-جا. مصيبة كبيرة نزلت بنا كلنا. فعل سي-دو ما ينبغي عليه فعله. لقد أحرق الغلطتين في الغابة. لن تقض روحاهما مضاجعنا بعد الآن. سي-دو رجل طيب من أسرة طيبة، لكننا نعلم جميعًا ما ينبغي أن يحدث بعد هذا. ضرب أرض الغرفة بعصاه ثلاث مرات... «ستنفذ قريتنا امتناعًا طقسيًّا يستمر دورًا واحدًا. ينبغي أن ينتبه الجميع إلى أذرعهم وسيقانهم...» (هذه طريقته في القول إن المجامعة صارت غير جائزة)... «وعلينا أن نمد العروق السحرية، أن نمدها متصلة طرفًا بطرف كي

نحيط بها قريتنا فتحمينا من مزيد من الأرواح الشريرة. لن يذهب الأطفال إلى المدرسة. و...».

تنتحب سي-ته ووالدة سي-دو وتدفن كل منهما وجهها بين كفيها. والد سي-دو يحدق إلى الأرض.

ينهي الروما كلامه بالقول: «والدا الغلطتين البشريتين ينبغي طردهما وتدمير بيتهما».

يدخل كل من سي-دو والروما والنيما كوخ المتزوجين حديثًا. ويظل بقيتنا في الانتظار. تشتد الريح وتصفع وجوهنا بالمطر. يخرج الروما حاملًا قوس سي-دو. وبعد ذلك، يرفع النيما أساور الزفاف الفضية، أساور ديه-جا كي نراها جميعًا. من حقهما اختيار ما يريدان أخذه مقابل خدماتهما،... لكنهما أخذا أثمن ما لدى سي-دو وديه-جا من ممتلكات.

يخطو سي-دو جانبًا. حزمة يحملها على ظهره، وذراعاه محملتان بكل ما استطاع حمله. تظهر ديه-جا من خلفه. حقيقة أنها غير مرتدية غطاء رأسها واحدة من أكبر الأمور الصادمة التي أراها حتى الآن.

سرعان ما يغرق المطر شعرها محولًا إياه إلى خصلات ملتصقة بوجهها وملابسها. على ظهرها سلة قطاف الشاي التي تستخدمها، والقطعة الخشبية ملتصقة بجبهتها كي تثبت الحبلين اللذين يحملان ثقل ممتلكاتها المجموعة في السلة. تخطو خطوتين ثم تترنح. أود أن أساعدها، لكن آما تمسكني. يسير سي-دو وديه-جا صوب بوابة الأرواح، ينادي الروما من خلفهما: «يا أرواح الفوضى والخراب، غادري هذه القرية ولا تعودي أبدًا!».

ومع ابتعاد الاثنين وغيابهما عن أنظارنا، ينتقل رجال القرية إلى العمل. يتم هدم كوخ سي-دو وديه-جا في غضون دقائق معدودة. وبعد ذلك، يذهب الرجال إلى الغابة جماعات كي يأتوا بالعروق السحرية من نبتة الزنجبيل ذات السوق الطويلة والأزهار الحمراء لأن الأرواح تخشاها كثيرًا. سيجلبونها كي يحيطوا بها قرية نبع الربيع كلها.

تقول آما: «هل ترين، يا بنت؟ هذا هو السبب في أن القاعدة القاضية بضرورة ولادة الأطفال في كوخ المتزوجين حديثًا قاعدة حسنة. من غير هذا، يصير ضروريًّا هدم بيت أسرة نفسه».

«أين سيذهب سي-دو وديه-جا؟ أين سينامان؟»

«ما أكثر أسئلتك!».

أجذب كمها. «آما، هل سيعودان يومًا؟»

تفرقع بلسانها كي أرى أنها ضاقت ذرعًا، ثم تدفعني عنها بظهر يدها. وأنا في ارتباك شديد... أتمنى أن أدفن وجهي في تنورتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رفة عين السنونو

تلتزم القرية طقس الامتناع مدة اثني عشر يومًا. جلب الماء في يوم النمر غير جائز. وفي يوم الحمار، يرسلونني كي أجلب الماء وذلك لأن الحمير تحمل الأشياء. وفي يوم الأرنب أخرج لجمع الحطب للنار (لم يتوقف المطر لحظة واحدة). تختار آما ألّا توليني اهتمامًا وألا تمتدحني أبدًا فيلفني صمتها كأنه سحابة ثقيلة. أعيش في بيت فيه بشر كثيرون، لكن أحدًا منهم لا يكلمني. لم أكن في حياتي كلها وحيدة هكذا، ولم أحس هذا القدر من العزلة.

وفي اليوم الرابع، نسمع صوت كاهن الأرواح مناديًا: «حان وقت تقديم النذور. أريد تسعة أكياس من الحبوب، وتسعة خنازير، وتسع دجاجات، وتسعة كلاب». لكن عائلة سي-ته ليست لديها تسعة خنازير. بل إن قريتنا كلها ليست فيها تسعة خنازير. تقدم عائلة سي-ته ما لديها من حبوب، وأربعة خنازير، ودجاجاتها كلها، في حين يمضي الشباب في القرية كي يمسكوا كلابًا شاردة. ومع نهاية هذا الطقس، تكون أسرة سي-ته قد فقدت جزءًا كبيرًا مما تملك.

*

تبدو الحياة كأنها عادت إلى طبيعتها المعتادة بعد انتهاء ذلك الدور الكامل من الامتناع الشعائري. تعود النساء إلى التطريز والحياكة وغير ذلك من الأعمال، ويعود الرجال إلى تدخين الغليون والصيد وتبادل القصص والحكايات. لكن مولد التوأمين وما جرى لهما (مع أنه تقليدي) غيّرني تغييرًا لا عودة عنه مثلما يحدث عند نقع قماش في دلو من الأصباغ. لا أستطيع قبول ما كنت شاهدة عليه. لكن على لحمي وعظامي اتباع المسار المرسوم من أجلي مع أن روحي قد تغيرت، ويعني ذلك المسار أيضًا عودتي إلى المدرسة.

لم يتعلم آما وآبا القراءة أو الكتابة. وقد بدأ إخوتي العمل مع آبا منذ سن الثامنة. يعني هذا أنهم، بدورهم، لا يعرفون الكثير عن القراءة ولا عن الكتابة. أنا أول شخص في الأسرة يبلغ هذه المرحلة المتقدمة في المدرسة الابتدائية. أحببت دائمًا أن أذهب إلى المدرسة، لكني أحسها اليوم كأنها ملجأ لي. تبدو المدرسة المكونة من غرفة صف واحدة (قابعة عند نهاية قطعة أرض موحلة) شبيهة جدًّا بالبيوت على جبل مانوو: غرفة قائمة على ركائز، مبنية من البامبو والقش، تنيرها من الداخل حفرة نار ينبعث منها الدخان. في المدرسة تسعة عشر تلميذًا تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشرة، وكلهم من قرى مبعثرة في هذه الناحية من الجبل. تتشارك ثلاث فتيات كبيرات حصيرًا واحدًا في حين يجلس ثلاثة أولاد كبار معًا على حصير آخر في الجهة المقابلة من الغرفة. ويتزاحم الأطفال الصغار ويتدافعون على حصير خاصٍّ بهم. وأنا أجلس مع سي-ته. لم نتحدث بعد عمّا وقع لشقيقها ديه-جا وطفليه.

لا بد أنها تعاني إحساسًا بالعار والخسارة، ولا أظنني سأقدر يومًا على إخبارها بما رأيت في كوخ المتزوجين حديثًا.

المعلم زهانغ يتجول في الغرفة. وهو مرتدٍ بنطلونًا صوفيًّا أزرق اللون، وسترة صوفية زرقاء، ومعهما قبعة زرقاء أيضًا عليها نجمة حمراء في الوسط. يشعر كل من في جبل مانوو بالحزن على هذا المعلم. فقبل عشر سنين من مولدي، إبّان الثورة الثقافية البروليتارية العظمى، تم انتزاعه من منصبه الجامعي في العاصمة و«أُرسل كي يتعلم من الفلاحين». وعند انتهاء الثورة الثقافية واستدعاء غيره للعودة إلى موطنه، ظل معلمنا غير قادر على الحصول على تصريح بالعودة إلى عائلته. لا يكاد يبلغ خمسين عامًا، لكن ما به من مرارة يجعله يبدو أكبر مَن في القرية سنًّا. شخص حزين جدًّا. لكن كل شيء يبدو لي الآن حزينًا.

يقول المعلم إن تلاميذ قرية «بئر النبع» أضاعوا أسبوعين مدرسيين، لكنه لا يرحب بنا ولا يوبخنا. بدلًا من ذلك، يثبّت على جدار المدرسة المصنوع من قصب البامبو خريطة تبين الصين وجاراتها.

يسألنا: «من يستطيع أن يقول لي اسم أقليّته العرقية؟»

لقد حفظنا الإجابة التي يريد المعلم زهانغ سماعها منا. واليوم، أنا مسرورة بالعودة إلى ما هو مألوف.

نقول كلنا معا: «الزعيم ماو صنّفنا تحت اسم هاني، واحدة من خمس وخمسين أقلية عرقية في الصين».

«صحيح».

لكن الأمر ليس هكذا. الناطقون بلغة الماندرين يدعوننا «هاني». ونحن نُدعى «آيني» في اللهجة المحلية. لكننا غير هذا وغير ذاك. نحن أكها. فعندما قال الزعيم ماو إن في الصين خمسة وخمسين أقلية عرقية، لم يكن أحد قد اكتشف وجودنا بعد. وعندما اكتُشفنا، قال أشخاص متنفذون غير موجودين في هذا المكان إننا سنصير جزءًا من «الهاني» لأن الزعيم ماو لا يمكن أن يكون مخطئًا. وعلى مر الزمن، أضيف إلى إثنية «هاني» نحو ثلاثين شعبًا آخر من بينهم «جيو-وي» و«بايوي» و«آمو» و«إينو»، وغير ذلك.

ينشق المعلم زهانغ بأنفه، ثم يمسحه بظهر يده ويقول: «بما إنكم هاني، فعليكم أن تتعلموا بلغة هاني». على الرغم من تماثل معظم الكلمات في لغتي أكها وهاني، فإن طريقة لفظنا تلك الكلمات وكيفية إنهاء الجمل عندنا أمران مختلفان اختلافًا كبيرًا عمّا لديهم بحيث لا يستطيع الواحد منا فهم الآخر لولا ما أُرغمنا على تعلمه في المدرسة. تجول نظرات المعلم زهانغ القلقة في الغرفة كأن واحدًا منا يمكن أن يشي به. يقول: «كونوا شاكرين. إن لدى شعب هاني لغة مكتوبة... عمرها إحدى وثلاثون سنة. ألا تظنون أن من المضحك أن تكون لغة مكتوبة بحروف لغة الغرب الإمبريالي؟» يضحك ويهز رأسه ويظهر في صوته شيء لا أستطيع تحديده... «لكني سأحوّل تعليمي كله، عمّا قريب، إلى الماندرين، اللغة القومية لأكثرية هان». يلفظ الكلمة الأخيرة بعناية كي يتأكد من سماعنا الاختلاف بين كلمتي هاني (صغير)، وهان (ضخم، لأنهم يشكلون أكثر من تسعين في المئة من أهل الصين). يتلو المعلم القول المأثور: «*تعلم لغة مختلفة يعني تعلم نمط حياة مختلف*»، ثم يتابع: «يقال

لي إن هذا سيكون سبيلكم إلى تعلم كيف تزرعون حقولكم وفق العلم وكيف تقدرون قيمة المحافظة على النظافة والصحة. وهذا سيساعدكم أيضًا في تربيتكم العقائدية السياسية التي تعزز ولاءكم للدولة».

بعض الأحيان، لا أدري إن كان المعلم زهانغ يناكفنا بهذه العبارات أم يعذبنا.

يلتفت إلى الخريطة بمساحاتها الخضراء والزرقاء والبنية. يحدد الموقع الذي فيه نعيش بأن يضع عليه حرف X بلون أحمر مع أنني، عندما طلب مني مرة تحديد موضع عاصمة البلاد على الخريطة، لم أرَ تحت حرف X كتابة تشير إلى قرانا، ولم أرَ أسماء جبالنا. بل إن «جينغهونغ» نفسها وهي أكبر مدينة في محافظة «جيشوانغبانا»، لم تكن موجودة على الخريطة. وعندما سألته عن السبب قال موضحًا: «لأن المكان الذي تعيشون فيه لا أهمية له. ولا يعلم أحد أنكم موجودون هنا».

لا بد أن ثمة من يعلم بوجودنا فهذا هو سبب إرسال المعلم زهانغ إلينا. لكني أفهم ما يحاول قوله. أنا لا أعلم شيئًا عن العالم الخارجي إلا من خلال خرائطه وملصقاته. لقد شرح لنا محتوياتها لكن، لماذا أكون في حاجة إلى مستشفى إن كانت عندي آما؟ ولماذا أكون راغبة في العمل في مصنع شديد البعد عن الغابة؟ رأيت رسومًا فيها سكرتيرات، لكنني أتساءل عمّا قد يجعل امرأة تحب أن ترتدي، من أعلى إلى أسفل، سترة وبنطلونًا بلون أزرق كسترة المعلم زهانغ وبنطلونه.

يطلب المعلم الآن متطوعًا يشير على الخريطة إلى أماكن عيش الأكها. على الدوام، يسعى الإنسان الضعيف إلى إيذاء من هم أدنى منه

مرتبة. لهذا، أتوقع أن يكون المعلم اليوم قاسيًا عليَّ وعلى سي-ته. أريد حماية صديقتي (لقد خسرت أخاها وخسرت معه الكثير) فأسرع وأرفع يدي. لكنه يستدعيها.

تذهب إلى الخريطة وتنظر إليها. أعلم الإجابات وأتوق إلى مساعدتها، لكني آمل أن تتذكر القصص التي تعلمتها من أمها، تلك القصص التي تتحدث عن الأماكن التي يتجول فيها أبناء قومنا، حتى إذا كانت غير قادرة على تحديد البلدان على الخريطة. لكنها تفاجئنا عندما تضع رأس إصبعها على ورق الخريطة المتغضن.

تقول آخر الأمر: «هذه هي التيبت. منذ ألف سنة، أو ربما أقل من ذلك، ضاق الأكها ذرعًا بالبرد...» (هذه هي القصة التي تعلمناها من كبارنا. كان أسلافنا *باردين*)... «الأكها، آسفة... نحن، هاني». يطلق بعض الأولاد ضحكات مكبوتة عندما يسمعون هذا الاستدراك... «سرنا منحدرين من هضبة التيبت. استقر بعضنا في بورما، وبعضنا في تايلاند، وبعضنا في لاوس». تنتقل إصبعها من بلد إلى بلد إلى أن تستقر أخيرًا على حرف X الأحمر... «وجاء بعضنا إلى هذا المكان، جيشوانغبانا».

«جبل مانوو، هل هو ضمن قائمة جبال الشاي الكبرى الستة في مقاطعة يونان؟».

«لا، أيها المعلم زهانغ. الجبال الستة: مانسا، وييبانغ، ويولي، وغيدينغ، ومانغجي، ومانجوانغ. وهي واقعة على ضفة نهر لانكانغ الشرقية. وأما هنا، على ضفة النهر الغربية، فإن لدينا جبال الشاي الستة التي تلي السلسلة الأولى من حيث كبرها: هيكاي، وبانجانغ، وبادا،

ومينغسونغ، وجينغماي، وكذلك جبلنا مانوو. وفي محافظتنا أيضًا سبعة جبال معروفة أصغر حجمًا تُزرع فيها شجيرات الشاي».

تعود سي-ته إلى حصيرنا فأشد على يدها معتزة بها.

تهمس إليّ: «لقد نجحت في هذا. نجحت بأفضل مما كنت تستطيعين». تلسعني عبارتها هذه فأسحب يدي. ألا تدرك أنني حزينة أيضًا وأنني في حاجة إلى حبها مثلما هي في حاجة إلى حبي؟

وبالطبع، يرى المعلم زهانغ كل شيء، ويسمع كل شيء. «صحيح، يا سي-ته. أنت ذكية جدًّا بالنسبة إلى بقية الأكها». يقول هذا مستخدمًا اسم قومنا الحقيقي. هذا ليس فألًا حسنًا على الإطلاق لأنه يعتبر كل من في منطقتنا بشرًا أجلافًا من غير عقول، وقد أثبتت سي-ته أنه مخطئ في هذا... «يعلم العالم كله أن الأكها أغبى مَن في هذه البلاد. بل إن الناس يسخرون من قوم هاني كلهم لأنه تو». هذه الكلمة «تو» كلمة في لغة الماندرين، لكن الجميع يفهمها، بما في ذلك أصغر الأطفال هنا. ففي لغة ماندرين تعني كلمة «تو» التراب. إذًا فنحن معتَبرون بشرًا قذرين، متخلفين، بشرًا من تراب. والمقصود بها أيضًا أننا أغبياء. يواصل المعلم زهانغ كلامه: «كان يجري في القرون الماضية نفي الشعراء والعلماء إلى هذه المنطقة» (هي نفسها المنطقة التي أُرسل إليها الفنانون والمعلمون وطلبة الجامعات خلال الثورة الثقافية)... «إن لم يكن هذا كله كافيًا، فإن قربكم من بورما نقطة سوداء إضافية فالأكها الذين هناك صارت لهم سمعة رديئة لأنهم يزرعون الأفيون ويهرّبون المخدرات».

أنظر إلى الناحية الأخرى من الغرفة فأرى عيون الأولاد الكبار قد جحظت. لا يقدر أشخاص مثل المعلم زهانغ أن يعرفوننا، تمامًا مثلما يعرفنا قوم داي وقوم بولانغ، ولا تستطيع أن تعرفنا أي أقلية أخرى، فكيف بأكثرية هان؟ صحيح أننا نزرع الأفيون، وصحيح أن آما تستخدمه في أدويتها، لكن هذا أمر مختلف عن تهريب المخدرات.

المعلم زهانغ ماضٍ في كلامه: «ما من قبيلة في الجبال تحب الأكها لأنكم أغبياء ولأنكم عنيفون. وها هي سي-ته تريد إثبات أنهم مخطئون».

ليس الإصغاء إليه سهلًا عندما يتكلم هكذا. لست أدري إن كان ثمة أمر شخصي قد وقع - ليس مجرد نمائم جبلية عن أسرة سي-ته وعن سلوكي في كوخ المتزوجين حديثًا - ثمة أمر يدفعه اليوم إلى أن يكون فظًّا هكذا. هل رفضوا التماسًا جديدًا قدمه كي يعود إلى موطنه؟ هل سمع أن زوجته التي طلقته منذ أمد بعيد قد تزوجت مرة أخرى؟ أم أن المطر الذي يتواصل هطله منذ أسابيع هو الذي يجعل كل إنسان وكل شيء فائحًا برائحة العفن ويجعل كل أذن مرهقة من هذا الطوفان المنسكب من غير انقطاع فوق سقوف القش وفوق أشجار الغابة؟

ظل المعلم طوال الصباح يطرح أسئلة ذات صلة بالخريطة. هذا ما ألهاني بعض الوقت عن تلك المشاعر. نهتف كلنا معًا: «نعم! نحن نعيش عند مدار السرطان». ونهتف: «نعم! نهر لانكانغ ينبع من التيبت». يمر النهر بين جبالنا ويتغير اسمه إلى «ميكونغ» عند نقطة التقاء حدود الصين ولاوس وبورما، ثم يتابع مساره عبر تايلاند وكامبوديا وفيتنام إلى أن يصب آخر الأمر في بحر الصين. «نعم! يدعونه دانوب الشرق».

يأتي وقت استراحة الغداء. يجري الأطفال الآخرون تحت المطر صوب منطقة مسقوفة لا جدران لها، لكن سي-ته تأخذ يدي وتستبقيني تحت الإفريز البارز فوق مدخل مدرستنا.

تسألني وهي تحدق إلى الأرض الطينية من حولنا: «ماذا يحدث الآن لأسرتي؟ كيف نستطيع الخلاص من هذا الأمر؟ وأخي الذي...»

يؤسفني وضعها، وأود أن أريحها قليلًا، لكن الأمر أشد صعوبة مما ظننته سيكون. غطاء رأسها لا يزال أفضل من غطاء رأسي. وأسرتها لا يزال لديها حقل خضار وحقل أفيون. وعائلتها كلها أحسن حالًا من أي عائلة أخرى في قريتنا. لكنها تظل صديقتي على الرغم من مشاعري هذه. أحاول أن أواسيها قليلًا: «سنشتاق جميعًا إلى سي-دو وإلى ديه-جا». تشد على شفتيها. من الواضح أنها تقاوم انفعالاتها. ثم تغمغم آخر الأمر قائلة: «لا تقولي أي شيء آخر. هذا مؤلم جدًّا». ثم تترك يدي للمرة الثانية هذا اليوم وتخطو خارجة إلى المطر وتنضم إلى بقية الأطفال تحت المنطقة المسقوفة. لست أدري كيف يصير الأمر عندما يكون المرء شديد الاعتزاز بنفسه ثم يرى ممتلكاته وسمعته ومكانته تُؤخذ منه كلها.

أعود إلى غرفة الصف كي أكلم المعلم زهانغ.

يقول لي متلطفًا بعض الشيء عندما يراني مقتربة: «سمعت أن وقتًا عصيبًا قد مر بكم. تقاليدكم شديدة القسوة أحيانًا».

تعاطفه معي يفاجئني بالنظر إلى طريقة تعامله مع سي-ته. أجيبه إجابة مهذبة: «أشكر لك تفهمك».

«اجتهدي كي تكوني قادرة على الانتقال إلى المستوى الثاني في المدرسة، وإلى ما بعده أيضًا. لست مضطرة إلى البقاء إلى الأبد في هذا الجبل».

أسمع أن ثمة مدرسة للمستوى الثاني، بل حتى أن ثمة مدرسة للمستوى الثالث أيضًا. لم يحدث أبدًا أن تمكن واحد من مجموعة قرانا هذه من اجتياز الاختبار كي يلتحق بمدرسة المستوى الثاني. كان تخيل الفكرة مستحيلًا، تمامًا مثلما يستحيل تخيل أنهم سيسمحون له يومًا بالرحيل.

يسألني عندما لا أجيب بشيء: «إذًا، ماذا تريدين؟».

أضع يدي في جيبي وأخرج منها قطعة قماش مربوطة بخيط مصنوع من قشور الذرة المجففة وفيها قبضة شاي صغيرة أعدتها أسرتي من أوراق الشاي الأدنى جودة. تحب آما أن أقدم إلى المعلم زهانغ شيئًا من هذا الشاي، وذلك لسببين اثنين. الأول لأنه رجل حزين يعيش وحيدًا. والثاني لأن عليَّ أن أحترم معلمي. قد يكون هذا حلمًا فحسب. لكنني أود اليوم أن أضيف سببًا ثالثًا، كي أشغله عن سي-ته كي يتاح لها وقت أكثر للتعامل مع الخسارة التي ألّمت بأسرتها.

وبعد الظهر، أرى أوراق الشاي التي قدمتها إليه عائمة في الوعاء الزجاجي الكبير الذي يستخدمه المعلم لشرب الشاي.

*

كل اثني عشر يومًا، يبدأ الدور الزمني من جديد، وتكون بدايته بيوم الخروف تكريمًا للإله الذي ولد الكون. لا عمل في هذا اليوم،

والمدرسة مغلقة. تنتظر آما إلى أن يهدأ أبناء إخوتي وبناتهم وتبدأ أمهاتهم الحياكة قبل أن تقول لي: «تعالي! وهاتي رداءك». أحس خوفًا مما تريده مني، لكني أخفض رأسي وأخرج خلفها إلى المطر. سرعان ما نعبر بوابة الأرواح وتصير القرية وراءنا. قدماها واثقتان، سريعتان، حتى في هذا الطين الزلق. لا بد لي من السير مسرعة كي أواكبها. نصعد في الدرب الرئيسي الذي يصل آخر الأمر إلى مصاطب الشاي التي يملكها أخي. لكننا لا ننعطف في أي من الدروب الأضيق المؤدية إليها. جلبة المطر على الأوراق الجافة في ردائي تبدو كأنها تضخّم من تصميم آما الهادئ. تنعطف في الدرب المؤدي إلى مركز استلام الشاي من غير أن تنطق كلمة واحدة. ندخل الغيوم. يصير كل شيء رماديًا، شبحيًا. يضيق الدرب، ثم يصبح أكثر ضيقًا. لقد دخلنا أرض الأرواح، دخلناها تمامًا. وأنا مسرورة لأنني مع آما لأنها ستحميني دائمًا وتحرص على أن أستطيع العثور على درب العودة إلى البيت. لا أطيق التفكير في ما يمكن أن يحدث إن افترقنا. ثم تدخل عقلي فكرة مخيفة. لعل آما قد اعتزمت تركي هنا! ... ربما أكون قد خيّبت أملها إلى هذا الحد.

لا نزال نواصل صعودنا.

وبعد قليل، تتوقف أمي. جلمود صخر عظيم يسد آخر ما بقي من الدرب. ما عاد أمامنا مكان نذهب إليه. ارتعاشة تسري في جسدي.

تأمرني قائلة: «انظري حولك، يا بنت! ماذا ترين؟»

مطر... جداول ماء منحدرة على سطح الصخرة الخشن... أشباح الأشجار متلفعة بضباب شبحي...

وأنا خائفة، خائفة جدًّا. لكني لا أستطيع جعل شفتيَّ تتحركان على الرغم من شدة ارتعاش جسدي.

«انظري، يا بنت! أبصري...». صوتها خافت جدًّا لا يكاد يعلو فوق صوت المطر... «أبصري عميقًا!».

ألعق المطر عن شفتي، وأغمض عيني، وأستنشق نفسًا عميقًا. ثم أفتح عيني وأحاول أن أرى العالم مثلما تراه.

صرت مستعدة. أجرّب هذه الإجابة: «قد يدعوها صياد دربًا رسمته الحيوانات، لكنه ليس كذلك».

تسألني: «لماذا تقولين هذا؟»

«رأيت أغصانًا صغيرة متكسرة حتى هذا العلو». أشير بيدي إلى علو كتف إنسان... «ثمة من يصعد إلى هذا المكان كثيرًا ويمر على مقربة شديدة من هذه النباتات والأشجار. انظري إلى تلك الصخور...» أشير إلى بعض الحجارة على الأرض... «ثمة من وضعها هنا كي يجعل المشي أسهل».

تبتسم آما ابتسامة لعلها أجمل ابتسامة أراها. «عليَّ أن أكون أشد حذرًا في المستقبل».

أتشجع وأنظر إلى الجلمود الكبير. أتفحصه. أشجار ضخمة ناهضة من خلفه... أشجار كافور. تبدو الصخرة مدوّرة، لكن جزءًا منها ليس كذلك (حافة ناتئة فوق منحدر شديد)، قسم منحنٍ صوب اليمين. أتبع حدسي وأضع يدي على وجه الصخرة. أتابع ذلك الانحناء. تنتهي الحافة ولا يأتي بعدها شيء غير فجوات أستطيع وضع أصابع قدمي

فيها. أزحف جانبًا من حول الصخرة وجسدي ملتصق بسطحها العتيق. لكنها ليست صخرة. هي أشبه بنتوء صخري، أشبه بجدار... حصن صنعته الطبيعة وله روح شديدة القوة أحسها من خلال أصابع يدي وقدمي. تعود الأرض صاعدة فتلاقي قدمي وأخطو داخلة أجمة أشجار الكافور التي لمحتها قبل قليل. في حمى أشجار الكافور، وتحت مظلة أغصانها العظيمة، أرى بضع شجيرات شاي متناثرة. وفي الوسط، تقف شجيرة شاي واحدة تحيط بها شجيرات شاي أصغر منها من تحت أغصان الكافور الممتدة فوق التربة، فوق الأرض المعتنى بها جيدًا. يستطيع كل من يراها إدراك أنها قديمة جدًّا لشدة التواء أغصانها.

أسألها: «أهذه هي أرضي؟».

«كان مفترَضًا أن العادات القديمة قد زالت عندما تزوجتُ وذهبت إلى أبيك. انتهى عهد شراء النساء وبيعهن من أجل الاستعباد أو الزواج. انتهى زمن تقديم المهور. ولكن، لا أهمية لما تقوله الحكومة. هذه الأرض ملك نساء عائلتنا، ملك سلالتنا من النساء. هي لنا وحدنا. وقد آلت إليَّ كي تكون مهرًا لي مثلما ستؤول إليك ذات يوم عندما تتزوجين».

أصغي إليها نصف إصغاء فقط لأن أملي قد خاب كثيرًا. إنها مثلما يقول آبا ومثلما يقول كل شخص آخر في أسرتنا. ما خُصّص لي لا قيمة له. وسوف يكون صعبًا حمل سلة واحدة من أوراق الشاي من حول هذه الصخرة ونزول الجبل حتى مركز استلام الشاي. تحطم أملي الخفي في أن تكون أرضي أقل سوءًا مما يلمح إليه الجميع، لكن آما لا تلاحظ هذا. تمسك يدي وتقودني قُدمًا بين الأشجار. تهمس إليَّ: «انظري كيف

أن الصخرة مفتوحة من هذه الناحية كي تحتضن هذا المكان الخاص! وانظري كيف تعلو الصخرة وتتقدم بحيث تستطيعين النوم تحتها من غير أن يبلك المطر، إن أردت ذلك».

صحيح. الصخرة مجوفة من هذه الناحية، وفيها ما يشبه كهفًا. لكن، ما أهمية هذا بالنسبة إليَّ؟

تقول لي آما إن عمر أشجار الكافور ثماني مئة سنة، أو أكثر. وأن «الشجرات الشقيقات» المحيطات بشجرة الشاي القديمة عمرها أكثر من مئة سنة. تغور معدتي بأشد من ذي قبل. لا يريد أحد أوراق الشاي المأخوذة من شجرات قديمة، إضافة إلى أن ما من أحد يستطيع العثور على هذا المكان. شجيرات الشاي، والأشجار التي يجري تقليمها وقص رؤوسها تأتي بالمال وبالطعام. لا أريد القول إنها تأتي بمال كثير وبطعام كثير، لكنها تأتي بشيء. وأما أوراق هذه الأشجار! الكلمتان اللتان تدوران في رأسي منذ زمن صارتا الآن تضربان جمجمتي من داخلها. *عديمة القيمة. عديمة القيمة. عديمة القيمة.*

تواصل آما كلامها: «ولدينا هنا الشجرة الأم». يصير صوتها أشد رقة وتصير فيه عاطفة أشد من أي عاطفة تبديها خلال تقديم النذور الشعائرية. تضع كفيها على الجذع برقة تفوق رقة وضعها إياهما على بطن ديه-جا. «أليست جميلة؟»

ليست جميلة! الشجرة أطول كثيرًا من الشجرات التي دعتها آما «شجرات شقيقات»، لكن السنين ظاهرة عليها مثلما تظهر على عجائز القرية. لحاؤها متشقق. وغصونها معوجّة عليها عقد كثيرة. وأوراقها

حال بعض لونها. تنمو عليها أيضًا أشياء غريبة (ليست شامات ولا أظافر متكسرة، بل فطورًا وطفيليات)، نموّات تبرقش اللحاء وتظهر كأنها دمامل عند انثناءات الغصون وعند أسفل الجذع. رأيت من قبل أشياء كهذه عندما كنا نتجول في الغابة، لكن هنا سمة جديدة لم أرَها من قبل. خيوط صفراء لامعة زاحفة على النموّات الطفيلية الأخرى، متغلغلة فيها، ملتفة حولها. تبدو الشجرة كأنها يمكن أن تموت غدًا. *عديمة القيمة*.

تقول آما: «الأرز يغذينا. والشاي يشفينا. تذكري دائمًا أن الغذاء دواء وأن الدواء غذاء. إذا اعتنيت بالأشجار فسوف تعتني الأشجار بك».

«لكن آبا يكره هذا المكان. وقد سمعت الآخرين يقولون إنه لا يجلب حظًّا حسنًا. إنه...»

«أنت لا تعلمين شيئًا عنه». تأخذ ذراعي وتجذبني (ليس جذبًا لطيفًا) فتبعدني عن المطر وأصير تحت المظلة الهلالية التي تشكلها الصخرة الكبيرة. «كان بستان الشاي هذا ملكًا لجداتي منذ وصول الأكها إلى هذا الجبل قبل ثلاثة وثلاثين جيلًا. الشجرات الشقيقات كنّ فتيات في ذلك الوقت، لكن الشجرة الأم كانت عتيقة. وقد قالت لي جدتي إن هذه الشجرة ينبغي أن يكون عمرها أكثر من مئة جيل. ظلت دائمًا مستخدَمة من أجل الشاي».

مئة جيل! لأول مرة في حياتي، أستخدم الحساب الذي علَّمني إياه المعلم زهانغ من أجل شيء لا علاقة له بغرفة الصف. يعني هذا أن عمر

الشجرة أكثر من ثلاثة آلاف سنة. الغابة موجودة هنا منذ أن خلقتها الآلهة. ولكن، هل تشرب الآلهة الشاي؟

تسألني آما: «هل ترين كيف نمت الشجرة؟». تخطو خارجة إلى المطر وتتسلق الشجرة. كل خطوة من خطواتها رشيقة هيّنة... من غصن إلى غصن، أعلى فأعلى.

تقول عندما تعود إليَّ: «كأنها درجات. منذ زمن بعيد، قام من يعتنون بهذه الشجرة بتقليمها وتكييفها بحيث يسهل تسلقها... وبحيث يسهل قطاف أوراقها. انظري إلى أي شجرة شاي في جبلنا وسوف ترين الأمر نفسه. لكن هذه أقدم الأشجار جميعًا».

«وهي أكثرها اجتلابًا لسوء الحظ».

«يا بنت!». نظرتها توحي إليَّ بأنني اقتربت كثيرًا من جعلها تخرق تحريم ضرب الأطفال... من جديد.

تقول بعد صمت طويل: «قيل لي ألّا آتي بأي رجل إلى هذا المكان. لكن جدك -أعني حماي- أصرّ بعد زواجي على أن يأتي لرؤيته. ظل يلاحقني كل يوم وكل ليلة قائلًا إنني صرت كنته وإن الأرض صارت ملكًا له. كنت في السادسة عشرة فلم أعرف كيف أقول: لا، بالقوة الكافية. رضخت آخر الأمر. جئت به إلى هذا المكان فتسلق الشجرة ومضى بين أغصانها. وعندما سقط...» تعود بي آما إلى المطر وتقودني بين الأشجار حتى نبلغ الجهة المقابلة من البستان عند حافة الهاوية. لقد عشت حياتي كلها في جبل مانوو، لكنني لم أرَ أبدًا هذا العدد كله من القمم في وقت واحد. حتى أنا أستطيع فهم أن هذه البقعة فيها «فينغ شوي»

مثالي لما تحققه من تزاوج بين الجبال والريح والضباب والمطر. كل ما في هذه البقعة، أشجارها ومناخها وحشراتها وحيواناتها، موجود في تناغم طبيعي مستمر منذ قرون ومنذ آلاف السنين. إلا ما وقع لجدي...

تُسرّ إليَّ آما بصوت خفيض كأنها لا تريد للأشجار أن تسمعنا: «كان ميتًا عندما وصلت إليه. انكسرت رقبته. كان عليَّ أن أجرّه جرًّا كي أعود به إلى القرية».

هل جَرَّته من حول هذه الصخرة ثم نزلت به الجبل؟ كيف؟

آما ماضية في كلامها: «هذه المأساة جعلت والدك وإخوتك يكرهون الشاي البري كله. ومنذ ذلك اليوم لم يجرؤ أحد، حتى والدك نفسه، على اللحاق بي إلى هذا المكان. من واجبي أن أعتني بهذه الأشجار، وبالشجرة الأم خاصة. ذات يوم، سوف يكون هذا واجبك أنت أيضًا. لكن عليك أن تعدينني بألا تتركي أي رجل يدخل هذا البستان».

«أعدك. لكن... آما، هذه الشجرة مريضة. ألا ترين هذه الخيوط الصفراء؟ سوف تخنق الشجرة».

تنفجر ضحكتها. «إن تركت والدك وإخوتك يأتون إلى هذا المكان، فسوف يرشون الشجرة الأم بالسم كي يقتلوا تلك الطفيليات التي وجدتْ في لحائها مسكنًا لها. سوف يزيلون الفطور ويسحقون الحشرات بأظافرهم، لكن الفلاحين كانوا، منذ زمن طويل جدًّا، يتركون أشجار الشاي تنمو نموًّا طبيعيًّا. انظري فوقنا، يا بنت! ألا ترين كيف تحمي أشجار الكافور هذه الشجرة الأم من الأرواح، وكيف تخفيها عنها؟ شذى الكافور يهدئنا، لكنه يطرد الحشرات والآفات عن الشجرة. وفي

نواحٍ أخرى من الغابة، تنمو نباتات سامة حول جذوع أشجار الشاي البري القديمة المهملة. وهذا يعني أن أوراق تلك الأشجار يمكن أن تسبب آلامًا في المعدة، بل يمكن أن تسبب الموت أيضًا. ولكن، هل ترين هنا أي شيء سام؟ لا. ما أحاول قوله لك هو أن الرجال في أسرتنا لا يعلمون ما تكونه هذه الخيوط الصفراء، وهم لا يحبون أن يأمنوا لها». تظهر غضون الجلد عند زاويتي عينيها... «وأنا أنظر إلى أشجارنا نظرة مختلفة».

أشجارنا!

لا أزال غير واثقة بما أحسه في هذا الصدد.

تقول آما ببساطة: «هذه الأشجار مقدسة. وتلك الخطوط الصفراء أثمن عطايا الشجرة الأم. لقد استطعت مساعدة أشخاص كثيرين باستخدام الأوراق والخيوط المأخوذة من الشجرة الأم وذلك بعد أن أخفق أي شيء آخر في مساعدتهم. هل تتذكرين ذلك النمو الغريب الذي ظهر تحت إبط لو-زه؟ شاي هذه الشجرة جعله يختفي. وماذا عن دا-تو؟ كان وجهه يحمّر كله وتنبض العروق في صدغيه. يقول لنا قانون الأكها إنه لا يجوز للرجل أن يضرب زوجته، لكننا نعلم أن هذا يحدث أحيانًا. يطلب النيما والروما نصيحتي عندما تفلح الطقوس الخاصة بضرب الزوجات في علاج الأمر. جعلت دا-تو يشرب شايًا خاصًا. عاد لون وجهه الطبيعي وهدأت مشاعره الجامحة».

هذان مثالان فقط، لكنني أستطيع تذكر أشخاص كثيرين لم تستطِع آما أن تشفيهم، أشخاص عانوا معاناة رهيبة، وأشخاص ماتوا. عمري

عشر سنين فقط، لكني أعاني مشكلة مع الذكريات التي تعود إلى ذهني. المرأة التي ذوت حتى صارت لا شيء... الرجل الذي جرح ساقه من غير أن يقصد وتطور الأمر إلى ظهور قيح أخضر اللون راح يأكل لحمه... بل حتى عددٌ من أبناء وبنات إخوتي ممن قتلتهم الحمى في أول الطفولة... لا تلك الخيوط الصفر ولا أي شيء مما لدى آما في سلالها وأكياسها أفلح في مساعدتهم، ولم يفلح ذلك في مساعدة...

أسألها: «وماذا عن ديه-جا؟ ماذا عن...»

«عليك أن تكفي عن التفكير في حالات الغلط البشري».

«لا أستطيع».

«يا بنت! ما حدث للطفلين لا علاقة له بها إذا كان شفاؤهما ممكنًا أو غير ممكن. لدينا تقاليدنا. هذه هي طريقنا».

«لكن ديه-جا وسي-دو عوقبا أيضًا...»

«توقفي!». تمر بضع لحظات قبل أن تتمكن من تهدئة غضبها. تسألني بعد ذلك: «هل تتذكرين عندما أكلت سي-ته قرص عسل؟»

بالطبع، أتذكر هذا. كنا في الخامسة من العمر، تقريبا. وكان والد سي-ته قد عاد إلى القرية بقرص عسل من خلية نحل وجدها في الغابة. أعطاها قليلًا منه وأعطاني قليلًا منه. كانت تتكلم، ثم صارت عاجزة عن التنفس وراحت تلوح بيديها مذعورة. وعلى الفور، أتى الروما وراح ينشد ترانيمه فوقها. ثم أتت آما راكضة...

«لقد وضعتِ في فمها شيئًا».

«لو انتظرت وصول النيها ودخوله حالة الغشية...»

«لقد أنقذتِ سي-ته».

من جديد، تطلق آما تلك الضحكة الصغيرة. «أنقذتها؟ لقد أدى كاهن الأرواح التعويذة الصحيحة فالشامان تصحبه القوة أينما ذهب». تركع قبالتي ويصير وجهها على مستوى وجهي... «من الأفضل دائمًا تركهما يظهران بمظهر من استطاع تحقيق نتيجة جيدة. هل تفهمين هذا؟»

أحب آما، وأنا ممتنة لأنها أنقذت صديقتي. لكنني لا أزال أجد صعوبة في الفهم. أنظر في هذا البستان فلا أرى عافية ولا شفاء، بل خرافات وتقاليد عتيقة تؤذي الناس.

تقول آما وهي تنهض واقفة، «إذًا، سوف تأتين معي إلى هذا المكان منذ الآن فصاعدًا وسوف أعلمك كيف تعتنين بالأشجار وكيف تصنعين أدوية».

ينبغي الآن أن أرى نفسي متميزة. أستطيع رؤية أن الشجرة الأم، وهذا البستان كله، تعني لآما أكثر مما تعنيه لزوجها وأبنائها وابنتها وأحفادها. لكنني أحس كل ما علمته الآن أشبه بسكين كليلة تنغرس في لحمي.

تقول آما: «حان وقت ذهابنا. تذكري، يا بنت، عدم جواز قدوم أي رجل إلى هذا المكان. لا ينبغي أن يأتي أحد».

أسألها: «ولا حتى سي-ته».

«ولا حتى سي-ته».

«ولا حتى كنّاتك وبنات إخوتك. هذا المكان خاص بالنساء اللواتي من دمنا. أنت وأنا وأمي و...» ينقطع صوتها. تمر بيدها على جذع الشجرة الأم، على ذلك الجذع المتعرج. مداعبة حنون.

تظل صامتة طوال طريق نزولنا الجبل مثلما كانت صامتة طوال طريق صعودنا. أستطيع أن أرى مِن تيبسِ كتفيها وثقل صمتها أنني خيّبت أملها كثيرًا جدًّا. لم أقابل ميراثي هذا بالقدر الكافي من الفرحة أو الإجلال أو العرفان. لكن، كيف لي أن أقابله بشيء من هذا؟ قد تكون آما أهم امرأة في قريتنا، لكن كل رجل أعلى منها شأنًا وكل صبي أعلى منها شأنًا. سيكون انتهاكًا لقانون الأكها إن صدقت أنها أعلى شأنًا من أي شيء يقوله أي واحد منهم. يقول آبا إن هذا المكان ملعون وإن أشجاره عتيقة كلها لا يرغب فيها أحد. كانت واحدة من هذه الأشجار سببًا في موت والده. ولسبب من الأسباب (سواء أكان ذلك عقابًا لأمي وأمها وجداتها لأنهن أتين بهذا البستان إلى أسرته أم أنه لا يقيم لي أي شأن لأنني بنت) هذا البستان هو ما سيقدمه مهرًا إليَّ.

قبولي بهذا يسمح لي، آخر الأمر، برؤية مستقبلي واضحًا تمامًا. يجب أن آمل في العثور على حب حقيقي كي أستطيع أن أجد لي قرينًا لأنني لم أُعطَ شيئًا ذا قيمة أحمله إلى زواجي إلا ضعف مهارتي في التطريز وبستانًا من شجرات شاي قديمة لا قيمة لها ووجهي الذي قد لا يكون على قدر من الجمال كافٍ لأن يكون ذا وزن أرجح من بقية مثالبي. طوال الطريق إلى البيت، أفكر في ما أستطيع فعله كي أغيّر مصيري. نحن الأكها خُلقنا كي نتجول، وأنا في هذه اللحظة أحس توقًا إلى الهرب. لكن لديَّ من

الفهم ما يجعلني أدرك أنني لا أزال غير قادرة على الذهاب إلى أي مكان. فأنا لست إلا طفلة، ولن أستطيع احتمال بقائي في الأدغال أيامًا كثيرة. قال لي المعلم زهانغ: «لست مضطرة إلى البقاء في هذا الجبل إلى الأبد». قد يعينني التعلم على الفرار، ولو في عقلي فقط.

*

اليوم التالي يوم القرد. أخرج من البيت والظلام لا يزال مخيمًا. و... نعم... لا يزال المطر مستمرًا. أصِل المدرسة مبتلة، لكني مصممة على الاستمتاع بالتعلم. يمضي المعلم زهانغ في درس تاريخ يتحدث عن الأرض. سمعنا هذا الدرس من قبل، سمعناه كلنا، لكني أسمعه اليوم على نحو مختلف. يبدأ كلامه بالقول إن أهل هذه الجبال ظلوا قرونًا كثيرة يعملون من أجل مالكي الأراضي الذين كانوا يتوارثون بساتين أشجار الشاي من جيل إلى جيل فيأخذون كل شيء ويحتفظون بكل شيء.

يتابع المعلم كلامه... «ظل الفلاحون فقراء. وكثيرًا ما كانوا يموتون جوعًا. لم تكن الحياة عادلة. ولكن، بعد أن وحّد الزعيم ماو البلاد في... في أي سنة؟»

نتطلق جميعًا: «سنة ألف وتسع مئة وتسع وأربعين».

«تمت مصادرة الأراضي كلها وأعيد توزيعها على الجماهير».

أعلم هذا أيضًا لأن عائلة آبا حصلت على قطعة أرض صغيرة لا كي تكون ملكًا لها (فالأرض كلها ملك الحكومة)، بل كي يكونوا مسؤولين عنها. وعائلة آما التي تقطن الناحية الأخرى من جبل مانوو حصلت بدورها على قطعة أرض. لم يخبروا أحدًا بأمر بستان الشاي المختفي في

الجبل. إن علم أحد بأمره، فسوف يجري تصنيفهم على أنهم من ملاك الأراضي. ولحسن الحظ، كان ذلك البستان (مثلما صرت الآن مدركة) في مكان يصعب كثيرًا أن يعثر عليه أحد فلم ينتبه إليه المساحون ولم ينتبه إليه بقية الفلاحين. ليس البستان موجودًا على أي خريطة. ولهذا السبب، لم يضع أي واحد من مالكي الأراضي يده عليه ولم يوزّعه الزعيم ماو ولم يسترده إبّان «القفزة العظيمة إلى الأمام»، ولم يتأثر بما يتحدث عنه الآن معلمنا زهانغ.

«منذ تسع سنين، في تدبير كان جزءًا من خطة من برنامج شمل البلاد كلها رمى إلى إعادة الأملاك إلى أصحابها الأصليين، سُمح لعائلات مالكي الأراضي السابقين في هذه المنطقة بأن يعملوا في أرض أسلافهم. لكن أولئك المالكين القدامى، والصينيين جميعًا، لا يزالون من غير حق في الملكية. وبدورهم، الناس الذين على شاكلتكم، لا حق لهم في الملكية». يصل أخيرًا إلى الجزء الأهم في درسه: سياسة «ثلاثون سنة من غير تغيير». التي حددت الأقليات الإثنية في جبال الشاي في مقاطعة يونان. ملت إلى الأمام وأصغيت بكل ما استطعت من قوة. لهذه السياسة أثر في كل واحد منا، لكني لا أزال حائرة مع أنني سمعت شرحها مرات كثيرة. فذات مرة، قال المعلم زهانغ إن تلك السياسة منتظرًا منها أن تكون على هذا النحو: «محيّرة قصدًا».

يبدأ الشرح: «منذ ست سنين، قامت سياسة «ثلاثون سنة من غير تغيير» بقسمة الأرض من جديد. حصل كل شخص على قطعة أرض، من الأطفال الرضع حتى من هم في التسعينيات. وكان منتظرًا من هذه

القسمة أن تكون منصفة بحيث تحصل كل أسرة على أرض مشمسة وأرض ظليلة، أرض على المنحدرات الشديدة وأرض في مناطق يسهل العمل فيها، أرض صخرية وأرض ذات تربة غنية. أرض فيها أشجار شاي ومدرجات فيها شرفات لغرس الأرز». ارتخت زاويتا فمه وصارتا ذابلتين حزينتين مثل عرق قُطع عن النبتة الأم... «هل من مشكلات في هذه السياسة؟».

ثمة مشكلات، لكن ما من أحد يمكن أن يكون غبيًّا إلى حد يجعله يقولها بصوت مسموع. لم يتلقَّ قطعة أرض أي طفل وُلد منذ أن أعلنت علينا هذه السياسة. وعندما يموت واحد ممن تقدمت بهم السن، تظل الأرض ضمن عائلته أو تُعاد إلى القرية. وعندما تتزوج امرأة، تنتقل أرضها إلى والدها أو إلى شقيقها ولا تحصل على أرض جديدة عند ذهابها إلى قرية زوجها.

«فكروا، يا أطفال! فكروا! ما الآثار التي كانت لهذه السياسة في عائلاتكم؟»

لم يرفع أحد يده حتى الآن. يبدأ المعلم زهانغ تحديد بعض الأولاد والبنات بأسمائهم كي يجيبوا. لكن القصة تظل هي نفسها، إلى هذا الحد أو ذاك. بعد أن خُصصت أسرة بقطع من الأرض (قد تكون الأسرة مؤلفة من شخصين أو ثلاثة أشخاص)، تولى الأب مقاليد الأمور وقرر من يأخذ الأرض التي في الشمس ومن يأخذ الأرض الصخرية التي على سفح الجبل. احتفظ آبا بالأرض الأفضل لنفسه. قطع أشجار الشاي، أو أحرقها، كي يربي بطًّا ودجاجًا وخنازير. ماتت البطات، ولم

يستطِع شراء خنزير، واستخدمنا الدجاجات لغايات طقسية بأسرع مما كانت تضع بيضها. بعد ذلك، حاول آبا زراعة محاصيل يمكن بيعها في السوق. تضمن فترة الأمطار الموسمية أن يحقق الأرز نموًّا جيدًا. ولولا تلك الأمطار لمتنا من الجوع. وأما غير ذلك، فإن آبا لا يمتلك موهبة زراعة الخضراوات.

وأما الشخص المهم الثاني في الأسرة، الأخ الأكبر، فقد حصل على أفضل قطعة أرض بعد الأرض التي حصل عليها آبا. أحرق أشجار الشاي مثلما فعل آبا، ثم غرس مكانها شجيرات شاي فتية على المدرجات. استلم الأخ الثاني ثالث أفضل قطعة أرض. قام بتقليم أشجار الشاي التي فيها (يتم قطع رؤوس الأشجار كي تنمو عليها أغصان جديدة قصيرة). وهذا ما جعل قطاف الأوراق سهلًا بما ينبغي أن يحقق ربحًا أفضل. لكن الأمر لم يجرِ على هذا النحو حتى الآن لأن هذه النباتات معرضة لأمراض وطفيليات كثيرة ما يستلزم استخدام كميات كبيرة من السماد ومبيدات الحشرات. نال الأخ الثالث أرضًا شديدة القرب من القرية ومن البيت. لديه أشجار شاي كثيرة تتراوح أعمارها بين مئتي سنة وثلاث مئة سنة. وبما أن مركز استلام الشاي لا يشتري أوراق هذه الأشجار، فقد أحجم الأخ الثالث عن فعل أي شيء بأشجاره. يقول: «تستلزم عملًا كثيرًا جدًّا». نحن نشرب هذا الشاي لأنه لا يكلفنا شيئًا.

خصّني آبا بأرض آما الخفية (بما فيها من أشجار شاي قديمة لا قيمة لها تجعلها صالحة لأن تكون مهر عروس). كنت في الرابعة آنذاك. وحتى لو كنت وقتها في السن التي أنا الآن فيها، فما الذي أستطيع فعله لتغيير

النتيجة؟ لا شيء، لأنني لست إلا بنتًا. سأكون في الرابعة والثلاثين عندما تنتهي سياسة «ثلاثون عامًا من غير تغيير». ولا يعلم أحد ما سيحدث عند ذلك. لكن ثمة أمرًا مؤكدًا...

يقول المعلم زهانغ: «كل شيء في تغير دائم. وقد دخلنا الآن عصرًا جديدًا. لقد أعطانا الزعيم العظيم دينغ كسياوبينغ شعارًا نسير على هديه: *رائع أن تصير ثريًا...*». وكما يفعل دائمًا مع اقتراب الدقائق الأخيرة قبل استراحة الغداء، يشير المعلم زهانغ إلى الملصقات المتغضنة على جدران البامبو، تلك الملصقات التي عليها صور بيجين ويقول: «إذا اجتهدتم في الدراسة، فقد تستطيعون يومًا أن تزوروا عاصمتنا». تسقط ذراعه هامدة وهو يحدق إلى الصور: آلاف البشر على الدراجات. ملابسهم متماثلة كلها. يبدو عليه الحنين إلى موطنه، لكني سأموت إذا اضطررت إلى العيش في مكان كذلك المكان. يتنهد ويرفرف بضع مرات بعينيه ثم يسألنا بصوت حزين جدًا: «هل لديكم أي أسئلة؟».

لكنه لا يتلقى غير مطالبات جديدة.

«حدثنا عن الهواتف».

«حدثنا من جديد عن التلفزيون».

«وعن السينما! حدثنا عن السينما».

تعلو زاويتا فم المعلم زهانغ ابتسامة صغيرة. يقول وهو يستدير في اتجاه اللوح: «سأكون مضطرًا إلى استخدام رموز لغة الماندرين. أهم رمز ينبغي تعلمه هو «ديان»، من يعلم معناه؟»

يصيح التلاميذ كلهم معا: «برق».

يقول: «في وسعنا أيضًا أن نسميه كهرباء».

نكرر بصوت واحد محاولين مطابقة لفظه بأفضل ما نستطيع: «كهرباء».

«وإذا أضفت إلى ذلك رمز...».

نصيح جميعًا وهو يكتب الرمز إلى جوار الرمز الأول: «تكلم».

«نحصل على...»

«هاتف».

«وإذا أضفت رمزيّ «رؤية» و«بذار» إلى رمز «ديان»، فسأحصل على».

«تلفزيون!».

«وإذا أضفت رمز «ظل» إلى رمز «ديان» فسأحصل على..».

«ظل كهربائي! سينما!».

لا عندنا كهرباء، ولا هواتف ولا تلفزيون ولا سينما. وحتى هذا اليوم، لست مقتنعة حقًّا بأنه سيكون لدينا فعلًا أي شيء من ذلك كله. كانت أمورًا يثيرنا السماع عنها، أمورًا تسلينا أكثر مما يسلينا جدول الضرب أو تعداد البلدان المحيطة بنا، تلك البلدان التي لم يرَها أحد منا ولن يراها، بل حتى لا يستطيع أن يتخيلها. لكنني أدركت اليوم مقدار ما يتمتع به المعلم زهانغ من خبث. لقد جعلنا نتوسل إليه كي يعلمنا لغة ماندرين. أو... لعله شخص مخادع، ولعل هذا هو السبب في إرساله إلينا وفي أنهم لن يسمحوا له أبدًا في العودة إلى موطنه. على أي حال، أتمنى ألا يسمحوا له بالعودة لأنني لا أريد ذهابه. أنا في حاجة إليه.

أجري خارجة مع بقية الأطفال، لكني أرقب الباب منتظرة خروج المعلم زهانغ من غرفة الصف حاملًا إناءه المعتاد الذي يملؤه ماء حارًّا. جلس ذات مرة على طاولته المصنوعة من البامبو كي يتناول غداءه. ذهبت إليه ومددت يدي إلى جيبي فناولته قبضة صغيرة من شاي محضر من أوراق الشاي من أدنى نوع.

«ساعدني، يا معلم زهانغ. ساعدني!».

*

بطبيعة الحال، يعارض آبا وإخوتي أن أحظى بأي قدر إضافي من التعليم. «لماذا قد يرغب زوج في زوجة تظن نفسها أذكى منه؟». يطرح آبا هذا السؤال على المعلم زهانغ عندما يطرح هذه الفكرة في حين تنظر إليه آما كأنها ترى عليه بثور مرض الطاعون.

أبادر بالقول: «آبا، سوف أتعلم مسؤوليات الزوجة والأم. سوف أظل ابنة مطيعة وأشارك في قطاف الشاي. لن أتأخر عن أي واجب أو مهمة. إن حدث هذا... حتى لمدة لا تتجاوز طرفة عين سنونو... فأنا أعدك بأن أضع كتبي جانبًا إلى الأبد».

«لا».

بعد نصف دور زمني، يتجاوز المعلم زهانغ أبي ويدعو رئيس القرية والروما والنيما إلى بيتنا بغية التشاور.

يقول رئيس القرية: «التعليم الوحيد الذي يلزم البنت هو ما تتعلمه من أمها. سيأتي وقت نصير فيه محتاجين إلى قابلة جديدة».

أتعهد قائلة: «سوف أتعلم هذه المهام». سوف أتعلمها فعلًا لأنني

لا أرى أي سبيل أخرى لنجاح خطتي. أقول هذا وأتجنب النظر إلى عيني آما خشية أن ترى الحقيقة في قلبي. لا أستطيع أبدًا أن أصير قابلة.

يلتفت رئيس القرية والروما والنيما إلى آبا كي يروا استجابته.

يقول: «لقد قلت لا».

يبدو قادة القرية مستعدين لقبول قرار أبي في شأن ابنته، لكن المعلم زهانغ يتعمد الفظاظة وينكأ جرح الدونية الذي نحمله جميعًا.

يقول: «لقد عشت بينكم سنوات طويلة، وفي وسعي أن أقول لكم هذا: أنتم قوم لا يقيمون للتعليم وزنًا. تفضلون أن تتركوا أطفالكم يجمعون الطعام ويصطادون على أن تتركوهم يدرسون. تتشدقون بأن للأكها عقل واحد، لكنه عقل منزوٍ، مغلق، كثير الشكوك. من هذه الناحية، أنتم أبناء أقلية إثنية متشابهون جميعًا».

يجد رئيس القرية نفسه محرجًا فيقرر أن المعلم زهانغ قد طرح فكرة حسنة، «سوف تكون تشريفًا لقريتنا وإلهامًا لبقية الأطفال».

لكن الآخرين يظلون صامتين، ويظلون معارضين.

يتابع المعلم زهانغ كلامه مصرًّا: «ليست هذه الفتاة الهزيلة، في نظركم إلا فمًا آخر ينبغي إطعامه إلى أن تتزوج. وأما إذا تركتموها تواصل دراستها، فقد تستطيع ذات يوم أن تعينكم». يقول هذا ثم يتوسع في حديثه عن الممكنات... «ماذا لو قررت الحكومة أن القرية في حاجة إلى كادر مثلما كان الأمر أيام «القفزة الكبرى إلى الأمام» و«الثورة الثقافية». كانت تلك أيامًا مظلمة، أليس كذلك؟ ألا تفضلون أن يكون لديكم شخص من قرية بئر النبع يتكلم باسمكم؟».

يقول النيما بعد خروجه من حالة الذهول: «دعوها تذهب إلى مدرسة المستوى الثاني، ثم إلى مدرسة المستوى الثالث، إن كانت مستحقة ذلك. سوف تتقن لغة ماندرين. وفي سنوات قادمة، ستكون قادرة على التواصل مع الناس من أكثرية هان».

يضيف الروما متفقًا بدوره مع المعلم زهانغ: «وإذا قرروا أننا في حاجة إلى كادر في قريتنا كي يكون مشرفًا علينا، فسوف تكون هي مرشحتنا». مكتبة سُر مَن قرأ

يا للشمس ويا للقمر! إذًا، سيقع عليَّ اللوم وأتلقى العواقب كلها إذا لم يُطِع أهل قرية بئر النبع أوامر الحكومة! أم أن الروما يوافق على خطتي لأنني بنت، ولأن التحكم بالبنت والتلاعب بها أمر سهل؟ بل إن آبا نفسه رأى أن أولئك الرجال باحثون عن مصلحتهم، لا عن مصلحتي. يقول من جديد: «لا». هذا غريب ولافت لأن رئيس القرية والروما والنيما صاروا متفقين جميعًا. إلا أن مصالحهم كانت، آخر الأمر، أهم من القواعد التقليدية الخاصة بالفتيات، ولم يكن آبا إلا رجلًا واحدًا في مواجهة قوى كثيرة اِتحدت ضده. خرجنا فائزين، أنا والمعلم زهانغ.

*

بذلت أقصى الجهد خلال السنتين اللتين أعقبتا ذلك. أؤدي مهامي في البيت. وأقطف أوراق الشاي، وأتبع آما وأتعلم منها، وأذهب إلى المدرسة، وأعمل (وحدي) مع المعلم زهانغ كي تتحسن مهاراتي في الرياضيات. أتقدم إلى امتحان القبول في مدرسة المستوى الثاني، وأجتازه بنجاح. يجمع رئيس القرية والروما والنيما أبناء القرية جميعًا كي

يعلن عليهم هذا النبأ ويقدم إلى آبا كيس تبغ تقديرًا لكونه أبًا بعيد النظر. يعطيني المعلم زهانغ نسخة من أحد كتب لوكسون، «حتى تتعرفي على أعظم كتّابنا».

وبعد شهور، عندما تبدأ الدروس، أسير وحدي إلى مدرسة المستوى الثاني. أنا خائفة جدًّا. عمري اثنا عشر عامًا، ولا أزال قصيرة جدًّا. أدخل باحة المدرسة فأسمع لغات مختلفة كثيرة... داي ويي ولاهو وهاني وناكسي وماندرين. لا أسمع كلمة واحدة بلغة الأكها. ندخل غرفة الصف ويخصصون لنا أماكن جلوسنا (شيء لم أعهده من قبل) ويضعونني في زاوية خلفية فأكتشف وجود شخص آخر من الأكها. أعرفه على الفور: سان-با، سارق الفطيرة.

القسم الثاني

زهرة جميلة تنادي

١٩٩٤-١٩٩٦

قطيطة عمياء

كل سنة، في شهر «كور لاو بار بار» الذي يقابل ما تدعوه أكثرية هان الشهر القمري الثامن وما أعلم الآن أن بقية العالم تدعوه شهر سبتمبر، يقام عندنا «مهرجان الأرجوحة». وفي يوم الجاموس، يبدأ هذا الاحتفال الذي يتواصل أربعة أيام، أي إنه يبدأ بعد ثمانية أدوار زمنية كاملة (مئة وثمانية أيام) من اليوم الذي يعلن فيه كل روما في قريته عن بدء غرس الأرز. لكن للمهرجان غاية أخرى تتجاوز طقس الشكر المقدس: اللقاء بين الأولاد والبنات الذين بلغوا سن الزواج. لهذا السبب، ثمة من يدعو هذا المهرجان «رأس سنة المرأة» لأنه قد يكون بداية حياة جديدة لنا. وفي هذه السنة، بلغت السادسة عشرة. فاجتمعت نساء أسرتي لمساعدتي في وضع غطاء الرأس أول مرة.

تقول آما: «عندما صرتِ في الثانية عشرة، تخليتِ عن رداء الطفولة وصرت تضعين وشاحًا بسيطًا. وبعد سنتين من ذلك، أحطتِ خصرك بوشاح آخر مزين بالخرز يتدلى على ساقيك كي لا تطير تنورتك».

تشير إلى الكنة الثالثة التي تحمل غطاء رأسي. الغطاء مزين بريشات

دجاج مصبوغة، وحاشية من فراء القرد، وكرات ملونة من صوف، وقطع نقدية فضية، وزينات تلقيتها من آما وغيرها على مر السنين.

«الجهد الذي بذلته في غطاء الرأس هذا سوف يبيّن لزوجك في المستقبل، ولأسرته أيضًا، شدة إتقانك العمل ورغبتك في العمل الجاد وأنك تعرفين طريق هجرة الأكها من خلال الرموز المطرزة هنا». هذا ما تقوله الكنة الثالثة المعتزة بأنها هي التي علمتني... «وسوف يكون أيضا إعلانًا عن قدراتك الفنية التي تستطيعين نقلها إلى ابنتك إن شاء الحظ العاثر أن تلدي ابنة».

تقدم غطاء الرأس إلى آما التي تثبته فوق شعري بلطف شديد. عندما كانت هذه الكيلوغرامات الخمسة في حجري، كانت أخف كثيرًا مما هي الآن بعد أن صارت فوق رأسي. اعوَجّت رقبتي قليلًا تحت هذا الثقل الجديد.

تقول آما: «لقد تلقيت الآن هدية بلوغك سن المرأة».

تبتسم الكنات، وترمقني بنات إخوتي بنظرات الحسد. أنظر إلى المرآة فأرى بنتًا نحيلة، لكنها حلوة. عيناي واسعتان على شكل ورقتين من أوراق الأشجار. وأنفي نهايته دقيقة... ليس مثل نساء أكثرية هان ذوات الأنوف المضغوطة. وجنتاي مسمرتان من الشمس وهواء الجبال. وبكل تأكيد، أنا جاهزة للزواج. ليتني كنت قادرة على الجري إلى الخارج، هذه اللحظة، إن كان الصبي الذي أحبه سرًّا قد جاء. لكن هذا الطقس لم ينتهِ بعد.

تتابع آما كلامها: «وكما وعدتِنا، أنت لم تتخلفي أبدًا عن أداء أي

مهمة أو أي واجب. تدرسين الأرز، وتطحنينه تحت البيت كل صباح. تأتين بالماء. وأنت مُجِدة في العمل مثلما يكون أشقاؤك خلال موسم قطاف الشاي...». ينقطع صوتها. تريد من هذا أن تجعلني أتذكر الوقت الطويل الذي نمضيه في أرضي التي لا نفع منها، نمضيه في العناية بالشجرة الأم وبالشجرات الشقيقات. لكني أفكر في كل ما أنجزته من عمل مدرسي بعون من المعلم زهانغ الذي يواصل إشرافه عليَّ، وكيف تعلمت ألا أقول لأسرتي شيئًا عمَّا أتعلمه هناك. ارتكبت غلطة في وقت مبكر فقلت لآما وآبا إن خسوف القمر لا ينتج من أن ثمة كلبًا من الأرواح يأكل القمر وإن بورما صار اسمها الآن ميانمار.

تقول الكنة الأولى: «وأنت الآن قادرة على صنع الدواء. أعطيتِ ابنتي ورقات شاي لتضعها على بثورها كي تختفي سريعا».

تضيف الكنة الثانية: «أعطيتني إياها أيضًا كي تخفف ظهور الدوائر القاتمة تحت عيني. استفاد زوجي من التبغ البري الذي قلت له أن يمضغه كي يهدِّئ ألم أسنانه. وهو الآن يستخدم الراسب اللزج الباقي في غليونه لقتل العلَق، تمامًا مثلما نصحتِه أن يفعل».

وتقول الكنة الثالثة بصوت مهيب: «وأنت تعرفين جرعات الدواء الصحيحة التي تُعطى للمحتضرين. كما تعلمت كيف تستخرجين محتويات معدة القنفذ وتسلقينها كي يتناولها من لا يستطيع التوقف عن التقيؤ».

ترفع آما يدها كي تُسكت الآخرين: «أهم من هذا كله أنك تعلمت مهارة التوليد».

هذا صحيح. عندما وضعت تلك المرأة في «قرية غابة البامبو» مولودًا ميتًا، حرصتُ على أن تُدفن المأساة في الغابة. وفي السنة التالية، وضعت المرأة نفسها مولودًا ميتًا ثانيًا. تقول التقاليد إن هذا المولود هو المولود الأول نفسه وقد عاد مرة أخرى. أمرتُ الأب برمي الجثمان الوليد في الماء لكسر دورة الرجوع هذه. ثم أتت السنة التالية فأنجب الاثنان صبيًّا سليمًا معافًى. وفي قرى أخرى، رأيت ثلاثة من مواليد «الأغلاط البشرية» يأتون إلى هذا العالم معًا ويغادرونه معًا. كان حجم رأس واحد منهم مضاعفًا، ورأس الثاني صغير جدًّا. وعلى وجه الثالث ملمح غريب وصفته آما بأنه علامة على أن صاحبه سيكون غبيًّا في المستقبل.

تقول آما: «لم تضعفي حتى لو مرة واحدة».

ولكن، ما أكثر ما شهدنا، أنا وآما، من تغيرات منذ مولد الغلطتين البشريتين اللتين أنجبتهما سي-دو وديه-جا. أدرك الآن أنني أعيش في منطقة نائية جدًّا لم تسمع بسياسة الطفل الواحد إلا منذ قرابة خمسة عشر عامًا. وأخيرًا، عندما افتتح مكتب تخطيط الأسرة في مركز استلام الشاي، كان نشاطه مقتصرًا على العاملين من أكثرية هان لأن سياسة الطفل الواحد كانت غير سارية على أي أقلية عرقية في أي ناحية من نواحي البلاد. إذا حبلت امرأة من أكثرية هان بطفل ثانٍ، فهي ملزمة بإجهاضه وبدفع غرامة. ثم يجري تعقيمها إذا ظلت مصرة على مسلكها الطائش هذا. لكن غاية آما من حديثها عن القبالة غير مقتصرة على الثناء عليَّ. هذا الحديث مقدمة للتحذير الذي تتلقاه من والدتها كل فتاة تضع غطاء رأسها أول مرة.

تقول لي: «اليوم، على امتداد البلاد، صارت للمواليد الجدد قيمة لم تكُن لهم من قبل. وعلينا، نحن الأكها، أن نأتي بكثير منهم، حتى إن كانوا توائم... إن أردنا ذلك!». الروما والنيما موافقان على هذا الأمر بقدر من الرضا الذكوري الخبيث، وذلك أن هذا هو الأمر الوحيد الذي نتفوق فيه على أكثرية هان. تقول آما بعد ذلك: «من المؤسف أن هذا التغيير لم يقع في وقت أبكر»، فأدرك أنها تشير إلى تلك المرة الوحيدة التي شهدت فيها قريتنا ولادة توأمين. تضيف بعد ذلك كأنها تريد أن تريحني: «من حسن الحظ أن قادتنا كانوا سريعين في اعتماد هذا التغيير. ففي قرى أخرى... الحقيقة أن تركَ أمورٍ اعتاد الناس الإيمان بها على امتداد أجيال كثيرة يمكن أن يكون تغييرًا صعبًا». تتوقف لحظة كي أستوعب كلماتها. «ولكن، ومهما يكن من أمر، فإننا لا نقبل أن يولد طفل لامرأة غير متزوجة، مثلنا في هذا مثل أكثرية هان. يعلم الجميع أن إنجاب طفل من غير زواج أمر محرم».

هذا واحد من تقاليدنا التي لا معنى لها. يجري حض الفتيان والفتيات على الجماع قبل الزواج، لكنهم يحرِّمون على الفتاة أن «تقع في مشكلة». بصرف النظر عن ذلك، أنا أذكى من أن أقع في مشكلة. لقد قرأت قصصًا، ودرست التاريخ والرياضيات والعلوم. وقد علمني هذا كله أهمية التفكير المستقل والحرص على جسدي والنظر إلى المستقبل.

تقول آما: «أنت الآن امرأة»، فتومئ النساء برؤوسهن إزاء جلال هذه العبارة.

في تلك اللحظة، أسمع من الخارج صوت سي-ته مناديًا باسمي.

اسأل آما: «أأستطيع الخروج؟»

إنها نهاية مفاجئة لهذا الطقس الاحتفالي... لكن، ماذا بقي منه؟ أخرج مسرعة من الباب وصوت آما يلاحقني: «هذا يوم عظيم لكل منكما».

سي-ته واقفة في انتظاري عند أسفل السلم. أود القول لها إنها تبدو جميلة بغطاء رأسها وملابسها الاحتفالية، لكننا -نحن الأكها- لا نستخدم هذه الكلمة أبدًا في وصف إنسان آخر.

بدلًا من ذلك، أقول لها: «سيكون الفتيان جميعًا راغبين في أخذك إلى غرفة الزهور عندما تقع أعينهم عليك».

تقول ضاحكة: «غرفة الزهور!؟ لقد فعلت هذا من قبل. أفضل الذهاب إلى الغابة لسرقة الحب. السؤال: متى تذهبين أنت إلى غرفة الزهور؟»

يحمرّ وجهي. فكرة أن ألتقي فتًى وأكون وحدي من غير والديَّ...

تواصل كلامها من غير اكتراث، لكنها تدرك الأثر الذي سيكون لكلماتها عليَّ: «بالطبع، إن أتى، هو، فقد تحبين أخذه إلى الغابة من غير تأخير. هذا أمر عادي، كما تعلمين. عليك أن تكفي عن التصرف كأنك قطيطة عمياء وعليك أن تتصرفي بما يتناسب مع سنك. من غير هذا لن تتزوجي».

بعض الأولاد والبنات (ومنهم صديقتي هذه) كانوا يذهبون إلى الغابة لسرقة الحب منذ الثانية عشرة. لكني لست مثلهم. كان وقتي الفائض كله مكرسًا للدراسة وللواجبات المدرسية. ومع مرور الزمن، تغير موضع مقعدي في المدرسة إلى أن صرت جالسة في الصف الأمامي.

وبدوره، بدأ مقعد سان-با يتحرك متقدمًا إلى أن بلغ وسط غرفة الصف. في غضون عامين اثنين، سنتقدم إلى «غاوكاو» الذي هو الاختبار الوطني من أجل السماح لنا بمواصلة تعليمنا في جامعة أو كلية في الصف الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع. وإذا فشلنا في اجتياز ذلك الامتحان فلن تكون لنا فرصة التقدم إليه مرة أخرى. وأما إذا نجحنا فسوف نكون أول شخصين من أي قبيلة جبلية في جبالنا ينالان فرصة دخول التعليم العالي. وبعد ذلك نتزوج وننجب أطفالًا بقدر ما نريد ونكون جزءًا من تلك التغيرات كلها التي ستشهدها محافظتنا...

لست أدري متى وقعت في هوى سان-با. هل كان ذلك في الأسبوع الماضي عندما قال لي مازحًا إنه يحب أن يراني بعد أن أضع غطاء الرأس؟ هل كان ذلك منذ سنة عندما أمضيت ساعات في مساعدته في واجب الجبر؟ أم أنني أحببته منذ ست سنين عندما أعطاني تلك اللقمة من الفطيرة؟ لقد أمضينا معًا زمنًا طويلًا جدًّا في السنوات الأخيرة لأننا الوحيدين في صفنا من الأكها. درسنا معًا تاريخ بلاد أخرى واقعة خلف البلاد التي عند حدودنا لكنها تظل شبيهة بالصين: روسيا وكوريا الشمالية وكوبا. عانينا معًا صعوبة قراءة الروايات الصينية العظيمة -روايات من بينها *«حلم الغرفة الحمراء»* و*«فتى ريكشاو»* فضلًا عن روايات من عند أصدقائنا الروس... تولستوي ودوستويفسكي. تكلمنا وتكلمنا. وقد أمضينا ساعات كثيرة نمشي معًا: جزء من طريق الذهاب إلى مدرسة المستوى الأول ومدرسة المستوى الثاني والعودة منهما. يهتم دائمًا بما أريد قوله، وأحب سماعه يتحدث عن رحلات الصيد مع والده وغيره من

رجال القرية. استطعت مساعدته في إعداد واجباته المدرسية، وكان يعبر عن شكره وامتنانه بأن يجلب لي هدايا صغيرة يأتي بها من الغابة... وردة أو سوار من عرق نباتي مجدول أو بيضة من عش طائر.

أقول لصديقتي همسًا: «إذا طلب مني سان-با الذهاب إلى غرفة الزهور أو إلى الغابة فسوف أذهب».

أظن أن الناس في القرية المجاورة سمعوا ضحكتها العالية. صحيح أننا ما عدنا نمضي اليوم كله معًا مثلما كنا نفعل أيام مدرسة المعلم زهانغ، لكننا لا نزال صديقتين لصيقتين إلى أقصى ما تكون الصداقة بين فتاتين.

تقول لي بعد أن تلتقط أنفاسها: «إذا لم يعجبك الأمر معه، فعليك أن تسرقي الحب مع واحد من الفتيان الآخرين الذين سيكونون هنا خلال فترة المهرجان. يمكنك ذلك طالما أن الفتى ليس من عائلتك».

«لن تكون سرقة الحب مع سان-با مثلما هي بالنسبة إليك و...»

تقاطعني قبل أن أكمل جملتي، «الفتيان يجربون الفتيات والفتيات تجربن الفتيان. وإذا وجد الاثنان أن الأمر أعجبهما، فسوف يطلب الفتى الزواج بالفتاة. وعندما تقع الفتاة في مشكلة من غير قصد، فإما أن تتزوج أو تزور أمك من أجل واحد من أدويتها الخاصة. وأما إذا لم يعجب الجماع أيًا منهما، فلماذا يمضيان بقية حياتهما معًا؟ في هذه الحالة، يكون الأمر الصحيح أن يبحثا في مكان آخر».

«لا أريد أن أجرّب كل بطيخة في السوق. أنا لا أريد غير سان-با... إلى أن نصير من مسني القرية... إلى أن نموت... وإلى الأبد في العالم الآخر».

يدفع اعترافي سي-ته إلى نوبة جديدة من الضحك.

نسير صاعدتين في دروب متتالية إلى أن نبلغ فسحة مطلة على القرية. لقد فكّ عدد من الرجال الأرجوحة القديمة في حين يقف آخرون من حول نارٍ تُشوى عليها قطع من الأضاحي. أبحث عن سان-با، لكن الناس كثيرون هناك... نساء تقايضن مكانس من صنع بيتي أو مطرزات أو فطورًا برية مجففة مقابل خرزات فضية وزينات أخرى من أجل أغطية رؤوسهن. ويقايض الرجال جلودًا مدبوغة في البيوت مقابل حديد يذهبون به إلى حداد القرية كي يصنع منه فؤوسًا ونصالًا لسيوفهم. أنا وسي-ته الفتاتان الوحيدتان في القرية اللتان تضعان غطاء الرأس أول مرة، والفتيان ينظرون إلينا مثلما ينظرون إلى عنزات معروضة للبيع.

تجذبني سي-ته بكمي. «عندما تأتي تلك اللحظة -وسوف تأتي- دعيه أولًا يفتح طريقا هناك، في الأسفل. سيظل الأمر مؤلمًا، لكن الألم يصير أخف. أظنه سرق الحب من قبل، وسوف يعلم كيف يفعل هذا».

قبل أن تسنح لي فرصة لسؤالها عمّا تعنيه بـ«يفتح طريقًا»، تنطلق في الجو صيحات وهتافات وتظهر من الغابة مجموعة شبان يحملون ثلاثة جذوع نحيلة جرّدوها من لحائها. يحمل واحد منهم بين ذراعيه حلقات من عرق نباتي سحري. سان-با! لقد اعتدتُ رؤيته في المدرسة مرتديًا بنطلونًا وسترة غير مزينتين، لكن ملابسه اليوم ملابس رجل يريد أن يرى الجميع أنه من أسرة حسنة الحال. لقد نقعت أمه قماش بنطلونه القصير وسترته في صباغ نيلي مرات كثيرة حتى حصلت على هذا اللون العميق الغني. وحتى من هذه المسافة البعيدة، أستطيع رؤية أن سترته

مكونة من طبقات كثيرة. وقد زيّنت أمه، أو شقيقاته، حزامه بخمسة صفوف من تطريز متشابك. وبدلًا من العمامة، وضع على رأسه قبعة مزينة بقصاصات فضية مشغولة على هيئة أوراق نبتة الأكانثوس.

تطلق سي-ته تنهيدة مسرحية. «انظري إليه! من المؤكد أنه أتى باحثًا عن زوجة. إنه آتٍ من أجلك! وإلا فلماذا يسير هذه المسافة كلها؟ لماذا ينضم إلى فتيان قريتنا في الذهاب إلى الغابة لجلب هذه العروق السحرية ولقطع الأشجار؟ لقد سار ساعات في دروب جبلية ولا يزال يبدو شديد الـ...»

أكمل جملتها: «يبدو رجلًا جميلًا».

«جميلًا!». تضع يدها على فمها كي تخفي ضحكتها.

يراني. لا يتظاهر بعدم الاهتمام. تنفرج شفتاه عن ابتسامة كبيرة ويشق طريقه عبر جمع الناس آتيًا في اتجاهنا. تطبق سي-ته فمها، لكني أرى شدة حماستها. يتوقف أمامنا على مسافة متر واحد منا. عيناه براقتان كحصاتين سوداوين غسلهما المطر. يقول: «قريتكم جميلة. لكن أتطلع إلى يوم تأتين فيه إلى قريتي. إنها أكبر، ونحن على قمة تلة، لا في وهدة مثل هذه».

لا يمكن أن يكون قصده أكثر وضوحًا. ها هو يقول لي إنه سيكون زوجًا مناسبًا لأن قريته أفضل من قريتي... قرية أغنى والدفاع عنها أشد سهولة. يحمرّ وجهي احمرارًا شديدًا. لا بد أنه صار بلون عصير التوت البري. يحرجني هذا فأحس وجهي يزداد احمرارًا. ولحسن حظي، يصل الروما إلى الفسحة.

لن تُنصب الأرجوحة حتى يوم غد. لهذا، سيكون هذا الجزء من الاحتفال قصيرًا. يبدأ الروما إنشاده الطقسي، لكننا لا نفهم تمام الفهم تلك الكلمات التي ينطقها فمه. تكونت ثقافتنا عبر قرون كثيرة على يد أسلافنا الذين عاشوا على الأرض قبلنا. لا يعرف أحد غير الروما كيف كانوا ينطقون كلماتهم منذ مئة سنة، أو منذ ألف سنة. مع فراغه من الإنشاد، أصير جاهزة لخوض محادثة طبيعية.

أسأله: «ألا تريد أن أريك قريتنا؟».

لا أجد شيئًا غريبًا في سيري إلى جانب سان-با... أشير إلى البيوت وأذكر أسماء من يعيشون فيها وأحكي له قصصًا صغيرة عن جيراننا. يسمع كل ما أقول، ويطرح أسئلة عن أمور لم نتحدث فيها أبدًا طوال تلك السنين التي جمعت بيننا.

يسألني: «كم شقيقًا عندك؟ وكم شقيقة؟ وكم ابن عم وابنة عم يعيشون في البيت الكبير؟»

أطرح عليه الأسئلة نفسها وأضيف إليها: «ما عدد أكواخ المتزوجين حديثًا لدى أسرتك؟»

يجيبني: «أنا الابن الوحيد. وشقيقاتي الثلاث تزوجن وتركن البيت».

يعني هذا أن والده ووالدته سيرحبان بكنّة وسيسعدان ببناء كوخ للمتزوجين حديثًا وسيتوقان إلى سماع أصوات أحفادهما في بيت العائلة.

«سأزور قرى شقيقاتي في طريق عودتي إلى قريتنا». يقول هذا لأنني كنت شديدة الانشغال بالأفكار التي في رأسي.

أقول متلعثمة: «أنت لن تذهب الليلة، أليس كذلك؟»

«أستطيع البقاء هنا طوال فترة المهرجان إذا أحببتِ».

«أحبك كثيرًا أن تبقى». يندفع الدم إلى وجهي فيحمر من جديد.

ندور حول القرية ونعود إلى فسحة الأرجوحة حيث احتشد الجميع حول النار في انتظار الوليمة. ينضم سان-با إلى بقية الفتية غير المتزوجين، وأذهب للجلوس مع أسرتي. لكن عيوننا تظل تلتقي من غير انقطاع. تواصلنا الصامت عميق جدًّا يجعلني أحس أننا الشخصان الوحيدان الموجودان هنا. تبدأ الموسيقى ويبدأ الغناء والرقص فور انتهاء وجبة الطعام. يناول أحدهم سان-با طبلًا فينضم إلى الرجال الراقصين الذين ينيرهم ضوء النار. يعلو جسده ويهبط مع كل ضربة من ضربات الطبل. أحس حرارة غير آتية من النار ولا من تورد خديَّ، بل من مكان أسفل وسطي. ولأول مرة، يدرك جسدي تمام الإدراك ما يجعل الفتيان والفتيات راغبين في الذهاب إلى الغابة لسرقة الحب.

*

يحتشد الجميع في الفسحة صباح اليوم التالي، ويشرف الروما على الرجال الذين ينصبون الأعمدة الأربعة من أجل الأرجوحة الجديدة ثم يميلونها إلى أن تلتقي عند أعلاها. يتسلق رجل ضئيل الجسم واحدًا من الأعمدة ويربطها كلها معًا. وبعد ذلك، يربط حبلًا طويلًا مصنوعًا من عروق نباتية تاركًا نهايته على شكل أنشوطة تتدلى وسط الهرم الذي ترسمه الأعمدة الأربعة. وأخيرًا، يقدم الروما نذوره لاسترضاء أرواح الأرض وحمايتنا من أي حوادث.

يغني منشدًا: «أنا آما وآبا في قرية بئر النبع. ومثلما تفعل الدجاجة الأم، أحمي أولئك الذين تحت جناحي. ومثلما يفعل جاموس الماء الأب، أحميهم بقروني».

يمسك بالحبل ويسير حتى الرابية المرتفعة عند الأرجوحة، ثم يضع قدمه اليسرى في الأنشوطة. وبعد ذلك، وسط الصياح والتهليل، يهوي نازلا بين الأعمدة ويجتازها مندفعًا في الهواء صعودًا فوق الحافة المطلة على القرية. ثم يتتالى الرجال جميعًا، من أكبرهم إلى أصغرهم، ويفعلون مثلما فعل.

أخيرًا، يأتي دورنا، نحن الفتيات. يوضع في الأنشوطة لوح خشبي كي نجلس عليه بغية اللياقة والاحتشام. وعندما يأتي دوري، تدفعني كل من سي-ته والكنّة الثالثة فأطير بين الأعمدة وأعلو في الفضاء. ريح تتخلل غطاء رأسي. وتجلجل الكرات والزينات الفضية. ترفرف ريشات الدجاجة. تلمع في الشمس الفضة التي تزيّن صدري. وأنا عصفور محلّق من أجل سان-با. لا أستطيع التوقف عن الابتسام والضحك عند مروري فوق رأسه جيئة وذهابًا. يبتسم لي ويضحك مثلي.

في وقت لاحق من تلك الليلة، بعد وليمة أخرى، آخذ سان-با إلى غرفة الزهور. بعض الفتيان والفتيات قد سبقونا أزواجًا. لا أرى مكانًا خفيًّا من أجلنا، لكن هذا غير مهم. أهلنا لا ينظرون إلينا، وفي وسعنا أن نفعل ما نريد. يشدني سان-با بين ذراعيه فأحس أن كلًّا منا يعلم ما ينبغي فعله. شفتاه رقيقتان على شفتي. ومع آهة لم أسمعها قبل الآن إلا

من كوخ المتزوجين حديثًا يدفن رأسه في رقبتي ويقبلني مرة بعد مرة. أحس أنني ما عدت قادرة على البقاء واقفة.

*

صباح اليوم التالي، تسألني آما ونحن نطحن القمح معًا تحت البيت: «مع من كنت ليلة أمس، هل كان لو-با؟»

آما وآبا معجبان دائمًا بفتى اسمه لو-با من قرية «غابة البامبو». كنا نذهب معًا إلى المدرسة الابتدائية، وكان والداي يتمنيان دائمًا أن أصير زوجة له. يضع لو-با نظارة لها إطار عريض أسود تجعله يبدو أشبه ببومة، لكن من غير شيء مما تتسم به البومة من ذكاء. لم يتبادر إلى ذهني مرة واحدة أن أزور «غرفة الزهور» معه.

أظل مطرقة برأسي فوق حجر الطحن آملة أن تفكر آما في شيء آخر تتحدث عنه. لكنها آما، ومن واجبها أن تكون فضولية.

تظل على إلحاحها. «أكان ذلك الفتى الغريب الذي رأيته ينظر إليك؟»

«أظن هذا». أجيبها، بعد أن أعلم علم اليقين أنها تعني سان-با.

«ولكن، أليس هو من سرق الفطيرة منذ سنين؟». لا توبخني آما لأنني أخذته إلى غرفة الزهور، لكنها تمضي إلى لب الأمر من غير تأخير. «إنه مولود في يوم النمر. وأنت مولودة في يوم الخنزير. هذا أمر لا يمكن أن يتغير. أنا ووالدك لن نوافق أبدًا على زواجكما».

«لكني أحب سان-با».

«أتحبين سان-با؟» تنطق اسمه كأن على لسانها عشبة مرة الطعم... «ما تفعلين ليس إلا عبثًا بالقدر من غير إحساس بالمسؤولية».

لكني لن أستسلم. لن أستسلم أبدًا. «سوف يكون زوجًا جيدًا. أسرته أفضل من أسرتنا. ونحن متعلمان...».

تقول بنبرة قاطعة: «لا أهمية لذلك كله، وأنت تعلمين هذا. لا معنى لزيارته. عليك أن تجدي فتى غيره».

بعد ساعات من ذلك، أترك سان-با يأخذني إلى الغابة (بعد مزيد من التأرجح وتناول الطعام). حياة متلألئة في العالم من حولنا: عبير الزهور، والأرض، والحيوانات البرية. أصوات الضفادع في غنائها المتواصل، وحيوانات تخور في لقاءاتها، وطيور تنعق وتنظر إلينا بعيون لامعة. الهواء نفسه يغسل جلدنا بأنفاسه الدافئة. نسير إلى أن نجد أرضًا مفروشة بأوراق أشجار وإبر صنوبر جعلها تعاقب الفصول طرية. نجلس جنبا إلى جنب ونحدق إلى سلسلة جبال تمضي مبتعدة عنا فتغوص رويدًا رويدًا في الضباب وفي الرطوبة، وتبعد المسافة إلى أن تندغم بالسماء الزرقاء الرمادية.

يسألني: «هل أنت واثقة برغبتك في فعل هذا؟»

«واثقة».

يميل كل منا صوب الآخر. يقبلني وهو يخفضني إلى الأرض بطيئًا. يعبث بملابسي. تخبرني يداه الخشنتان بأنه يعمل كثيرًا من أجل أسرته. يضغط على حلمة ثديي فتفلت من بين شفتي صيحة صغيرة غريبة الصوت. لم أجرب هذا الأمر مع فتية آخرين، لكني الآن تواقة إلى لمس اللحم تحت قميصه. صدره صقيل. عضلاته صلبة تحت كفي. يرفع تنورتي ويمد يده بين ساقي ويمسّ ذلك الجزء مني الذي صار الآن

رطبًا، زلقًا. لكنه هو الذي يتأوه الآن. يحدق إلى عيني. أرى في عينيه المسافة كلها حتى روحه. على ما بين ساقيه الآن أن يعثر على ما بين ساقيَّ. صحيح أنني لم أفعل هذا من قبل. لكني رأيت الديكة تعتلي الدجاجات. ورأيت الكلاب والقطط والخنازير. يعينني سان-با كي أنقلب وأجثو على يديَّ وركبتيَّ، أحس شيئًا حارًّا، صلبًا عند مؤخرتي. يتقوس ظهري على وقع أصابعه التي تلمسني. وأنا مسرورة جدًّا بنصيحة سي-ته لأنه يفعل الآن مثلما قالت... «يفتح طريقًا».

«سان-با» اسمه في فمي كأنه محيط يحملني إلى مكان لم أعلم وجوده من قبل. تستقر كفاه على ردفيَّ. ثم يعثر ذلك الشيء الصلب على مدخلي ويندفع فيه. أقابل اندفاعته بمثلها... وااااه! يا لهذا الألم! كأن محراك النار عند الحداد يخترقني. أسقط على مرفقيَّ. يسكن جسدانا سكونًا تامًّا. ينحني فوقي ويضعه فمه قريبًا من أذني.

«هل أتابع؟»

أستنشق نفسًا عميقًا ثم أومئ برأسي. يبدأ الحركة خلفًا وأمامًا. بطيئًا، بطيئًا. ما عاد الألم المفزع موجودًا، لكني لا أحس شيئًا من الحماسة التي أحسستها من قبل. إلا أن سان-با يحسها، فيزداد إيقاعه سرعة، تمامًا مثلما رأيت عند ذكور الحيوانات. ثم ينتهي ويسقط على ظهره، إلى جانبي ويخفي الشيء الحار تحت قميصه قبل أن تسنح لي فرصة رؤيته.

يقول لي: «أعدك بأن الأمر سيكون أفضل في المرة القادمة». يقبلني ويردّ تنورتي فوق ساقيَّ... «ألا تمضين الليلة معي؟».

أومئ برأسي فيطوقني بذراعيه ويشدني إلى صدره. أغمض عيني وأصغي إلى ضربات صدره.

*

تقول آما عندما أعود صباح اليوم التالي: «وأنا أيضًا كنت فتاة غير متزوجة... ذات يوم. تذكري فقط أن اليوم يوم امتناع طقسي في القرية كلها. يعني هذا...».

أجيبها: «أعلم ما يعنيه هذا». لكني أفكر في أن هذه فرصة لأن تُشفى أجزاء جسدي التي تؤلمني.

«كان متوقعًا أن تصيري مختلفة بالنظر إلى ذهابك إلى المدرسة وإلى خططك...»

«لم يتغير شيء من هذا».

لكنها لا تصدقني. «أنت لست مختلفة عن أي فتاة أخرى من فتيات هذا الجبل. غبية في الحب». تتنهد وتعود إلى طحن القمح.

لعله يوم امتناع طقسي (ضرورة أن نكون حذرين في استخدام أذرعنا وأرجلنا صار لها الآن معنى مختلف في ذهني)، لكنني أذهب إلى الغابة مع سان-با على الرغم من ذلك. يقول لي: «كي نتكلم فحسب». نعود إلى البقعة التي تضاجعنا فيها يوم أمس. نجلس ويقول لي إنه أحبني منذ رآني أول مرة عند مركز استلام الشاي. لا شيء يستطيع إسعادي أكثر من سماعي هذه الكلمات، ولا شيء يستطيع إسعادي أكثر مما مد يده إلى جيبه وأعطاني «ريشة العين»، ريشة طاووس.

يقول لي: «هذه من أجل غطاء رأسك».

أسأله: «من أين أتيت بها؟».

يرفع ذقنه ويقول: «تكفيك معرفة أنني وجدت شيئًا يمكن أن يفرحك».

مستقبلنا واضح. الآن، بعد أن قدم إليَّ هديته، لم يبقَ غير أن يسارع أبوه وأمه إلى إرسال مبعوثين كي يسألوا أهلي إن كان يستطيع أخذي إلى قريته زوجة له. سوف نتخرج... نذهب إلى الجامعة... ندخل اقتصاد السوق...

*

في الأسبوع الذي أعقب ذلك، تفاجئني رؤية المعلم زهانغ في فناء المدرسة خلال استراحة الغداء. الإشاعات تنتقل سريعًا. أتوقع أن يكون قد جاء لتهنئتي. لكنني مخطئة.

يسألني: «هل أنت واثقة بأنك تريدين الزواج بهذا الشاب؟ لقد بذلتِ جهدًا كبيرًا في الدراسة.

أحاول أن أكون مهذبة: «أنت أعظم من علّمني».

«وماذا عن امتحان غاوكاو؟»

«سوف نتقدم إليه معًا، أنا وسان-با».

يهز المعلم زهانغ رأسه حزينًا. «تعلمين أنه لن يُدعى أبدًا إلى التقدم إلى ذلك الامتحان. وحتى إذا حدثت أعجوبة ودعي إليه، فلن يستطيع اجتيازه. وأما أنت فإن لك مستقبلًا، من الممكن أن تكوني أول فتاة من هذا الجبل تذهب إلى «كلية الإثنيات العادية»، أو حتى إلى جامعة يونان».

«أنت مخطئ في شأن سان-با...»

يظل المعلم مصرًّا: «إذا تزوجت به، فسوف تكون التقاليد ثقيلة عليك. ستريد منك أسرتك وأسرته أن تلزمي البيت، وأن تنجبي أطفالًا، وأن تعالجي الناس مثلما تفعل والدتك».

يعتقد المعلم أن في ما أقوله خطرًا عليَّ، لكن سان-با لن يسمح أبدًا بحدوث هذه الأمور.

يظل المعلم على إصراره: «قولي لي إنك لن تتوقفي عن الدراسة».

أعده: «لن أتوقف عن الدراسة. سأتقدم إلى الامتحان، حتى إن لم يتقدم إليه سان-با».

بحركة حادة جدًّا، يومئ المعلم زهانغ برأسه ثلاث مرات، ثم يرفع كتفيه تحت سترته. وبعد ذلك، ينصرف عائدًا إلى مدرسته الابتدائية من أجل دروس فترة بعد الظهر.

أنظر إلى الفناء باحثة عن سان-با. أراه جالسًا على جدار مع عدد من الفتيان، ساقاه متدليتان. أدرك أنه رآني أتحدث مع المعلم زهانغ، لكنه لا يجتاز الفناء إليَّ كي يسألني عن الأمر.

*

لا أزال أحب أسرتي، ولا أزال أؤدي مهامي مطيعة. ولا أزال أحب سي-ته حبًّا شديدًا، لكنني لا أكشف لها عمّا أحلم به عن الحياة التي ستكون لي مع سان-با. لعل سي-ته تحس هذا التباعد المتنامي بيني وبينها، فها هي تبحث عن أعذار لنا كي نخرج من القرية ـ «نحن ذاهبتان إلى جمع الحطب، سوف نعود قريبًا»، وذلك كي أستطيع أن أفتح لها قلبي من غير

أن أخشى آذان الآخرين. أفهم رغبتها هذه لأن الواحدة منا تقول كل شيء لرفيقتها، دائمًا. لكن، على الرغم من رغبة سي-ته في سماع كل تفصيل من التفاصيل، أجد نفسي أحجبها عنها وأتكلم عن مشاعري كلامًا من غير معنى وأتفادى استفساراتها بأن أسألها إن كان والدها قد استقبل مقترحات للزواج منها بعد مهرجان الأرجوحة. (عادت أسرتها وصارت أغنى أسرة في الجبل بعد أن تجاوزت النكسة التي ألَّمت بها نتيجة التضحيات التي كانت ضرورية لنيل المغفرة والتخلص من نتائج الغلطة البشرية. يعني هذا أن سي-ته ستمضي إلى الزواج محملة بأعطيات كثيرة). تحكي لي عن هذا الفتى وذاك الفتى، لكن هذا لا يفلح في جعلي أقول لها شيئًا.

لا بد أن تهرُّبي يؤذي مشاعرها لأنها تصيح عليَّ قائلة: «يقول الناس إن سان-با لا يزال يزور فتيات غيرك في «غرف الزهور» في قراهن».

أقول لها: «أنا لا أصدق هذا». أنا لا أصدقه.

تشير إلى بعض الأسماء وإلى بعض الأماكن فلا أستنتج إلا أمرًا واحدًا.

أسأله: «هل تغارين؟».

ترمقني بنظرة متعالية. «ممن أغار؟».

«مني... لأنك تزورين «غرفة الزهور» وتسرقين الحب مع فتيان مختلفين، لكن أحدًا منهم لم يطلب الزواج بك؟»

«ما أسوأ أن تقولي لي هذا في حين أحاول أن أكون صديقتك».

«ماذا؟ ألا تظنين أن تكرار النمائم أمر سيئ؟ وحتى إن كان يفعل هذه الأشياء؟ فهل يجعله هذا أسوأ منك أو من أي فتى أو فتاة في جبل

مانوو ممن يجرّبون المضاجعة؟ هذا ما هو منتظر منا، نحن الأكها، فعله قبل الزواج».

تظل صامتة زمنًا طويلًا ولا تقول شيئًا. تطرح عليَّ آخر الأمر سؤالًا بسيطًا واضحًا: «هل أنت واحدة من تلك الفتيات اللواتي ينسين صديقاتهن عند مضاجعة الفتيان؟ أنا لم أنسَك عندما بدأت فعل ذلك».

ليست عندي إجابة عن سؤال يؤلمني ويؤلمها. ولكن، أليست الحال بيني وبينها هكذا على الدوام... واحدة تهوي وواحدة تعلو؟

*

يكثر سان-با من المجيء إلى قرية بئر النبع. نلتقي في «غرفة الزهور». نذهب إلى الغابة. سبقته وسألته عن الفتيات الأخريات فسألني عن الفتيان الآخرين. إجابتي: «لا أحد». إجابته: «وأنا أيضًا... ما من فتاة أخرى». بدأت أستمتع بالمضاجعة، بل إننا صرنا نفعلها لا كالحيوانات، بل وجهًا لوجه. أحب هذا خاصة، أحب أن أستطيع النظر إلى عينيه، أحب أن أقبل فمه، وأن ألف ساقيّ حوله. وبعد ذلك، عندما يمضي عائدًا إلى بيته، أظل مستلقية على فراش إبر الصنوبر ونغني أغاني الحب، نداء وإجابة، عبر سفوح التلال.

«تتفتح الزهور في أوجِها منتظرة قدوم الفراشات...»

«وأقراص الشهد تنتظر النحلات كي تصنع العسل...»

«وزهرة جميلة تنادي حبها...»

«وتطير النحلة في الهواء كي تعثر على...»

«النحلة تمتص الرحيق...»

«والزهرة تضمها بين بتلاتها...»

ننشد الخاتمة معًا كي يعلم كل من يسمعنا أن حبنا مطلق... «فلنقطف الأزهار معًا. آلوو ساي، آه-إي-آه-إي-أو-آه-إي-آه-إي-أو».

نحن سعيدان، لكن ثمة أمرًا لم يتغير منذ حادثة الفطيرة المسروقة. فمثلما تذكرني آما، أنا مولودة في يوم الخنزير. وسان-با مولود في يوم النمر. هذا ليس توافقًا ميمونًا، ومن الطبيعي أن تقف أسرتانا في وجه اتحادنا. ومثلما يفعل آباء الأكها جميعًا، يبعث إليَّ آبا رسائل غير مباشرة. تمس الكنة الأولى كتفي وتهمس إليَّ: «يكبر الصبي الضعيف فيصير رجلًا ضعيفًا». وتقول الكنة الثانية كلمات فظة: «يعلم الجبل كله أنه كسول». وتتمتم الكنة الثالثة، المفضلة عندي: «لن يكون لديك ما تأكلين إذا تزوجت ذلك الذي لا يصلح لشيء». في وسعهم أن يقولوا ما يشاؤون، لكن هذا لا يجعله حقيقة.

يوافق آبا على أن يزورنا سان-با في بيتنا. ويجري حديث بين الاثنين. وضع أسرتنا تحسن هذه الأيام، وهذا ما له أثره في مجرى الحديث. منذ ثلاث سنين، استطاع آبا مبادلة قسم من الأرز الفائض عندنا بخنزيرة فتية. كبرت الخنزيرة، وأنجبت، وصار لدينا الآن ثلاثة خنازير تنام تحت بيتنا. لن نصير أبدًا ميسوري الحال مثل أسرة سي-ته. لكن تحسَّن وضع مكانة آبا يمنحه ثقة بالنفس كي يتمسك بأفضل عرض زواج يمكن أن يأتيني.

أنا جالسة عند الجدار الفاصل بين القسمين في بيتنا. أستطيع سماع الحديث الجاري بين آبا وسان-با. يعلن سان-با أنه آتٍ كي «يحضر

زوجة». هذا هو التعبير الذي يستخدمه رجال الأكها للإشارة إلى الرغبة في الزواج.

يقول آبا: «لا».

يتلو سان-با أسماء أسلافه رجوعًا حتى خمسين جيلًا.

يقول آبا: «لا».

يشير سان-با إلى أنه ما من قرابة بين أسلافي وأسلافه منذ سبعة أجيال، وهذا يعني أننا تجاوزنا «حُرمة السفاح». لكن آبا لا يهتم بهذا. بل يقول: «لا»، ثم يضيف: «لم يحِن الوقت بعد كي تذهب ابنتي لتعمل وتأكل». هكذا تنظر نساء الأكها إلى الزواج. يقول أيضًا: «تعتزم ابنتي التقدم إلى امتحان غاوكاو كي تكون أول من تذهب إلى الكلية من أهل جبل مانوو». إلى هذا الحد لا يعجبه سان-با.

يأتي شهر «الراحة» بعد خمسة شهور. في الغرب، يقابل هذا الشهر شهر فبراير. وبما إن الرجال ليسوا مضطرين إلى العمل في هذا الشهر، فهم ينفقون أقصى الجهد في ترتيب خطط الزواج. تُمضي النساء غير المتزوجات الوقت في الحياكة وفي انتظار عروض الزواج. ولهذا السبب، يدعى هذا الشهر أحيانًا «شهر الزواج والحياكة». وحتى الآن، أمضيت وقتًا طويلًا في الحياكة لكني لم أرَ إنجاز أي ترتيبات زواج.

خلال الجزء الأخير من الدور الزمني الثاني، يأتي سان-با إلى بيتنا من جديد كي يسأل مرة أخرى إن كان يستطيع الزواج بي. يتلقى الإجابة المعهودة: «لا».

«سوف أكون زوجًا جيدًا».

«لا أظن هذا». اليوم، يمضي آبا في اتجاه مختلف بدلًا من الاستناد إلى حجة عدم التوافق بين يوم مولدي ويوم مولده. «لعلك تظن أنك تعيش في مكان بعيد ولا نسمع شيئًا عنك. لكننا نسمع. أنت تتاجر في أشياء لا تجوز المتاجرة فيها وتجرب أشياء لا يجوز أن تجربها. لو كنت شخصًا مسؤولًا مثلما تقول لأرسل والداك اثنين من كبار قريتك كي يطلبا أن تصير البنت كنّتهما، ولأرسلا الهدايا. وإن توصلنا إلى اتفاق، فسوف تذهب إلى بيتكم ليلة واحدة لكي تتأكد من أنها ستكون سعيدة فيه، ثم تتزوجان بعد ثلاثة أيام. أنا أذكر والدك يا فتى. لقد كان رجلًا محترمًا. فحتى قبل كل تلك السنين، كان مستعدًّا لحماية سمعة ابنتي من أفعال ابنه».

لا يجد سان-با سبيلًا إلى الدفاع عن نفسه.

يتكلم أبي من جديد: «انتهى الأمر».

وفي وقت لاحق، في الغابة. أسأل سان-با عمّا عناه أبي. «ما الذي يظن أنه سمعه عنك فجعله ينظر إليك بهذه الطريقة؟»

يضع سان-با فمه على فمي فنبدأ الحديث بطرق أخرى.

وفي عصر ذلك اليوم، نبدأ رسم خطتنا.

أقول له: «سوف نرحل معًا. نسير حتى مينغاي. نتزوج هناك. لن يمنعنا أحد».

يعيد شعرات أفلتت من غطاء رأسي الذي أضعه كل يوم فيدسها تحته. يقول لي: «أنا رجل، وأنت امرأة. واجبي أن أرعاك. أنا من يتخذ القرار. ستظلين هنا، وستتقدمين إلى امتحان غاوكاو. وسأغادر جبل

مانوو كي أعثر على عمل في واحد من البلدان الأخرى حيث يتجول الأكها...»

«ولكن، ألا نستطيع البقاء معًا؟ سأذهب معك. لاوس بلد قريب جدًّا. ميانمار أيضًا...»

«لا!». حدة صوت فاجأتني... «هذا غير صائب. لن يسامحني والدك أبدًا. أنا سأذهب... إلى تايلاند». هل يقرر الذهاب إلى ذلك البلد كي يذكرني بأن الكلمة كلمته وحده؟ ... «هذه مسيرة طويلة. وقد تبلغ مئتين وخمسين كيلومترًا على الخريطة. لكنها أطول كثيرًا عبر الجبال. أنا لا أهاب الجبال. سوف أجتاز المسافة في عشرة أيام، بل ربما أقل من ذلك. تابعي دراستك وتقدمي إلى امتحان غاوكاو. وعندما أعود بثروة في جيبي، سأجدك في كليتك. سأنضم إلى اقتصاد السوق وأجني مالًا أكثر. بعد تخرجك، سأسأل في قرية لا يعرفنا الناس فيها إن كان في وسعنا الحصول على قطعة أرض. سأعمل في الزراعة، وستكونين قائدة النساء». يحدق إلى عينيَّ، ولا أشك في أنه يبحث فيهما عن مدى عمق حبي... «سنقول للناس إننا مولودان في يومين متوافقين...».

«لا يمكن أبدًا أن نكذب على الناس في شأن القرابة بين أسلافنا».

«لن نكون مضطرين إلى الكذب. أقترح أن نغير كلمة واحدة فقط... من نمر إلى خروف. ومن الآن فصاعدًا، هذا ما سوف أعلنه كلما التقيت شخصًا جديدًا. سيمنحنا هذا بداية جديدة».

لست واثقة بأن هذا الاختلاق فكرة حسنة أو بأن تلك الكلمة الكاذبة ستغير جوهر حقيقته، لكنني أوافق على خطته. يومًا من الأيام،

سيكون زوجي وسأكون زوجته. عليَّ أن أتعلم الطاعة كي نكون سعيدين.

ينتزع من سترته خيطين ثخينين. «*(عند السفر بعيدًا، لا بد من ربط خيطين على المعصمين)*. سأكون مربوطًا بك، وستكونين مربوطة بي». يلف واحدًا من الخيطين حول معصمي ويربطه بعقدة محكمة. أفعل مثلما فعل فيتابع كلامه... «هذا يثبت أننا بشر لأن الأرواح ليست لديها خيوط. أعدك بأن أعود حاملًا من المال ما يكفي لشراء مزرعة أرز، وأعدك بأن أتزوجك، بأن أتزوج الفتاة التي عرفتها وأحببتها منذ الطفولة. وسنذهب الآن إلى والدك ووالدتك كي نخبرهما بهذا».

أسرتي كلها... إخوتي وكناتي وأبناء إخوتي وبناتهم وأبي وأمي... مصغية إلينا عند اجتماعنا كلنا في الغرفة المشتركة. إن في ثقافة أكثرية هان قولًا مأثورًا عن وجه مبتسم يخفي نوايا رديئة. هذا ما أراه عندما أنظر إلى وجوه أفراد أسرتي. أفواههم تقول كلمات سليمة، لكن من خلف ألسنتهم حقائق أعمق منها، حقائق تتخلل الغرفة كلها.

يسأل آبا سان-با: «هل تريد أن تتخلى عن فرصتك في إنهاء المدرسة والذهاب إلى الجامعة؟». لكنه يعني: «*اذهب ولا تَعُد أبدًا*».

وتقول آما: «سوف يكون أهلك فخورين بك». لكن جسدها كله ناطق برسالة واضحة كوضوح الشمس: *تتحدث كأنك نسر يطير، لكن يديك أشبه بخضراوات صينية فاسدة*. يعني هذا أن في وسعه أن يقول كلامًا كبيرًا قدر ما يشاء، لكنه سيظل على الدوام، في نظرها، سارق فطائر.

يقول الأخ الأول: «سوف يغير هذا اتجاه حكايتك». لكنه يستطيع القول: *ما إن تنصرف حتى تنسى أمر أختي. وليكن ذلك.*

ترافق أسرتي سان-با حتى بوابة القرية. يعني هذا أن لا فرصة لنا في أي وداع خاص. مع ذلك، يقول سان-با بصوت عالٍ يسمعه الجميع: «أعدك بأن أعود إليك، يا لي-يان».

يبتعد سائرًا إلى الخلف بخطوات بطيئة بطيئة، ولا يرفع عينيه عني ثانية واحدة. ودموعي تعميني فلا أرى ما هو موشك على الحدوث. وأفراد أسرتي -اللعنة عليهم- لا ينادون سان-با لتحذيره قبل فوات الأوان. فبدلًا من اجتيازه بوابة الأرواح من غير أن يمسها، يصطدم بها اصطدامًا مباشرًا. هذا أسوأ فأل ممكن، أمر محرم تحريمًا تامًّا. يجفل سان-با ويستبد به فزع شديد يجعله يستدير ويجري إلى الغابة.

يقول آبا: «آمل أن يؤدي أهله شعائر التطهير من أجله».

تقول آما ولا تكاد تخفي ازدراءها: «لا أهمية لهذا، فالضرر قد وقع. هيا، علينا أن نزور الروما. علينا أن نتطهر».

عينا نمرٍ شرهتان

أزور سي-ته بعد ذهاب سان-با. نجلس على الأرض، ونتحدث كأنني ما كنت باردة معها عندما كان سان-با هنا. تقول لي، مع أنني جرحتها: «نحن مثل نبتتين في غابة. ستبقى جذورنا متشابكة إلى الأبد في صداقتنا هذه».

أوافقها: «ستبقى صداقتنا مستمرة طوال المسافة حتى النجوم». وأخيرًا، أخبرها بكل شيء عن سان-با.

لا تحذرني صديقتي منه، ولا تنتقدني. لكنها تغمض عينيها وتتنهد. «ذات يوم، سأكون سعيدة مثلك. ألن يكون رائعًا إذا استطعنا أن نتزوج شخصين من القرية نفسها، وإذا حبلنا معًا، وإذا عملنا على أن يصير أطفالنا متقاربين مثلنا؟».

أضغط على يدها صامتة وأتمنى الأمنية نفسها.

*

وبعد بضعة أيام، نكون عاكفين على مهامنا المنزلية قبل أن يبدأ موسم قطاف أوراق الشاي. نسمع أصواتًا مخيفة آتية كالرعد من

جهة الغابة. تتعالى الأصوات وتقترب. يبكي بعض الأطفال الصغار في مآزر أمهاتهم. يرتعش الكبار على حصر النوم. تزمجر الكلاب تحت البيوت، لكنها لا تعوي لشدة خوفها. الأصوات ميكانيكية، لكنها غير مستقرة... تهمهم حينًا وتزمجر حينًا. ثم تنتهي نهاية مفاجئة مع ما يشبه سعالًا فظيعًا. لا بد أن كل من في القرية يشكر الروما في قلبه لأنه أقام بوابة أرواح قوية استطاعت صد ذلك الشيء المخيف ومنعه من دخول قرية بئر النبع.

لا يجرؤ أحد على الذهاب إلى البوابة كي يستطلع الأمر، لكن العصافير تزقزق من جديد وتخرج الكلاب من مخابئها. وبعد دقائق من ذلك، نسمع صوت رجل ينادي... بلغة ماندرين: «مرحبًا! مرحبًا! مرحبًا!». ما من إجابة. يرتدد الصوت من جديد، «مرحبًا! مرحبًا! مرحبًا! هل من أحد هنا؟ اخرجوا، دعونا نراكم».

ومن جديد يتكلم هذا الصوت بلغة ماندرين، لكنه يبدو غريبًا، يبدو موسيقيًا... كأنه يغني. مع ذلك، يظل واضحًا أنه صوت رجل، لا صوت روح تتكلم. حتى أنا أستطيع إدراك هذا.

يقترب آبا من الجدار الفاصل: «يا بنت، ماذا يقول؟».

أترجم له ما سمعت فيقول: «من الأفضل أن تأتي معي لأنكِ تعلمتِ لغة هذا الرجل».

ألتقي آبا أمام البيت فأرى أن زعيم القرية والروما وبضعة رجال آخرين قد اجتمعوا في الخارج. لقد أتوا جميعًا بأقواسهم. ومع اقترابنا من بوابة الأرواح، أرى رجلًا وصبيًا وسيارة. سيارة! سيارة خضراء

على مقدمتها نجمة معدنية حمراء. إنها سيارة جبلية قديمة من سيارات «جيش التحرير الشعبي»... رأيت مثلها في المدرسة على الملصقات التي تخلِّد ذكرى حرب التحرير. ينفتح باب السيارة ويخرج منها رجل آخر كان جالسًا خلف مقودها. نظل داخل السور ولا نخرج من بوابة الأرواح. ويظل الزائرون على الناحية الأخرى منها. وفي ذلك الصمت، يرقبوننا ونرقبهم. ملابس السائق تكاد تطابق ملابس المعلم زهانغ: بنطلون وسترة زرقاوين مثلما ملابس كل رجل من غير الأقليات رأيته حتى الآن. لكن الشخصين الآخرين كبيران جدًّا، عجوزان. والصبي الصغير جريء، لكن والده يسارع إلى تغطية رأسه بقبعة صغيرة لها حافة بارزة عند مقدمتها. بنطلون الطفل أصفر فاقع! بنطلون قصير لا يبلغ الركبتين. أعلى حذائه مصنوع من قماش، لكن أسفله يبدو كأنه من بلاستيك لدن. قميصه قصير الكمين، غير فضفاضٍ أبدًا. لا أزرار، ولا شيء مما يشبه الأزرار. بدلًا من ذلك، يزين صدر القميص رسم ولد أصفر اللون ذؤابات شعره منتصبة كأنها حراب. أحاول تهجئة الكلمة المكتوبة بحروف غربية، الكلمة الخارجة من فم الولد المرسوم على القميص: *كاو-آ بونغا!* هذه كلمة لا أعرفها.

أتقدم صوبهم.

يقول الرجل: «أظن، يا صبية، أنه لا بد لي من الكلام مع الكبار عن طريقك». يعبر البوابة في خط مستقيم -أظنه يعلم أن عليه ألا يمسها- ويمد إليَّ يده. «اسمي في لغة ماندرين هوانغبينيو. وأنا من هونغ كونغ». إذًا فهو من المتكلمين باللغة الكانتونية -يفسر هذا لكنته وتلك النغمة

الموسيقية البائنة في كلامه- لكنه يتكلم لغة ماندرين أفضل كثيرًا مما أتكلمها.

أتمتم: «هونغ كونغ». لو قال لي إنه من القمر لما اختلف الأمر كثيرًا.

يقول: «هذا ابني». ويشير إلى الصبي كي يقترب منه... «وبما إننا في الصين، فسوف أستخدم اسمه بلغة ماندرين، جيان-رونغ. عمره خمس سنين وهو ولدي الوحيد... طفلي الوحيد». أترجم هذه المعلومات كي يسمعها الرجال الواقفون حولي. أظن أننا ننظر جميعًا إلى هؤلاء الغرباء بطريقة واحدة: أفواهنا مفتوحة وعيوننا متسعة. لم يحدث من قبل أن التقى أي واحد منا شخصًا من خارج مقاطعتنا، عدا المعلم زهانغ، فكيف بأشخاص قادمين من بلد آخر. هونغ كونغ.

لا يقول أحد شيئًا، فيتابع الرجل كلامه: «جئت في رحلة طويلة كي أشتري شايكم. أنا رجل أعمال. أصنع الروافع وأبيعها. الصين الآن في حاجة عظيمة إليها».

لماذا قد نكون في حاجة إلى طيور؟[١] ليس الأمر واضحًا، لكننا نواصل الإصغاء إليه.

هذه موهبتي. الشاي هو ولعي. أنا ذواقة شاي.

أقول له: «هوانغ جيانشينغ». أستخدم كلمة الاحترام التي تعني «سيدي» في لغة ماندرين... «لا أدري كيف أترجم ما قلت».

يميل برأسه خلفًا ويضحك فتظهر أسنانه كلها. يتراجع الرجال الواقفون حولي وأتراجع أكثر منهم ملتمسة الحماية من آبا ومن

(١) كلمة رافعة هنا «crane» تعني أيضًا لقلق.

الآخرين. ومن موقعي الآمن، ألقي على الغريب نظرة فاحصة. رأسه كثمرة لفت... وجه ممتلئ، له وجنتان فيهما شيء من لون قرمزي غريب. شعره أسود، وعيناه كعيني سحلية. وهو ممتلئ الجسم كتلك الملصقات التي رأيتها للزعيم ماو. لم أصدق يومًا أن تلك الصور حقيقية (لم أصدق أي إنسان يمكن أن يكون هكذا... بدينًا هكذا، بارز البطن)، لكن إحاطة حزام هذا الشخص الغريب بوسطه تؤكد على كمية الطعام التي لا بد أن تكون قد دخلته حتى يصير له هذا الكرش. أمر غريب يكاد يضحكني. لبنطلونه كسرات حادة من الأمام ومن الخلف. قماشه لا يشبه أي شيء رأيته من قبل. قميصه مُنشّى، قصير الكمين، ثنياته حادة أيضًا.

والغريب يعايننا مثلما نعاينه، يقيسنا مثلما قد ينظر فلاح داخل فم جاموس ماء. لا أظنه معجبًا بما يراه. لكن لديَّ فكرة عمّا يكون هذا الرجل: ثري. ليس ميسور الحال فحسب مثل أسرة سي-ته، بل شيء مختلف تمامًا.

يقول الرجل: «ألا يوجد مكان نستطيع أن نجلس فيه ونتكلم. أود أن أجرّب شايكم، وقد أشتري بعضًا منه». أترجم كلامه فيعود معظم الرجال إلى القرية مسرعين. لا يريدون أن يكونوا جزءًا من هذا الأمر. لا يبقى غير رئيس القرية والروما، وكذلك أبي وإخوتي (من واجبهم حمايتي). يتهامس الرجال في ما بينهم. نحن الأكها معروفون بكرم الضيافة، لكنهم يتساءلون الآن عن جواز إدخال هذا الغريب إلى واحد من بيوتنا. يتخذ رئيس القرية القرار.

«البنت تتكلم لغة الغريب. ولديها أهلها لحمايتها من الأذى. سنذهب إلى حيث تعيش».

ينظر إخوتي إليَّ غاضبين كأنني جلبت للأسرة أقصى حد ممكن من الخزي. لم يكونوا يومًا موافقين على تعليمي، وها هو الآن يؤدي بالأسرة إلى وضع غير مريح.

يطمئننا السيد هوانغ بصوته الودود إلى حد مقلق: «لا أريد شيئًا غير شراء الشاي. لديكم شاي هنا، أليس كذلك؟ نعم، فلنشرب الشاي». (وكأننا لن نضيفه شايًا)... «ولكن، لا تعدوا الشاي إلا بماء النبع. أليس لديكم ماء نبع؟».

أي ماء عندنا غير ماء النبع؟ ماء المطر؟ ماء جدول؟ ماء بركة؟

أقول له، «قريتنا اسمها بئر النبع».

يضحك الرجل من جديد. «بالطبع، هذا ما جعلني اختار قريتكم وأزورها قبل غيرها».

نسير في تتابع غريب. يسبق الصبي الصغير الجميع وكأنه يعلم أين نحن ذاهبون. لا يبدو على والده أي قلق خاص. لا بد أن واحدًا من جيراننا قد نبّه آما والكنّات لأننا وجدنا الشاي مخمَّرا جاهزًا فور وصولنا... وما إن يجلس الرجال على الأرض في الغرفة الوسطى حتى يُشار إلى الكنات بالخروج. تقف آما مستندة بظهرها إلى جدار البامبو ضامة يديها أمامها. تراقب حذرة. أقف إلى جانبها وأترجم عندما تكون الترجمة ضرورية. يشير آبا إلى الغريب كي يتذوق شاي الأخ الأول، لكنه يتناول أول رشفة منه فيتغضن وجهه كأنه غسله بعصير الكاكي غير الناضج.

يقول السيد هوانغ: «لا بد أن هذا شاي من الذي ينمو على مصاطب مدرجة في الغابة. تكون له نكهة رتيبة من أول تخمير حتى آخر تخمير. ليس فيه «كي»... ليست فيه قوة حياة ولا غنى».

يخمّر وعاء آخر من شاي الأخ الثاني المقطوف من أشجار مقلّمة مقطوعة الرؤوس. هذه المرة يتناول الغريب رشفة ويضع الفنجان على الأرض، ثم يقول: «لا يؤدي قطع رأس الشجرة إلى أن تصير لها جذور قوية لأن الجذور تنمو بما يتناسب مع هو موجود فوق الأرض. صحيح أن هذا يعطي نكهة حلوة، لكنها حلاوة فارغة. إنني أبحث عن بيوّر. هل تعرفون البيوَّر؟»

لا... لا أعرف هذه الكلمة. إنها كلمة غريبة كمثل كلمات أخرى سمعتها من هذا الرجل... «هواية» و«ذوّاقة». يشير الرجل إليَّ بأن أقترب منه. «يا صبية، أرى أنك نظرت إلى ما هو خارج هذا المكان. لقد درست اللغة القومية. لا بد أن أسرتك فخورة بك جدًّا لأنك سرت مع رغبة البلد في التحول. قد لا تدركين الأمر هنا...»، يقول هذا مشيرًا بيده... «لكن التغيير جارٍ في الصين كلها».

أترجم كلامه بحيث أجعله يبدو أشد تهذيبًا.

يستحث السيد هوانغ الرجال. «عليكم جميعًا أن تنهضوا وتحيّوا اليوم الجديد. هذا زمن الإصلاح والانفتاح. حتى الأميركيون أنفسهم صاروا يأتون إلى الصين لرؤية جدارها العظيم والمدينة المحرمة ونهر يانغتسي».

يطقطق الروما بلسانه ثم يدمدم قائلًا: «ما أكثر كلامه!».

ضحكات إخوتي المكبوتة لها أثرها في ضيفنا... أثر ينبهه.

يواصل كلامه: «في المكان الذي أتيت منه، نتحدث ساعات طويلة في أمور العمل. أقول لكم بعضًا مما أريد، وتقولون لي بعضًا مما تريدون مقابله. هذا هو مسلك البشر المتمدنين. لكن أسلوبكم قد يكون مختلفًا. لست على معرفة جيدة بقبائل الجبال. ما من أحد يعرفها معرفة جيدة».

لعل الرجال الحاضرين لا يعرفون التعبير الذي تشير به لغة ماندرين إلى قبائل الجبال، لكنهم يلمسون جميعًا نبرة التعالي المهينة في كلام السيد هوانغ.

يضرب الروما الأرض براحة يده. «اسألي الغريب عمَّا يريد!».

يجيب هوانغ بعد أن أنقل إليه هذا السؤال: «قلت لكم ما أريد. أتيت باحثا عن شايكم الخاص. أتيت لشراء البيوَّر».

أنقل ما أسمعه فيطرح الروما السؤال الذي خجلت من طرحه: «بيوَّر؟ ما هو البيوَّر؟»

تبدو الحيرة على السيد هوانغ، «هو شاي خاص معتّق. وهو يأتي...»

يطرح الأخ الثالث احتمالًا: «لعله يعني الشاي المأخوذ من أشجار قديمة».

يرى الجميع فكرة تقديم شاي الأخ الثالث الذي لا قيمة له إلى الرجل الآتي من هونغ كونغ أمرًا مضحكًا. يُعدّ الشاي ويؤتى به إلى الغرفة. يرفع السيد هوانغ وابنه فنجانيهما في اللحظة نفسها ويتنفس كل منهما عبر فمه وهو يشفط السائل بصوت مرتفع. يومئ الولد برأسه معجبًا بالشاي، ويبتسم والده.

يقول السيد هوانغ محبذًا: «هذا أفضل. عندما تنبت الأشجار من البذور، تتطاول الجذور الرئيسية من غير توقف وتكبر تحت الأرض بقدر ما تكبر الشجرة فوق الأرض. هذا ما يمنح الشاي نكهة وعمقًا. أسمع دائمًا أن لشاي جبل مانوو سمات خاصة: فيه شيء من نكهة الزهور، وله مذاق معتدل في الفم. كأني أتذوق فيه شيئًا من طعم المشمش مع بعض تلاوين التبغ. الطعم القابض فيه معتدل». يتشمم الفنجان الفارغ مستمتعًا بالرائحة الباقية فيه. يفعل الولد مثلما يفعل والده تمامًا. يضع السيد هوانغ يده في جيبه ويخرج منها علبة صغيرة. يخرج من العلبة عودين لتخليل الأسنان. يعطي ابنه عودًا ويبدأ الاثنان التقاط بقايا أوراق الشاي التي في الفنجانين وبسطها على الأرض وتفحصها مثلما تفعل آما عندما تعالج حرقًا أو لسعة حشرة.

«انظر، يا ولدي! لقد أعاد التخمير الأوراق إلى حالها الأصلية وجعلها ثخينة قليلًا وقابلة للثني. هذا بالضبط ما نريد رؤيته». وبعد ذلك، يلتقط كل منهما ورقة شاي ويمضغها. يعلن الرجل: «هذا الشاي الخام ليس سيئًا. لكني لا أزال راغبًا في تذوق شايكم المعتّق».

يسأل آبا بعد أن أترجم هذا الكلام: «شاي معتّق!؟»

«أنا نفسي لديَّ قوالب شاي عمرها ثلاثون عامًا، لكن ثمة ما هو أقدم منها. إنها عتيقة، لكنها لا تزال حية».

يسأل آبا: «ومن عساه يشرب شيئًا كهذا؟» لا يهتم بإخفاء استغرابه.

يضحك إخوتي الثلاثة لبلاهة هذا الرجل الغريب. يتشجع الأخ

الأول فيقول: «نحن نقطف أوراق الشاي ونعالج بعضًا منها من أجل الأسرة فيصير صالحًا للشرب بعد ثلاثة أيام. إذا تركنا الشاي ستة أشهر، فنحن نجعله طعامًا للخنازير. ليس جيدًا».

«بيوَّر، بيوَّر، بيوَّر». يكررها السيد هوانغ كأن من الممكن أن نفهمها بفعل سحر لا أعلمه. «بوناي؟ هل سمعتم هذه الكلمة من قبل؟ إنها الكلمة الكانتونية التي تقابل كلمة بيوَّر. لا؟ لم تسمعوها!».

يرمق الولد الجريء والده بنظرة قلق عندما يراه يرفع كتفيه حتى أذنيه ويشمخ بأنفه. وعندما تعود عينا السيد هوانغ إليَّ يسألني: «هل تريدون القول إنكم لا تعتّقون شايكم؟ كيف يكون هذا ممكنًا؟ اجتزت مسافة طويلة كي أعثر على مسقط رأس شاي بيوَّر. هذا هو المكان الصحيح. أنا واثق بهذا».

يهرش الروما ذقنه، ثم يتجشأ غير مكترث بثرثرة الغريب.

يبسط السيد هوانغ كفيه ويحركهما إلى الأمام كأنه يمسح كل ما حدث حتى الآن. يغمض عينيه، ثم يستنشق نفسًا عميقًا ويرخي كتفيه. وعندما يفتح عينيه يكون قد اتخذ قرارًا. «يا صبية!».

«نعم».

«سأحكي لك قصة». نبرة صوته تغيرت تغيرًا تامًّا... «أريد منك أن تنقلي كلامي إلى والدك وإلى بقية الحاضرين مع احترامي كله. هل تفهمين هذا؟» يُجلس ولده في حضنه ويبدأ الكلام. «على مر قرون كثيرة، كانت قوافل تضم الواحدة منها ألف رجل يحمل كل منهم حزمة من قوالب الشاي زنتها مئة وخمسون كيلوغرامًا، أي ضعفي وزن

جسده. ترتحل القوافل ألفًا وخمس مئة كيلومتر صوب الشمال والغرب على طريق الشاي والخيول حتى التيبت...».

يقاطع الأخ الأول ترجمتي: «نحن نعرف طريق الشاي والخيل. زوجتي من ويّو حيث تركت القوافل...».

يتابع السيد هوانغ كلامه من غير أن تعوقه هذه المقاطعة، «كانوا يواجهون عوامل المطر والحر والبرد والرطوبة التي تسبب تغير طبيعة الشاي. يبدأ الشاي تخمره، يتعتّق تعتيقًا طبيعيًّا. وعند بلوغ التيبت، تجري مبادلة خيول الحرب بقوالب الشاي».

«نحن...»

... «وأيضًا، كان الشاي يُنقل جنوبًا على امتداد طريق أخرى تصل حتى غوانزو وهونغ كونغ. وهاتان مدينتان معروفتان بشدة الحر والرطوبة. يجري خزن القوالب في أقبية رطبة فتبدأ التخمر. نحن في هونغ كونغ نذهب إلى المطاعم كي نأكل «ديمسوم» الذي هو قطع من العجين باللحم غنية جدًّا ونشرب شاي بيوّر الذي هو ما ندعوه في اللغة الكانتونية «بوناي». نشربه كي يطغى على طعم الدهن والزيت». يطلق ضحكة قصيرة، وأسأل نفسي *مطاعم! ما هذه الكلمة؟* ... «ظلت الصين مغلقة زمنًا طويلًا جدًّا. يعني هذا أن شاينا ظل عشرات السنين يتخمر في الأقبيه. نحن نذهب إلى مطاعم بعينها من أجل ذلك الشاي تحديدًا لأن كل قبو مختلف عن غيره. المناخ والضوء وطريقة التغليف وما قد يكون مخزونًا مع الشاي في القبو نفسه... لهذا كله أثره في طعم شاي ذلك المطعم. هل فهمت؟»

أجيبه ناطقة باسمنا جميعًا: «ربما».

«ازدادت قيمة ذلك الشاي مع مرور الزمن. بالنسبة إلينا، هو كنز».

«إنه كنز». أوضح هذا لرجال قريتي الكبار فيتأملون الفكرة صامتين.

تنتقل نظرات السيد هوانغ بين الوجوه. «أنا لا أشرب الكحول، لكن في وسعكم النظر إلى شاي بيوَّر كأنه نبيذ فرنسي». (لا أحاول ترجمة هذا الكلام. ما فائدة ترجمته؟) ... «ومثلما تعلمون، ستعود هونغ كونغ إلى الصين بعد ثلاث سنين. *بلد واحد، نظامان اثنان*. يبدو هذا أمرًا حسنًا ولكن، هل نستطيع نحن أبناء هونغ كونغ تصديقه؟ يرحل كثيرون من منطقتنا آخذين معهم ما لديهم من بيوَّر... إلى تايوان، وإلى الولايات المتحدة، وإلى كندا. ويبيع غيرهم ما لديه من مخزون البيوَّر كي يدفع نفقات سفره. تايوان هي أكبر المشترين».

لا بد أن العالم الخارجي غريب جدًّا.

يتابع قائلًا: «يبدو لي أن ثمة أمرًا واحدًا يمكن فعله. أنتم لم تسمعوا كلمة بيوَّر قبل الآن، لكن لديكم أشجار شاي وأنتم فقراء و... غير واعين. لديَّ رأس المال، ولديَّ منفذ إلى السوق». لا يكاد الرجل يتيح لي زمنًا كافيًا للترجمة... «غدًا يبدأ موسم قطاف الشاي، إن كانت معلوماتي صحيحة. وسوف تعملون عندي بدلًا من بيع أوراق الشاي لغيري. علينا أن نحاول إعادة خلق البيوَّر المعتّق. لا مبيدات، إنتاج طبيعي تمامًا يستخدم الأساليب الطبيعية. أتيت إليكم قبل غيركم. قرية بئر النبع. يعجبني هذا الاسم. أنا أقدم إلى هذه الأسرة وإلى هذه القرية فرصة عظيمة».

أترجم هذا الكلام، فتلكزني آما التي لم تنطق كلمة واحدة منذ أن دخل الرجل بيتنا. تقول لي: «قولي له أن يذهب إلى بيوو بدلًا من الحديث معنا. ثمة شخص هناك، وهو واحد من معلمي الشاي صار الآن عجوزًا، لكنه يتذكر الطرق القديمة في معالجة الشاي. ومن أجل الحصول على أوراق الشاي، عليه أن يذهب إلى لاوبان زهانغ. أشجار الشاي هناك قديمة جدًّا...»

يقاطعها آبا. «أطبقي فمك، يا امرأة! دعيه يشتري أوراق الشاي من عندنا. لدى ابننا الثالث أشجار قديمة، وفي وسعنا أن نذهب إلى الجبال ونقطف أوراق الشاي من الأشجار البرية، و...»

تقاطعه آما بنبرة حادة: «لا تقلها!».

«لدينا أشجار البنت. لا بد أنها صالحة لأمر من الأمور».

تتوقد عينا آما. «أبدًا!».

أمر نادر جدًّا أن ترى واحدًا من الأكها غاضبًا. يُفاجَأ آبا وبقية الرجال، لكن الرجل الغريب يدرك أنه أصاب وترًا حساسًا مع أنه لا يفهم الكلام.

يسألني: «كم تكسبون حاليًّا مقابل الكيلوغرام الواحد من أوراق الشاي الطازجة؟».

لا أترجم هذا السؤال كي يسمعه الرجال. لكنني أطرح سعرًا أعلى من الحقيقة كثيرًا. أقول له: «ستة عشر يوانًا للكيلو». يعادل هذا أربعة أضعاف ما نتقاضاه من مركز استلام الشاي، وهو ثمن باهظ إن تذكرنا أن الواحد منا قادر على قطاف ما يتراوح بين عشرة وعشرين كيلوغرامًا

من أوراق الشاي كل يوم. ينظر إليَّ بتركيز شديد لا أفهمه. «سوف أدفع... عشرين يوانًا مقابل كل كيلوغرام من الأوراق الممتازة المقطوفة من أشجار قديمة».

هذا أكثر حتى مما طلبت! لماذا يفعل أمرًا من هذا القبيل؟

يضرب مستر هوانغ الأرض ببراجم يده. هل يفعل هذا لأنه يريد مزيدًا من الشاي، كما هي عادتنا، أم أنه لا يطيق صبرًا حتى يسمع الإجابة؟

يستحثني فيضيف: «مقابل هذا السعر، سأشتري كل إنتاجكم من أوراق الشاي لصنع البيوَّر. سنعمل معًا وننقذ شاي بيوَّر من الانقراض».

من جديد، أترجم كلامه بأمانة.

يقول رئيس القرية: «سوف تساعدك قريتنا».

أكرر موافقته هذه بلغة ماندرين. يصفق الولد الصغير بيديه. تخرج آما من الغرفة خروجًا مفاجئًا. لكني أظل فيها كي أساعدهم في ترتيبات الاتفاق. سيذهب السيد هوانغ إلى بيور كي يبحث عن معلم الشاي الذي ذكرته آما. وسوف يبحث في الجبال (سيصل حتى لاوبان زهانغ) للعثور على فلاحين لا تزال عندهم أشجار شاي قديمة. وسوف يعود إلينا كل يوم كي يتفقد ما جمعناه. يريد منا أيضًا أن نشرب الشاي المصنوع من أوراق الأشجار القديمة كي نتأكد من أنها غير سامة ومن أنها خالية من أي نكهات سيئة تشرّبتها من النباتات المحيطة بها. لا أعلم إن كان يدرك ما يطلبه منا (أو مدى ما يمكن أن يبلغه من خطورة). لكن آبا والآخرين مقتنعون بأن الأمر يستحق هذه المخاطرة.

نسير مع السيد هوانغ وابنه حتى بوابة الأرواح، ثم نعود إلى القرية بعد أن تبتلع الغابة هدير سيارتهم الجبلية. آما واقفة في انتظاري عند أعلى درجات السلم المفضي إلى قسم النساء في بيتنا.

تأمرني: «عليك أن تظلي بعيدة عن ذلك الغريب. أمنعك من لقائه مرة أخرى».

«آما، كيف أستطيع فعل هذا؟ سوف يكون آبا وبقية الرجال في القرية مصرين على أن أقدم المساعدة. أنا الوحيدة القادرة على هذا».

تشد آما قبضتي يديها ولا تنطق بأية كلمة أخرى.

*

تلك الليلة، تتغير الحياة في نبع الربيع وتُترك الأمور المعتادة كلها. صحيح أننا لا نزال نستيقظ في وقت مبكر ونسير إلى الجبال، لكننا نكف عن الذهاب إلى مصاطب الشاي المدرجة وإلى أشجار الشاي التي قُطعت رؤوسها. بدلًا من ذلك، نفتش السفوح ونزحف كالنمل فوق الصخور وعبر النباتات الواطئة كي نعثر على أشجار الشاي البرية. بل إنني أرى العجائز يسيرون بخطى واثقة ويصعدون الأشجار منتقلين من غصن إلى غصن تمامًا كما علمتني آما كيف أصعد الشجرة الأم كي أعتني بها. يريدون قطاف البراعم الجديدة الطازجة.

لا بد أن ثمة من أخبر السيد هوانغ بأمر أشجاري أو بأمر الشاي الخاص الذي تعده آما، وذلك أن يومًا واحدًا لا يمكن أن يمضي من غير أن يسألني: «متى تأخذينني إلى أشجار الشاي التي هي لك، يا صبية؟»، أو «سمعت أن أشجارك هي أقدم الأشجار هنا»، أو «يقول الناس إن

أمك تقدم أفضل العلاجات في هذا الجبل. أخبريني... من أين تأتي بها؟ أمن أشجارك؟». لكن آما تظل منتبهة إلى إلحاحه هذا ولا تسمح بإعطائه ورقة شاي واحدة.

لا وقت لديَّ كي أحس اشتياقًا إلى سان-با، لكنه باقٍ دائمًا في أفكاري. لا وقت لديَّ أمضيه مع سي-ته، لكني ألمحها هنا وهناك. قد أبتسم لها من بعيد فتلوح لي بيدها. أو يمكن أن يطلب منها السيد هوانغ فعل هذا الأمر أو ذاك فيكون عليَّ أن أترجم لها طلبه كأنها ليست إلا واحدة من بنات القرية، لا أعز صديقاتي. لا أجد فرصة لأن أوضح لها شيئًا لأنني ألازم السيد هوانغ دائمًا. وفي الصباحات، يظل ابنه الصغير قريبا جدًّا ويتعلم كلمات وعبارات بلغة أكها بسرعة تجعلني أظن أنه لن يمر زمن طويل قبل أن يصير السيد هوانغ غير محتاجٍ إلى مساعدتي. وفي أوقات بعد الظهر، يرتاح الصبي في قسم النساء في بيتنا. (صحيح أن آما لا تولي والده أي اهتمام، لكنها صارت مغرمة بجيان-رونغ وصارت تخمّر له الشاي وتسمح له بالبقاء إلى جوارها كلما أراد أن يغفو قليلًا أو كلما أراد الإفلات من رقابة أبيه وهواجسه. تقول آما معلقة على هواجس أبيه: «الأكها كلهم يحبون أبناءهم، لكن ذلك الرجل مستعد لقتل إنسان من أجل ولده»). لدينا أيضًا قادم جديد إلى قريتنا: إنه معلم الشاي من ييوو الذي نصحت آما بالاستعانة به من غير أن تفكر في احتمال مجيئه إلى القرية. معلم الشاي وو شبه أعمى، لكن الظاهر أنه يعلم ما يفعله.

يتفقد السيد هوانغ ومعلم الشاي وو سلال الأسر كلها عند وصولها إلى القرية. ففي بعض الأحيان، يجلب الناس أوراق شاي من

أشجار يزعمون أن عمرها ثماني مئة سنة. ثمة أشجار قديمة جدًّا، لكن أكثر الأشجار ليست كذلك. يزعمون أحيانًا أن أوراق الشاي نمت في بيئة طبيعية تمامًا. ومن جديد، بعض الأشجار كذلك، وبعضها ليس كذلك. على أن لدى السيد هوانغ قدرة غريبة على أن يبصر الحقيقة عبر طبقات المزاعم والأكاذيب.

تكون الخطوة التالية ترك أوراق الشاي إلى أن تذبل. يقول موضحًا بخصوص هذا الأمر: «كي تصير عيدان الأوراق طرية وتزداد الأوراق والبراعم متانة». يأتي بعد ذلك ما يسمى «قتل الأخضر» توقد نار الحطب تحت قدور موضوعة خارج البيوت. يتولى واحد من أفراد الأسرة تغذية النار في حين يلقي واحد آخر الأوراق في المقلاة ويقلّبها. هذا عمل شاق يجعل المرء يحس حرًّا شديدًا ويستمر عدة ساعات بعد حلول الظلام. بعد ذلك توضع الأوراق في سلال مسطحة وتُعجن. هذه هي أصعب مراحل العمل. ثم يأتي صباح اليوم التالي فتكون الأوراق جاهزة لحمامها الشمسي.

يقول لنا: «هذا كي تتشرب شذى ذلك الكوكب العظيم».

يقرر القسم الأكبر من الأسر أن المساحة الواقعة أمام البيوت مثالية للعمل لأنها أرض مستوية، لكن الكلاب والقطط والدجاجات والخنازير تأتي كلها كي تستطلع المكان وتعبث بقوائمها وتحفر الأرض وتفعل ما لا يعلمه أحد فوق أوراق الشاي المكشوفة. ومن الأسر من فضلوا تجاهل ضرورة تعرض الأوراق للشمس وراحوا يفرشون الأوراق في بيوتهم حيث يعيشون الناس ويأكلون ويتضاجعون، وحيث

يملأ الدخان الغرف ويلعب الأطفال بأنوفهم ويسيل لعابهم ويبكون. وبعد ثلاثة أيام، ها هي كل دفعة من أوراق الشاي التي كانت زنتها عشرين كيلوغرامًا تتحول إلى خمسة كيلوغرامات مما يدعوه السيد هوانغ «ماوتشا»، أي الشاي الخام المصنوع من أوراق الأشجار. ثم تأتي المهمة الأكثر مشقة: التخزين. تشارك في هذا النشاط كل امرأة وكل فتاة في قرية بئر النبع، وتجلس النساء في جماعات من حول أطباق كبيرة بغية تفتيش الأوراق، ورقة ورقة لاستبعاد الأوراق الصفراء أو التي فيها عيوب أخرى.

عند هذه النقطة، يوزع السيد هوانغ ومعلم الشاي أوراق الشاي كي تخضع لعمليتين مختلفتين من أجل إنتاج دفعتين تجريبيتين مختلفتين. العملية الأولى هي «التخمر الطبيعي». يجري تغليف أجود الأوراق بقماش الموسلين الذي يُربط بطريقة خاصة ثم يجري تبخيرها وضغطها تحت حجر ثقيل إلى أن تصير قالبًا مدورًا مسطحًا. وبعد ذلك، يُوضع القالب على رف كي يجف مع بقية القوالب الأخرى. وفي غضون يومٍ أو اثنين، يُغلف كل قالب بورق عليه رسم مطبوع باستخدام كتل خشبية. ثم تُربط كل سبعة قوالب في مجموعة واحدة كي تظل محتفظة بالنكهة، لكن مع استمرار السماح للشاي «بالتنفس». الآن، يصير الشاي جاهزًا لخزنه كي يتخمر تخمرًا طبيعيًّا.

يسعى السيد هوانغ إلى شيء لم يسمع به أحد منا - هويغان، «إحساس الفم» أو «ارتداد النكهة». وهو يشرح ذلك على النحو التالي: «ينبغي أن يكون في الشاي قدر طفيف من الطعم المر لحظة دخوله

فمك، ثم يأتي الإحساس المنعش اللطيف الذي يظل على جانبي اللسان ويفتح الصدر، ثم يتبعه الشذى الذي يعلو عائدًا من الحلق. وأنا آمل ظهور نكهات وروائح بعينها: الزنبق، واللوتس، والكافور، والمشمش، والخوخ. الزمن وحده كفيل بأن يقول لنا إن كان هذا سيحدث فعلًا». وأما العملية الثانية فهي تجربة «التخمير الاصطناعي».

يقول السيد هوانغ، «ليس لدينا وقت كي ننتظر عشرات السنين إلى أن ينضج شاينا. لكن لديَّ حلًّا لهذا الأمر. اختُرِع التخمير الاصطناعي في كومينغ منذ نحو عشرين عامًا. سوف نستخدم تلك التقنيات، وسوف نخترع تقنيات من عندنا، كي نصنع نوعًا ممتازًا من شاي بيوَّر».

حماسته لا تهدأ أبدًا، لكن النتائج كارثية. يتم جمع أوراق الشاي المجففة تحت الشمس في أكوام كبيرة، ويُرشّ الماء عليها، ثم تُغطى الكومة كلها بالقماش. يُزاح القماش عنها مرات كثيرة كي يتم تقليب الشاي ورشُّه بمزيد من الماء ثم تغطيته من جديد. فماذا عن الرائحة؟ شيء يشبه رائحة تعفن بقايا النباتات على أرض الغابة. ومن حين إلى حين، يُعدّ السيد هوانغ ومعلم الشاي وو شايًا من كومة من تلك الأكوام، ثم لا تعجبهما النتيجة أبدًا. يقول السيد هوانغ إن بعض الشاي «مبكر جدًّا»، وهذه إهانة نعرفها تمامًا. تصير رائحة بعض الأكوام أشبه بروائح روث الجاموس، وتصير أكوام أخرى لزجة كريهة الرائحة مثلما يصير إبطا سترة رجل في أوج موسم الأمطار. وكوم من تلك الأكوام تشتعل فيه النار.

الأمر الوحيد الذي نستطيع فعله للوفاء بالمعايير المقررة هو تأمين ماء النبع من أجل عملية التخمير. «يوفر ماء النبع نكهة لا نكهة فيها».

وعندما يقول آبا: «ما أحسن هذا الحظ!»، فهو يعني: *كل ما يقوله الغريب جيد طالما بقيت جيوبه مفتوحة لدفع المال.*

الماء عندنا مقبول، لكن علينا أن نتعلم كيف نسخنه. يلقي علينا السيد هوانغ محاضرات من *«كلاسيكيات الشاي»* الذي يقول لنا إن لو وو يي كتبه في القرن الثامن... «أعظم معلم شاي عرفه العالم». ويوجهنا السيد هوانغ إلى ما يتعين علينا الانتباه إليه. «ينبغي أن يبدو الماء الذي يسخن أشبه بعيون الأسماك وأن يصدر عنه صوت خفيف جدًّا. وفي المرحلة الثانية، ينبغي أن يبدو الماء كلآلئ منظومة معًا وأن تثرثر الفقاعات عند حواف القدر كأنها نبع فوّار. يبلغ الماء المرحلة المثالية عندما يتقافز ويثور كالمحيط ويصير صوته كصوت أمواجٍ تتكسر على الشاطئ».

وفي نهاية الأمر، لم يعلمنا الرجل شيئًا، فماذا نعرف عن اللآلئ أو المحيط أو أمواج المحيط؟

يتحدث السيد هوانغ عن الصلات بين الشاي والديانة الطاوية والديانة البوذية. وكم يمضي في الحديث عن «هوا» (فكرة طاوية تحظى بإعجابه. تعني هذه الفكرة شيئًا أشبه بالتحول). وهو يطبقها على صنع شاي بيوَّر بمعنى أن الخصائص القابضة في الشاي الخام تتحول (يقول متحمسًا إنها «تتمظهر») من خلال التخمير والتعتيق. «ألا ترون هذا؟ يصير السيئ جيدًا!». وهو مؤمن بأن الشاي قادر على إطالة العمر مع أن الناس في قريتنا لا يعيشون حتى يبلغوا سنًّا متقدمة كثيرًا. «يذكرنا الشاي بأن نتمهل ونهرب من ضغوط الحياة الحديثة». يقول لنا هذا كأنه نسي أين هو الآن ومع من يتكلم.

مع هذا كله، لا بد لي من الإقرار بأنني مستمتعة بحاجته إليَّ. أحب أن أرى نفسي مهمة. لكني أستثني أمرًا واحدًا: إلحاحه المستمر كي يعرف شيئًا عن أشجاري الخفية. «أنت لا تدركين كم أنا محتاج إليها. سأدفع إليك مالًا كثيرًا، يا صبية. سأدفع إليك مالًا أكثر مما تحلمين. أليس هناك مكان تودين الذهاب إليه؟ أليس لديك شخص تودين الزواج به؟».

السيد هوانغ لجوج كأنه علقة، وأسئلته تزعجني كثيرًا. وفي نفسي مشاعر متضاربة. أستلقي في الليل صاحية وأفكر في سان-با وكذلك فيما قد تستطيع بضع أوراق شجرة شاي أن تشتريه لنا، لكني لا أعلم أين يمكنني العثور عليه لأنني لا أعلم على وجه التحديد أين ذهب. ولكن إن كان عندي مالي الخاص، ففي وسعي أن أساهم في بداية حياتنا الزوجية عندما يعود، ثم أساهم في دفع نفقات تعليمي. عليَّ خلال النهار أن أكون مع السيد هوانغ، ولا أستطيع التفلت منه حتى إن أردت ذلك. وإذا تفلّت منه، واكتشفت آما أمري؟ لا أستطيع تخيّل عواقب ذلك.

وفي آخر المطاف، لست إلا بنتًا. قلبي تواق إلى مستقبل أنتصر فيه على معايير الأكها التي تقيّدني. وذات يوم (لا يتطلب الأمر أكثر من لحظة واحدة كي تتغير حياة المرء إلى الأبد)، يذهب السيد هوانغ إلى مينغاي لشراء بعض المستلزمات. أثناء غيابه وذهاب آما إلى قرية أخرى لتجبير عظم مكسور، أسير صاعدة إلى بستاني. أتسلق الشجرة الأم وأقطف من أوراقها كمية كافية لصنع قالب واحد. وعندما يعود السيد هوانغ وأنفرد به، أبيعه تلك الأوراق. يدفع إليَّ مالًا يزيد كثيرًا على

قيمتها ويقول: «أنا شاكر لك حقًّا ما تقدمينه إليَّ من عون كبير. والآن، فلنرَ ما نستطيع فعله بهذه الأوراق».

ظل يأخذني كل بعد ظهر، على امتداد الأيام الثلاثة التالية، إلى قرية واقعة إلى الناحية الأخرى من الجبل حيث أستطيع (بحسب تعبيره) معالجة الشاي على انفراد. وبعيني نمر جشعتين، يراقب كل شيء أفعله. ثم ينتهي إعداد القالب فيخبئه في صندوق سيارته الجبلية. أظن أن ما من أحد يعلم ما فعلت.

*

وبعد ثلاثة شهور، يتوصل السيد هوانغ إلى قرار: ينبغي إتلاف كل ما تم إنتاجه من الشاي المخمر التجريبي. أشياء كثيرة اتخذت موطنًا لها في تلك الأكوام ذات الرائحة الفواحة: ديدان ويرقات ونموّات غريبة الألوان يمكن أن نفرّ هاربين إذا رأينا بعضًا منها في الغابة. قمامة بشعة جدًّا تأنف أكلها الدجاجات والبطات وجواميس الماء. الخنازير نفسها تشيح بوجوهها عنها.

لكن السيد هوانغ يأبى الاستسلام. «ستمضون هذه السنة في العناية بالأشجار. وسوف نحاول من جديد عندما يأتي الربيع».

وبعد أن يضع حوائجه كلها في سيارته الجبلية، يمسكني بكتفيّ ويقول لي: «عندما أعود، ستأخذينني إلى بستانك. سأشتري مزيدًا من تلك الأوراق».

تجعلني لمسته أحس أن روحًا شريرة قد دخلتني. إحساس مرضيٌّ وضيق شديد. لا أستطيع الذهاب إلى الروما من أجل تطهّر طقسي، ولا

أستطيع الذهاب إلى آما ملتمسة منها دواءً يَشفيني. إن فعلت هذا فهو يعني اعترافًا مني بأنني أقدمت على فعل لا يُغتفر أبدًا. إن فعلت هذا فهو يعني أن في داخلي أمرًا قذرًا يتخمّر ويجعلني راغبة في ما هو لدى الغريب... أو في تصوري عمّا هو لديه، أي المال كي أكون مع سان-با حتى نسير معًا خلف أحلامنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحب الأكبر

واه! ما أسرع ما تنهار خططي وتنهار آمالي. غاب سان-با أدوارًا زمنية طالت موسمًا كاملًا. وابتعدت عن المدرسة زمنًا يقارب ذلك الزمن فخسرت وقت الدراسة الضروري للتقدم إلى امتحان غاوكاو. يقول لي المعلم زهانغ: «كلامك بلغة ماندرين تحسن كثيرًا، لكن الاختبار ليس اختبارًا في الكلام. لقد ضيّعت فرصتك». نبأ صادم. مدمّر بعد سنوات طويلة من العمل الشاق! تعذبني الخيبة أيامًا وأندم لأنني لم أفكر في عواقب دوري الجديد في القرية. ثم يأتي المعلم زهانغ في زيارة أخرى. يقول لي: «أنت لست من الأشخاص الذين يستسلمون. أنت شجاعة، قوية، ذكية». كلماته المشجعة تمنحني قوة. لا أستطيع القبول بهذه النكسة التي ستودي بمستقبلي. لا أستطيع قبولها مهما تكن نكسة مؤلمة. أرغم نفسي على الأفكار الحديثة عن الفرص كي تنفتح عيناي، عينا الأكها، وتبصرا ما هو أكبر، ما هو أشد اتساعًا. *سوف تتزوجين عندما يعود سان-با. وسوف تعملين لصالح السيد هوانغ. لست في حاجة إلى كلية ولا إلى جامعة.* أصمم على أن أبقى إيجابية... ولسوف يأتي الخير.

عند ذلك، ولأنني أعود إلى نظامي المعتاد... أذهب إلى المدرسة مع أنني لن أكون مستحقة للتقدم إلى امتحان غاوكاو، وأؤدي واجباتي في البيت، ولا أفكر في السيد هوانغ على امتداد النهار... ألاحظ شيئًا كان ينبغي أن ألاحظه منذ أمد بعيد. لم يأتني الدم الذي يأتي كل شهر. كنت في انشغال شديد، وكان يملؤني إحساسي بأنني مهمة، فتجاهلت جسدي ونسيته تمامًا. ظننت أنني سمنت لأن السيد هوانغ كان حريصًا على أن آكل جيدًا. وظننت أن الألم في ثديي نتيجة نموهما السريع بسبب زيادة الطعام في قصعتي. ظننت أنني أتعب لأن... من عساه لا يحس إرهاقًا إذا تحرك مثلما أتحرك؟ أدركت مذعورة أنني «واقعة في مشكلة». لم تلاحظ آما شيئًا، ولم تلاحظ الكنات شيئًا، لأننا كنا جميعًا منشغلين إلى أقصى حد.

يصيبني انهيار مؤقت عندما أعلم أنني لن أستطيع التقدم إلى امتحان غاوكاو، لكني الآن لست مذعورة. لديَّ مالي، وسوف أذهب إلى سان-با عندما أعلم مكانه. وفي اليوم التالي، أقول لآما إنني ذاهبة إلى الغابة كي أبحث عن الفطر. تتركني أذهب من غير أي نظرة شك. أسير في الحر والرطوبة المخيفين حتى أصل إلى قرية «ظل السقيفة». أرى القرية مثلما وصفها لي سان-با: قرية على قمة تل يسهل الدفاع عنه، ولها إطلالة في كل اتجاه. لست من تحب والدة سان-با رؤيتي، لكنها، على أي حال، تدعوني إلى غرفة النساء، في بيتها. يداها ناطقتان بعمر من العمل والشقاء، وفي عينيها قلق الأمومة. عليَّ أن أنتظر زمنًا معقولًا قبل سؤالها عن سان-با. لكنها تفاجئني عندما تبادرني بالسؤال عنه. «هل

سمعت شيئًا عن ابني؟». قد لا تريدني كنة لها -أعلم هذا- لكن قلقها على سان-با عميق مثل قلقي. «هل بلغك أي خبر عنه؟ على الأقل، كي نعلم أين يعيش الآن؟».

تطفر الدموع من عيني عندما أسمع كلامها.

تختلج عضلات صغيرة في وجهها لرؤية استجابتي. «إنه في مكان بعيد جدًّا. وتايلاند...». ينقطع صوتها لحظة، ثم تتابع، «تعلمين أكثر مما يعلم معظم الناس أنه قد يُلاحق لسوء سلوكه...»

أبكي طوال طريق العودة إلى البيت. تؤلمني معرفة أن ما من سبيل إلى الوصول إلى سان-با. تسحقني فكرة أن أمرًا سيئًا قد يقع له. وفي الحالين، أنا وحيدة وأنا حبلى بغلطة بشرية... صرت ملعونة مرتين.

ليتني أستطيع أن أستودع سي-ته سري، لكنها قد يزّل لسانها فتفشيه. لا أستطيع طلب المشورة من الكنات الثلاث لأن من واجبهن إخبار أزواجهن الذين سيخبرون آبا. شخص واحد تذهب إليه الفتيات عندما يجدن أنفسهن في وضع مثل وضعي، لكنه الشخص الوحيد الذي لا أستطيع أبدًا أن أخبره. ستكون آما شديدة الغضب عليَّ، وأنا في خشية شديدة وفي خجل شديد من التفكير في مصارحتها. أفعل ما أستطيع فعله لإخفاء علامات حملي تحت ملابسي اليومية: بنطلون بسيط وسترة مصممة بحيث تخفي تكوّر بطني. لست أدري ما سيحدث، ولا أطيق التفكير في ما سيحدث.

وعلى امتداد الدورات الزمنية التالية الثلاث، يكون كل من في قرية بئر النبع منهمكًا في مشاغله اليومية... إعداد شتلات الأرز لغرسها،

وتعشيب مساكب الخضار، وتنهمك النساء وحدهن في غزل الخيوط ونسجها كي يكون لديهن ما تنشغلن بخياطته وتزيينه عندما يبدأ موسم الأمطار. ثم إن لدينا الآن مسؤوليات جديدة: العناية بأشجار الشاي كي تكون قد صارت أحسن حالًا عندما يعود السيد هوانغ. تُعلّم آما الأخ الثالث كيف يقلّم أشجاره التي كانت من غير قيمة، وكيف يقوّم أغصانها ويقص فروعها وأوراقها المريضة أو الذابلة. يهمل أخي الأول وأخي الثاني مصاطبهما المدرّجة وبساتينهما ذات أشجار الشاي المقطوعة رؤوسها ويهتمان بدلًا من ذلك بقلب التربة تحت الأشجار الشاي القديمة وتغذيتها. أذهب إلى بستاني السري (وحدي بعض الأحيان، ومع آما أحيان أخرى) كي أقوم بالمهام التي ورثتها عن أجيال النساء التي سبقتني. أجلس تحت الشجرة الأم وتجول عيناي بين قمم الجبال. سان-با هناك، في مكان من الأماكن. ينبغي أن يعود عمّا قريب.

*

يأتي يوم تكون فيه الكنات الثلاث داخل البيت عاكفات على الغزل، وأكون في الخارج مع آما نصبغ القماش. آما تحرك القماش بعصًا في يدها. تقول من غير أن تنظر إليَّ: «أرى أنك واقعة في مشكلة».

«آما...».

«لا تحاولي إنكار الأمر. صحيح أنني أمك، لكني لست غبية. لقد أطلقت الأرواح الثلاثة التي تصنع الأطفال وتعيش في كل امرأة ماءك من بحيرة الأطفال. لديك طفل ينمو داخلك».

كل ما حبسته داخلي من قلق ينسكب الآن جاريًا مع دموعي.

تربت آما على كتفي. «لا تقلقي، يا بنت! عندي دواء من أجلك».

أهز رأسي. «فات الأوان».

تتنهد آما وتسألني: «منذ متى؟»

«ثلاثة عشر دورًا».

لا تعترض آما على تقديري. «أنت لست أول فتاة يقع لها هذا. سوف تتزوجين الفتى. وسيكون كل شيء بخير».

لكن عينيها تصيران سوداوين كالقطران عندما أكشف لها عن أن سان-با هو والد الجنين. «لقد قلت لك... منعتك من هذا...». تشد على شفتيها... «وهو غير موجود هنا كي يصلح الأمر...».

يشتد بكائي.

تقول آما مقترحة: «لا تزالين قادرة على الزواج بـ لو-با. خذيه إلى غرفة الزهور، خذيه إلى الغابة. دعيه يسرق الحب. هو ليس شديد الذكاء، وأنت لست أول فتاة أنصحها بأن تفعل هذا...»

أقول منتحبة: «لكني أحب سان-با، وهو يحبني. سوف يعود. سوف نتزوج».

تقول آما متجهمة الوجه: «من الأفضل أن تأملي هذا، وإلا فسوف يكون لديك...»

ليست آما مضطرة إلى قولها: غلطة بشرية!

*

أتوقف عن الذهاب إلى المدرسة. لا معنى لذهابي إليها.

يأتي المعلم زهانغ إلى قرية بئر النبع كي يتكلم مع آما وآبا: «لقد كانت أفضل تلاميذي. كانت النور الذي مكّنني من الاستمرار...»

لكن آبا يصيح منتصرًا: «على الأقل، صارت الآن جاهزة كي تستعد لأن تصير زوجة». ما يعنيه آبا هو أنه في حاجة إلى وجودي هنا في الربيع القادم وفي كل ربيع بعده طالما ظل السيد هوانغ يعود إلى جبل مانوو.

لكن المعلم زهانغ لا يستسلم بهذه السرعة: «لا يزال في وسعها أن تذهب إلى مدرسة التجارة. تستمر الدراسة فيها أربع سنين. وأنا قادر في أي وقت على تأمين مكان لها. تستطيع أن تصير سكرتيرة، أو ضاربة آلة كاتبة، أو موظفة».

تلك هي الوظائف التي رأيتها في كتب المدرسة، لكن آبا يسحق الفكرة سحقًا عندما يسأله: «وما فائدة هذه المهارات هنا؟»، ثم لا يلبث أن يضيف: «وفوق هذا، نحن لا نطيق فكرة التخلي للعالم الخارجي عن ابنتنا. إذا رحلت، فقد لا تعود أبدًا».

أعود إلى مساعدة آما قبل أن ينصرف المعلم زهانغ.

*

تمر شهور. آمل كل يوم أن أسمع صوت سان-با يناديني مغنيًا بين الجبال ويبلغني قبل وقت طويل من رؤيتي إياه يدخل قريتنا عبر بوابة الأرواح.

يغني: «تتفتح الزهور في أوجها منتظرةً قدوم الفراشات...»

فأجيبه: «وأقراص الشهد تنتظر النحلات كي تصنع العسل...»

لكن الأغنية لا تصلني أبدًا.

تحمل آما عبء سري الخفي. وأثناء تناولي وجبات الطعام، يسمعها بقية أفراد الأسرة تتذمر في محاولة منها لتفسير زيادة وزني. «تظن البنت أنها صارت الآن أعلى منا شأنًا فتأكل كل ما ترغب في أكله. انظروا كيف صارت سمينة. عندما يعود تاجر الشاي الذي يدللها، سيكونان معًا كأنهما خنزيران سمينان». لكنها، في وقت لاحق، تناولني طعامًا إضافيًّا خِفيةً عن أعينهم. تظل منتبهة كي لا آكل شيئًا لا يصح أن آكله. وعندما يعود الأخ الأول إلى البيت حاملًا قنفذًا اصطاده (طعام محرّم على الحبالى)، توقعه آما في فخ إذا تأمرني بمساعدة الكنات في تقديم الوجبة بدلًا من الجلوس والأكل مع أسرتي. تقول لآبا: «إن كانت البنت ستصير زوجة صالحة، فعليها أن تبدأ الآن تعلم كيف تكون كذلك». وعندما يذبح الأخ الثاني غزالة ويكتشف جنينين في بطنها، ترسلني آما في زيارة إلى بيت سي-ته حيث أبقى يومين وليلتين كي لا آكل شيئًا من ذلك. الحقيقة أنني لم أسمن كثيرًا. لم يزدد وزني أكثر من خمسة كيلوغرامات. لكن هذه الزيادة البسيطة في الوزن أثارت عند الكنات فضولًا على الرغم من كل ما فعلته آما كي تصرف انتباههن في اتجاهات أخرى (على فترات مضبوطة، كانت تعطيني خرقًا عليها دم كي تراها الكنات، لكنها لا تقول لي أبدًا من أين تأتي بذلك الدم). على أن ثمة محرمات لا أستطيع تفاديها. لا يجوز لأي امرأة حبلى أن تعود إلى بيت أبيها مهما يكن من أمر، بل إن عندنا تعبيرًا آخر، نستخدمه تعبيرًا عن الحمل يشير إشارة واضحة إلى وجوب أن أكون مع زوجي (شخص يعيش تحت شخص آخر). ومن المحرمات أيضًا أن تكون والدة

الحامل موجودة وقت ولادة حفيدها. إن ولدت طفلي هنا تحت إشراف آما، فسوف يموت الرجال في عائلتي على امتداد ثلاثة أجيال، وسوف تعاني بقية أفراد العائلة المآسي تسعة أجيال. هذا ما جعلنا، أنا وآما، نضع خططًا للولادة تحسبًا لعدم عودة سان-با قبل ذلك.

تهمس إليّ آما ذات ليلة: «قتل الغلطة البشرية مسؤولية الأب. هذا هو واجبه وحزنه، وهذا هو السبب في أن عليه دائمًا أن يُظهر غضبه من المولود لأنه أرغمه على الإقدام على هذا الفعل الفظيع. وأما في حالتك أنت، فإن مسؤولية إخراج الغلطة البشرية من عالم الأحياء تكون واقعة عليك». هذا النبأ يشل عقلي وتخدره نذر الشؤم فأمزج رماد النار بدقيق قشور الأرز كأنني غائبة عن الوعي. تأخذ آما المزيج من أمامي وتضعه في علبة صغيرة ترفعها بعيدًا حيث تحتفظ بأدويتها. لا تغيب العلبة عن ذهني بعد تلك اللحظة. العلبة صغيرة جدًّا (ليس فيها ما هو أكثر من كافٍ لحشو فم طفل مولود حديثًا ومنخريه، لكنها لا تفتأ تحوم ظلًّا متناميًا فوق كل شيء أفعله).

وبعض الأحيان، في الليل، أكون مستلقية على حصير النوم، باسطة كفي على لحم بطني العاري تحت قميصي فأحس الجنين يلكزني بمرفقيه وركبتيه كأنه يحاول أن يمس أصابعي. كانت ديه-جا (كنة سي-ته عاثرة الحظ) تغني دائمًا: «فليكن ولدًا. فليكن ولدًا. فليكن ولدًا». لكني أغنيتي أبسط من أغنيتها. «سان-با. سان-با. سان-با». لا بد أن يسمع نداء قلبي مهما يكن بعيدًا عني.

*

ثم... في يوم ساكن سكون الموت من غير همسة نسيم واحدة، في يوم خانق حقًّا، أحس أولى تشنجات المخاض في ظهري ثم يسري ألمها في بطني كله ويضغط نزولًا. وعندما يداهمني الألم مرة ثانية ثم تعقبها مرات كثيرة أخرى (دفع لا يهدأ من طفل صار مستعدًّا للخروج)، أحاول كل ما أستطيع كي يبقى الطفل داخلي. أصالب ساقيَّ، وأستخدم يدي كي أرفع بطني كلما أتتني التقلصات. لا يمكن ألا تنتبه آما إلى هذا، فهي تعرفه كله. تأتي إليَّ وتقول: «حان الوقت»، يجتاحني اليأس موديًا بكل أمل كان عندي. أقاوم دموعي كي أحبسها. لا يجوز أن أبكي. بكل تأكيد، لا يجوز أن أبكي إن أردت للخطة التي وضعناها، أنا وآما، أن تنجح. سأذهب إلى الغابة، وأخرج هذه الغلطة البشرية وأقتلها قبل أن تسنح لها فرصة البكاء. قالت لي آما من قبل: «ينبغي أن تفعلي هذا سريعًا كي تعاني أقل قدر من العذاب».

على نحو بدا للجميع مفاجئًا، تعلن آما أمام بقية أفراد الأسرة أننا سنذهب يومًا، أو أكثر من يوم، للعناية بأشجار الشاي في أرضي. لا يكاد الرجال يلقون إلى ذلك بالًا في حين تتوتر أكتاف الكنات إعلانًا عن انزعاجهن من العمل الإضافي الذي سيترتب عليهن القيام به في غيابنا. تضع آما بضعة أشياء في كيسها ومن بينها بيضة مسلوقة مغلفة بقماش يقيها. أرى في يدها تلك العلبة الصغيرة التي وضعت فيها مزيج الرماد ودقيق قشور الأرز فيداهمني أشد تقلص عرفته حتى هذه اللحظة ويحيط بذلك الشيء الذي في بطني. أحاول إبقاء قسمات وجهي مسترخية كي لا ينتبه أحد. تودعهم آما وتشدني كي نخرج من البيت.

نصير على الشرفة فتمسح عيناي الدرب الذي يعبر القرية آملة أن أرى سان-با. لكنه ليس هناك. كيف استطاع أن يخذلني هكذا... أن يخذلنا؟

أكبت مشاعري. ينبغي أن يكون مظهري عندما أغادر القرية مثلما يكون عندما أغادرها في أي وقت آخر... إن أردت مواصلة حياتي من غير أن أحمل وصمة أخطائي.

سيرنا بطيء. وأنا ممتلئة خوفًا وحزنًا، لكني أدبّ على الأرض مثلما يدبّ عليها سرطان وأصعد في الجبل، أتمسك بالحجارة وأنحني حتى أكاد أمس الأرض مع كل ألم جديد يداهمني. أعلم أن سيرنا هذا يُسرّع مخاضي.

تستحثني آما: «علينا أن نسرع». تمسكني بذراعي وتجرني صعودًا في الطريق.

أصعب جزء هو الالتفاف من حول الصخرة التي تخفي المدخل إلى بستاني، وذلك أن تكوّر بطني في مواجهة ذلك الجدار الصخري يفسد توازني ويهددني بالسقوط من فوق الجرف. وعندما ندخل الفسحة من خلف الصخرة، يكون الضعف قد استبد بي فلا أستطيع بلوغ الكهف الصغير. أتهاوى على الأرض تحت الشجرة الأم. تبسط آما حصيرًا فأستلقي عليه. تساعدني في خلع بنطلوني. تفتح كيسها وتخرج سكينها وتخرج علبة العجين القاتل. في الكيس أيضًا بضعة علب وأكياس صغيرة تضم الأعشاب التي ستساعد في وقف النزيف وتخفيف الألم، وكذلك في «تهدئة عقلي» بعد أن أفعل ما سيكون فعله واجبًا. أعلم أن ظروفي كارثية، لكنني أرى أغصان الشجرة الأم ممتدة من فوقي كأنها قبة تحميني.

تتبع آما التدابير المعتادة، وترقب الرسائل التي يبعث بها جسدي إليها. تجعلني أقرفص على الأرض وأستند إلى جذع الشجرة الأم. تقلصات شديدة تتالى إلى أن تجعل جسدي كجسد أي حيوان. صرخات شديدة تفلت من فمي. ينفجر مائي، يتدفق خارجًا من جسدي ويتسرب عبر حصير الولادة فيشربه التراب. أصابع آما تتحسس أسفلي.

تقول لي: «ادفعي الآن!».

أتمسك بغصن واطئ. ينضغط ظهري على جذع الشجرة وأدفع بأشد ما أستطيع. دفعة ثانية. دفعة ثالثة.

تعلن آما: «بدأت ألمس الرأس». تدلك مخرجي. «تستطيعين فعل هذا من غير قطع بالسكين». دفعة رابعة. «خرج الرأس. خروج الكتفين أصعب مرحلة، يا بنت، لكنك قادرة على هذا». لا بد أن الآلهة والأرواح ترعاني لأن الألم أخف مما توقعت. والظاهر أن آما تقرأ في ذهني لأنها تقول لي: «أنت حسنة الحظ. ادفعي الآن».

أعبّ الهواء وأحبس أنفاسي من أجل الدفعة الأخيرة. فما شعوري؟ الشعور نفسه الذي عرفته في ولادات حضرتها، لكنه آتٍ من داخلي هذه المرة... كانزلاق سمكة بين أصابع مزيّتة. يخرج الجنين.

تعلن آما: «إنها بنت». ما كان ينبغي أن تقوله بعد ذلك: «أنت وزوجك سيكون عندكما دائمًا ماء للشرب». يعني هذا أن البنت ستجلب الماء لنا مثلما ينبغي لها أن تفعل. بدلًا من ذلك، أسمعها تتمتم: «فرحة صغيرة». أتراها تدرك أنها تقتبس ما تقوله أكثرية هان عند ولادة طفلة؟ لا أظن هذا، بل أظنها تذكرني بأنني محظوظة جدًّا لأن هذه الغلطة

البشرية ابنة وليست ابنًا. فرحة صغيرة لأنني لن أجد نفسي مضطرة إلا إلى قتل أنثى لا قيمة لها.

تقضي الخطة بأن أنجز الأمر سريعًا. بدلًا من ذلك، أجد نفسي أحدق إلى ابنتي المستلقية على الحصير. لا يزال الحبل موصولًا بين بطنها ورحمي. عليها تلك المادة الشمعية البيضاء التي كانت تحميها داخل جسدي، وعليها بقع من دم ونتف من خيوط صفراء تساقطت من الشجرة الأم. حتى إن لم تكن طفلتي غلطة بشرية، فإن من غير الجائز لأحد أن يحملها قبل أن تبكي ثلاث مرات. لكنها لا تبكي، ولا تلوّح بذراعيها. تنظر إليَّ بعينين هادئتين. لعل السبب في هذا أن الطقس حار وأن الولادة كانت سريعة. أو لعلها تعلم أنها غلطة بشرية وأن حياتها على هذه الأرض لن تتجاوز دقائق معدودة. لقد قيل لي إن المواليد الجدد لا يستطيعون الرؤية. لكن، إن كان الأمر هكذا، فكيف تستطيع ابنتي أن تحدق هكذا، أن تحدق إلى أعماق روحي؟ عليَّ الآن واجب، مسؤولية، لكنني لا أتحرك.

عندها، على غير توقع أبدًا، تمر آما بظفر إصبعها الأوسط على أسفل قدم طفلتي. تجفل تلك الكتلة الصغيرة وتمزق صرختها الأولى سكون البستان وتفاجئ الطيور فتفر من الأشجار ورفرفة أجنحتها تحرك الهواء من حولنا. ما من تلاوة للكلمات المعتادة.

صرخة ثانية. ضايقها هذا الإزعاج.

صرخة ثالثة. تطالب بأن تُحمل.

وفي داخل جسدي، ينتفض جزء مني، جزء عميق لم أدرِ وجوده من قبل، ينتفض ويستيقظ. وقبل أن تستطيع آما منعي، أحمل طفلتي

وأضمها إلى صدري. ينشد الحبل الواصل بيننا. أحسه يشدني من داخلي. آما تمسح وجه الطفلة بقطعة قماش، تمسحه مسحًا لطيفًا (لا يمكن أن تكون صغيرتي قادرة على التفكير، لكن ما يحركها هي أيضًا، شيء دفين داخلها). في عيني آما نظرة لم أرَها عند أي ولادة، ولا حتى عند ولادة أي من أبناء إخوتي وبناتهم. والغريب أن الطفلة تنظر إليها نظرة مماثلة. تلمع دمعات عند أهداب عيني آما وتتدحرج جارية على وجنتيها.

وفق عادة قديمة قدم شعب أكها، تقول آما: «في زمن بعيد بعيد، راح نمر شرس يجوب الجبال باحثًا عن رائحة المواليد الجدد المعطرة بالدم. راح يخطف أولئك البائسين ويأكلهم حتى قبل أن تصير لهم أسماء. لقمة واحدة. لا يبقى شيء. حاول الروما إلقاء سحر يحمينا. وغاب النيما في ذهوله باحثًا عن سبب جوع النمر الذي لا يعرف الشبع. والغريب أن النمر كان يزداد جرأة مع كل شيء يفعله الروما والنيما. راح جوعه يشتد ويشتد. وكان ممكنا أن تكون تلك نهاية شعب أكها».

لا يجوز لآما أن تحكي هذه القصة في حضور غلطة بشرية. ولا يجوز لي أن أفتح سترتي وأخرج ثديي. وما كان يجوز لأي منا أن تمس الطفلة. لا أستطيع تخيل وجود طقس تطهّر على قدر من القوة كافٍ لمحو هذه الذنوب الرهيبة كلها.

تواصل آما كلامها غير مترددة أبدًا في سرد القصة التقليدية. «بعد ذلك، في قرية نائية جدًّا لم يصل الناس فيها بعد إلى امتلاك ملابس يرتدونها، بل يحمون أنفسهم من عناصر الطبيعة بسعف النخل ولحاء الأشجار، منحت امرأة مثلي -قابلة- طفلًا اسمًا مؤقتًا. وكان هذا الاسم

«لا طعام لا نمر». منذ ذلك اليوم وإلى الأبد، صارت قوة الأسماء المؤقتة المنتقاة بكل عناية تردع ذلك النمر وكل ما خلّفه من نمور. أسماء من بينها: ««لا عضّ»، «أرز مُندّى»، «توفو مُحمَّض»». تضع رأس إصبعها على جبهة طفلتي... «اسمك المؤقت الشوكة الواخزة».

تدس الطفلة وجهها في ثديي وتعثر على حلمته ملتمسة تلك القطرات الشافية من سائل أصفر يغذّيها ريثما يأتي حليبي. ما أشد هدوءها! ما أصغرها وما أجملها! تفاجئني القوة التي يمصّ بها فمها ثديي مصّات تطلق تقلصًا يجعل «الصديق الساكن مع الطفل» يخرج من جسدي. أرخي ذراعي قليلًا كي تتمكن آما من بلوغ بطن الطفلة لقطع الحبل وربطه. لا نستطيع أن نأخذ «الصديق الساكن مع الطفل» إلى البيت كي ندفنه تحت مذبح الأسلاف. لهذا السبب، تدفنه آما تحت الشجرة الأم.

تناولني آما إبريق ماء وتسير مبتعدة حتى آخر البستان تاركة إياي وحدي مع ابنتي. يمتص فمي قليلًا من الماء وينثره على جسد «الشوكة الواخزة». أستعين بطرف قطعة قماش فأزيل بقايا الولادة عن جلدها. كيف استطاعت كتلة اللحم الصغيرة هذه أن تصير غالية عليَّ بهذه السرعة كلها؟ أفهم الآن ويفهم كل جزء متألم من أجزاء جسدي ويفهم قلبي الحزين أن هذا هو السبب في أن أمهات الغلطات البشرية لا تمسسن أطفالهن أبدًا ولا تحملهن.

تعود آما وتجثم إلى جانبي. تقشر البيضة المسلوقة وتناولني إياها. وفي خدري، آخذ قضمة منها. قد تساعدني في نسيان ألم الولادة

الجسدي، لكن عذاب هذا الأمر لن يتركني أبدًا. تنقّب آما في عيني. أنقّب في عينيها. *ماذا نفعل الآن؟* مشاعري مضطربة، مختلطة. حبي ابنتي. ذعري من أن تصر آما على أن أستخدم مزيج الرماد وقشور الأرز كي أقتل طفلتي. قلق من أن تأخذ آما «الشوكة الواخزة» من بين ذراعي وتفعل بها ما لا أستطيع فعله. لا طاقة لي على مقاتلة آما من أجل ابنتي التي ولدتها الآن. حتى إذا قاتلتها وفزت في القتال، فـ...

أقول لآما الأمر الذي هو واضح: «لا أستطيع الاحتفاظ بالطفلة... ليس من غير أب لها».

«إذا عدت بها إلى بئر النبع، فسوف يكون على أبيك، أو على واحد من إخوتك أن يكمل... الطقس. وسوف يحرص رئيس القرية والروما والنيما وكبار القرية جميعًا على أن يتم الأمر».

تجري دموعي على وجنتي وتقطر من ذقني على وجه ابنتي. ترفرف عيناها لمقاطعة رضاعتها.

تمضي آما في كلامها: «ربما تفيدنا قوانين أكثرية هان، ولو مرة واحدة. سياسة الطفل الواحد غير سارية علينا لكن، لنفترض أنك تتخلين عنها لشخص آخر مثلما يتعين فعله على كثيرات من نساء هان عند إنجابهن طفلة غير مرغوب فيها. سمعت أن هذا يحدث».

صحيح. سمعنا بهذا الأمر. لكن، هل هذا حقيقي؟ هل تستطيع أم أن تتخلى عن وليدها؟ انظروا إليَّ! لا أستطيع فعل ما يأمرني قانون أكها بفعله. لعل نساء أكثرية هان غير قادرات بدورهن على فعل ما يفرضه عليهن القانون الصيني.

لكني أقول هذا لآما فتجيبني: «هذا هو الأمل الوحيد لك، ولابنتك. علينا أن نحاول».

«ولكن، أين نستطيع أن نتركها؟» يرتعش صوتي. إذا عثر واحد من جبل مانوو على طفل وليد متروك في الغابة، فسوف يدرك على الفور أنه غلطة بشرية من أبٍ أشد ضعفًا من فعل ما يتعين عليه فعله. وسوف يكون على ذلك الغريب أن يحرص على إنجاز الطقس. قانون أكها لا يقبل تغييرًا في ما يتصل بالغلطات البشرية.

«ثمة مكان سمعت نساء تنظيم الأسرة في مركز استلام الشاي يتحدثن عنه». تتمهل قليلًا كي تستطيع نطق تلك الكلمة بلغة ماندرين ... «ميتم. تجدين ميتمًا في مينغاي...»

«مينغاي!؟». هذه أقرب مدينة كبيرة، وفيها يقع مصنع الشاي. إنها المدينة التي توسلت إلى سان-با أن يأخذني إليها. لا أعرف أحدًا يذهب إليها غير بائعي الجبل الذين يجلبون السلع إلينا، وكذلك المعلم زهانغ الذي مر بها عندما أرسلوه إلينا كي يتعلم من الفلاحين. يعرفها أيضًا السيد هوانغ وابنه وسائقه.

تقول لي: «يقولون إنها تبعد عشرين كيلومترًا، أو مسيرة يوم واحد بعربة خيل. أظنك تستطيعين السير إليها والعودة في ثلاثة أيام».

نضع خطة جديدة. ينبغي أن يظل هذا الأمر إلى الأبد سرًّا بينا لصون سمعتي إن كنت آمل بالزواج في يوم من الأيام ولحماية آما من الخزي والعار من حيث هي قابلة ومن حيث هي امرأة لا تزال، حتى الآن، مثالًا لنمط عيش الأكها.

وعندما تذهب إلى البيت كي تأتي بما يلزمنا، أحدق إلى وجه ابنتي وأقول لها كم أحبها آملة أن تفلح كلماتي في التسرب إلى لحمها ودمها وعظامها كي تظل معها إلى الأبد.

أهمس إليها همسًا رقيقا: «لقد وُلدتِ في يوم الدجاجة. هذا رائع لأنك ستعرفين دائمًا شروق الشمس وغروبها». أخبرها كم أنا آسفة لأنني لن أستطيع أن أمضغ الطعام من أجلها عندما تبلغ أربعة شهور ولن أستطيع إطعامها لحم الأسماك بعد أن تكبر قليلًا كي تصير ماهرة في اصطيادها. «تذكري دائمًا، إذا خشيت أن يكون واحد من الأرواح آتيًا إليك، أن تبصقي في اتجاهه لأن الأرواح تخاف أن يمسها اللعاب فيصيبها البرص».

أعلمها أصوات الغابة من حولنا: كيف تميز بين حفيف الأشجار في الريح وبين خشخشة حيوان يشق طريقه في درب بري بين الشجيرات، وكيف تنظر إلى السماء وتقدر من عدد النجوم إن كان سيأتي مطر أو ضباب أو غمامة من رطوبة وقت الفجر، وأهم من هذا كله كيف تفهم مكانها في العالم. «من أمي إليَّ، ثم إليك، اعلمي أن كل نبتة وحيوان وشذرة غبار لها روحها. عليك توخي خيارات صائبة كي يظل العالم متوازنًا». أهمس إليها بهذه الكلمات خائفة أن تنقض عليَّ روح فتخمد الأنفاس في رئتيّ عقابًا لي على إبقاء ابنتي حية بدلًا من إرسالها إلى «بحيرة الدم».

تعود آما بعد ساعات حاملة سلة من سلال قطاف الشاي علّقتها بظهرها. تجهز مكانًا لنا في الكهف الصخري الذي يحمينا طوال الليل. تخرج من السلة ملابس نظيفة من أجلي وخرقًا أضعها بين ساقيّ كي

تمتص الدم. أحضرت للطفلة بعض القماطات ومعها قبعة مزينة. تتفقد آما الموضع الذي خرجت منه طفلتي. لديَّ نزيف، لكنه ليس غزيرًا ولا غير قابل للضبط. لم أكن في حاجة إلى أفيون ولا إلى ضمادات، لكن شهور إخفاء حملي أرهقتني، وأرهقتني خيبتي لأن سان-با لم يعُد في الوقت المناسب. أرهقتني هذه المسيرة حتى بستاني، وأرهقتني فكرة ابتعاد ابنتي عني. أستلقي على جنبي، وابنتي لا تزال متعلقة بثديي. قمر يضيء الأشجار ملقيًا ظلال أوراقها على الأرض من حولنا. ليت لديَّ طريقة تجعلها تتذكر هذه اللحظة.

*

أستيقظ فأجد أن آما قد أوقدت نارًا وسخّنت الماء. أحس أنني صرت هذا الصباح في حال جسدية أشد سوءًا: متألمة، متعبة، خاوية. وذهني... كأن روحًا قد سكنتني: ضائعة، مشوشة، لكنني مصممة على متابعة آثامي.

تحمل آما «الشوكة الواخزة» كي أتناول الطعام. تهدل مخاطبة الطفلة: «انظري من حولك. هذه هي الشجرة الأم. هذه هي الشجرات الشقيقات. قد لا ترين هذا المكان مرة أخرى، لكنه حقك أنت. دمنا في هذه الأرض. وقد غذّى هذه الأشجار. أنت جزء منها، وهي جزء منك». تتوقف لحظة قبل أن تواصل كلامها... «ما كان ممكنًا إقامة طقس تسمية حقيقي من أجلك لأن والدك ليس هنا، وليس هنا أيضًا واحد من أجدادك كي يؤدي ذلك الطقس. سوف تعيشين خارج تقاليد الأكها، لكنك ستأخذين معك هديتين عندما تغادرين جبلنا اليوم».

تلتفت آما إليَّ مطالبةً إياي بالانتباه. أضع فنجاني من يدي وأصغي إليها.

«أولًا، سأسميك يان-يه. أنت الابنة الأولى لابنتي الوحيدة. يان-يه ابنة لي-يان».

من غير أبٍ يسميها مثلما ينبغي، لن تكون ابنتي قادرة على تعداد أسماء أسلافها. حدة الندم تطعنني في صدري... طعنة عميقة، قاسية، لا شفاء لها.

«ثانيًا، سأعطيك أثمن هدية امتلكتها وامتلكتها أمي وجداتي من قبلي» تمد يدها في السلة التي أتت بها وتُخرج منها قالب شاي مدوّرا. القالب مغلف بورق الأرز، وهو ليس كبيرًا... لعل قطره ثمانية عشر سنتيمترًا وسمكه سنتيمترين اثنين. عليه رسوم بالحبر صارت باهتة لطول الزمن. عشت طوال حياتي في بيت واحد مع آما، لكني لم أرَ قالب الشاي هذا أبدًا. ومع أن هذا ليس كبير الأهمية، تذكرت أننا، نحن الأكها، لا نصنع قوالب الشاي ناهيك عن تغليفها بورق مزين. لهذا السبب، كان معلم الشاي وو مضطرًّا إلى أن يشرح طريقة العمل لكل واحد في القرية.

تقول آما كأنها ترد على أفكاري التي لم ينطقها لساني: «منذ أن أتيت إلى والدك زوجة له، احتفظت بهذا القالب خبيئًا في أشد الأماكن في بيتنا قوة وأمانًا - الحيز الواقع بين مذبح الأسرة في غرفة النساء وبين الأصدقاء الساكنين مع الطفل الذين أتوا مني ومن كناتنا ودُفنوا في التراب تحت المذبح مباشرة. تظنين، يا بنت، أنك تعلمت عن الشاي

أمورًا كثيرة عندما كان الغريب وابنه هنا. يقول إنه أتى بغية إنقاذ شاي البيوَّر من الاندثار». حتى في هذه اللحظة بالغة العمق، تضحك آما ضحكة ساخرة كي تعبر عن ازدرائها السيد هوانغ... «لا يعرف شيئًا. لم يتعلم شيئًا. هل كان يبحث عن شاي معتّق؟ هذا هو الشاي المعتق. لقد اجتاز تغيرات وأخطارًا كثيرة. خبأته والدة جدتك من اليابانيين في الثلاثينيات. وخبأته جدتك من الثوريين في الأربعينيات. وكنت مسؤولة عن حمايته خلال سنوات «القفزة العظيمة إلى الأمام» السود في الخمسينيات عندما أُزيلت مزارع الشاي وحلت محلها مصاطب الشاي المدرجة. أُرغمنا على تغيير أساليبنا القديمة كي نُنتج كميات ضخمة من الشاي الرديء لتشربه الجماهير. كنا نعمل عملًا شاقًّا، وكنا في أشد الجوع. بشر كثيرون ماتوا جوعًا».

في الأحوال العادية، تكون آما شديدة الحذر في كلماتها فلا تقول إلا ما هو ضروري. لكنها الآن ليست كذلك. إلحاحها ناجم عن ضرورة تشرّبي هذه المعلومات الجديدة عنها وعن قالب الشاي الغريب هذا.

«ثم أتت الستينيات وأتت السبعينيات عندما سعى الحرس الأحمر إلى تدمير «الأربعة القدامى»: الأفكار القديمة، والثقافة القديمة، والتقاليد القديمة، والعادات القديمة. ما عاد مسموحًا لنا بشرب الشاي لأنهم اعتبروه تذكرة لنا بساعات الكسل والراحة... كأننا عرفنا شيئًا منها في حياتنا كلها! أُرغمنا على هدم بوابة الأرواح وهدم أرجوحة القرية. كان الإبقاء على العادات القديمة يعادل ارتكاب جريمة سياسية. ولكن، كيف يستطيع أي إنسان الظن أن من هو مثلي يمكن أن ينسى؟

... أو كيف يمكن أن يترك شيئًا ثمينًا كالشاي يندثر ويزول مثلما يقول ذلك الغريب الأبله؟».

طوال هذا الوقت، كان في وسعها أن تقول للسيد هوانغ شيئًا، كانت قادرة على مساعدته.

تقول وهي تحوّل عينها صوب يان-يه: «يعود هذا القالب إلى أجيال كثيرة من النساء في عائلتنا. إنه أفضل هدية أستطيع تقديمها إليك، يا حفيدتي، لكنه يحمل أسرارًا كثيرة ومعاناة كبيرة. احمليه أينما ذهبت كي يذكرك بمن تكونين ومن أين أنت».

تضع آما الطفلة على قالب الشاي بحيث يصير درعًا تسند إليه رقبتها ويظل القسم الأكبر منه أشبه بهالة من حول رأسها. بعد ذلك، تلفهما معًا ببطانية يدوية الصنع. ترفع يان-يه وتناولني إياها. «يجب أن تذهبي».

أهز رأسي. أنا خائفة.

«سيري نازلة الجبل». تنظر آما صوب قمم الجبال الزرقاء الضبابية في البعيد. تشد على أسنانها وهي تسحب سكينها من حزامها وتضعها في حزامي. تقول لي: «عليك أن تحمي نفسك». فأضم يان-يه إلى صدري ضمًّا وثيقًا... «عندما ترين بشرًا، اسأليهم عن الطريق إلى مينغاي. علّمي طريقك من أجل العودة».

أجد صعوبة في التفافي حول الصخرة حاملة ابنتي، لكن آما إلى جانبي تساعدني وتحميني من السقوط. ومع وصولنا إلى الدرب القديم باهت المعالم، تضع على ظهري السلة بما فيها من مستلزمات ضرورية لرحلتنا.

تأمرني: «اسندي رقبتها. وتابعي السير. قلت للآخرين إننا سنغيب أربع ليالٍ. يمنحك هذا وقتًا كافيًا لإيداعها في مكان آمن والعودة إلى البيت. سأكون هنا في انتظارك». بعد ذلك، توليني ظهرها وتتمسك بالصخرة، ثم تغيب سريعًا عن ناظري.

أحس كأنني بنت في حكاية خرافية من حكايات الأكها.

الدرب الضيق الذي يمضي مبتعدًا عن أشجاري يفضي إلى درب أوسع منه. أتجاوز قريتي وأتابع السير نزولًا. وكلما تفرعت الطريق، أنشئ عمودًا من حجارة أو أضع علامة على لحاء شجرة. أتوقف من حين إلى حين فأسعل وأبصق في يدي ثلاث مرات، ثم أدعك بها الشعر على ذراعي وساقي. يعرف العالم كله أن الأرواح ليست ذكية ولا شجاعة. تخشى الأرواح لعاب البشر ويؤذي آذانها صوت احتكاك الشعر. كلما بكت يان-يه، أجلس وألقمها صدري. أضعها على فراش من إبر الصنوبر كلما كنت في حاجة إلى قدر من الراحة وإلى تبديل خرقي المدماة. آكل كرات الأرز أثناء سيري.

ويحل الليل. أترك الطريق وأدخل الغابة باحثة عن مكان آمل أن يكون آمنًا من الأرواح الخارجية الشريرة. أدق بقبضة يدي على ثلاث شجرات. «ستكونون بيتي! احرسونا!». أفرد حصير النوم وأتكور حول ابنتي. وما إن يظهر ضوء الفجر في السماء حتى أنهض من جديد. يؤلمني جسدي كله ويصرخ طالبًا الراحة، لكن عليَّ أن أتابع سيري إن أردت أن أمنح يان-يه فرصة في الحياة. لا تزال الجبال منحدرة، وينبغي ألا تكون غير صالحة للزراعة، لكن مدرجات الشاي تتعرج عليها وتسير مع

انحناءات السفوح وتعلو إلى أن تختفي في ضباب الصبح الخفيف. لقد انتصر الفلاحون على الطبيعة مثلما ينبغي لي أن أقهر ألمي الجسدي وأن أقهر ضعفي. يتسع الدرب الجبلي عندما تعلو الشمس في السماء وأبدأ سماع هدير أصوات. أبلغ طريقًا ترابية أرى فيها سيارة شاحنة ماضية في واحد من الاتجاهين وجرارًا زراعيًّا ماضيًا في الاتجاه المعاكس، وأرى بعض الأشخاص حاملين متاعًا، ماضين في الاتجاهين. عليَّ أن أعرف كيف أعثر على هذا الموضع في طريق العودة. لا أستطيع إقامة عمود من حجارة على الطريق من هنا لأن من الممكن أن يمر واحد من الناس، أو شيء من الأشياء، فيسقطه. أحاول جاهدة أن أعثر على معلم من المعالم، لكني لا أرى شيئًا مختلفًا عما ظللت أمر به طوال فترة الصباح. أُخرج خرقة من الخرق التي أعطتني إياها آما وأربطها إلى غصن شجرة. *آمل أن تكون كافية لأن أعثر على طريق العودة!*

أخرج إلى الطريق غير عارفة في أي اتجاه أمضي، يمينًا أم يسارًا. أستوقف امرأة مرتدية ملابس قومية داي وعلى ظهرها سلة فيها عرانيس ذرة وأسألها عن الطريق إلى مينغاي. تجيبني: «نحن ذاهبون إليها أيضًا. تستطيعين اللحاق بنا، إن أردت». أحس ارتياحًا لسيري مع امرأة من قبيلة جبلية (غريبة عني، لكنها تظل مألوفة لي)، وذلك أن كل خطوة تكشف لي عن أمر جديد تمامًا. يصير انحدار الأرض هينًا، وتتغير النباتات المزروعة فيها. مدرجات مصاطب الشاي ذات العلو المستحيل صارت الآن بعيدة خلفي. بدلًا منها، أرى أشجارًا لا أعرفها، أشجارًا باسقة مزروعة في صفوف منتظمة. أتوقف كي أضع على واحدة من

الأشجار علامة بسكين آما فتنزّ سائلًا لزجًا أبيض اللون كأنه دم أبيض. تقول لي المرأة التي من قومية داي إنها شجرة مطاط. أسألها: «أهو صالح للأكل؟» تضحك المرأة وتهز رأسها. أبدًا رؤية بيوت لا تشبه البيوت في جبالنا، بيوت من حجارة وقرميد عليها مادة صقيلة رمادية اللون. ثم أرى أول مبنى من طابقين. ثم يأتي المشهد الذي هو العجب العجاب. تحلق عاليًا فوق رأسي أول طائرة أراها.

تتململ يان-يه وتزقزق بصوتها الصغير كأنها عصفور. أودّع المرأة التي من قومية داي، وأخرج عن الطريق قليلًا كي أعثر على بقعة ظليلة. أفك قماط طفلتي وأضع قالب الشاي على الأرض. أرفعها إلى صدري. لم يتدفق حليبي بعد، لكنها ترضع وترضع وترضع، في حين يدوّي كل ما في داخلي وينقبض. طفلتي قوية، وسوف تلزمها الشجاعة كي تستطيع البقاء في ظل ما هو آتٍ. أعض على شفتي لشدة ألمي المزدوج، ولرؤيتها تنظر إليَّ بعينيها الصافيتين... ما أصفاهما! ثم تغفو فألفها بالدثار من جديد وأحرص على إسناد رقبتها مثلما علمتني آما. والآن، حان وقت العودة إلى الطريق. يحل الظلام بعد ساعتين، ونصل إلى المدينة. غبار يثور ويتطاير في الهواء مع حركة السيارات والشاحنات والدراجات الآلية والجرارات الزراعية وعربات كثيرة تجرها حمير وخيول، ودرجات كثيرة وبشر كثيرون ماضون جميعًا في الطريق الترابية. على الرغم من شدة قنوطي ومن المشهد المدهش حولي، يصيبني ذعر شديد وأكاد أفقد وعيي عندما أسمع بوق سيارة. تكاد ملابس الجميع تشبه ملابس المعلم زهانغ... بدلة ماو وقبعته... لكن ثمة رجالًا مرتدين بنطلونات

رمادية وقمصان بيضاء وسترات رمادية تحتها كنزات محيكة. بدورهم، تبدو ملابسهم أشبه بملابس موحدة. ومن حين إلى حين، أرى أحدًا يشبهني، شخصًا من قبيلة جبلية أميزه على الفور من ملابسه النيلية المطرزة وغطاء الرأس الخاص الذي يُعرف به المرء إن كان من شعب دولانغ أو داي أو أكها.

أرى أشياء تعلمت عنها في المدرسة: مباني الشقق السكنية، ومحطات الوقود، ومتاجر الملابس، والمطاعم. (المطاعم! تخيلوا أن يدخل المرء مكانًا من هذه الأماكن فيجلس إلى طاولة ويقول للرجل ما يريد من طعام فيجلبه إليه). على أن الإنارة الكهربائية تظل أشد ما يلفت انتباه المرء ويسحره. أنوار بيضاء. أنوار صفراء. أنوار برتقالية وأخرى حمراء. أنوار خضراء. وهج آتٍ من المباني. طرق منارة. مصابيح السيارات مشعة كأنها عيون الشياطين.

أظل سائرة على الطريق الرئيسية لخشيتي أن أضيّع طريق العودة إلى البيت إن انحرفت عنها وتركتها. لا أدري كيف أعثر على الميتم. من حولي غرباء كثيرون في مكان ما كنت أستطيع تخيله حتى في كوابيسي. وأنا جائعة. ألم بين ساقيَّ. وجسدي ضعيف بعد الولادة، بعد مسيرتي الطويلة. وأيضًا، عليَّ أن أحرص أشد الحرص على ألا يضبطني أحد لأن ما أنا ماضية إلى فعله خرق للقانون حتى عند الناس الذين هم من أكثرية هان. لقد سمعت عن الاحتجاز والسجن ومعسكرات العمل... من لم يسمع عن هذا كله؟ لم ينجُ أي شخص من الأكها ولم يبقَ حيًّا بعد إرساله إلى واحد من تلك المعسكرات. على أي حال، لم أسمع عن أحد نجا منها.

تعود إليَّ صورة آما وهي تحدق إلى قمم الجبال قبل أن تعطيني سكينها، وكيف كانت تشد على أسنانها... عذابها، ألمها، شجاعتها، تضحيتها، هذا هو حب الأم. هذا ما يتعين عليَّ الآن أن أعثر عليه في نفسي.

أصل ممرًّا فاصلًا بين كتلتين سكنيتين. الممر غير معبد، مثله مثل غيره، لكنه خالٍ من الناس ومن الدراجات. أنسلّ في الظلال وأجلس محتمية بصندوق من الورق المقوى في الشارع. أستند إلى الجدار بظهري. من مكاني هذا، أستطيع مراقبة الشارع من غير أن يراني أحد. لا بد أن أولئك الناس سيحتاجون إلى النوم. آكل بضع كرات أرز، وأقتصد في شرب الماء، وأُرضع يان-يه مرة أخرى. أحكي لها كل ما أعرفه عن درب الأكها وعن أمها وأبيها، عن نسبها وما سيعنيه لها أن تصير امرأة ذات يوم. أقول لها إنني سأحبها دائمًا. أقول لها إنني سأظل أفكر فيها طوال حياتي، كل دقيقة منها. أهمس لها بكلمات حب فترفع عينيها ناظرة إليَّ تلك النظرة التي تخترقني. يدها الصغيرة متمسكة بإصبعي، تجرح قلبي وتترك فيه ندوبًا لن تزول.

أستيقظ بعد زمن... لست أدري كم طال نومي. نمت على صوت مناغاتها. أحس الفجر آتيًا في ذلك الهدوء المحيط بي، لكن الليل لا يزال معتمًا. عليَّ أن أفعل الآن ما أتيت لفعله. دموعي تسيل منذ الآن. أتأكد من إحكام البطانية من حولها ومن ثبات قالب الشاي تحت رأسها. أضعها في صندوق الورق المقوى. إنها لا تبكي.

أقترب من الزاوية وأسترق النظر في الاتجاهين. إلى اليسار، أرى امرأتين تقتربان من بعيد، تكنسان الغبار الناعم في الطريق الترابية

بمكنستين مصنوعتين من عيدانٍ طويلة... تكنسان الغبار بحركة بطيئة من جانبٍ إلى جانب. أنطلق وأنعطف يمينًا، ثم تتسارع خطاي قُدمًا. أمر بشارعين اثنين. الشارعان خاليان وطوال الوقت لا أتوقف عن الهمس. «أمك تحبك. لن أنساك أبدًا». أضع صندوق الورق المقوى عند درجات مدخل واحد من المباني. ما عاد عندي وقت للكلام. ينبغي أن أجري. أجري إلى زاوية الشارع التالي وأنعطف يمينًا، ثم أنعطف يمينًا من جديد. أبلغ زاوية شارع آخر فأجد أنني قد عدت إلى الشارع الرئيسي. أرى أن الكانستين قد اقتربتا. أجتاز الشارع إلى الناحية الأخرى وأختبئ حتى أستطيع مراقبة صندوق الورق المقوى الذي تركته. أرى اهتزاز جوانبه. لا بد أن ابنتي تتحرك بعد أن انتبهت إلى غيابي. وعندها، يأتيني... يأتيني عويل مخيف يشق الظلمة.

ترفع الكانستان رأسيهما وتنظران. تصيخان السمع كأنهما حيوانان في غابة. ثم تنطلق صرخة متقطعة أخرى. تفلت المرأتان مكنستيهما وتجريان مقتربتين. ليستا منتبهتين إليَّ، لكني أراهما بكل وضوح: امرأتان تقدمت بهما السن لهما وجهان متغضنان أشبه بسفرجلتين ذابلتين. تجثو الاثنتان إلى جانبي الصندوق. أسمع صوتيهما: قلقين، لكنهما باعثان على الراحة. ترفع إحداهما ابنتي من الصندوق، وتبحث عينا المرأة الأخرى في الشارع. لا أستطيع سماع حديثهما، لكنهما تتصرفان على نحو حاسم خبير كأنهما واجهتا هذا الموقف من قبل. من غير تردد، تسيران عائدتين في الاتجاه الذي جاءتا منه، عائدتين صوبي. ألوذ بالظلال كي أخفي نفسي. تمران بي فتتابعهما عيناي إلى أن تبلغا مكنستيهما وتتابعان عملهما.

أخرج من أمان مخبئي وأسير خلفهما، أتسلل من مدخل إلى مدخل. تبلغان واحدًا من المباني مررت به من قبل، مبنى في الشارع الرئيسي نفسه. المرأة التي حملت يان-يه تهدهدها وتربت على ظهرها، والمرأة الأخرى تقرع الباب. يضيء مصباح. ينفتح الباب. يجري حديث قصير. تسلّم المرأة ابنتي، ثم يُغلق الباب وتمضي المرأتان عائدتين إلى مكنستيهما. على الباب كتابة: معهد مينغاي للرعاية الاجتماعية.

أظل مكاني إلى أن تشرق الشمس. يضع بائعو الخضار سلالهم العامرة على الرصيف. يفتح الحلاقون محلاتهم. يسير الأطفال إلى المدرسة، يدًا بيد. لكن باب «مركز الرعاية الاجتماعية» في مينغاي يظل مغلقًا. لا أستطيع الكف عن البكاء، لكن ما من شيء أستطيع فعله. أبدأ مسيرتي الطويلة عائدة إلى جبل مانوو. أضيّع طريقي بضع مرات فقط. وعندما أجد نفسي عاجزة عن السير خطوة إضافية واحدة، أدخل الغابة كي أرتاح. أسقط نائمة وفي يدي سكين آما. ثم يأتي صباح اليوم التالي فأبلغ بستاني حيث الشجرة الأم، حيث أجد آما في انتظاري. لقد نضبت دموعي. ومنذ هذه اللحظة، لا أستطيع (ولا يجوز لي) أن أترك أحدًا يرى حزني. ما أشد الوحدة في ذلك... كأنني أغرق.

مركز الرعاية الاجتماعية

رقم ٦، طريق نانهاي الأوسط

محافظة جيشوانغبانا داي ذات الحكم الذاتي،

مقاطعة يونان، الصين

تقرير عن طفلة رضيعة، رقم ٧٨

في هذا اليوم، استلمنا من عاملتي تنظيف الشوارع لين وهو رضيعة أنثى صارت في عهدتنا. قالت العاملتان إنهما لم تريا أبًا أو أمًّا أو شخصًا آخر على صلة بالأمر. وهما على علم تام بالغرامات المترتبة على البلاغ الكاذب، وقد كانتا صادقتين في حالات مماثلة في الماضي.

كان جزء من الحبل السري لا يزال متصلًا بالرضيعة عندما استلمناها. يبدو من جفافه أن أربعة أيام قد انقضت على ولادتها أو ستة أيام. استنادًا إلى هذا، حددنا يوم ميلادها في الرابع والعشرين من نوفمبر، ١٩٩٥. تزن الرضيعة رقم ٧٨، ٢,٧٧ كيلوغرامًا، ويبلغ طولها ٤٧ سنتيمترًا. شعرها أسود اللون. لا تحمل أي علامات ناجمة عن الولادة ولا تحمل علامات فارقة.

وبحسب الأنظمة، سجلّنا ممتلكاتها وحفظناها ما عدا صندوقًا من الورق المقوى أرسلناه إلى المطبخ لاستخدامه في خزن الخضار:

قالب شاي واحد، وبطانية واحدة، وقميص واحد، وبنطلون واحد، وقبعة عليها حليّ. سوف تبقى هذه المواد مع الطفلة.

تشير الحلي التي على القبعة، ويشير لون البطانية يدوية الصنع النيلي، وتشير الملابس أيضًا، إلى أن الطفلة مولودة لامرأة من أقلية إثنية.

خلال عملية استلام الطفلة الرضيعة رقم ٧٨ وإدخالها، تم التقاط صورتين لها وأخذ بصمة قدمها. وسوف يضاف ذلك إلى ملفها.

التوقيع

المديرة تشاو شوّه-لينغ

منتزعة من الوجود

الشهور الثلاثة التالية مخيفة. ففي البداية، يصير ثدياي قاسيين كأنهما حجران بعد وصول حليبي إليهما، وتظل أحشائي تقطر دموعًا حمراء. وحتى بعد زوال الألم الجسدي، لا يزال ألم خسارتي طفلتي مقيمًا مثلما كان. تجتاحني موجات من الأسى، وتكون بعض الأحيان شديدة القسوة فيملأ الدمع عينيَّ رغمًا عني. تراني آما على هذه الحال فتقرص رقبتي المكشوفة من الخلف أو تنهرني كي أبذل مزيدًا من العناية في أداء مهامي، وذلك أنها تريد أن تساعدني في استجماع شتات نفسي أمام بقية أفراد الأسرة. يلاحظ آبا أنني صرت أميل إلى الهدوء والخنوع فيقرر أنني جاهزة للزواج. يعلن قائلًا: «لقد حان وقت مساهمتك في زيادة شعبنا».

وخلال الشهر الرابع، يعود السيد هوانغ وولده. لا يزال السيد هوانغ على حاله، لكن الصبي يبدو مختلفًا تمامًا، إذ طال شعره بعد أن كان حليق الرأس. يريه آبا آلة اللف اليدوي الجديدة التي حصل عليها مقابل أفضل قوس لديه. يقول مباهيًا بها: «نستطيع الآن إنتاج كيلوغرام كامل خلال نصف ساعة فقط».

لكن السيد هوانغ يهز رأسه ويقول: «لا يجوز أن يمس أوراقنا أي شيء ميكانيكي».

تتهدل كتفا آبا ويضع الآلة تحت البيت حيث الخنازير والدجاجات. يستأجرني الغريب من جديد، ويتبع ابنه آما حيثما تذهب. لا يزال جيان-رونغ محتفظًا بكلمات الأكها التي تعلمها خلال الربيع الماضي، وهو الآن يتعلم كلمات جديدة. يأتي معلم الشاي وو من ييوو كي يشرف على «قتل اللون الأخضر» وعلى العجن والتجفيف والتصنيف. يراقب أيضًا كل خطوة من خطوات التخمير الاصطناعي. يأخذ مال السيد هوانغ بكل سرور، ويتصرف كأنه ذو أهمية فائقة... أو كأنه يُحسن إلى السيد هوانغ.

نعلم بعد ثلاثة شهور أن نتائج التخمير أفضل كثيرًا من النتائج التي تم التوصل إليها في العام الماضي. وفور أن تصير القوالب جاهزة، يرتب السيد هوانغ أمر نقلها من جبل مانوو وإخراجها من البلاد بغية تخزينها وتعتيقها في هونغ كونغ.

يعود السيد هوانغ إلى إلحاحه بعد عودته من تلك الرحلة. «لكني لا أزال في انتظار أوراق الشاي الأفضل. كم ستجعلينني أدفع هذا العام ثمنًا لها؟ أهو ثمن مضاعف مرتين؟ ... ثلاث مرات؟ هل تأخذينني إلى بستانك هذه المرة؟ أود أن أرى كيف تعتنين بأشجارك».

أهم بالذهاب كي أقطف له أوراق الشاي، لكن آما توقفني، كأن لديها حاسة سحرية في ما يتصل بأشجارنا. «هذه الأشجار خاصة بالنسبة إلى عائلتنا. وهي خاصة بالنسبة إليك أيضًا. لا تسمحي لأي دخيل بأن يحصل عليها. لا تسمحي أبدًا لأي رجل بأن يراها».

«لن آخذه إليها أبدًا، ولكن، إذا بعته كمية من أوراق الشاي، فسوف نكون، أنا وسان-با، قادرين على...»

تكاد تصيح عليَّ وهي تقول: «سان-با! هو لن يعود أبدًا. وحتى إذا عاد، فهل تظنين أننا نسمح لك بالذهاب معه؟ أين تذهبان؟ وماذا تفعلان؟»

عندي إجابات عن أسئلتها اللاذعة: سوف يعود، وهم لا يستطيعون منعي من الذهاب معه بعد أن ذهبت وحدي إلى منغاي وعدت منها. سنذهب إلى حيث يريد. وفي وسعنا أن نبدأ حياتنا في كوخ المتزوجين حديثًا عند أسرته، أو نذهب إلى قرية جديدة مثلما اقترح ذات مرة. ولكن، لماذا أشغل نفسي بمحاولة جعل القرد يصير عنزة؟ لن تغير آما رأيها في شأن السيد هوانغ ولا في شأن سان-با: «ابقي بعيدة عن رجل الشاي. وانسي أمر سان-با».

لكن الإغراء كبير جدًّا، وأحلامي كبيرة جدًّا. أصعد الجبل وأعود بملء سلة من أوراق الشاي غير متفتحة من نهايات أغصان الشجرة الأم. أقول لنفسي إنها ليست أفضل الأوراق. أفضل الأوراق تأتي في الأيام العشرة الأولى من موسم قطاف الشاي. لكن السيد هوانغ يشتريها ويدفع إليَّ أكثر مما دفع السنة الماضية. ومن جديد، نذهب لزيارة القرية البعيدة حيث أتمكن من معالجة أوراق الشاي سرًّا.

لكن آما تذهب إلى البستان بعد يوم واحد من ذلك وتكتشف فعلتي. أتمنى أن تصرخ عليَّ، لكن تلك ليست طريقة الأكها. بدلًا من ذلك، تعاقبني بكلمات هادئة. «هل كان الثمن يستحق هذا؟ وهل جعل

المال ذلك الفتى يعود من أجلك؟ انقضى الآن أكثر من سنة كاملة. لقد بعتِ أعظم نعمة أتتكِ. لقد بعتِ شرفك».

في غمرة خجلي ويأسي، أتقبل أخيرًا فكرة أنه لن يعود أبدًا. يكاد الألم يودي بي. وأنا أشبه بورقة سقطت من الغصن الذي كان موطنها وراحت تهوي وتهوي وتهوي وتعوم سابحة في الهواء فتسقط من فوق جرف وتعبث الريح بها فتنتزعها من الوجود.

تكفّ آما عن مطالبتي بأن أرافقها في زيارات المعالجة. وتحذو الكنات حذو آما فيتظاهرن بأنني ما عدت موجودة. يتجاهل إخوتي وجهي الذي انتفخ لكثرة بكائي. وآبا لا يلاحظ ما يحدث لي. يسكنني إحساس كبير بالذنب يحول بيني وبين الذهاب إلى أشجاري كي ألتمس السلوى والوحدة. لا أستطيع الكلام مع سي-ته لأن... من أين أبدأ الكلام؟ وحتى إذا استطعت أن أستودعها سري فأنا لا أراها أبدًا لأنها صارت، هذه الأيام، تمضي كل دقيقة حرة من وقتها في سرقة الحب مع لاو-با، الفتى نفسه الذي كان آبا وآما يريدان أن أتزوجه. تحولت سي-ته إلى ذلك النوع من الفتيات اللواتي اتهمنني مرة بأنني صرت واحدة منهن: فتاة ترمي مزايا الصداقة جانبًا وينصب اهتمامها كله على واحد من الفتيان.

ينتهي بي الأمر إلى قضاء الأيام والليالي تحت البيت مع الكلاب والخنازير والدجاجات والبطات. الروائح هناك واخزة، كريهة، والحيوانات تنظر إليَّ بعيونٍ حاقدة. إن كانت شريعة الأكها صائبة وكان كل ما على الأرض متصلًا بغيره، فهذا يعني أن حيواناتنا مدركة ما حلّ

بي من هوان. أحس أنني صرت في منزلة وضيعة كأنني غلطة بشرية. لكن الحياة من حولي لا تتوقف. تعلن أسرة سي-ته أنها ستتزوج بـ لا و-با عمًّا قريب، وتتمتع القرية كلها بوليمة احتفالية. عليَّ أن أكون حاضرة في الاحتفالات، لكنها تكسر قلبي. منذ فترة غير طويلة جدًّا، أرادت آما أن تكون لي هذه الفرحة، وأراد آبا أن تكون لي هذه الفرحة. وبعد فترة وجيزة من الوليمة الاحتفالية، حبلت الكنات الثلاث في دور زمني واحد. استُقبل هذا النبأ بقدر كبير من الحبور أملًا في إنجاب أحفاد وحفيدات جدد. تُقدّم الأضحيات لضمان ولادات آمنة، وصار كل من في أسرتي يتناول طعامًا جيدًا لأن حبَل الكنات المتزامن أمر ميمون إلى أقصى حد. سرت الفرحة وسرى التفاؤل في قرية بئر النبع كلها. وحتى في المخبأ الذي اخترته لنفسي، صرت غير قادرة على تفادي أصوات تسافد الخنازير ومواء القطط معلنًا أنها وجدت أزواجًا لها... وفتيان وفتيات يغنون حبهم من فوق رؤوس التلال.

تبلغ مسمعي هذه الكلمات الأولى من أغنية الحب: «تتفتح الزهور في أوجها منتظرة قدوم الفراشات».

ما أقسى هذا عليَّ!

ثم تجيب الفتاة بمقطع من عندها ينبغي أن يكون: «أقراص الشهد تنتظر النحلات كي تصنع العسل»، لكني لا أستطيع سماع هذا الكلمات. أظن أن الفتاة شديدة البعد عني. يا له من فرَج.

«زهرة جميلة تنادي حبها».

أسمع صوت الفتى مقتربًا من مكاني. أضع يدي على أذنيَّ.

«آلو ساي، آهي آه إ وو، آه إ آه إ أوو».

تعذّبني تلك الأغنية. أدندن بواحدة من أغاني المزارعين علّها تطغى على أصوات الحماسة الملتهبة التي لا تعرف شفقة عليَّ. ثم أسمع وقع أقدام تصعد إلى شرفة الرجال فأبعد يدي عن أذنيّ. انتهى الغناء... أخيرًا. تَصرّ أرضية البامبو من فوقي، وتهتز تحت أقدام أبي وإخوتي المتحركين في الأعلى. خطوات تنزل درجات السلم. أرى قدمي أخي الثالث.

«يا بنت، من الأفضل لك أن تأتي».

أخرج ملتفة صوب شرفة النساء. أرى آما والكنات الثلاث واقفات جميعًا عندما أدخل البيت. على وجه آما ذلك التعبير الذي لا أستطيع اختراقه.

تعلن الكنة الأولى: «لقد عاد».

أندفع صوب قسم الرجال في بيتنا. سان-با! يبدو لي أنحف مما كان. هزيلًا. أكبر سنًّا. صار الآن رجلًا. ألقي بنفسي بين ذراعيه. يحتضنني ويشدني إليه. قلبه يخفق في قلبي. ومن فوق رأسي، أسمعه يخاطب الرجال في أسرتي.

«لقد تتبعت نسبكم كله. ما من سلف مشترك بيني وبين ابنتكم على امتداد سبعة أجيال. ابنتكم لا تصيبها نوبات صرع، وهي ليست فاقدة عقلها. وبدوري، لا شيء من هذا عندي. رحلت كي أجني مالًا يمكنني من رعايتها عندما تكون في الجامعة».

«لم تتقدم ابنتي إلى امتحان غاوكاو». كيف يستطيع آبا، بهذه

السهولة كلها، أن يستخدم ضدي شيئًا كان معترضًا عليه؟ مع ذلك، أنتبه إلى صمت سان-با الطويل.

وأخيرًا، يقول سان-با: «أتيت معي بالهدايا المناسبة كي تبرم أسرتكم هذا الاتفاق».

يتنحنح آبا، لكن سان-با لا يتيح له أي فرصة للاعتراض فأعلم أن زوجي في المستقبل قد صفح عني وسامحني على إخفاقي في الدراسة. ولكن، هل نستطيع أن تكون لنا حياة معًا إن لم أخبره بأمر طفلتنا؟

يقول سان-با وقد اكتسب عزمًا جديدًا: «وأهم من هذا أن ابنتكم تجاوزت الثالثة عشرة. تعلمون مثلما أعلم أننا كنا قادرين على الزواج في الماضي من غير موافقتكم، لكني ساعٍ إليها. لقد احترمت ما أردتم. عليكم الآن أن تحترموا ما أريد. أتيت الآن كي آخذ زوجةً، وأنتظر أن تذهب ابنتكم كي «تعمل وتأكل» معي».

كم تغير سان-با! ليته تكلم بهذه القوة في وقت مضى. لو فعل هذا، لنمنا معًا وتضاجعنا في كوخ المتزوجين حديثًا في بيت أسرته إلى أن تولد ابنتنا.

وعندما يخاطبني آبا بالعبارة التقليدية: «اذهبي إذًا وكوني زوجة له!» أدرك أن سان-با وأنا قد فزنا أخيرًا. من غير أي كلمة أخرى، يأخذ سان-با يدي ونجري معًا خارجين من البيت. ننطلق صوب الغابة. لا نتوقف قبل أن نصل إلى فسحتنا الخاصة. نتوقف لاهثين (من الحماسة والإثارة ومن طول الجري) ويحدق كل منا إلى وجه الآخر. هو متّسخ بعد أسفاره. وأنا... تعلو يداي إلى وجنتيّ. لا بد أن شكلي فظيع...

رائحتي فظيعة. لكنه غير مبالٍ بهذا. يمسك بي ونسقط معا على فراشٍ من أوراق الصنوبر. بل إننا لا نخلع ملابسنا كلها. صار أشد نحولًا مما حسبته عندما رأيته أول مرة. أحس تجاويفه وعظامه تحت جلده. وبعد انتهاء جماعنا (جماع جميل، عجول)، نظل مستلقيين جنبًا إلى جنب.

عشت ثماني عشرة سنة عرفت فيها مشاقَّ كثيرة، لكن إخباره بيان-يه أصعبها على الإطلاق. يشدني بين ذراعيه عندما أنتحب وأحكي له ما جرى.

يقول لي بعد بكائي: «يؤسفني حدوث هذا. لقد خذلتك، لكن هذا لا يعني أنني سأخذل ابنتنا. سنذهب إلى مينغاي ونستعيدها». لماذا لم أفكر في هذا؟ لأن يأسي حال بيني وبين التفكير حتى في أن ثمة أملًا أو فرصة لاستعادة يان-يه. ولكن، هل لا يزال ممكنًا تحويلها من غلطة بشرية إلى ابنة حقيقية؟

«سيعرف الناس أنها أتت قبل زواجنا».

يقول: «لو كان في وسعنا أن نعيش في المدينة على مقربة من جامعتك لما واجهنا هذه المشكلة...». تفاجئني حدة نبرته.

يؤلمني هذا التوبيخ بأشد مما ينبغي له أن يؤلمني مع أن عليَّ أن أكون سعيدة باستعادة يان-يه.

لا نستطيع البقاء في جبل مانوو ولا في أي جبل قريب حيث قد يعلم الناس بأمرنا. يتغضن حاجباه وهو يفكر في هذه المشكلة. وبعد فترة صمت طويلة غير مريحة، يصل إلى قرار: «علينا أن نعود إلى تايلاند. أستطيع العثور على عمل هناك، ولن تكون ابنتنا قد كبرت. سوف يظنون

في تايلاند أننا كنا متزوجين عند ولادتها، تمامًا مثلما يظنون الآن أنني مولود في يوم الخروف. أمر ملائم جدًّا أن يتشاطر خروف وخنزير بيتًا واحدًا. ألا ترين هذا؟». يبتسم لي محاولًا أن يطمئنني... «وهنا، عندما نعود في المرة القادمة، ستكونين قد أنجبت لي ولدًا. عندما يرى أبي وأمي ابننا، لن يهتما بإحصاء أسنان ابنتنا كي يعرفا كم بلغ عمرها».

ها هو يتولى مقاليد حياتنا مثلما ينبغي لكل زوج أن يفعل. كم أحبه في هذه اللحظة!

أسأله: «ألا نستطيع أن نذهب الآن لاستعادتها؟»

يضحك سان-با ويشدني معيدًا إياي إلى حضنه.

*

أعراس الأكها معقدة تستمر أيامًا كثيرة، وأحيانًا أسابيع. لكن عرسنا ليس هكذا. ينقضي الأمر كله في ثلاث ليالٍ لأننا نتعجل الذهاب لاستعادة طفلتنا.

أنا مرتدية ثوب زفافٍ أبيض اللون مع منديل مزين تزيينًا جميلًا. ومن تحت الثوب سترتي وبنطلوني اللذين أرتديهما دائمًا. يصل إلى قرية بئر النبع اثنان من الكبار من قرية سان-با كي يعلنا بدء طقوس الزفاف. يقدمان إلى آبا نقودًا معدنية على سبيل الهدية. ليس هذا «ثمن العروس» بالمعنى التقليدي، بل هو «تسديد ثمن الحليب الذي رضعته ابنتكم» مثلما يقول أكبرهما. ثم تأتي صيحات مجموعة الفتيان التي رافقت سان-با في دخوله القرية. يعلن آبا أن أسرتنا سوف تستضيف طقس «ملء السلة» كي تجمع لي مهرًا لائقًا. أفهم من هذا أنه قد تقبّل الوضع

كله. تجلس سي-ته معي أثناء إلقاء الروما قصيدة طقسية تتحدث عني وتعدد حسناتي منذ يوم مولدي حتى يومنا هذا. «لم تقع في مشكلة إلا مرة واحدة. وهي عاملة جيدة» ... وهلمّ جرًّا.

بعد ذلك، يسأل الروما سان-با: «هل تريد اختبار المنجل قبل أن تشتريه؟».

هذا ما يجعل سي-ته تضحك طويلًا لأن الروما يسأل إن كنا أنا وسان-با قد سرقنا الحب. إن لم نكن قد سرقناه فعلينا أن نذهب إلى الغابة الآن. على الرغم من ضحكها، يحمرّ وجهي (فأنا العروس) عندما يجيبه سان-با: «لقد تمت تجربة المنجل، وقد تم طهي الأرز».

يقدم إليَّ آبا السلة كي آخذها معي إلى بيتي الجديد. تعطيني آما رداءً واقيًا من المطر وملابس جديدة، وتعطيني سوارها الفضي ذا التنينين المتقابلين أنفًا لأنف. يتجاوز هذا أقصى آمالي، فأنا لم أنسَ مشاعرها إزاء سان-با. يقدم إخوتي أكياسًا من بذار الأرز كي نزرعها، أنا وسان-با، عندما نبلغ موطننا الجديد. تقص كل من الكنة الأولى والكنة الثانية جزءًا من غطاء رأسها كي يذكرني بها، وتهديني الكنة الثالثة بطانية زيّنتها بتطريزها المتقن وأضافت إليها بعض الحلي. أضع هذه الأشياء كلها في سلتي وأدسّ المال الذي دفعه إليَّ السيد هوانغ في قعر السلة. (لم أخبر سان-با حتى الآن شيئًا عن مدخراتي هذه. أود أن أفاجئه إن أتى وقت وجدنا فيه حاجة إليها). ومع أنه يتعين على معظم العرائس التخلي عن الأرض المخصصة لهن بموجب سياسة «ثلاثون سنة من دون تغيير» لصالح الآباء أو الإخوة، تعدني آما بأن ترعى بستاني.

تقدم إليَّ أيضًا نصائحها أخيرة، نصائح تقليدية إلى أقصى حد. ثم يأتي دور الرسائل التي تريد آما فعلًا أن توجهها إليَّ، لكن عبر وسطاء. تبدأ بأن تدفع بالكنة الأولى إلى أن تقول لي: «*تذكري أنك قادرة دائمًا على الهرب إذا أردت إنهاء زواجك، لكنك لا تستطيعين العودة إلى البيت*». ومن الكنة الثانية: «*إن صار لك أطفال، فعليك تركهم خلفك عندما تهربين من زوجك*». لا بد أن الرسالة التي تحملها الكنة الثالثة ليست حسنة لأنها تبدو محرجة. تهمس في أذني: «*إذا لم تكن لدى السنجاب طريق حفرها وأعدها مسبقًا فيكون عليه صعبًا أن يهرب عندما يكون في حاجة إلى الهرب*». أهذه هي آخر العبارات التي تريد آما قولها لي قبل أن أترك البيت. أتحسب حقًّا أن من الممكن يومًا، بعد كل ما مررت به أنا وسان-با، أن أتبع طقوس الأكها التي تمنحني الطلاق؟ أبدًا! ولن أعطيه سببًا لأن يطلقني فلن أكون كسولًا، ولن أجادل والديه، ولن أسرق الحب مع رجل آخر، ولن أمتنع عن إعطائه أطفالًا آخرين غير ابنتنا يان-يه التي لا تبعد الآن عن ذراعيَّ إلا أيامًا معدودة.

ثم يأتي وقت الوداع. ترفرف أعين آبا وإخوتي تعبيرًا عن مشاعرهم، وتبكي الكنات من غير مداراة، وتمسح آما وجنتيها بحاشية سترتها. أرى رئيس القرية والنيما والروما وسي-ته وأسرتها، وأرى كثيرين غيرهم. حتى المعلم زهانغ أتى كي يتمنى لي رحلة طيبة.

تعلو أصوات نسوة الأسرة التي ولدت فيها، تعلو بأغنية:

«عليك أن تطيعي قواعد حميك عندما تعيشين تحت سقف بيته

وعليك أن تلتزمي تعليمات حماتك عندما تعيشين معها

وعندما تعيشين مع صهر، عليك أن تتجنبيه مثلما تتجنبين الوباء

وعندما تعيشين مع ابنك، اعلمي أن حياته أهم من كل شيء»

أسير مع سان-با ونبلغ بوابة الأرواح. ينبغي أن أبكي بصوت عالٍ كي أبيّن ألمي لتركي أسرتي وقريتي. لكنني لا أبكي. بل إنني لا ألتفت كي أنظر خلفي.

نبلغ قرية *«ظل السقيفة»* فترحب بي والدة سان-با ببيضة مسلوقة. ترمز إلى قبولها إياي. الحماوات في العالم كله صعبات، وقد رأيت بنفسي مدى ما يمكن أن تبلغ شدة آما على كناتنا. لكن حماتي تبدو مصممة على أن تضع عدم قبولها السابق جانبًا.

وبعد بضع ساعات، تأتي سي-ته كي تؤدي الجزء التالي من الطقوس. تحضر معها غطاء رأسي المثقل بالزينات، ذلك الغطاء الذي كان أول إعلان عن تجاوزي سن الطفولة وسوف يصير الآن علامة على أنني امرأة متزوجة.

تقول لي: *«تذكري أن على الزوجة ألا تتخطى أبدًا معارف زوجها»*. يسرني أنها هنا، وسوف أحاول أن أتشرّب كلماتها هذه... الكلمات التي ستسمعها، هي أيضًا، عند زواجها بـ لاو-با... كي أصير زوجة ممتازة. لكنني أنتبه لحظة تفكيري في هذا الأمر. أقول لها: «آسفة، يا سي-ته، لأنني لن أستطيع أن آتيك بغطاء رأسك عندما يحين أوان ذلك».

تجيبني: «هذا ألمٌ يصعب تخيله».

«من فضلك، اعلمي أنني، في كل حياة تشهد ولادة روحي من جديد، سأظل على الدوام مدينة لروحك، مهما يكن الشكل الذي تتخذه، لما عشناه معًا من أفراح وأتراح».

تومئ برأسها دامعة قبل أن تستأنف واجباتها في هذه المهمة. تقول لي: *«تذكري دائمًا ألا تسبقي زوجك في الطريق. وتذكري دائمًا ألا تصيحي مثلما يصيح الديك. تذكري دائمًا أنك لست إلا دجاجة»*.

تأخذ والدة سان-با غطاء رأسي من سي-ته وتضعه في كوخ المتزوجين. تومئ إليَّ سي-ته برأسها إيماءة لا تكاد تبين، *حظًّا طيبًا. آمل أن تكوني سعيدة. سنظل إلى الأبد صديقتين*. أبتسم لها وأحاول تذكر قسمات وجهها كلها فأنا لا أعلم كم سيطول الزمن كي أراها مرة أخرى. ومع استدارتها كي تبدأ طريق العودة إلى القرية، أدخل مع سان-با كوخ المتزوجين حديثًا. روما القرية واقف في انتظارنا. يقدم إلينا «وجبة الاجتماع»، بيضة مسلوقة واحدة، وكأسًا واحدة من نبيذ الأرز، وفنجان شاي واحدًا. علينا أن نتقاسم الوجبة. وعندما أضع غطاء رأسي تكون طقوس زفافنا قد تمت. أنا الآن زوجة سان-با، وأنا الآن كنة والديه. أنا سعيدة، لكن جزءًا مني (ذلك الحجر الصلب الذي أحمله داخلي طوال الوقت) يذكرني الآن بابنتي، *لماذا ما كان ممكنًا أن تتخذ الأمور مجرى مختلفًا؟ لماذا لم يستطعِ سان-با العودة في وقت أبكر*. ثم تأتيني فكرة مختلفة: *بعد يومين فقط، ستكون ابنتي إلى جوار قلبي من جديد*.

مرة أخرى، أخرج مع سان-با. مجموعة رجال تسوق خنزيرًا إلى بابنا. يغرس سان-با سكينه في عنق الخنزير. يتولى الرجال تثبيت الحيوان

كي يسيل دمه في إناء. وبعد أن يموت الخنزير، يشقه سان-با ويستخرج كبده. يأخذون الكبد إلى الروما والنيما وكبار القرية كي يتفحصوه بحثًا عمّا يحمله من فال حسن أو سيئ. فرحة جديدة في كل دقيقة تنقضي. تبدأ وليمة الزفاف بتناول الحساء، وتلي ذلك شرائح البطاطس المقلية والبطيخ المر مع البيض المخفوق والباذنجان المطهو بالثوم والخردل الأخضر المخلل وكرات اللحم الخاصة المصنوعة من لحم مفروم من الحيوان الذبيح ممزوجًا بدمه. يكمل أهل القرية ترحيبهم بي من خلال أغنية زفاف كلها أمنيات طيبة:

«أنتما لحاء جديد على شجرة قريتنا.

وعسى أن تصير حياتكما معًا قوية كالخشب،

حلقات تنمو تلو حلقات،

جزء من سلالة الأكها».

وفي تلك الليلة، ينام سان-با في بيت والديه، وأنسحب إلى بيت واحد من أعمامه. أأقول إن هذا أمر صعب؟ ... واه! إنها التقاليد!

يأتي اليوم التالي فتقودني امرأة من المسنات إلى بيت أسرة سان-با كي تشرف على استحمامي. أحس حرجًا لأنها ترى عريي. هل ستكون قادرة على استنتاج أنني أنجبت مولودًا؟ أثناء استحمامي، يضرب أهل القرية حواف سطح البيت بعصي طويلة. «انتقلي، يا روح! انتقلي! انتقلي!». ليتني أستطيع القول لهم إنهم ليسوا في حاجة إلى بذل هذا الجهد كله لأن روحي انتقلت مع روح سان-با منذ عهد بعيد. وبعد أن أرتدي ثيابي، أعود إلى الغرفة الرئيسية في البيت. يتناوب ثلاثة من

كبار السن على تداول بيضة وهم واقفون حولنا. يبدو الأمر سهلًا، لكن من العسير على من تقدمت به السن أن يناول مسنًّا آخر بيضة من غير إسقاطها. أحبس أنفاسي لشدة توتري. أنظر إلى سان-با كي أستمد منه شجاعة، لكن قلقه أشد من قلقي. سوف تنكسر البيضة إن سقطت من يد واحد من أولئك المسنين ولن يكون في وسعنا أن ننجب أي طفل (أي طفل آخر)، ولا أن نحظى بحياة سعيدة، ولا أن نعيش حتى نصير مسنين مثلهم.

في آخر تلك الأمسية، توجه إليّ دعوة كي أنام في قسم النساء في بيت سان-با في حين يذهب هو للنوم في قسم الرجال. كم سيكون مغريًا أن ننسلّ خارج البيت ونجري إلى الغابة ونتضاجع هناك! لكن بركات زفافنا ستنقص إن نحن فعلنا هذا. سوء الطالع الذي صادفنا حتى الآن يجعلني غير راغبة في إغراء الأرواح الشريرة بإيقاعنا في مشكلات جديدة.

وفي صباح اليوم الثالث، أدور مع سان-با على أبواب البيوت كلها كي «نتوسل التبريكات». نحمل معنا قصعتين من قطع اللحم والكبد وزجاجة من شراب روحي كي نتشاركها جميعًا. وفي المقابل، يقدم إليّ الناس هدايا من مال وحلي فضية. نسمع مرة بعد مرة: «عسى أن تكون لكما حياة طويلة. عسى أن تتكاثر حيواناتكما. عسى أن يكون قطاف الشاي ومحصول الأرز وافرًا لديكما. عسى أن تنجبا أطفالًا كثيرين!».

وأخيرًا -أخيرًا- في نهاية ليلة كلها رقص، يأخذني سان-با إلى

كوخنا، كوخ المتزوجين حديثًا. أحس توترًا، وأحس توقًا. أحس حياء وأحس جرأة حين أبدأ خلع ملابسي.

*

وفي صباح اليوم التالي، يذبح روما القرية دجاجة، ويتفحصها بحثًا عن أي نذر شؤم. لسانها في موضعه المعتاد، وهذا فأل حسن. لو كان لسانها معوجًّا، لكان معنى هذا أننا سنتجادل ونتخاصم في حياتنا. لا أستطيع تخيل أن يأتي يوم ينشب فيه خصام بيني وبين زوجي.

يسأل سان-با: «هل وقع يومًا أن قتل نمر حيوانًا في قريتنا، أو حولها، في هذا اليوم من أيام الدور الزمني؟»

يتشاور الروما والنيما، ثم يقولان إن شيئًا من هذا لم يحدث. ومع انتهاء آخر الطقوس، يحمل كل منا سلته على ظهره وننطلق معًا.

قال لي سان-با إن المسافة من جبل نانوو إلى القرية القريبة من تشيانغ راي في تايلاند حيث نحن ذاهبان تبلغ مئتين وخمسين كيلومترًا. لكن علينا قبل ذلك أن نتخذ وجهة معاكسة، أن نذهب إلى مينغاي. وبعد مسيرة نصف يوم، نصل إلى الطريق التي اتخذتها عندما خرجت بيان-يه من الجبل. يحل الليل فننام بين أشجار المطاط. وفي الصباح، يستخدم سان-با منجله كي يُحدث خدوشًا في التراب حيث نمنا. «استيقظي! استيقظي! فلننطلق!». يبتسم لي ويقول موضحًا الأمر: «هذا ما يفعله الصيادون جميعًا كي نضمن أننا لم نترك أرواحنا خلفنا». لست من الصيادين. ولهذا كنت أجهل هذا الطقس عندما سرت في هذه الطريق حاملة طفلتي. ماذا إن ضاعت روح يان-يه؟ ماذا إن فرّت

روحي مني؟ وماذا عن تلك الطرق الكثيرة، الصغيرة والكبيرة، التي تفادينا بها أقدارنا؟ نبلغ «معهد مينغاي للرعاية الاجتماعية» وفي قلبي مزيج من أمل وذعر.

مع دخولنا المكان، تصدم أنفي روائح البول كأنها صفعة شديدة. وعلى الأرض أمامنا، جمع من الرضّع والأطفال الصغار. عددهم كبير جدًّا! أندفع من طفل إلى طفل أثناء حديث سان-با مع المرأة المسؤولة. هذه أكبر مما ينبغي. وتلك أصغر مما ينبغي. العينان متباعدان كثيرًا. الأذنان بارزتان كثيرًا. شعر أشد غزارة مما ينبغي. شعر أقل مما ينبغي. أتفحصهم جميعًا كأني قادرة على تمييز يان-يه بعد تركي إياها منذ شهور في صندوق من الورق المقوى في الشارع. لكني أقول لنفسي إن الأم ينبغي أن تعرف ابنتها.

«زوجتي!».

ألتفت متوقعة أن أرى سان-با حاملًا طفلتنا بين ذراعيه. لكني أراه قلقًا، أراه ينقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى، وإلى جانبه، أرى المرأة وقد انتفخت أوداجها غضبًا.

تسألني بصوت حاد: «هل تركتِ طفلة هنا؟ ألا تعلمين أن هذا خرق للقانون؟ سوف أتصل بالأمن العام».

يناديني سان-با من جديد: «زوجتي! ينبغي أن نذهب! أسرعي! الآن!». لكني لا أستطيع حراكًا لأن اثنين من الأطفال الصغار متمسكان بساقيَّ. لكني لن أتحرك حتى إن كنت قادرة على الحركة. لقد أتيت من أجل يان-يه.

يجتاز سان-با الغرفة ويمسك بيدي. حركته المفاجئة تفزع الأطفال الصغار. يبكي اثنان منهم. ثم اثنان آخران. ثم آخرون. تهرع عاملات رعاية الأطفال بملابسهن الوردية آتيات من غرف أخرى. في ظروف أخرى، كان ممكنًا أن يبدو مظهرنا مضحكًا، أنا وسان-با، لأننا رحنا نسير على رؤوس أصابعنا بين الأطفال ومن حولهم ومن فوقهم. تشبك المرأة المسؤولة ذراعيها على صدرها ساخطة أثناء اقترابنا منها.

أقول معترفة: «لدينا طفلة هنا». أنفاسي مبهورة كأنني جريت حاملة سي-ته وصعدت بها جبلًا... «أتينا كي نأخذها». لن يفيدني شيء غير قول الحقيقة، وقد يكون قلب هذه المرأة رحيمًا... «تزوجنا منذ أيام فقط. استطعنا أخيرًا أن نبدأ حياتنا معًا، لكننا نريد ابنتنا معنا. إذا أخذناها فسينقص عدد هذه الأفواه الواجب إطعامها واحدًا، و«... أخلع من معصمي واحدًا من أساور الزفاف الفضية وأقدمه إليها... «نستطيع أن ندفع مقابل ذلك».

يعلو بكاء الأطفال. تحمل العاملات أشدهم صراخًا. تنتقل نظرات سان-با الحذرة بين وجه المرأة وبين الباب. أراه متأهبًا للانطلاق. أنظر إلى عيني المرأة: «أريد طفلتي، من فضلك».

تقول لي: «أنا المديرة زهاو، وأنا أفضّل ذلك السوار». تشير إلى السوار الذي أعطتني إياه آما قبل أيام فقط. إنه أثمن ما أملك، لكني أقدمه إليها من غير تردد. تسألني وهي تضع السوار في معصمها: «قولي لي، في أي يوم أتت طفلتك إلينا؟ هل فيها ندوب أو علامات ولادة تميزها؟»

«كان في قماطها قالب شاي...».

على الفور، يشرق وجه المديرة زهاو: «أذكر تلك الطفلة!». لكن وجهها يخبو من جديد مع عودة الذكريات إليها... «لقد أرسلناها مع أطفال آخرين منذ شهرين في قافلة ذاهبة إلى كومينغ».

أتمسك بسان-با: «نستطيع الذهاب إلى...»

تقول المديرة قبل أن يفلح سان-با في إضافة أي شيء: «لقد تم تبنيها. لم تعد في الصين. لديها الآن أبوان جديدان في أميركا».

تسودّ الدنيا من حولي، وأحس أنني أسقط على الأرض.

*

أتبع سان-با في درب جبلي بعد درب جبلي. صعود. نزول. صعود. نزول. عقلي ميت لشدة انكسار قلبي. يظل سان-با محتفظًا بأفكاره لنفسه. لا يكاد يكلمني منذ أن أغمي عليَّ في «معهد الرعاية الاجتماعية». يشير إليَّ بأصابعه بضع مرات كل يوم *(انتظري!)* قبل أن يخرج عن الطريق ويختفي تاركًا إياي مع عذابي. أنا الآن زوجة، وعليَّ أن أعتاد مسلكه الذكوري. لكني أخشى ألا يعود إليَّ، وأن أضيع هنا، أن أبقى وحيدة إلى الأبد. وأثناء انتظاري، أضع علامة على شجرة، أو أكوّم حجارة... فمن يدري؟ لكنه يعود دائمًا، يعود متوترًا أو قلقًا أو ناعسًا أو كسولًا. أنا متزوجة منذ أيام معدودة فقط، فما الذي أعلمه؟ لعل آبا كان هكذا مع آما في بداية زواجهما.

نصل إلى دالوو على الحدود الفاصلة بين مقاطعة يونان وبين ميانمار. يسأل سان-با بعض الرجال هناك إن كانت الحدود قد شهدت أي

تغيرات في الآونة الأخيرة لأننا لا نملك أوراقًا ثبوتية. لكن شيئًا لم يتغير منذ عبوره الأخير بهذه الطريقة. بعد دخولنا الغابة وتجهيزنا مكانًا نقضي فيه ليلتنا، يجلس سان-با قبالتي ويقول لي: «زوجتي، علينا أن ننسى الغلطة البشرية، وسوف ننجب أطفالًا آخرين». يحاول أن يكون لطيفًا معي وأن يهدهد ألمي. ولكن... هل أستطيع نسيان يان-يه؟ فقدتها ذات مرة، ثم عانيت فقدها. وكان عندي أمل، ثم خسرتها من جديد. هي الآن بعيدة جدًّا، كأنها قد ماتت. هذا الإدراك، الإدراك الحاد كأنه سكين تنغرس في قلبي يجعل ألمي مضاعفًا مرتين، ثلاث مرات... ألمي لأنني تركتها.

يقول لي سان-با: «علينا أن نبدأ الآن محاولة صنع طفل آخر». لكنني أشيح عنه وأدفن وجهي الباكي في طيّة ذراعي. وعندما أكرر القول المأثور: «*لا يجوز لأي زوجة أن تصد زوجها في الدور الزمني الأول من حياتها الزوجية*»، يتقبل سان-با عمق إحساسي بالذنب، لكن من غير أن ينطق بأي كلمة. يناديني صباح اليوم التالي: «استيقظي! استيقظي! فلننطلق!». نمضي بين الشجيرات الكثيفة الفائحة بروائح العفن، المثقلة بالرطوبة، الخالية من البشر. وفي مكان من الأماكن، نجتاز حدودًا من غير علامات ونتابع حتى نبلغ أول قرية في ميانمار حيث يتركني سان-با ويذهب لشراء ما يلزمنا. أنا واقفة في الطريق الماضية وسط البلدة، أحدق إلى لا شيء، وعقلي مع طفلتي و«أبويها الجديدين في أميركا». أسمع صوتًا ينطق اسمي: «لي-يان». تحاول عيناي استعادة تركيزهما. أرى امرأة مرتدية أسمالًا قذرة. وجهها نحيل، مُضنَى. إنها ديه-جا، وقد

انقضت ثماني سنين منذ أن أُرغمت وأُرغم سي-دو على الرحيل عن بئر النبع بعد إنجابهما غلطتين بشريتين.

أسألها: «هل أنت حقيقية؟ أهذه أنت؟». تخفض عينيها وقد أخزتها رؤيتي إياها في هذه الحال البائسة. «ما كان ينبغي أن أكلمك. انسي أنك رأيتني هنا».

ينتفض جسدي وأقول في عجالة مفاجئة: «أنسى!؟ القدر الذي يمكن أن تدعوه أمي مصادفة هو ما جمعنا معًا لأنك الوحيدة القادرة على فهم ما أحسه الآن». ألقي نظرة على الطريق الماضية عبر هذه القرية الفقيرة فقرًا شديدًا: «أين سي-دو؟».

لا تجيبني، لكنها تمسك بذراعي -تمسكها بقوة أكثر مما هو ضروري- وتجذبني ناحية اليمين فنمر ببضع دجاجات تساقط ريشها وببيت منعزل، ثم ندخل الغابة فتبتلعنا على الفور خضرتها الوارفة. من فوقنا مظلة كثيفة من أغصان تحجب السماء. بعوض يطنّ وصيحات طيور استوائية. نبلغ كوخًا من قصب البامبو والقش. أمام الكوخ حفرة في الأرض لإشعال النار. قمامة متناثرة هنا وهناك. بضع قطع ملابس معلقة من أغصان واطئة. ليس لدى الشخص الذي يعيش هنا أي احترام للطبيعة أو لنفسه، وذلك الشخص هو ديه-جا. نجلس القرفصاء معًا. كم سيطول الوقت قبل أن يتساءل سان-با أين ذهبت.

«هل عاد سي-دو إلى بئر النبع؟». تلمع عيناها بمزيج مقلق من يأس ورجاء. أقول لها إننا لم نرَه فتصمت زمنًا طويلًا. ثم تقول: «رجوت أن يكون قد عاد».

«ماذا جرى؟»

تسألني: «من أين أبدأ. عندما وُلد قرداي» ... يتقلص وجهي ألمًا لسماع هذا التشبيه الذي تطلقه على مولوديها... «ما كان أحد يقبل بأن ينظر إلينا. تعلمين أن سي-دو ما كان مسموحًا له أن يضع عمامته، وما كان مسموحًا لي أن أضع غطاء رأسي. لم يحمل قوسه. كان حليبي يسيل من ثديي. وما كان صعبًا على الناس استنتاج أننا قد نُبذنا لأننا أنجبنا غلطتين بشريتين. سرنا وسرنا إلى أن بلغنا تايلاند».

«يقول سان-با: «إن الحياة هنا جيدة»».

تسألني وقد فوجئت بما قلت: «أأنت هنا معه؟» لا بد أنها تتذكر حادثة الفطيرة المسروقة... «لكن... كيف؟».

«أكملي قصتك وسوف أحكي لك قصتي».

تتنهد وتقول: «الحياة في تايلاند بالنسبة إلى الأكها...».

«لكن سان-با يقول...»

«تحولنا عائدين إلى ميانمار. لم ندخل أي قرية، بل تابعنا السير بحثًا عن قرية يمكن أن تقبلنا. بنينا هذا الكوخ بين تلك القرية والقرية التي تليها. الناس هنا كلهم من الأكها، وقد بدأتُ مقايضة بعض الأشياء معهم. مهارتي في التطريز كانت موضع إعجاب دائم. ولهذا، رحت أصنع أكياسًا ومناديل أبادلها بالبيض. وفي آخر المطاف، تمكنت من شراء قوس لسي-دو... لم تكن قوسًا جيدة مثل قوسه القديمة لكنه ماهر في الصيد كعهده دائمًا... لم نعد ننام جائعين».

أسمع صوت سان-با ينادي من بعيد: «زوجتي! زوجتي!». لكني

لا أجيب نداءه. يرغب جزء مني في أن يأتي باحثًا عني، ثم إنني في حاجة إلى نصائح ديه-جا.

تتابع بصوتها الرتيب: «تقضي التقاليد بألا نكلم أحدًا مدة اثني عشر شهرًا. لهذا السبب، كنا نستخدم الإشارات والأصوات المبهمة كي يفهموا ما نريد. استيقظت ذات صباح، فلم أجده. كان ذلك منذ سبع سنين».

من واجبي أن أقول لها كلمات تواسيها. بدلًا من ذلك، أبكي لما في القدر من قسوة لا سبيل إلى الفرار منها. «وأنا أيضًا أنجبت غلطة بشريةً. لم أؤدِ الشعائر. أخذتها إلى مينغاي. والآن، أنا وسان-با متزوجان، لكنها ذهبت. ذهبت إلى أميركا». تمسح ديه-جا فمها بظهر يدها. لست أدري أي جزء من قصتي كان أشد مفاجأة لها. هل فاجأها أن تكون الفتاة الصغيرة التي عرفتْها ذات يوم قد أنجبت طفلة من غير زواج؟ هل فاجأها أنني لم أخلّص العالم من غلطتي البشرية؟ هل فاجأها أنني تخليت عن طفلتي؟

«زوجتي! زوجتي!».

أتجاهل نداءات سان-با. لم يمضِ على زواجي دورٌ زمني واحد، وها أنا أجد نفسي غير مطيعة له منذ الآن.

جاء الآن دوري في الإمساك بذراع ديه-جا. لا تبتعد عني، لكن عضلاتها تتوتر تحت أصابعي. *لقد عانيت الكثير حتى الآن. اتركيني وشأني.*

أسألها، «فماذا أفعل؟ كيف أتابع؟».

تأتي ضحكتها حاملة قلقها ويأسها. تقول لي: «كل ما تستطيعين فعله هو أن تعيشي. ليس لديك خيار. تستمر الحياة بصرف النظر عمَّا إذا أردنا استمرارها أم لم نُرِد. سوف تشرق الشمس على الرغم من معاناتنا». تصمت قليلًا. تجول عيناها على بؤس كل ما هو محيط بها... «قد يكون هذا أفضل من لا شيء. قد يكون هذا أفضل ما نستحق. ما من نيما قادر على العثور على علاج لنا. ما من روما يستطيع أن يمزج لنا دواء يشفينا. ولكن، أليس هذا أفضل من ألا نعيش؟ أليس أفضل من سماع صوت الشجرة التي تمثلني في عالم الأرواح تهوي إلى الأرض؟».

لا أريد قبول كلماتها، لكن جزءًا مني يعلم أنها محقة. أتذكر تلك المرأة التي أنجبت عدة أطفال ميتين، لكنها ظلت تحاول إلى أن عاش طفل لها. لقد عانت ديه-جا أسوأ ما يمكن أن تعانيه امرأة، لكنها لا تزال متمسكة بالعيش.

بدأ الظلام يخيم علينا. لا بد لي من العودة إلى زوجي. وقبل أن أذهب، أدس يدي في سلتي وأخرج كيسًا خبأته فيها وأقدم إلى ديه-جا بعض المال. ترفض أخذ المال أول الأمر، لكني أصر.

«هل أستطيع زيارتك عندما نمر، أنا وسان-با، بهذه الطريق مرة أخرى، إن مررنا بها؟»

«بالطبع. وإذا صادفتم سي-دو...». تدفع بذقنها إلى الأمام ويخبو النور في عينيها.

أجيبها متمنية أن يكون طالعها حسنًا، «لكننا تقابلنا هنا. يمكن أن يحدث أي شيء...»

تسير معي حتى أول القرية. تقول قبل أن تختفي عائدة: «كوني محترسة!».

أجد سان-با جالسًا على الأرض، يغط في نوم عميق وقد أراح رأسه على ذراعيه. أجد صعوبة في إيقاظه. يومئ إليَّ بطيئًا ويحاول أن يجعل عينيه ترياني... كأنه لا يزال في حلم. آه... فهمت الآن. لقد وجد من يبيعه الأفيون مثلما قد يذهب أي شخص إلى آما ملتمسًا الدواء الذي يخفف عنه الألم. لست في حاجة إلى سؤاله عن هذا الأمر. أرى أنه في حزن شديد على يان-يه وفي حزن شديد لما آلت إليه الأمور كلها... حزن أشد مما تخيلت. أحبه لحزنه هذا وأفهم حاجته إلى تخدير حزنه. كنت في حاجة إلى شهور كي أحاول تقبل خسارتي ابنتي. وهو لم تمضِ عليه إلا أيام فقط. أمد يدي إليه في وقت لاحق من تلك الليلة وبعد أن نجهز مكان نومنا. لا أجد الجماع ممتعًا لي، لكنه شيء لا بد لي منه كي أهدئ خوائي وأساعد زوجي أيضًا. *أنجبي لي طفلًا! وليكن ابنًا!*

نتابع السير جنوبًا صباح اليوم التالي، ونعبر نهرًا قال سان-با إن اسمه نهر «نام لوي». ثم نبلغ نهر ميكونغ فيقول لي إننا بالغنا في السير شرقًا. نعود أدراجنا عبر الخضرة الوارفة ونسير بعيدًا عن الأنظار لكننا نحرص على بقاء النهر قريبًا منا، ناحية اليمين.

فماذا عن حدود تايلاند؟ لست أدري متى بلغناها. لست أدري متى اجتزناها. نحن سائران في درب يمضي متعرجًا بين الأشجار الكثيفة والنباتات المتسلقة الزاحفة عليها، وتعلو من حولنا أصوات حيوانات برية مستنكرة وجودنا بينها.

وفي آخر يوم من أيام رحلتنا، نبدأ مصادفة مرتحلين آخرين. لا أتعرف على ملابس أهل القبائل هناك، ولا على لغتهم. ولا أفهم أبدًا لغة التايلانديين الأصليين، ولا مسلكهم. وعند نقطة بعينها، يتوقف سان-با توقفًا مفاجئًا بعد أن كان يتقدمني طوال الطريق. كان على الدوام صيادًا ماهرًا، وها هو الآن يميل برأسه مصغيًا إلى أصوات الغابة. وعندما يتشمم الهواء، ينتابني ذعر شديد. هل التقط رائحة نمر؟ يلتفت إليَّ، نظرة عينيه حادة وفكاه مشدودان.

«اهربي!». أخرج عن الطريق وأتسلق منحدرًا صعبًا. يمسك بي سان-با ويشدني صعودًا، ثم يشدني كي أجثو فأختفي بين النباتات. أحاول ابتلاع أنفاسي اللاهثة لعلمي أن النمور أعظم الصيادين جميعًا لأن آذانها حساسة جدًّا. ولكن، ما من نمر يمكن أن يصدر هذا الضجيج كله أثناء مضيّه في الغابة. سرعان ما تظهر مجموعة رجال يتحدثون خافضين أصواتهم ويمضون في الطريق. سان-با جاثم إلى جانبي، إحدى يديه ضاغطة على كتفي كي أظل مختبئة، وفي اليد الأخرى سكين عارية النصل جاهزة للدفاع عني. لا يمكن أن يكون أولئك الناس من أهل الجبال وإلا لانتبهوا إلى آثار خطواتنا. لا يرخي سان-با قبضته عن ذراعي إلا بعد أن تغيب أصوات تلك القافلة. يعلو جسده قليلًا وأسترق نظرة صوب الطريق فأرى آخر سلسلة الرجال المرتدين ملابس عسكرية. سلال محمولة على أكتاف بعض منهم، وبنادق آلية تتأرجح يمينًا ويسارًا بين أيدي بعض آخر. يهمس إليَّ زوجي بصوت خشن: «أعرفهم. لا يجوز أبدًا أن تقتربي من أولئك الناس. هل تفهمين هذا؟»

د. روجر سيغل
مستشفى ماتيل للأطفال، جامعة كاليفورنيا

٥ أغسطس ١٩٩٦

د. شيلدون كاتز

٨٠٠ فيرماونت آفينيو

باسادينا، كاليفورنيا ٩١٠٠١٠٥

مذكرة في شأن هيلي ديفيس

عزيزي شيلدون،

أشكرك مجددًا لإحالة المريضة المذكورة أعلاه. تاريخ الولادة التقديري ٢٤/ ١١/ ١٩٩٥. تشير السجلات إلى أنها صارت مريضتي منذ ٢٠/ ٤/ ١٩٩٦. معلومات التاريخ الطبي العائلي محدودة نظرًا إلى عدم توفر معلومات من أمها بالولادة عن ظروف ولادتها أو ظروف الحمل بها. حاول الوالدان بالتبني، كونستانس ودان ديفيس عن طريق الطفل بالأنبوب وعن طريق زرع النطاف، لكنهما لم يصيبا نجاحًا. الأب خبير بالأشجار لديه عملاء من بينهم جامعة «كالتك» و«مكتبة هنتينغتون» و«الحدائق النباتية»، فضلًا عن مزارع وعزبات في أنحاء جنوب كاليفورنيا. وتعمل الأم أساتذة علم البيولوجيا في جامعة «كالتك». وهما مقيمان في باسادينا، طريق هَمينغبيرد، البيت ٢٤٢٤. قرر الأبوان تبني طفلة من الصين لتقليل احتمال ظهور الأبوين الطبيعيين

ومطالبتهما استعادة ابنتهما. وقد قيل للأبوين إن قبلهما نحو مئتي طلب على قائمة الانتظار لتبني أطفالًا صينيين.

تلقى الأبوان دروسًا في إجراءات التبني وفي المشكلات المحتملة. وقد حصلا على عدد من رسائل التوصية وكتبا شرحًا لوضعهما وقدما معلومات مالية وأوراقًا تثبت أنهما يعملان. كما خضعا لفحص أجراه طبيباهما النفسيان، وتم أخذ بصماتهما وجرت ثلاثة لقاءات بينهما وبين اختصاصي اجتماعي تحدثا فيها عن مشكلاتهما الجسدية والنفسية وعن تفكيرهما في ما يتصل بالأطفال وعلاقة كل منهما بأبويه (حيين أو متوفيين). وقدم كل منهما معلومات عن علاقات الحب السابقة التي كانت في حياته. اختار الاثنان «برايت بيغيننغز» لتكون مؤسسة التبني التي يتعاملان معها. قيل لهما إن المريضة ستكلفهما قرابة عشرين ألف دولار بما في ذلك نفقات سفرها.

تلقى الاثنان أوراقًا تقول إن الرضيعة في الشهر الرابع من عمرها. قالت مؤسسة التبني للأم: «أنت تحصلين على ما تحب الصين تقديمه إليك. لا مجال لأي مفاوضات. وما من فرصة ثانية. إما أن تأخذي هذه الطفلة، أو لا تأخذي أحدًا». وقد بين الفحص الأولي الذي أجريته للطفلة بتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٩٩٦، أن سنها أقل كثيرًا مما كان مذكورًا إذ إن وزنها كان عشرة باوندات فقط. وكما تعلم، يأتي المرضى وهم يعانون سوء التغذية الشديد، فضلًا عن الأمراض. كانت غير قادرة على رفع رأسها أو على أن تنقلب في مهدها من غير مساعدة.

كان الأبوان جزءًا من مجموعة من ستة ثنائيات تلقت أطفالًا من

كومينغ في الصين. أتى الأبوان مجهزين بالحفاظات وحليب الأطفال ومأكولاتهم والألعاب والملابس والبسكويت. قيل لهما أن يجلبا معهما خمسة آلاف دولار على أن تكون أوراقًا جديدة من فئة مئة دولار، وذلك بحيث تستلم مديرة الميتم ثلاثة آلاف دولار تكون تبرعًا نقديًّا. جُلب الأطفال الرضع إلى فندق وتم تسليمهم (على نحوٍ بدا عشوائيًّا). تقول الأم إنها غير واثقة بحصولها على «الطفلة الصحيحة» ويصف الأب بأن الأطفال جميعًا كانوا قذرين، كان كثير منهم مصابًا بالقمل. (هذه المريضة كانت خالية من القمل). أُمِر الأب والأم بألا يغسلا الطفلة والملابس التي أتت بها لأن من شأن الروائح المألوفة أن تسهّل عملية الانتقال. ولا شك في أن هذا الأمر ساهم في تفاقم وضع المريضة التي كانت مصابة بالجرب وبالقوباء.

ومن مدينة كومينغ، طارت الأسرة إلى كانتون (غوانزو) لاستصدار تأشيرة خروج للمريضة وذلك من قنصلية الولايات المتحدة. وأثناء الرحلة إلى لوس أنجلوس ازرقَّ لون المريضة وتوقف تنفسها. كان على متن الطائرة طبيب طوارئ فقام بتدابير الإحياء القلبي الرئوي وظل يراقب وضعها إلى أن حطت الطائرة. تم الكشف على الطفلة أول الأمر في المركز الصحي في مستشفى سنتينيلا على مقربة من المطار. ثم عمل الأبوان على نقلها مستشفى هَنتنغتون القريب من منزلهما ومن عيادتك في باسادينا. تم تشخيص إصابة الطفلة بـ«مقاومة الصادات الحيوية» وكادت تموت مرة ثانية. ثم قمتَ بإحالتها إليَّ فأدخلتها في وحدة العناية المركزة الخاصة بالأطفال.

من الواضح أن المريضة كانت على تماس مع مادة برازية ملوثة وماء غير نظيف، وأنها أُعطيت طعامًا غير سليم. وبعد ذلك، تبين أنها مصابة بأنواع مختلفة من الديدان والطفيليات والبكتيريا المُمْرِضة. أعمل الآن على معالجة الديدان المدورة بالمبيندازول. لكن معالجة بقية الطفيليات المعوية أشد صعوبة بالنظر إلى القيود الناجمة عن بروتوكول معالجة البكتيريا المعوية.

ومع أنها قد نُقلت إلى قسم الرعاية التخصصية، فإن احتمالات الموت (نتيجة كل سبب من الأسباب الصحية لديها) تظل مرتفعة، وذلك خاصة لدى المرضى الذين يجتمع فيهم صغر السن وضعف المناعة. أوضحت للأبوين أنني لن أكون واثقًا بشفائها، لكني آمل أن تكون أقدر مني على جعلهما مستعدين لأسوأ الاحتمالات.

وسوف أواصل موافاتك بتطورات وضع المريضة.

المخلص لك،

روجر سيغل

ملاحظة: ألا تود أن تزورنا مع ميلي ذات مساء لتناول العشاء عندنا؟ مر زمن طويل منذ آخر لقاء لنا.

سِلْم وهدوء وملاذ آمن

ذهبت هذا الصباح، مثل كل صباح آخر، إلى الجبال مع جاراتي (أكون آمنة ضمن مجموعة) بحثًا عن الفطر وثمار اليام البري وبيوض الطيور. تعجبني زوجة آه-جوي وزوجة شاو-كاه وزوجة ذا-بو. تساندني تلك النسوة عندما أبكي شوقًا إلى موطني وعندما أبكي حزنًا على حياتي التي لم تسِر مثلما تخيلت. إلا أن زوجة آه-جوي، التي هي أقوانا وأكبرنا سنًّا، ضاقت ذرعًا بي في الآونة الأخيرة. «يا زوجة سان-با، هل تظنين أن قصتك أصعب من قصتي؟ هل تحسبين أنك عانيت أكثر مما عانت أي امرأة أخرى في هذه القرية الغارقة في روث الجواميس؟».

وهي محقة... بالطبع.

مضى على وجودنا هنا ثلاثة شهور. عندما أتى كي يأخذني، قال لآبا إنه سيرحل كي يجني مالًا، ولم يقل إنه جنى مالًا كثيرًا. لم يعترف لي إلا بعد وصولنا إلى تايلاند بأنه كان معتمدًا على تقدمي إلى امتحان غاوكاو من أجل مستقبلنا. قال: «الآن، ينبغي أن يكون المال الذي أتاك هدية في زواجك وافيًا بالغرض». أعطيته المال وأعطيته ما كسبته من السيد

هوانغ. استخدم ذلك المال في استئجار قطعة أرض لنا كي نبني عليها كوخًا صغيرًا من البامبو والقش، كوخًا ليس أكبر من كوخ المتزوجين حديثًا إلا قليلًا. لا وجود تحت أرض كوخنا لحيز يؤوي دجاجتنا وخنازيرنا... إن صار لدينا شيء من ذلك. لكنه كان يذهب إلى الصيد فنأكل جيدًا. وقد وعدني بأن يبحث عن عمل. ظل حزينًا على خسارتنا ابنتنا، لكننا سعينا إلى معالجة ذلك الحزن بأن حرصنا على الجماع كل ليلة تقريبًا... نكون عاريين تمامًا، وينظر كل منا إى عيني الآخر، ونحاول أن نصنع طفلًا جديدًا. لكني أدركت بعد نهاية أول دور من أدوار الأكها الزمنية (اثنا عشر يومًا)، أدركت تمامًا أين أتى بي سان-با.

لقد ابتعد أبناء الأكها المقيمون في تايلاند عن ثقافتنا مسافة كبيرة وصاروا في مواجهة الطبيعة التي تجعلهم في خطر دائم. نحن أفقر قبائل الجبال هنا. ليس من حقنا أن ننال جنسية تايلاند. ليس من حقنا امتلاك أرض. ونحن واقعون تحت رحمة أصحاب المشاريع العقارية القادرين على مصادرة الأراضي التي نظفناها وحرقناها وزرعناها. ومن الممكن أيضًا أن يُقدِم الجنود ورجال الأعمال وتجار المخدرات على تهجيرنا، إن أرادوا ذلك. أدركت ظلمة هذا المكان عندما سمعت أول مرة تعبير «المثلث الذهبي». تذكرت يوم كنت مع سان-با، قبل يوم واحد من وصولنا إلى هذا المكان، ورأيت الرجال ذوي البنادق الآلية والسلال الغامضة. كان سان-با عالمًا من يكونون وماذا يحملون. حاول حمايتي، لكني أتمنى لو أنه حذرني من هذا العالم الذي ندخله قبل أن نترك جبل مانوو. كيف استطاع يومًا التفكير في جلبي إلى هذا المكان، أو في جلب

ابنتنا؟ طرحت عليه هذا السؤال فأجابني، «كان علينا أن نخفي خزيك، وكنت عارفًا أنني أستطيع العثور على عمل هنا». وعندما سألته لماذا لم يعثر على عمل، نظر إلى الأرض ثم أشاح عني بوجهه.

وخلال الأسابيع التي أعقبت ذلك، توقف سان-با عن الذهاب إلى الصيد وعن تقطيع الحطب. ذكّرته بالقول المأثور: *يصير الأكل سهلًا إن كنت مُجِدًّا في العمل. وإذا تساهلت في العمل، يصير الأكل صعبًا.* أجابني بكلمات من أغنية حب من أيام أجداد أجدادنا: *المتحابان حقًّا يظلان باقيين على حبهما حتى الموت. لا يصيبهما خوف حتى إن أُحرِقا معًا حيين.* لكن هذا لم يجعلني أحس ثقة. أدركت أننا، من غير مال أو طعام، أشد فقرًا مما كانت عليه أسرتي في طفولتي الأولى. بدأ الجوع يقرص أحشائي وصار أليفًا كأنه صديق قديم. تناقص وزني، لكنني لم أصِر بعد نحيلة كزوجي. سألته ذات ليلة عندما كنا مستلقيين على حصير النوم: «هل تكلمك معدتك مثلما تكلمني معدتي؟». لم يجبني بشيء فظننت أنه غارق في أحلامه. ثم أتى الفجر فرأيت أن من الأفضل ألا أطرح عليه ذلك السؤال مرة أخرى. لا تود أي زوجة أن تدس أنفها في شؤون زوجها الرجولية، لكنني لم أستطِع منع نفسي. كلما طلبت منه أن يحمل قوسه ويذهب إلى الصيد، يرد عليَّ بأسئلة مثقلة بفكرتين مختلفتين: «لماذا لم تؤدي شعائر التطهر؟»، أو «لماذا تركت طفلتنا؟». لديه إجابة واحدة على السؤالين معًا: «أنت التي أنزلت بنا اللعنة ودمرت حياتنا». كان هذا صوت أساه، وكنت أنا سببه. ثم لمت نفسي أيضًا عندما بدأ يغيب في الغابة ولا يعود إلا بعد يوم أو يومين. يا لهذا الحزن الذي جلبته لزوجي!

سألته هذا الصباح عن السبب الذي جعله يتزوجني. أجابني: «كان أملي أن تُغيِّري حظي. كنت مُنتظرًا أن تتحولي من الفتاة الأولى إلى المرأة الأولى. أول شخص من جبل مانوو يذهب إلى الجامعة. أو أول من تصير قائدة نسائية. وأنا واقف إلى جانبك، معتز بك». سرت فيَّ رعشة باردة عندما تذكرت لحظة تردد سان-با عندما سمع أنني لم أتقدم إلى الامتحان. أضاف كأنه يقرأ أفكاري: «حاولت أن أكون محترمًا. أردت الزواج بالفتاة الأولى. لكن الأمر انتهى بي إلى أن أصير الأبله الأول. لا نستطيع الآن أن نفعل شيئًا غير الاختباء من نتائج أخطائك». لم يستطِع فمي أن يصوغ إجابة. وأسوأ ما في الأمر أن كل ما قاله كان صحيحًا.

والآن، أثناء انهماكي في اقتلاع فطر جبلي برأس سكيني، أحاول التفكير في سبل لإعادته إلى الشخص الذي كانه. *أنجبي ابنًا! أنجبي ابنًا! أنجبي ابنًا! اجعلي زوجك سعيدًا، وسوف يحبك من جديد*. أعود إلى القرية مع صديقاتي بعد انتهائنا من البحث عن الطعام. أخلع ثيابي وأرتدي ثوب الزفاف وأضع غطاء رأسي الرائع، ثم أخرج إلى بوابة الأرواح حيث ألتقي بقية النساء المرتديات مثلما ارتديت. من المفترض أن نرقب الطريق الجبلية في انتظار وصول زوارنا اليوميين، لكننا نلقي نظرات قلقة على اتجاه الرجال النحيلين المنتظرين أمام طرائدهم التي اصطادوها. يجب أن يختفوا قبل وصول ضيوفنا.

كبرت وأنا أظن أن الأفيون لا يُستخدم إلا في الطقوس وفي الطب، لكني رأيت منذ أول يوم لي في هذه القرية أن من الرجال من يدخنه بغية المتعة. وبعد بضعة أدوار زمنية، عندما كنت في الغابة مع رفيقاتي نبحث

عن قش نعزز به سقوف بيوتنا، وجدت حقنة ملقاة على الأرض. حملت الحقنة وأخذتها إلى زوجة آه-جوي كي تراها فانتزعتها من يدي انتزاعًا ورمتها.

«إياك أن تمسي واحدة من هذه الحقن، يستخدمها الرجال الذين يطبخون الأفيون كي يحولوه إلى سائل يحقنوه في عروقهم».

قلت في نفسي: *لماذا يفعل واحد من الأكها شيئًا من هذا القبيل؟* المؤسف أنني أعلم الإجابة: لا مستقبل. ليس الأفيون والهيروين سبب فقرنا ويأسنا، لكن الفقر واليأس ينتجان رغبة عظيمة في النسيان.

بعد ذلك، أخذتني زوجة آه-جوي إلى روما القرية الذي نبهني إلى أن من رجالنا من يعملون مع مهربي المخدرات. حدثني عن أزواج يبيعون زوجاتهم وآباء يبيعون بناتهم كي يصرن بغايا رغبة منهم في كسب مال يشترون به المخدرات. قال لي إن الغرب الإمبريالي (أميركا) صار يرعى القوميين في جبال تايلاند بعد تولي الزعيم ماو مقاليد السلطة في الصين. تمكن أولئك القوميون من البقاء وشرعوا في إنتاج الأفيون. ومع مجيء حرب فيتنام، صار «المثلث الذهبي» مصدرًا لنصف ما ينتجه العالم كله من هيروين. قال لي مكتئبًا: «أنت تعيشين الآن وسط ذلك كله». كان تصديق ذلك شبه مستحيل. رحت أقول لنفسي: *كوني شاكرة! صحيح أن سان-با من غير عمل، لكنه لا يعمل مع أهل المخدرات.*

يأتي أول إعلان وصول ضيوفنا من خلال ضربات أقدامهم على الأرض. امرأة درداء تعين ابنها الكبير (لكنه مصاب بذلك المرض الذي يأتي من الحقن) على دخول كوخها. ثم تأتينا أصوات الأبواق تليها

أصوات ضحك وكلام بلغات لا يفهمها أي منا فينسحب الرجال إلى الغابة من غير صوت. يظهر الفيل الأول. جسده الضخم يتمايل تمايلًا رشيقًا من جهة إلى أخرى وخرطومه يتشمم كل شيء. قائد الفيل جاثم بين أذنيه. قدماه العاريتان متدليتان. ومن خلفه، أجانب بيض جالسون في محفة فوقها مظلة: سائحون. (عندما رأيت أجنبيًّا أول مرة، ظننت أنه ينبغي أن يكون روحًا لأن ما من إنسان حي يمكن أن يكون طويلًا إلى هذا الحد، أبيض إلى هذا الحد، أو بدينًا إلى هذا الحد. كان أشد بدانة مما رأيته في صور الزعيم ماو. أشد بدانة من السيد هوانغ. بدانة شديدة تجعلني، بعض الأحيان، قلقة على الفيلة مع علمي أن هذا سخف مني). وبعد ربط الفيلة كلها وإعانة السائحين على النزول (مع قدر كبير من الضحك وطقطقة الكاميرات)، أقترب منهم مع صديقاتي.

«هل تريدون الشراء؟»

«هل تريدون الشراء؟»

«هل تريدون الشراء؟».

لقد تعلمنا هذه الكلمات الإنجليزية التي يفهمها السائحون جميعًا مهما تكن الأماكن التي أتوا منها. نبيع أولئك السائحين أكياسًا محيكة من أجل نظاراتهم الشمسية ولابتوباتهم وهواتفهم. وبعض الأحيان، يأتينا مشترون أشد حذاقة (يدعون أنفسهم تجارًا) فيتملقوننا كي نبيعهم أغطية رؤوسنا الاحتفالية وستراتنا المطرزة وصداراتنا المزينة بالفضة وحمّالات الأطفال المحيكة المزينة بحلي خاصة وأمنيات طيبة تمثل كل ما يستطيع حب الأم تقديمه.

يصيح بي رجل ضخم ويلوح بالكاميرا أمام وجهي. *صورة، صورة، صورة.*

أجيبه بجملة إنجليزية حفظتها: «*الصورة بخمسة باهْت*».

أقف كي يلتقط لي صورة معه، ثم تأتي أسرة أميركية معها ولدان بوجهين غاضبين، ثم امرأة ورجل كهلان شائبا الشعر على رأسيهما قبعتان شمسيتان. سيقان شديدة البياض أستطيع رؤية عروقها تحت الجلد. آمل في سري أن تأتي أسرة من السائحين ذات يوم وتكون بين ذراعي الأسرة طفلة من الأكها. الآن، يكاد عمر يان-يه يبلغ سنة.

أعود إلى البيت بخمسين باهْت... مكسبي البسيط من البيع والتصوير. ليس هذا كافيًا للعيش إن كان الزوج لا يصطاد ولا يعمل. لكني، على الأقل، لست متسولة. لم يصِر أي فرد من الأكها، في أي مكان، متسولًا. *احفظي كرامتك دائمًا*. أذكر نفسي بهذا وأنا أخبئ نصف المال في مكان لا يمكن أبدًا أن يعثر عليه سان-با... لا في ملابسي، ولا حتى في أواني المطبخ، ولا في أي مكان يمكن أن يشك في أنني أخفي فيه شيئًا ذا قيمة. أخبئ المال في قعر سلته، مع حوائجه.

عندما يصل سان-با، يطلب مني إعطاءه ما كسبته من مال. «أنا في حاجة إليه، أعطني إياه، يا زوجتي!». أعطيه مبلغًا يرى أنه ليس المبلغ كله فيطلب مني طلبًا مستحيلًا آخر. «أعطني أساورك. أعطني غطاء رأسك. سوف أبيع الفضة».

أحاول مناقشته: «إذا بقيت من غير أساور ومن غير غطاء رأسي فلن يكون الأجانب راغبين في التقاط الصور معي. وإذا لم يلتقطوا

الصور معي، فكيف نجني مالًا كي نأكل؟». تنبئني نظرته بأنني تجاوزت حدودي.

يقول بصوت منخفض: «تعلمين ما يحدث للزوجات إذا رفضن الطاعة. من الممكن أن يكون ذلك سريعًا جدًّا». يجمع كفيه معًا ويصفعني صفعة واحدة عالية الصوت. لا أستطيع تصديق أنه يضربني لكني، منذ ثلاثة أشهر فقط، ما كنت قادرة على تصديق أنني سأكون جائعة جدًّا مثلما أنا الآن. أعطيه المال الذي في جيبي. سأستعين بالمال الذي خبأته في السلة كي أشتري أرزًا وزيتًا.

يلتصق بي عندما نرقد على حصير النوم. يهمس همسًا رقيقًا. «سامحيني، يا غاليتي!». ثم يكون الجماع، ويكون سان-با لطيفًا كعهده دائمًا. لكنه يخرج بعد ذلك، كي يدخن غليونه. يخرج ويتركني مع شكوكي. هو لا يقول لي أبدًا كيف ينفق المال الذي يأخذه مني. لعله يقامر به ويخسره. لعله يشتري به خمر الأرز. أو لعله يشتري به وقت امرأة أخرى. لعله يشتري الأفيون. لكنه لا يتعاطى الأفيون، وإلا فسوف ألاحظ ذلك. أو لعل هذا هو السبب في غيابه عدة أيام في المرة الواحدة... كي يزول عنه أثر الأفيون قبل عودته إلى البيت. أرفض هذه الفكرة. لا يمكن *أن يفعل بي هذا*. لكن شكوكي تعود إليَّ سريعًا... *لقد فعلها تلك المرة عندما كنا في قرية ديه-جا*.

أخرج إليه وأسأله من غير مواربة: «هل جرّبت الأفيون مرة أخرى؟».

تغيم عيناه ويقول معترفًا: «مرات نادرة... عندما أريد الفرار من بؤس حياتي».

أنا زوجته. أريد مساعدته. لكن، ماذا أستطيع؟

*

يسير اليوم التالي على النهج المعتاد نفسه: البحث في الغابة عن طعام نأكله. يلي ذلك بيع الحلي والمشغولات. وفي آخر النهار، بعد عودة السائحين إلى فنادقهم وعودتنا إلى بيوتنا كي نبدل ملابسنا، أجتمع مع صديقاتي في الخارج من جديد. نجلس على جذوع الأشجار المقطوعة ونطرّز ونتبادل الحكايات ونغني. الحزن يوحد بيننا، وأنا أجد راحة في حقيقة أننا كلنا نتكلم اللغة نفسها ونتبع التقاليد نفسها. نتمنى جميعًا أن يكافئنا سخاء هذه الأرض. نأمل جميعًا أن يسود السِّلم والهدوء وأن يكون لنا ملاذ آمن. لا نريد شيئًا غير أن نُترَك وشأننا كي نمضي في حياتنا بعيدًا عن ساكني السهول، بعيدًا عن بقية قبائل الجبال. نود أن يحتضننا دفء تراب الأرض، وأن تحتضننا طاقة أشجارها وعبير زهورها. لكن حياتنا غير متسقة مع العالم، وعلينا الآن أن نحتمل زيارة أغرب المخلوقات على الإطلاق: المبشرون. نتعلم، نحن الأكها، ألا نكره أبدًا، لكن هذه الجماعة بعينها من جماعات الأجانب، هذه الجماعة التي تقول لنا إن معتقداتنا باطلة وإن ثمة إلهًا واحدًا فقط، تتحدى قدرتي على الاحتمال والصبر.

يصيح علينا الرجل الأبيض، يصيح علينا نحن الأربعة: «لا يقبل أي إله بقتل التوائم»، وكأن هذه الممارسة لا تزال موجودة. تحاول زوجته أن تكلمنا عن الأطفال الذين يولدون مع مشكلات أخرى. «هؤلاء الأطفال نعمة خاصة من الرب». ثم يمضون نصف ساعة أخرى في

الحظ من شأننا بسبب «تَطَيُّرنا الغبي». ففي نظرهم، نحن لسنا «تو» فحسب... نحن خاطئون.

عندما أرى هذين الشخصين أول مرة، أرى بشرًا لا يعرفون كيف يكون الوجود في انسجام مع الأرض والحيوانات، أو مع المطر والريح والشمس. تجاهلت الشائعات التي قالت لي إن المبشرين يختطفون أطفال الأكها ويرسلونهم إلى المياتم وإلى معسكرات العمل الإجباري. وأما اليوم، بعد انصرافهما، فإن زوجة شاو-كا تخبرني بما جرى لها.

«عندما حبلت وكبرت بطني، شجعاني على الذهاب إلى عيادتهما كي أنجب طفلي». تسرّ لي بهذا محاولة، من غير نجاح، كي تظل مشاعرها خبيئة... «قالا لي إن أطباءهم قادرون على إصلاح الأمر إن ولد الطفل بشفة مشقوقة أو بإصبع زائدة. ذهبت إلى العيادة. جعلوني أنام. وعندما استيقظت، أعطوني طفلتي. كانت تامة الخلقة، ولم أعانِ آلام الولادة. لكنهم فعلوا لي شيئًا عندما كنت نائمة فصرت غير قادرة على الحبل من جديد».

لقد سمعت قصصًا مشابهة كثيرة، بل كثيرة إلى حد يجعلني لا أشك في صدقها.

أحاول تغيير الموضوع بأن أطلب النصح من صديقتي. «أظنني أخطأت عندما اقترنت بزوجي. فما الذي أستطيع فعله الآن؟».

تحذرني واحدة من النساء. «عليك أن تكوني حذرة في ما تقولين. يستطيع أن يبيعك».

لم أفكر من قبل في أن هذا أمر يمكن أن يقع لي. لكن الفكرة بدت

واقعية جدًّا. هذا ما جعلني أشد قنوطًا. «لكن، ماذا لو استطعت العثور على طريق العودة إلى جبل مانوو؟ أستطيع إعادة هدايا الزواج إلى أهله إعلانًا عن طلاقي منه. وقد تُقبل عودتي إلى قرية بئر النبع...».

تقاطعني زوجة آه-جوي. «هذه الأمور غير ممكنة. حتى إذا اتّبعت طقوس الطلاق كلها، فلن تستطيعي أبدًا أن تعودي إلى موطنك. هذا خزي كبير جدًّا».

أتذكر كيف حذرتني الكنة الأولى من هذا الأمر، لكنها استخدمت كلمات تقليدية. تعود إلى ذهني أيضًا أمور أخرى نقلها إليَّ آبا وآما من خلال الكنات: *يكبر الطفل الضعيف فيصير رجلًا ضعيفًا. يعلم الجبل كله أنه كسول.*

كان ذلك كله قبل انكسار قلبي مع يان-يه.

تقول زوجة ذا-بو محاولة مواساتي: «على الأقل، لم يأخذ أساورك ولم يأخذ الفضة من غطاء رأسك. عندما يحدث هذا، لن يبقى لك شيء».

في تلك الليلة، بعد عشاء من حساء ليس فيه غير الماء ودرنات عثرت عليها في الغابة، يأخذ سان-با المال الذي أعطيته إياه، ثم يضع رداءه على كتفيه.

أسأله: «هل سيطول غيابك؟»

يصيح عليَّ: «لا تطرحي عليَّ أي سؤال. هل تفهمين هذا؟ لا أريد أي سؤال».

يندفع خارجًا من الكوخ. أشك في أنه سيعود الليلة. وقد لا يعود

ليلة غد. أقاوم يأسي وأكرر في ذهني ما قالته لي ديه-جا: *لا تستطيعين فعل شيء غير أن تعيشي.*

عميقًا في الليل، يأتيني حلم مخيف. يخرج وليدا ديه-جا من جسدها. غلطتان بشريتان. لكنهما ليسا طفلين بل هما كلبان يعويان، كلبان صغيران جدًّا، لكنهما ناضجان... لست أدري كيف. تضعهما آما في كيس وتجلس فوقهما إلى أن يختفي نباحهما. وديه-جا تبكي... كما في الحياة الحقيقية. أرى سي-ته منزوية في ركن الغرفة، تقهقه. تدفع آما بدواء في حلق ديه-جا. يميل رأسها وتنظر إلينا بعينين ناعستين. ثم يظهر سان-با. يأخذ كيس الكلبين إلى الخارج. يضع الجثتين متقابلتين على سفود ويشويهما على النار كي تكونا عشاء له. وبأسنانه، يمزق الحيوانين إربًا. الدهن على فمه مثلما رأيته أول مرة. ينظر إليَّ، ويميل رأسه، ويغفو أخيرًا. ثم يرفع رأسه من جديد ويبتسم ابتسامة كبيرة، يريني أسنانه اللامعة كلها...

أستيقظ مفزوعة. أحس وحدة أكبر من كل ما ظننته ممكنًا. لا أستطيع العودة إلى نومي لأني أحسست الحلم حقيقيًّا جدًّا. وفي الصباح، لا أستطيع حمل نفسي على الذهاب للبحث عن طعام في الغابة. ثم يأتي الظهر فأرتدي ملابسي من أجل السائحين، أرتدي ثوب الزفاف وغطاء الرأس اللذين كانا يعنيان لي الكثير، وأخرج من الكوخ. أقف مع جاراتي من أجل التقاط الصور والحصول على بعض المال، لكنني أواصل التأمل في دلالات حلمي. أنظر إليه من كل زاوية. أفكر في أن آبا وإخوتي وكناتي سيكونون قادرين على تفسير هذه الرسائل. وبالطبع،

تذهب أفكاري إلى آما التي هي أحسن من يفسر الأحلام في جبل مانوو. سوف ترى في كل صورة خرقًا لشريعة الأكها، تمامًا مثلما أرى. لكن من بين تلك الرؤى كلها، ثمة اثنتان مهمتان: كيف مال كل من ديه-جا وسان-با برأسيهما ناعسين. أدفع بمجموعة أكياس نظارات محيكة في وجه امرأة شعرها بلون الخردل البري -«ألا تريدين الشراء؟»- وفي تلك اللحظة، يغدو المعنى واضحًا.

لقد أدمن زوجي الهيروويين. هذا لن يتحسن أبدًا. ولسوف تسوء الأمور.

أفلح في الفراغ من البيع وأعود إلى بيتي ذاهلة من غير أن أودع صديقاتي. ألا ينبغي أن أكون أشد حزنًا؟ لعل عليَّ أن أشد شعري وأصرخ في الطريق أو أن أتهاوى باكية عند قوائم واحد من تلك الفيلة. لكني لست تلك الفتاة التي كنتها من قبل. لا أزال في الثامنة عشرة، لكني أكبر بعشرات السنين... في قلبي.

أدخل الغرفة الوحيدة التي هي بيتي. لقد عاد سان-با. وهو الآن مستلقٍ على حصير النوم. ذراعه ملقاة فوق عينيه.

يقول عندما يحس حضوري: «زوجتي!».

أقول: «زوجي». ثم أركع على حافة الحصير.

لا بد أنه سمع شيئًا في طريقة نطقي هذه الكلمة لأن ذراعه تسقط إلى جانبه ولأنه ينظر الآن إلى عيني. على الرغم من كل شيء، لا يزال قادرًا على قراءتي جيدًا. ثانية أو اثنتان، ثم يدرك أنني أعلم.

«ظننت أن عودتي من أجلك ستغير كل شيء». لا تزال رائحة

أنفاسه حلوة، لكن أعذاره التي يبرر بها تعاطي المخدرات ليست إلا تنويعات على تلك العذابات المألوفة نفسها... «لكنك قضيتِ علينا بإنجابك غلطة بشرية. ثم تصرفت على نحوٍ جعلنا غير قادرين على إصلاح غلطتنا وإنقاذ طفلتنا».

ما أشد ندمي على ما فعلت، لكني لن أدع سان-با يجعلني أرى نفسي مذنبة بعد الآن.

أقول له: «أنا التي عانت الكثير. حملت يان-يه في أحشائي. ثم أنجبتها. كنت أمها، وفعلت كل ما استطعت فعله كي أحفظها. كنت في حاجة إليك، ولا أزال في حاجة إليك».

تطفر الدموع من عينيه. «أنت التي فعلت بي هذا».

أقول حزينة، «لست من صنع منك الرجل الذي أنت هو. لقد كنت دائمًا الشخص الذي هو أنت. رجل ضعيف. سارق الفطيرة».

ليس هذا إلا عتابًا لطيفًا، فأنا قادرة على قول ما هو أسوأ من هذا كثيرًا. لكن كلماتي تشق طريقها إلى قلب سان-با. تصير عيناه باردتين، وينقلب على الحصير مبتعدًا عني.

أظل راقدة إلى جانبه. والفراغ الذي بيننا تشغله خيمة من حزن وندم. وعندما يتسلل خارجًا بعد ساعات من ذلك، أكون قد علمت ما ينبغي فعله.

لا أزال مرتدية ملابس الزفاف. أجمع بقية حوائجي في سلتي. ينبغي أن أخرج من القرية قبل استيقاظ الآخرين، لكني لست متعجلة ولست مذعورة. أبحث هادئة في سلة سان-با وأستعيد نقودي الخبيئة

فيها. لا طعام عندي، لكني سأكون قادرة على البقاء حية في الغابة طالما أن سكيني معي. وفوق هذا... لا خطة عندي. لا أستطيع العودة إلى موطني. قد ينتهي بي الأمر إلى العيش في سقيفة صغيرة إلى جوار ديه-جا. حتى ذلك سيكون أفضل مما أنا فيه الآن.

لا أهتم بالنظر حولي كي أجمع ذكريات أحتفظ بها. الآن، صار التصميم دليلي. أمر بيدي على ثوبي ثلاث مرات وأتلو الكلمات التي ستكون إعلانًا عن بداية طلاقي، وآمر روحي بأن تصحبني، وبألا تنساق إلى إغراء البقاء هنا. «أنا راحلة، راحلة، راحلة». وأنا شاكرة جدًّا لأنني من غير أطفال. لو أن لي أطفالًا، لكنت مرغمة على تركهم مع سان-با أو على إعادتهم إلى أهله.

أسير بخطوات بطيئة في الدرب الماضية عبر القرية محاذرة إيقاظ الكلاب. ثم أبلغ البيت الأخير فأجري إلى حمى الغابة الكثيف. لعل زوجي يستعين بمخدراته، لكني أحس الآن شيئًا نابضًا في داخلي يمنحني قوة كي أفر. أتوقف عند قمة واحدة من الروابي. أجثم على الأرض. وأصغي جيدًا. لا شيء. أركض من جديد. صارت عندي معرفة كافية بهذه المنطقة التي فيها أعيش لأنني أمضيت ساعات طويلة جدًّا في البحث عن ثمار الغابة. أعلم الاتجاه الذي ينبغي اتخاذه الآن. لكن هذا لا يعني أنني واثقة أو مطمئنة. قد يأتي سان-با باحثًا عني. أحاول المضي في الغابة حذرة، لكني في عجلة من أمري وهو ماهر في تقفّي الأثر عندما يريد ذلك.

يكتنف الجبل ضباب لست أدري إن كان نعمة أم خطرًا. يتيح

لي الضباب إمكانية الاختباء، لكنه قد يجعلني أضيّع اتجاهي. الأرواح كامنة في انتظار الضعيف، في انتظار العليل، في انتظار المذعور. أحاول استجماع شجاعتي فأذكر نفسي بأنني من قوم الأكها. نحن نعيش في الغابات. وفي الغابات طعامنا ودواؤنا. وإن كنا منتبهين، نستطيع حماية أنفسنا من الأرواح الشريرة والحيوانات البرية والحوادث المميتة. لكني لست منتبهة ولا حذرة في فراري من زوجي. ثم تأتيني الفكرة فتصدمني: *ماذا إن وجدني؟* يعلم أنني لن أعود إليه. يتجمد الدم في عروقي. لقد وضعته أمام خيارين اثنين، إن وجدني: يبيعني أو يقتلني. خياران كلاهما من حقه.

*

مقاطعة يونان واقعة صوب الشمال. أسلك دروبًا جبلية وأسير من الفجر حتى الغروب وأرقب حركة الشمس في السماء: إلى يميني في الصباحات، وإلى يساري بعد الظهر. أشرب ماء الجداول وأقتات على النباتات. أطوق كتفي بعرق نباتي سحري آملة أن يحميني من الأرواح الشريرة، ومن زوجي أيضًا. أسير، وأجري بعض الأحيان، إلى أن أصير غير قادرة على التقدم خطوة أخرى. عندها، أنحرف عن الدرب وأدخل الغابة كي أجد مكانًا أرتاح فيه. أنا في غاية الإرهاق، لكني لا أكاد أنام. *إذا لم يحضِّر السنجاب طريق فراره مسبقًا، فسوف يصعب عليه الفرار عندما* يكون *عليه أن يفر.* لو كانت لديَّ خطة للفرار لاستطعت حماية نفسي بالطقوس وبالتمائم. وأنا الآن خائفة. لا يصح أبدًا أن تكون مشاعر الخوف حاضرة عند الإنسان في الغابة. أمضي ساعات الليل

السوداء مصغية إلى كل صرير وإلى كل فرقعة آتية من الظلال. ثم يأتي اليوم الرابع فأحس وجود سان-با. أخشى أن أسمعه إن غنى لي. لكن ثمة أمرًا آخر. يتغير اتجاه الريح فألتقط رائحة شيء منفلت وحشي. أهذه روح أم أرواح؟

يدب الذعر في قلبي فأندفع صوب فسحة صغيرة طالت أعشابها، وأجثم فيها. أنا الآن مختبئة، آمنة. لكني، كأنني أرنب، لا أستطيع البقاء ساكنة. أنهض من بين الأعشاب وأجري بأسرع ما أستطيع عائدة إلى الغابة إلى أن أبلغ الدرب من جديد. أثب من صخرة إلى صخرة، وأعبر من فوق الأشجار الساقطة، وأنزلق في الوحل، وأنهض من الوحل. وأتابع سيري. ألم ناري في رئتي وفي ساقيَّ.

تصطخب في عقلي معرفة تغيثني. إن كان صحيحًا أن «آه-بويه-مي»، الذي هو الرب الأعلى لدى شعب الأكها، قد وضع خاتمًا داخل رأس شخص يحدد زمن عيشه، وإن كان صحيحًا أن كان لكل منا شجرة تمثله موجودة في عالم الأرواح، فإن التاريخ المكتوب في خاتمي قد اقترب بالتأكيد، ولا بد أن تكون شجرتي قد طرحت عنها أوراقها. ما أكثر الأقوال التي كانت آما ترددها وأراها الآن ترتدّ إليَّ وتجرِّمني! لماذا لم أكن مصغية إليها؟ لأنني كنت مثل كل فتاة أخرى. كنت معتزّة بنفسي اعتزازًا غبيًّا. كنت واثقة بنفسي ثقة مطلقة. كنت حمقاء في الحب. نعم، لقد أخطأت... أخطأت في حق آما وآبا وفي حق زوجي وفي حق طفلتي. والآن، مع إحساسي أن نهاية حياتي قد باتت وشيكة جدًّا، أتوسل في قلبي كي تستمر قليلًا فقط. *دعني أعود إلى موطني! دعني أعثر على*

طفلتي! دعني أنجو مما يطاردني! امنحني فرصة! سوف أكافح. سوف أكون أفضل. أيتها الشمس، أيها القمر، أعيناني!

ومن خلفي، أسمع أحدًا، أو شيئًا، يسير عبر النباتات الكثيفة الرطبة. أختبئ خلف شجرة وكأن هذا قادر على إخفائي عن صياد. أسمع طنينًا، ثم صوت اصطدام، وأرى سهمًا ينغرس في جذع شجرة قريبة مني. تجرحني فكرة أنني لن أرى موتي آتيًا إليَّ، أن حياتي سينهيها سهم يصيبني في ظهري. تجرحني بأشد مما أستطيع تخيله. أود أن أرى سان-با. أود أن أنظر إلى عينيه عندما يشد القوس ويقذف بالسهم إلى قلبي. وعندما أموت أتمنى مواجهة كل ما ارتكبت من أخطاء. أخرج من مخبئي. ها هو سان-با. قوسه في يده. أحبني ذات يوم، وأحببته. وها نحن الآن هنا. تبدأ ذراعه شد وتر القوس.

يحذرني بنبرة حادة: «قط!».

تنتقل عيناي جهة اليمين إلى حيث سمعت صوت السهم الأول. وهناك، عند الشجرة، أرى نمرًا جاثمًا مستعدًّا للانقضاض. عيناه الذهبيتان تجمداني في مكاني. ترتعش شعرات شاربه.

يصرخ سان-با من جديد: «قط!». هذه المرة، يحاول أن يلفت انتباه النمر إليه.

تتحول عينا الوحش إلى مصدر الإزعاج الذي يفسد عليه متعة صيده. يرمي سان-با السهم لحظة انقضاض النمر. أسمع صوت اصطدام السهم بشجرة بعد أن أخطأ هدفه. يمر النمر على مقربة شديدة مني ويصفعني ذيله صفعة شديدة. قفزتان، ثم يصل إلى سان-

با. الصرخة الأولى صرخة غضب. لكن أسنان النمر تنغرس في فخذ سان-با فيصير صراخه ألمًا وذعرًا. يتراجع النمر قليلًا، ثم يدفع سان-با بخطمه كأنه يلاعبه. يصدر عن حلق النمر صوت غريب... رررررر. يلتفت صوبي برأسه كي يتأكد من أنني لا أزال هنا. يفلح سان-با في التقاط سهم آخر ويرفعه بيده مثلما يرفع حربة. محزن جدًّا! يثب النمر من جديد. لا يستهدف عنق سان-با، بل يطبق فكاه على بطنه وينتره بعنف شديد فيرتفع زوجي عن الأرض ويصطدم بشجرة. ينبئني أنينه المعذَّب بأنه لا يزال حيًّا، لكنه سيموت حتى إذا لم يواصل النمر مهاجمته. موت فظيع. ثم يأتي دوري.

بعد أن صار الأقوى بيننا عاجزًا عن فعل شيء، يتحول اهتمام النمر إليَّ. فمه وشاربه مخضبان بالدم، لكن له وجهًا مهيبًا، بالغ القوة. أغمض عيني كي أترك عقلي يذهب، مرة أخيرة، إلى ابنتي. *أينما كنت، يا ابنتي! تذكري دائمًا، أنني أحببتك*. يصرخ سان-با: «يا قط». أفتح عيني فأرى النمر يلتفت إلى سان-با من جديد. هذه المرة، يكون طنين السهم قصيرًا. ثم أسمع صوت اصطدامه عندما يخترق عين النمر. يظل الحيوان لحظة ساكنًا سكونًا تامًّا، ثم تخور قوائمه من تحته. تخور ساقايَ أيضًا. تتمسك أصابعي بالأرض. وينبض قلبي عنيفًا. أزحف حذرة إلى سان-با متجاوزة النمر. أمعاؤه منتشرة حوله كأنها عروق نباتية في غابة. دم في كل مكان. عيناه مفتوحتان على اتساعهما. لا ترمشان. آخر فعل له مع آخر نفس له كان إنقاذه حياتي.

د. روجر سيغل

مستشفى ماتيل للأطفال، جامعة كاليفورنيا

٥ نوفمبر ١٩٩٦

د. شيلدون كاتز

٨٠٠ فيرماونت آفينيو

باسادينا، كاليفورنيا ٩١٠٠١٠٥

مكتبة
t.me/soramnqraa

مذكرة في شأن هيلي ديفيس

عزيزي شيلدون،

رأيت مريضتك هيلي ديفيس يوم الثالث من نوفمبر، وذلك لمتابعة وضعها في ما يتصل بتدبير إصابتها بالطفيليات وما يرافقها من عدوى. بعد إقامتها المطولة في وحدة العناية المركزة الخاصة بالأطفال لدينا، يسرني كثيرًا إبلاغك بأن هيلي ما عادت لديها أي أعراض ظاهرة. برازها طبيعي. ورئتاها نظيفتان. لم تنشأ لديها أعراض ثانوية: قلبها طبيعي من حيث حجمه وشكله، ووظائف جسدها الكبدية والبولية طبيعية أيضًا.

وقد تعرفت على كونستانس ودين اللذين هما شخصان مريحان جدًّا. أرى أنهما أبوان جيدان تمامًا. سوف يتقيدان تقيدًا شديدًا بالتعليمات كلها لضمان صحة هيلي وحسن حالها. وأما في ما يتصل بهيلي نفسها، فأنا

لم أرَ في حياتي المهنية كلها إنسانًا مكافحًا يضاهيها. لم تستجب للمعالجة فحسب، بل بدأت تتطور تطورًا واضحًا. ازداد وزنها وأدركت في نموها نقاط العلام المناسبة لمن هم في مثل سنها: صارت قادرة على أن تنقلب بنفسها، وأن تنتصب جالسة من غير مساعدة، كما صارت شديدة المهارة في الزحف. أظنها ستبدأ المشي بمفردها مع حلول عيد ميلادها الأول بعد أسبوعين. وقد دعتني أسرتها لحضور الاحتفال. هيلي حريصة على أن يكون الناس من حولها مسرورين منها. حب الممرضات في الوحدة جعلها تضحك، لكني الشخص المفضل عندها. أمد لها لساني كلما مست أنفي فتقهقه ضاحكة، بل تضحك ضحكًا شديدًا. وقد بدأ ظهور مهاراتها اللفظية، وكان اسمي من بين أول عشر كلمات نطقتها. تدعوني. «د تا» بدلًا من دكتور. كل من عالج هيلي يعتبرها طفلة لامعة تسر القلب.

وبما إن هيلي في حال حسنة جدًا، فلن أقدم أي توصيات إضافية في هذه المرحلة. أشكرك لأنك أتحت لي متابعة هذه الطفلة اللطيفة معك.

تحياتي الشخصية الحارة،

د. روجر سيغل

وداعًا أيتها الدموع

ماذا أفعل الآن؟ نحن الأكها لدينا عادات وطقوس كثيرة، لكن ما من شيء منها أشد قداسة من الطقوس الخاصة بالموتى لأن الموتى أرواح تنتقل من عالم الأحياء إلى عالم الأرواح. في حالة موت عادية، تكون المراسم أكبر عشر مرات من مراسم الزواج. وأما من يموت موتًا مخيفًا، فإن تلك الطقوس تصير مبسطة إلى حد كبير جدًّا. على الرغم من هذا، لا بد من التعامل مع الميت بكل احترام ورفق كي يصير عبوره يسيرًا وكي نضمن استقراره في موطنه الجديد. لكن ثمة أمورًا كثيرة لا أستطيع فعلها من أجل زوجي. لن تتردد أغاني حداد بين جنبات الجبال منبئة كل من في جبل مانوو بما أصابنا. لا أستطيع البكاء مثلما ينبغي أن تبكي أرملة في حين تذبح أسرته الأضاحي، جاموس ماء، ودجاجات، وحيوانات أخرى كي تكفّر للكون عن موت ابنها الفظيع وكي تمنعه من التسبب في مشكلات في القرية. وفوق هذا كله، لا أستطيع ملازمة هذه البقعة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أسهر فيها على جسد سان-با. لا أستطيع. مع هذا، لا بد لي من ضمان أن تظل روحه في جسده وأن تُدفنا في الأرض معًا لأن طبيعته في الحياة التي عاشها (لا في لحظاته الأخيرة) هي التي

ستقود خطاه الآن. أغسل ما بقي من جسده بأفضل ما أستطيع، أغسله بماء من جدول قريب. لم أرَ من قبل شيئًا مخيفًا إلى هذا الحد. لقد تمزق لحمه وتفتت. لا أدري ما أفعل بأحشائه التي لا تريد العودة إلى تجويف بطنه. أضع قطعة نقود معدنية على لسانه وأغلق فمه، ثم أربط حنكه بعرق نباتي. «آمل أن تستخدم هذا المال كي تشتري لك ملابس وطعامًا في موطنك الجديد». أنسل خيطين من ثوبي. أستخدم واحدًا منهما كي أربط إبهامي سان-با معًا، وأستخدم الثاني كي أربط إبهامي قدميه معًا. نحن نفعل هذا كي يتذكر الميت أنه قد مات حقًّا. لا شك عندي في أن سان-با يعلم أنه ميت، لكنني أؤدي هذا الفعل من أجله عرفانًا لإنقاذه إياي.

تقول التقاليد إن من يموتون موتًا فظيعًا ينبغي أن يدفنوا حيث سقطوا تمامًا. لكنني من غير أداة أحفر بها. أفتش في المنطقة فأعثر على وهدة صغيرة قد تكون صالحة لأن تصير مدفنًا. أفلح في جره إلى تلك الوهدة. صار في الوهدة، لكنني لا أستطيع أن أكوّم الحجارة فوقه، لأن ثمة قاعدة خاصة في دفن من يموتون ميتة فظيعة. ينبغي التضحية بكلب كي يوضع فوق الجسد فيصير حاجزًا يمنع الروح المضطربة من الإحساس بحاجة إلى التجول والتسبب في مشكلات للناس. ما من كلاب في الغابة. وأنا امرأة، أي إنني لست قادرة على الصيد. أجثم على الأرض، وأفكر، وأنتظر. ثم تأتيني الفكرة أخيرًا. النمر. لن أستطيع أبدًا أن أجره إلى هذا المكان، لكن قوته (حتى بعد موته) قد تكون وافية بالغرض. أحاول أن أقطع واحدة من قوائمه، لكن الأربطة بين العظام

قاسية جدًّا. ذيل النمر أقل أجزاء جسده ثخانة. أغرس سكيني بين اثنين من عظام الذيل، وأحزّ، وأحزّ. ينقطع الذيل أخيرًا. ألقي به فوق سان-با بأسرع ما أستطيع، ثم أغطي الجسد بحجارة وأغصان وقش. سيعلم كل من يمر بهذه الرابية أن ثمة شخصًا مدفونًا هنا. وسوف يتلو تعويذاته ويؤدي طقس التطهر عندما يعود إلى بيته كي يظل سليمًا معافًى.

أقول لزوجي بضع كلمات أخيرة. تكون الجمل الأولى مما سمعت الروما يقوله في مراسم الدفن الصحيحة. «أحبك أبوك وأمك في حياتك، وأحببتهما. وأنت الآن ميت. عندما كنت حيًّا، كنت تحب الصيد، وأنت الآن ميت. عندما كنت حيًّا، كنت تحب أن تغني وترقص، وأنت الآن ميت. حان الآن وقت الفراق بين الأحياء والموتى. عسى أن ترتحل إلى أسلافك! عسى ألا تقضّ أبدًا مضجع الأحياء!».

ثم أضيف كلمات من عندي. «عليك أن تنسى كل ما هو متصل بي. أنت ميت تمامًا. لا تحاول اللحاق بي. إنني أودع الدموع التي كنتَ سببًا لها. أشكرك لإنقاذك حياتي، لكن عليك ألا تعود إلى الأرض، لا روحًا ولا في تجسّدك التالي، قبل أن أموت». مكتبة سُر مَن قرأ

أريد أن أغادر هذا المكان، لكن التراب والدم يكسواني. أذهب إلى الجدول فأستحم مرتدية ملابسي كلها كي أحافظ على قدر من اللياقة إن أتى أحد ورآني. دم زوجي يلوّن الماء. وملابس الزفاف لن تصير نظيفة تمامًا، لكن غطاء رأسي بخير. أخرج من الجدول فيقطر الماء مني. أجمع حطبًا للنار، أجمع بعض الفطور والدرنات. أبحث عن بقعة مشمسة، وأعد لنفسي وجبة بسيطة. ثم أستلقي آملة أن تجفف الشمس ملابسي.

أغرق في نوم عميق كالموت. وفي الصباح، أحمل قوس سان-با وسهامه وأمر بجثة النمر مرة أخيرة، ثم أعثر على طريق العودة إلى دربي. تتفحص عيناي بقع السماء الصغيرة التي تسترِق النظر إليَّ عبر أغصان الأشجار من فوق كي أتتبع قوس الشمس وأتابع رحلتي.

*

لا أعثر أبدًا على القرية التي رأيت ديه-جا فيها. أضلّ طريقي. وعندما ينزل الضباب أو تهب عاصفة، ينتهي بي الأمر بالسير في دوائر مغلقة. أسأل الناس عن الاتجاهات، لكني لا أكاد أعثر على من يتكلم لغة الأكها أو الماندرين. الغابة الكثيفة من حولي، وأنا أمضي ساعات محاولة فهم كل ما وقع لي واستنتاج الأمور التي كان ينبغي أن أنتبه إليها. منذ سنتين، سمعت مصادفة آبا يقول لسان-با: «أنت تتاجر في أشياء لا يجوز أن تتاجر فيها، وتحاول فعل أشياء لا يجوز أن تفعلها». لم أسأل عن الأمر، لكن... هل يكون معنى ذلك أن سان-با كان ذا صلة بالمخدرات منذ ذلك الوقت؟ عندما جعلني سان-با أختبئ من تجار المخدرات،... هل عرفهم لأنه عمل معهم في ما مضى؟ أهكذا كان يكسب المال كي يأتي من أجلي؟ حتى لو تمكنّا من استعادة يان-يه، فأي أب سيكونه سان-با إن أراد أخذها إلى تلك القرية الفظيعة؟ أيكون قد صار في آخر المطاف من ذاك النوع من الرجال الذين يمكن أن يبيعوا زوجاتهم أو بناتهم؟ هذه أسئلة لم أعلم إجابات عنها. تعذّبني معرفة هذا الأمر. إلا أن الذكرى التي تجرحني، بطرق عديدة، أكثر من أي ذكرى أخرى هي أبسط الذكريات. تزوجت رجلًا كذب كي يغير يوم مولده

ظانًّا أنه يستطيع خداع الكون. كان ذلك خرقًا شديد الوضوح لأهم ركائز شريعة الأكها. من أجل ماذا؟ أمن أجل الزواج بمن كان يدعوها الفتاة الأولى؟ أجد نفسي أتكلم بصوت مسموع مع آما ماتا، أُم شعب الأكها العظيمة. «ماذا تقول عني حقيقة أنني سايرت كذبته؟».

بعد السير أيامًا، أبلغ دروبا أعرفها تمام المعرفة. هذا كل ما أستطيعه كي أمنع نفسي من الجري إلى قريتي. لكني أفعل ما أعلم أن عليَّ فعله فأذهب مباشرة إلى قرية سان-با. القصة التي أرويها لأهله قصة قصيرة بسيطة لا تكشف شيئًا غير أن ابنهم قد لقي موتًا فظيعًا. أتجنب ذكر التفاصيل التي يمكن أن تسكن ساعات نومهم، لكنهم يستطيعون أن يعلموا من ملابسي الملطخة بدمه أن ابنهم قد عانى كثيرًا.

يقول حماي مستسلمًا، متقبلًا: «كنا نعلم أنه سيواجه المتاعب في تايلاند، لكننا لم نتوقع أن يكون الأمر هكذا».

تبكي حماتي فأمسك يدها. بما إن سان-با قد مات موتًا رهيبًا، فهو لن يصير موضع عبادة ولن تُقدّم إليه الأضاحي. سوف تُتلى التعاويذ كي يظل بعيدًا، ولن يأتي أحد على ذكر اسمه بعد الآن. لو كان لديه شقيق أصغر منه، لكان مطلوبًا مني أن أتزوجه، لكنه من غير إخوة.

بعد أن أنسحب مع حماتي إلى قسم النساء في البيت، تعطيني ملابس جديدة أرتديها. وبعد ذلك، تقف معي وأنا أطعم النار ملابس زفافي كلها... البنطلون والسترة والثوب. لا يبقى من ملابسي غير غطاء رأسي. تناولني أم سان-با مقصًّا مزينًا فأقص به كرات الفضة والقطع النقدية. هذه آخر خطوة من خطوات فك زوجي عن حياتي. أدس

القطع الفضية في جيبي وألقي في النار غطاء الرأس الذي صار الآن من غير قيمة. وسرعان ما تستحيل رمادًا أحلامي التي ما كانت إلا أحلامًا.

*

لست واثقة مما ينبغي فعله بعد ذلك. ألتمس العزلة في بستاني، وأنام تحت مظلة الكهف وأحس قِدم الأشجار من حولي، أحسها تحميني. وبعد ساعات طويلة، تدخل نومي روائح طعام يُطهى على نار. تنبئني حرارة الهواء أن الوقت قد صار ظهرًا. أفتح عيني فأرى ساقين. تتبع عيناي الساقين صعودًا.

«آما...».

«ابنتي». تجثو إلى جانبي وتضع مرفقيها على ركبتيها. تمر عيناها على معصمي وتلاحظان أن سوار التنينين قد اختفى. ثم تبتعدان. يقول لي إحساسي إنها تحاول «تقسية» نفسها إزاء ما سأرويه لها من مآسٍ. «رآك بعض الناس في الجبل. بلغني النبأ ليلة أمس. علمت أنني سأجدك هنا».

أحكي لها أكثر مما قلته لأهل زوجي، لكني لا أتجاوز الأمور الأساسية. ابنتي أخذتها أسرة في أميركا، وزوجي كان مدمنًا، وقد هربت منه، ثم قتله نمر. كان في وسعها أن تقول لي أمورًا كثيرة تبدأ كلها بعبارة: «قلت لك». لكنها تقول: «نحن الأكها مؤمنون بأن كل بشري يعيش ويموت تسع مرات قبل أن يصير روحًا من نوع خاص، روحًا هي كهبوب الريح، غير مرئية لكنها ضرورية تبعث في النفس راحة. وحتى سان-با سيبلغ هذا المستوى في يوم من الأيام. إلا أن درب ابنتك... أنا لا أفهمه».

نجلس صامتتين ويطول صمتنا.

أسألها آخر الأمر مدركة مقدار ما سألقاه من إذلال طوال حياتي، من أسرتي ومن الجيران: «هل أستطيع الذهاب إلى البيت؟».

«ليتك كنت تستطيعين...».

أقول مُقرّة: «هذا خرق للتقاليد، لكني رأيت من العالم الخارجي ما يكفي لأن أعلم أنه ليس شيئًا أتمنى رؤيته من جديد. ما من مكان جميل أو مريح كالبيت، لكن...»

«ليس عليَّ أن أتزوج»... أسمع كيف أتوسل إليها... «أستطيع أن أعمل كثيرًا. سأصير قابلة مثلما أردت لي دائمًا أن أصير...»

«يا بنت...»

«إذا كنتم لا تريدون عودتي إلى القرية، فمن الممكن أن أعيش هنا في البستان».

«هذا ممكن، لكن الناس في جبل مانوو سيسمعون بما وقع لسان-با. وسوف يلومونك على موته الرهيب، ولن تكون حياتك مثلما ينبغي لها أن تكون».

تسكب لي الشاي المصنوع من أوراق كبيرة من أشجار عتيقة. هذا طعم من طفولتي. هذا طعم البيت. هذا طعم الأسف.

تتابع كلامها، «أنت ابنتي. أنا وأنت مرتبطتان بالدم. ونحن أيضًا مرتبطتان من خلال هذا البستان ومن خلال ابنتك. لم أعِش يومًا بعد ذهابك من غير أن أكون قلقة عليك. لم أعِش يومًا بعد ذهابك لم أكن

موقنة من أنك ستعودين. طال الأمر أكثر مما توقعت». ابتسامتها حزينة. «لذا... كان لديَّ متسع من التفكير في ما سيحدث عندما أراك. أتمنى من كل قلبي أن تكوني قادرة على البقاء هنا على الرغم مما سيعنيه هذا من حرج لأسرتنا ومن حزن من أجلك، لكن عليك أن ترحلي».

لم أبكِ مرة واحدة منذ أن اتخذت قراري بالهرب من سان-با، لكن آمالي تبخرت كلها. أبكي.

تدفعني آما بظهر يدها: «لا تبكي! عليك أن تصغي. أعددنا، أنا والمعلم زهانغ، من أجل هذه اللحظة».

«المعلم زهانغ! لكن، كيف يمكن أن يعلم أي شيء عن...»

من جديد، تبتسم تلك الابتسامة الحزينة. «نحن نعرفك، وكنا نعرف سان-با». تضع يديها على ركبتيها ثم تنهض واقفة... «سوف تذهبين إلى تلك المدرسة التجارية...».

«ماذا؟...» لا أستطيع تصديق ما سمعت... «كيف».

«كان المعلم زهانغ يقول دائمًا إن لديه أصدقاء هناك. وقد كان محقًّا. لقد أمّن لك مكانًا في المدرسة عندما تعودين».

«لكنك لم تكوني في يوم من الأيام راغبة في ذهابي...»

«هذا صحيح. أنا أمك. لهذا، لم أكن راغبة في ابتعادك عني أربع سنين. من عساه يعلم كيف ستتغيرين؟ ومن عساه يعلم إن كنت ستعودين يومًا؟ لكن عليَّ الآن أن أقدم هذه التضحية كي تكون لك فرصة في الحياة. وعليك أنت أن تفعلي هذا، فلعلك تستطيعين العودة يومًا. سينسى الناس، آخر المطاف...».

هل ينسون؟ لم ينسوا أبدًا أمر سي-دو وديه-جا.

ترفع رأسها ناظرة إلى الشمس كي تقدّر الوقت. «بقيت طوال الليل صاحية. ساعدتني الكنة الثالثة في جمع بضع قطع ملابس من أجلك. جهزنا أيضًا سلة شاي من أجلك. أجود أنواع الشاي. قطفت أوراقها بنفسي من الشجرات الشقيقات. ذهبت هذا الصباح إلى بيت المعلم زهانغ. إنه الآن في انتظارنا عند مركز استلام الشاي. لكن، قبل أن نذهب، لا بد لي من إخبارك ببعض الأمور».

هذا كله يحدث سريعًا. لا أدري فيم أفكر ولا كيف أحس. خيبة. ارتباك. إحساس بالذنب. قلق. خوف. حزن. أسى. أكثر من ذلك كله. لكن شعورًا واحدًا يطغى على تلك المشاعر جميعًا: حب عميق لآما. دموع العرفان تنساب على وجهي.

تخفض آما عينيها وتنظر إليَّ، ثم تهز رأسها هزة تسامح. «اجلسي فقط! استمعي فقط!». ثم تبدأ كلامها. «لقد سمعت قصصًا عن أن طريق الشاي والخيل نشرت المدنية من خلال تجارة الملح والثقاب وضروريات كثيرة أخرى. ما من شيء كان أهم من مقايضة خيول التيبت الحربية بشاينا. لا أزال أتذكر تلك القوافل التي رأيتها في طفولتي. كان في بعضها بغال لمساعدة الناس. وكانت تلك البغال مزينة بحلي جميلة ولوحات مطرزة وأعنّة لها ذؤابات ملونة. ومن القوافل ما كان مكونًا من رجال فحسب، رجال يحملون على ظهورهم أكياسًا ثقيلة من قوالب الشاي ويسيرون بها ألفًا وخمس مئة كيلومتر فيجتازون غابات وممرات صخرية ويعبرون أنهارًا ويدورون حول

بحيرات ويجتازون قممًا جليدية إلى أن يبلغوا تلك الهضبة الغادرة، هضبة التيبت.

سمعت هذه القصص من قبل. لماذا تحكيها لي من جديد؟

تتابع آما: «كانت كل قافلة تسير ستة أشهر كي تصل وجهتها. وكانت في الطريق أجزاء شديدة الانحدار يظلون عشرين يومًا كي يجتازوا مئتين وخمسة وعشرين كيلومترًا منها لأنهم يكونون في حاجة إلى استراحة كل مئتي متر، أو نحو ذلك. كثيرون كانوا يموتون جرّاء تلك المشقة ويسقطون عن الجروف أو يتجمدون في العواصف الثلجية. وأما من يبقون أحياء ويعودون إلى موطنهم، فكانوا يمكثون بضعة أيام قبل أن ينطلقوا في تلك الرحلة من جديد. يذهبون ويعودون. سفر لا ينتهي. كانت تلك الطريق أيضًا دربًا للرهبان والحجاج والجيوش وهجرة الناس. وبالنسبة إلى الأكها، منحتنا الطريق معبرًا نسلكه عندما نزلنا هاربين...».

«من التيبت، قبل ألف سنة».

«بالضبط. والآن، يا بنت، فكري في أسلافك من الإناث قبل ثلاثين جيلًا. فكري كيف سرن تلك المسافة كلها. أثناء ارتحالهن، كانت أجسادهن وحوائجهن تلتقط ضيوفًا مرغوبًا فيهم وغير مرغوب فيهم... غبار الطلع، والبذور، والأبواغ. والآن، انظري إلى الشجرة الأم!».

شجرة معوجّة كثيرة العقد كعهدها دائمًا. جذعها وأغصانها لا تزال كلها موطنًا لأنواع كثيرة من الفطور والعفن والزنابق... وبالطبع، تلك الخيوط الصفراء.

«كل ما على الشجرة الأم من حياة آتٍ من مكانٍ آخر. أتى ذلك كله مع أسلافنا الرّحل. في وسعك القول إن الشجرة تعرض تاريخ أسلافنا من النساء. عليك أن تتذكري، يا بنت، أن تعداد الأسلاف ليس حكرًا على الرجال. نحن النساء نفعل ذلك أيضًا. وعلى امتداد أجيال كثيرة، كان النيما والروما في قرية بئر النبع وفي قرى كثيرة أخرى يلتمسون العون من نساء عائلتنا. نعطيهم الأوراق واللحاء من الشجرة الأم، بل حتى هذه الطفيليات الصفراء، كي يستخدموها في التداوي».

ترفع كفها كي تمنعني من قول ما هو معلوم: *أعلم هذا كله.*

«إن فتحت قالب الشاي الذي أعطيتك إياه من أجل طفلتك، فسوف ترين خيوطًا صفراء ملتفة، نامية فيه كله. ذلك القالب سجل للزمن وللنساء اللواتي أتين قبلنا». تدق على صدري فوق قلبي... «مرت بك أوقات صعبة، لا شك في هذا. لكنك ـ يا لي-يان فريدة».

هذه أول مرة أسمع فيها اسمي الحقيقي تنطقه أمي. تطغى عليَّ مشاعري.

تتابع أمي كلامها: «عندك قدرات خاصة. لا أعني أنك ساحرة ولا أنك روح ثعلب. لم تظهري أبدًا أي ميل إلى تلك الموهبة الخاصة، موهبة المعالجة أو السحر. أنت مثل آما ماتا التي أنجبت شعب الأكها، التي قاومت القيود المفروضة عليها وقالت: «لا، لن أقبل قدري السيئ». أمنا التي جابهت المصاعب كلها بذكائها ومثابرتها وعطفها. ذلك كله آتٍ من هذا البستان، ومن الشجرة الأم».

لقد حكت لي آما بعضًا من هذا عندما أتت بي أول مرة هذا المكان.

لا أذكر شيئًا غير خيبة أملي. لعله كان لزامًا عليَّ أن أعاني كي أستطيع سماع الكلمات بطريقة جديدة.

«لم يعطِك آبا هذه الأرض لأنك لا قيمة لك. وهو لا حق له فيها على الإطلاق. أنا التي كنت مصرة على أن تصير أرضك أنت. لا يمكن أن تكون إلا لك مثلما ستكون لابنتك ذات يوم». عليها أن تصحح كلامها... «الابنة التي ستكون لك ذات يوم».

تتعجل إهالة التراب على النار ولا تمنحني فرصة لقول أي شيء، «والآن، هيا! لا يجوز أن نُبقي المعلم زهانغ منتظرًا». تستوقفني لحظةَ أهم بالدوران حول الصخرة. تقول لي: «انظري نظرة أخيرة. تذكري!».

أحاول أن أتشرب كل ما أراه الآن بعينيَّ الجديدتين: الشجرة الأم واقفة بذلك الشموخ كله، والشجرات الشقيقات متعانقات حولها، تحمينها، وشجرات الكافور تخفي أشجار الشاي كلها، والقوة العتيقة في هذه الصخرة، والجرف عند آخر البستان، والجبال التي في البعيد.

*

اضطراب مشاعري لا يزال على حاله عند وصولنا إلى مركز استلام الشاي، لكن رؤية أن شكل المعلم زهانغ لا يزال مثلما كان في بدلته الماوية الزرقاء وقبعته تريحني كثيرًا. ملابسي مستعارة، وعلى كتفي سلة فيها شاي، وسلة الملابس الجديدة على الكتف الأخرى، وفي يدي كيس محيك صغير فيه كرات أرز وفاكهة وإبريق خزفي فيه ماء. الفناء ضاجٌّ بالحركة، وأسر تأتي بقطافها الخريفي بغية وزنه. بل إن تلك البائعة

العجوز من قوم داي لا تزال هنا، ورائحة فطائر البصل مغرية مثلما هي مغرية دائمًا.

يقول المعلم زهانغ موضحًا: «ستأخذك شاحنة إلى مينغاي. وعندما تصلين، اسألي عن الطريق إلى محطة الباصات. اشتري بطاقة سفر إلى كومينغ. بعد مينغاي، تستغرق رحلتك ثماني عشرة ساعة».

أهمس: «أنا خائفة».

يربت على ذراعي مرتبكًا ويقول بنبرة لطيفة: «لقد سافرت بعيدًا من قبل. سوف تتدبرين أمرك».

تعطيني آما نصائح اللحظة الأخيرة: «التزمي شريعة الأكها دائمًا. إذا بقيت محافظة على سبلنا، فسوف تكونين محمية من المشكلات، مشكلات عالم الأرواح ومشكلات عالم البشر. لا تنسِنا أبدًا!».

«سأعود ذات يوم...»

تضع آما أصابعها على شفتي كأنها تريد منعي من بذل وعد قد لا أكون قادرة على الوفاء به.

تقول لي: «سوف أنتظر رؤية وجهك». أسمع في صوتها أملًا آتيًا من خلف حزن عظيم. تدس مالًا في يدي. «قيل لي إنك ستكونين في حاجة إلى مئتي يوان كل شهر مقابل السكن والدراسة. أعدك بإرسال المزيد كل شهر عن طريق المعلم زهانغ».

أصعد إلى صندوق الشاحنة. يناولني المعلم زهانغ وآما السلتين فأضعهما في مكان آمن بين أكياس الشاي الذاهبة إلى مصنع في مينغاي. يشغّل السائق المحرك.

تصيح آما في اتجاهي محاولة أن يعلو صوتها فوق صوت محرك الشاحنة: «تذكري دائمًا أن يكون مسلكك حسنًا، وتذكري كيف ينبغي الكلام مع الناس وكيف تحترمين العالم من حولك. لا تتركي عاداتنا أينما حللت ومهما فعلت!».

أجيبها: «أعدك أن أبذل أقصى جهدي، يا آما». ثم أتلو القول المأثور: *«الأكها الجيد غير قادر على أن يرمي العادات بأكثر من قدرة الجاموس على ترك آثار خطواته في مكان بينما يكون جسده في مكان آخر»*.

*

يا للشمس ويا للقمر! هل أصابني غثيان؟ غثيان شديد مع مرورنا في المنعطفات ومضيِّنا فوق حفر الطريق الكثيرة... غثيان أظنني قد أموت لشدته. أمد رأسي من فوق صندوق الشاحنة ويخرج كل ما في داخلي. هذا أسوأ كثيرًا من ركوب سيارة السيد هوانغ الجبلية. كانت سيارة صغيرة، وكنت قادرة على الجلوس في المقعد الأمامي. لا يزول عني غثياني حتى بعد أن أُفرغ ما في جوفي.

أحس الماضي يطاردني مع كل كيلومتر أجتازه. ومع انعطافنا انعطافة مشؤومة على مقربة من نهاية الطريق الجبلية المنحدرة، أتذكر غلطة أخرى ارتكبتها. مع كل قفزة فوق الحجارة وكل نزول في الحفر التي صنعها المطر، يكون عليَّ أن أتقبّل في عظامي الثمن الذي دفعته. قالت لي آما: «احرصي دائمًا على اتباع شريعة الأكها». لكن أخطائي كلها كانت نابعة من تجاهلي ذلك المبدأ نفسه الذي يجعلني أنا. لقد تعلمت

حتمية الألم والهزيمة، ولحقت بي جراح كثيرة. والآن، بعد أن صرت وحدي تمامًا، أحس أن نِعم ثقافتي تغذي قوتي. أنجبت طفلة وفقدتها. تزوجت رجلًا وأحببته وفقدته... فقدته بطرق كثيرة جدًّا. قد أكون بعيدة عن أسرتي وقريتي وجبلي، وأما في قلبي، فأنا مرتبطة بهم أكثر من أي وقت مضى.

نصل أخيرًا إلى أرض مستوية. تمر الشاحنة بمركز الرعاية الاجتماعية. ابنتي ليست هناك. لقد ارتحلت بعيدًا. معرفة هذا الأمر تمنحني آخر قطرة من شجاعة تلزمني كي أعثر على محطة الباصات بعد نزولي من الشاحنة. أشتري البطاقة، وأعاني مزيدًا من الغثيان طوال الطريق إلى كومينغ.

يتوقف الباص في كومينغ في وقت متأخر من الليل. ظننت أن مينغاي كبيرة، لكنها ليست أكثر من لسعة برغوث إن هي قورنت بكومينغ. القسم الأكبر من الشوارع مرصوف بالحجارة، أو مفروش بالأسفلت. والأزقَّة المتعرجة مزدحمة. وبنايات أسمنتية ارتفاعها ستة طوابق تعلو فوق بيوت مبنية من طين. أجد طريق المدرسة التجارية وأجعل الحارس على البوابة يرى رسالة المعلم زهانغ. يرافقني إلى مهجع أرى فيه أسرَّة من طابقين مصفوفة واحدًا بعد واحد إلى جانبي الصالة. أستلقي فوق البطانية. أسمع تنفس الفتيات الأخريات. يعود المعلم زهانغ إلى ذهني. خلال السنين التي تعلمت فيها على يده، أدركت مقدار ما خسره عندما أرسلوه إلى جبل مانوو. أتذكر أيضًا كيف كنت أجلس مع سي-ته نتساءل عن سبب عدم عودته إلى موطنه في بيجين وما يمكن أن يكون قد جناه كي ينفوه نفيًا مؤبدًا. ولكن، ماذا لو كان

هو الذي اختار البقاء معنا؟ لعله أدرك أنه لن يستطيع أبدًا أن يعود إلى موطنه. ماذا لو وقع هذا لي؟

أنقلب في وفراشي وأبكي دافنة وجهي في وسادتي آملة ألا يسمع أحد أصوات بؤسي. تتحرك تلك الفكرة في اتجاه جديد، في اتجاه أشد حزنًا: لعلهن يسمعن بكائي لكن الأمر لا يهمهن إلى حد يجعلهن يسألنني إن كن قادرات على فعل شيء لمساعدتي. أغمض عيني وأشد عليهما مرغمة دموعي على التوقف. *لن أتركهن يرين آلامي. لن أسمح لهن بأن يرينني أعاني.*

القسم الثالث

العالم الخارجي

١٩٩٦-٢٠٠٦

رسائل إيميل مختارة عبر ثماني سنين من كونستانس ديفيس إلى أمها

٢٤ نوفمبر، ١٩٩٦

ماما،

كانت حفلة ميلاد هيلي الأولى نجاحًا عظيمًا. كانت احتفالًا حقيقيًّا بالحياة والعافية والشكر. ليتكما كنتما هنا، أنت وبابا!

هيلي في أحسن حال. ويا لهذا الفارق بين أن أقرأ لها قصة *«تصبح على خير يا قمر»* في غرفتها بدلًا من قراءتها لها في المستشفى! عليك أن تري دان. يبقيها طوال الوقت في فناء البيت الخلفي، يحدثها عن الأشجار وكأنها تفهم كل كلمة يقولها. نحن في غاية السعادة. وهي أعجوبة أتت كي تجعل حياتنا فرحًا. لكني أتمنى أن تنام قليلًا. ما أصعب أن يأتيها النوم! (أظنك أنك الآن تضحكين. ما يفعله المرء يلقاه!).

لا أدري كيف كان ممكنًا لي أن أعيش الشهور الماضية من غير عونك ومساندتك. لا أشك في أن بابا سعيد بعودتك إلى البيت، لكني اشتقت إليك.

كونستانس

*

٢٠ سبتمبر، ١٩٩٧

ماما،

انضممنا إلى مجموعة اسمها «عائلات لها أطفال من الصين». وقد جاء ذلك في الوقت المناسب كي نحتفل بمهرجان القمر. كل من في هذه المجموعة لديه طفلة متبناة من الصين. طفلات تتراوح أعمارهن الآن بين بضعة شهور ونحو عشر سنين. لدينا أربع أسر أخرى لديها بنات في سن هيلي. أرى كيف تضيء عيون الطفلات عندما ترى الواحدة منهن الأخرى تجعلني أدرك أن هيلي -ونحن أيضًا- لن تكون وحيدة أبدًا. أنا ممتنة كثيرًا لهذه المجموعة لعلمي الآن أن الطريق أمامنا أصعب مما كنا نظن.

أتاني شرطي منذ أيام وسألني عمَّا أفعله مع هيلي. ظن أنني اختطفتها! صدمني هذا صدمة كبيرة. ثم حاول الشرطي التكفير عن غلطته بأن سألني إن كان لديَّ أطفال لي أنا. هيلي لي أنا! أخبرتك من قبل كيف يسألني أشخاص غرباء تمامًا: «من أين حصلت عليها؟». يوجهون إليَّ هذا السؤال كأنها محفظة أو شيء من الأشياء. ينبغي أن تسمعي ما يقوله الناس لبعض الأمهات في المجموعة.

«هل أنت جليسة أطفال؟»

«هل هذه تخصك أنت؟ ظننت أنها قد تكون طفلة ضائعة».

«كم كانت تكلفتها؟»

«هل يصعب عليك أن تحبينها لأنها لا تشبهك؟».

يستطيع الناس أن يكونوا شديدي القسوة وأن يتكلموا من غير تفكير. لكن، إليك ما يقلقني أكثر مما يقلقني أي أمر آخر. هيلي لا تدرك حتى الآن ما يقوله أولئك الناس، لكنها ستدرك بعد حين. فماذا أقول لها عند ذلك؟ كيف أخفف عنها؟ ستعلم دائمًا أنها مُتبناة لأنها لا تشبهنا. لا أريد أن يجرحها هذا. عانينا الكثير حتى حصلنا عليها. ثم أتت تلك الأمور الطبية كلها. كدنا نفقدها خمس مرات. إذا سددتُ لكمة إلى واحد من أولئك الأغبياء في متجر تريدر جوز، فهل ستأتين وتدفعين الكفالة كي أخرج من السجن (هذا مزاح فقط)، أو لعله ليس مزاحًا! سوف نرى.

وأنا الآن مشتاقة إليك حقًّا.

كونستانس

*

٣ يونيو، ١٩٩٨

مرحبًا ماما،

آسفة لأنني لم أرد على إيميلاتك، لكني كنت شديدة الانشغال بمتطلبات نهاية السنة الدراسية، والامتحانات النهائية، وكتابة رسائل التوصية، وغير ذلك. دان كان منشغلًا أيضًا. الظاهر أن نصف النساء في باسادينا كن يتصلن به لسؤاله عن تلك الحشرة الغازية الجديدة الآتية من المكسيك التي تهاجم أشجار الحمضيات. تذهب هيلي مع دان حيثما يذهب. لقد ورثت عنه حب الأشجار. ثمة سحر في هذا الأمر، ألا

تظنين هذا؟ (أعرف. أعرف. أنا واحدة من العلماء. لكن، مع ذلك...).

الآن، بعد أن تقاعد بابا، لماذا لا تأتيان للعيش على مقربة منا. ولاية مين بعيدة جدًّا. ألا تودين رؤية حفيدتك وهي تكبر؟

كونستانس

*

٣١ أكتوبر، ١٩٩٩

ماما العزيزة،

اليوم، احتفلت حضانة هيلي بالهالوين. ارتدت البنات كلهن تلك الملابس المعتادة ـ أميرات، وما يشبه ذلك ـ لكن هيلي أرادت أن تكون رائدة فضاء. قالت لي: «تستطيع البنات أن يكن رائدات فضاء أيضًا، يا ماما». أنا شديدة الاعتزاز بها! (انظري إلى الصورة المرفقة).

قبلاتي وأشواقي لك ولبابا

كونستانس

*

١٥ مارس، ٢٠٠٠

ماما،

أصاب التهاب القولون هيلي مرة أخرى. الدكتور كاتز عظيم. الدكتور سيغل عظيم أيضًا. نبذل كلنا جهدًا كبيرًا كي لا تضطر إلى دخول المستشفى مرة أخرى. اللعنة على هذه البكتيريا التي تقاوم الصادات الحيوية! أوه، يا ماما! الأمر يخيفني كثيرًا.

كونستانس

*

٢١ أغسطس، ٢٠٠١

ماما العزيزة،

أنت شديدة الذكاء دائمًا. سألتني في إيميلك الأخير إن كان ثمة أمر يقلقني. أنت تعرفينني. من الممكن دائمًا أن يكون لديَّ ما يقلقني. وأنا أقلق على هيلي أكثر مما أقلق على أي شيء آخر. ستذهب إلى روضة الأطفال بعد أسبوعين. تعرف الحروف منذ الآن، وتستطيع قراءة بضع كلمات، وتعرف كيف تكتب اسمها. هذا كله يسرني كثيرًا. بما إنها مولودة في نوفمبر، فهذا يعني أنها لا تستطيع الالتحاق بروضة الأطفال قبل شهرين من بلوغها السادسة من العمر. يعني هذا أنها ستكون من بين من هم أكبر سنًّا في صفها. يقول دان إن هذا أفضل لها. لا تزال قصيرة جدًّا، وهذا ما يقلق دان. لا يرى د. كاتز أن قصر قامتها ناجم عن النكسات الصحيّة التي مرت بها. يظن أنها قد تكون قصيرة لأن والديها قصيران. لكننا لن نعلم هذا الأمر علم اليقين، أليس كذلك؟

ولكن، إليك ما يقلقني. لا تبدو هيلي مثل بقية الطفلات الصينيات. منذ أربع سنين، نحن في مجموعة اسمها «عائلات لها أطفال من الصين». يعني هذا أننا نستطيع مقارنتها بغيرها من الطفلات. وكم تتغير الأمور في سان غابرييل فالي! نرى كثرة من الأطفال الصينيين، لكن هيلي لا تبدو مثل أي منهم. هي أشد سمرة، وأنفها ليس مسطحًا مثل أنوفهم، وشكل عينيها أقرب إلى أوراق الأشجار منه إلى حبات اللوز. خرجنا في

عطلة نهاية الأسبوع لتناول أطباق الطعام الصينية الصغيرة فأتت امرأة صينية إلى هيلي وسألتها: «من أين أنت؟ منغوليا؟». لم تلقِ هيلي بالًا إلى ذلك السؤال، والشكر للرب. أعلم كيف تكون المناكفات في المدرسة، وأنا في ذعر من أن تتعرض هيلي لمضايقات كثيرة نتيجة قصر قامتها وشكل وجهها... لا من جانب البيض فحسب (على الرغم من قول الجميع عنها إنها جميلة جدًّا)، بل من الأطفال الصينيين الذين في صفها الذين سيلاحظون أنها مختلفة عنهم.

نصيحتك، أرجوك.

كونستانس

*

١٩ نوفمبر، ٢٠٠٢

مرحبًا يا ماما،

هل أمضيتما عيد شكر لطيفًا، أنت وبابا؟ ليتكما استطعتما القدوم كي تحتفلا به معنا. أخذنا دان إلى مطعم ريموند. ظلت هيلي تثرثر طوال الوقت. تحب الكلام كثيرًا.

لا أستطيع تصديق أنها صارت في الصف الأول. ظننت أنها متقدمة على غيرها، لكنها كانت تقريبًا، أقل استعدادًا من بقية الأطفال الصينيين. أمضي العطلات، وعطلات نهاية الأسبوع، مع هيلي كي نعوّض ذلك. لا أستطيع قول هذا لأي شخص آخر، لكنني أستطيع المباهاة بحفيدتك أمامك. صارت الآن الأولى على صفها في الرياضيات. ألا تودين معرفة ما قالته لي معلمتها منذ أيام «قد تتفوق

عليك ذات يوم، يا سيدة ديفيس، وتفوز بجائزة نوبل». ألن يكون هذا تقدمًا كبيرًا؟

كدت أنسى الإشارة إلى مقدار تقدم هيلي في دروس الكمان. أشكرك كثيرًا لأنك اقترحت هذه الفكرة. يصعب عليَّ أحيانًا تذكر أن عدم ميلنا إلى الموسيقى، أنا ودان، لا يعني أن هيلي لن تميل إليها. من يدري؟ بدلًا من جائزة نوبل، لعلها تصير سارة تشانغ[1] التالية.

كونستانس

*

١٢ أكتوبر، ٢٠٠٣

آه، يا ماما،

حدث أمر محزن جدًّا. سوف أتصل بك لاحقًا، لكن الكتابة الآن قد تساعدني في التعامل مع الوضع على نحو أفضل. هل تذكرين عندما قلت لك إنه طُلب من الأطفال جميعًا في الصف الثاني، صف السيدة جونسون، تنفيذ مشروع يشتمل على مواد مختلفة كالتاريخ والفنون والجغرافيا؟ أنا ودان تحدثنا كثيرًا مع هيلي في شأن هذا المشروع. جعلناها ترى كم تستطيع أن تمضي في الزمن بعيدًا في ما يتصل بجانبي عائلتها. لم أتخيل أن طفلًا واحدًا في صفها كانت لديه عائلة هنا في العهد الاستعماري، أو في عهد الثورة أو الحرب الأهلية (كنت محقة في هذا). لم أدرِ، ولم يدرِ دان، أي جانب ستختار... عائلته أم عائلتنا. كان ذلك مفاجأة كبيرة.

---

(١) عازفة كمان أميركية شهيرة من أصل كوري. اشتهرت منذ كانت في التاسعة من عمرها.

واليوم، قدم أطفال الصف عروضهم في اجتماع المدرسة. كان الآباء والأمهات يلتقطون الصور ومقاطع الفيديو عندما يصعد أطفالهم إلى المنصة لتقديم عروضهم. والحقيقة أن الأطفال أذكياء، وأسرهم لافتة أيضًا. على أي حال، مضى الاجتماع في مساره لأن مساعدي معلمين كانوا يرفعون عاليًا الشيء الذي أحضره كل طفل كي يكون تمثيلًا لما أتى به أول مهاجر من عائلته إلى هذه البلاد في حين يقرأ كل طفل جملتين، أو ثلاث جمل، من وجه واحد من وجهي ورقة كبيرة يحمل الوجه الآخر منها (الوجه الذي يراه الجمهور) خريطة عليها سهم يشير إلى البلد الأصلي.

وأخيرًا، جاء دور هيلي. رفعت مساعدة المعلمة فوق رأسها رسمًا يمثل قالب الشاي الذي أتى مع هيلي. اسمعي ماذا كتبت: *أنا أول شخص من عائلتي يأتي إلى هذه البلاد. أتيت من الصين. جلبت معي قالب شاي.*

كان ذلك شيئًا يكسر القلب سماعه. أحبها كثيرًا. ولكن، ألن تعتبر نفسها يومًا جزءًا من عائلتنا؟ لقد حاولت إبقاءها على صلة بأصولها الصينية، وكنا على الدوام مرتاحين حقًّا لهذا الأمر. لكن، ماذا لو (بدلًا من بناء هويتها الصينية) أدى هذا الأمر إلى جعلها نفسها منفصلة عنا وليست ابنتنا مئة في المئة؟ بذلت جهدًا كي أمنع نفسي من البكاء أمام الجميع. علمنا أن علينا أن نكلم هيلي. يقول الخبراء جميعًا إن من الواجب أن نتعامل مع هذا الأمر ببساطة، لكنني أظن... صدقًا، يا ماما.... أننا أخطأنا.

قسمنا الحديث إلى جزأين اثنين: أولًا، الجزء الذي ظنناه سهلًا، قالب الشاي. لم نُخفِه عنها أبدًا. الحقيقة أننا شجعناها على وضعه في درج خزانتها السفلي. أجده بعض الصباحات في فراشها ما يعني أنها نهضت في الليل وأخرجته من الدرج كي تنام معه. الحقيقة... ليس كي تنام معه! أمازح دان دائمًا وأقول له إنها لا تزال على «توقيت الصين». الأمر هو أنها تظل ساهرة في الليل تنظر إلى قالب الشاي. بل إني رأيتها تتبع بإصبعها الحروف والتزيينات التي على غلافه. أنت تذكرين كيف كان شكلها، أليس كذلك؟ طيور مرسومة على شكل حرف V، ومن تلك الخطوط المتكررة من شكل حرف S، وخط آخر يمضي متعرجًا من غير انقطاع على تلك المساحة كلها، والشيء المرسوم في الوسط ويبدو أشبه بشوكة. قالت لي هيلي أكثر من مرة: «لا بد أن يكون لهذه الخطوط المتعرجة معنى. لكن، ما هو؟» حاولنا، أنا ودان، أن نكتشف ذلك منذ أن حصلنا عليها، لكن أحدًا لم يستطِع أن يعلم شيئًا. كان الأمر صعبًا هذه الليلة لأن هيلي ظلت تردد: «أمي تبعث إليَّ برسالة». أمي!؟ أنا أمها! آه، يا ماما! يؤلمني هذا كثيرًا، لكني أتألم أكثر من أجل هيلي. أعني... تخيلي لو أنك لم تكوني موجودة في حياتي؟ أنت التي جعلت مني امرأة، زوجة، أمًّا. هيلي لديها أبوان اثنان، أنا ودان، لكن معرفتك أن أمك (أن والديك) تخلت عنك لا بد أن تكون، ماذا؟ حملًا ثقيلًا؟ فجوة في القلب لا يستطيع شيء أن يملأها؟ عالم من المجاهيل؟ لا أستطيع الكف عن البكاء لحزني الشديد، لكني ظللت في تلك اللحظة أكرر لها أنني أحبها كثيرًا.

جرى الجزء الثاني من الكلام على نحو أسوأ من ذلك. مهما قلنا لها إننا أسرة وإنها ابنتنا، تعود هيلي وتقول من جديد: «لكني أول شخص من عائلتي يأتي إلى هنا». منطقها سليم، وأنا أفخر بها لهذا السبب. لكن إصرارها يجرحني فعلًا، ولا بد أنها رأت شيئًا في وجهي مع أنني حاولت قدر استطاعتي أن أكون مساندة لها، محبة لها. أقول هذا لأنها سألت: «هل ستعيدانني؟». كان سماع ذلك محزنًا جدًّا. أمضينا بقية الأمسية في محاولة إقناعها بأننا لن نعيدها أبدًا. كم مرة نستطيع أن نقول لها: «أنت ابنتنا، ونحن أسرة» قبل أن تصدق كلامنا؟ من الواضح أن هذا غير كافٍ لأنها ظلت منكمشة على نفسها طوال الليلة الماضية. لا بد أن ذلك كان لإحساسها أنها خذلتنا... ولكن، كيف يمكن أن تفكر يومًا في أن من الممكن أن نعيدها؟ وماذا نستطيع أن نفعل أكثر من هذا كي نجعلها تدرك كم نحبها؟ ... تدرك أنها جزء من أسرتنا وأنها ستظل على الدوام جزءًا منها؟ كيف نفهمها أنها هي التي تجعل منا أسرة؟

أطلت عليكِ كثيرًا. ربما كان عليَّ أن أكلمك. دعينا نتكلم عندما تعودين إلى البيت. سماع صوتك... ينبغي أن أكون قوية من أجل ابنتي مثلما كنت على الدوام قوية من أجلي.

كونستانس

*

١ نوفمبر، ٢٠٠٤

ماما العزيزة،

لا نزال نذهب إلى لقاءات جمعية «عائلات لها أطفال من الصين».

تذهب هيلي الآن إلى صف الرسم الصيني بالريشة. تتمرن الفتيات على رسم الأزهار وأوراق البامبو. (ينبغي ألا تفاجئك رؤية بعض رسومها يوم عيد الميلاد). المعلم لي خطاط أيضًا. وهذا ما جعلني أقول لنفسي: *لماذا لا نريه قالب الشاي؟* أحبت هيلي هذه الفكرة، بل أحبتها كثيرًا فلم أستطِع الامتناع عن لوم نفسي لأنني لم أفكر في هذا الأمر من قبل.

جعلنا المعلم لي يرى قالب الشاي. تفحص الرسوم كلها في حين كانت هيلي تنظر إليه آملة أن يخبرها شيئًا. وأخيرًا، قال بلكنته الثقيلة: «لا معنى لهذا». خيبة جديدة. الأمر المفيد الوحيد الذي قاله هو أن «المولعين بالشاي» -هل سمعت بهذا التعبير من قبل؟- يحبون أخذ قوالب الشاي معهم عندما «يحجّون» إلى مواطنهم الأصلية. والآن، لا تمر خمس دقائق من غير أن تسألني هيلي متى سنذهب إلى الصين كي نعثر على الموطن الأصلي لقالب الشاي؟ وددنا على الدوام، أنا ودان، أن نأخذ هيلي في رحلة بحثًا عن الجذور. بل إن ثمة شركة سياحية متخصصة في أسفار الأسر التي مثل أسرتنا. لكن، حتى إذا ذهبنا، فكيف سنستطيع الاقتراب من معرفة المكان الذي أتى منه قالب الشاي؟ الأمر المبشّر الوحيد في هذا كله: أخرجت هيلي قالب الشاي من الدرج ووضعته على طاولتها. هذه خطوة كبيرة بالنسبة إلينا جميعًا، لكن علينا، أنا ودان، أن تظل أعصابنا باردة.

وبما إنني أكلمك الآن... سألِتني إن كان عليك أن تجلبي هدايا عيد ميلاد هيلي إلى كولورادو في عيد الشكر. (صار عمرها ثماني سنين! هل تستطيعين تخيل هذا؟) ألن يكون من الأسهل أن ترسلي بالبريد الأشياء

الكبيرة إلى بيتنا هنا وأن تفتح الهدايا الصغيرة في المزرعة؟ سوف تعجبها كثيرًا الهدايا التي اشتريتماها لها: مجموعة الكيمياء الصغيرة والمجهر والتلسكوب. ستقول إنكما أفضل جدين في العالم، وأنتما كذلك حقًّا.

أتطلع فعلًا إلى أن نجتمع كلنا معًا.

كونستانس

ملاحظة: هذه السنة، ستثير بطاقة عيد الميلاد إعجابك وإعجاب بابا. إنها أفضل ما رسمته هيلي حتى الآن.

أثر قديم للشرب

يتغير لون الإشارة الضوئية فأجتاز التقاطع على دراجتي. انتهت قبل قليل نوبة عملي المسائية في فندق «كينغوورد» حيث أعمل في مكتب الاستقبال. لا أريد أن أصل متأخرة فأحرج الناس الذين رتبوا لي هذه المقابلة. أتوقف على إشارة ضوئية أخرى ألقي نظرة على انعكاس صورتي في زجاج سيارة واقفة إلى جانبي. منديل حريري مزهّر يحمي شعري من الغبار ومن عوادم السيارات. بلوزتي الوردية نظيفة، مكوية جيدًا. ستكون على تنورتي تغضنات من أثر الجلوس، لكني لا أستطيع فعل شيء من أجلها. لا أهتم بمواد التجميل، لكن إدارة الفندق تريد منا استخدامها من أجل النزلاء، وقد تعلمت في دورة «كيف تكون مقابلة العمل ناجحة» أن استخدام مواد التجميل يعجب صاحب العمل المنتظر. ولحسن حظي، علمتني شريكاتي في السكن استخدام الماسكارا والظل والكحل بالقدر الكافي من غير مبالغة. وقد قلن لي أيضًا إن لون الشفاه المناسب لي هو اللون الأحمر المرجاني الخفيف. يقلن لي إن هذا اللون يجعلني أبدو جميلة على طريقة أكثرية هان. هذا أكبر إطراء قد أتلقاه بصفتي فتاة من أقلية إثنية لم تسمع بها من قبل أي واحدة من زميلاتي. خلال رحلتي إلى هذا

المكان منذ ثماني سنين، أقدمت على اتخاذ قرارات كثيرة مع أنني ما كنت أعلم شيئًا عن أي شيء. وعدت آما بأن أحافظ دائمًا على التزامي بتقاليد الأكها. لكني لا أستطيع فعل هذه الأمور إلا في قلبي، فليس لديَّ هنا روما ولا نيما ولا أسرة تؤدي الشعائر كي تشد من عزيمتي. (ثم إن كومينغ ليست فيها بوابة أرواح ولا أرجوحة ولا أي مبنى أو مكان أستطيع أن أقصده كي أشعر بثقافتي أو تكون لي صلة بها). كان عليَّ أن أنسى المآسي التي عشتها في الماضي، لكن السبيل الوحيدة للنجاح في ذلك كانت إقامة جدار حجري من حول قلبي. كنت نحيلة عندما أتيت إلى المدرسة التجارية بعد الحرمان الذي عشته في تايلاند. لكني ازددت نحولًا لأنني ما كان لديَّ مال كافٍ لشراء الطعام في الكافتيريا. عندما وعدتني آما بأن ترسل إليَّ مئتي يوان كل شهر، بدا لي ذلك المبلغ ثروة. وقد كان ثروة (لأنه يعادل المبلغ الشهري الذي كانت أسرتي كلها تعيش عليه في طفولتي)، لكن كل واحدة من الفتيات في مهجعي تتلقى ثماني مئة يوان كل أربعة أسابيع. وعندما نفد ما لدي من مال، بدأت أسحب من «الحساب المصرفي» الذي كان تلك القطع الفضية التي احتفظت بها من غطاء رأسي. وبعد أن بعت آخر قطعة، صرت أعيش على الشاي وحده.

القسم الأكبر من زميلات السكن لا يراني إلا فتاة ريفية خرقاء، أغبى مخلوق عرفنه. وقد سخرن مني عند أدائي طقس التطهر كي أحمي نفسي من الإصابة بالشلل بعد أن مسّني ظل رافعة كبيرة. سخرن مني عندما سألتهن عن التدابير المتخذة لحماية مهجعنا من الأرواح. أشفقت

عليَّ بضع فتيات وحاولن تقديم النصائح. قالت واحدة منهن: «لا تكثري من القلق! ليست لدينا هنا أي أرواح شريرة. وحتى إذا دخلت روح شريرة مدينة كومينغ، فعليك ألا تقولي للناس إنك تخشينها». شيئًا بعد شيء، بدأت أنسى أمر الأرواح. كان هذا خياري الوحيد.

إن كنت ممتنة لآما على المبلغ الشهري الذي ترسله، فقد كنت أشد امتنانًا لها على أوراق الشاي التي كانت تجعل المعلم زهانغ يرسلها إليَّ بالبريد كل ربيع ضمن مغلفات جميلة من صنع البيت. صرت أقدمها إلى المعلمين على سبيل الهدية مثلما قدمت ذات مرة إلى المعلم زهانغ شاينا البيتي المتواضع: دلالة على الاحترام والشكر. لا يزال أولئك المعلمون أصدقائي حتى هذا اليوم، ولا نزال نجلس معًا كي نشرب الشاي... في شققهم أحيانًا، وفي المقاهي أكثر الأحيان. هم من ينبغي لي شكرهم لمنحي هذه الفرصة الجديدة. تفتتح جامعة يونان الزراعية، هنا في كومينغ «كلية شاي بيوَّر»، وقد طرح المعلمون اسمي كي أكون مرشحة للالتحاق بها.

في الأسبوع الماضي، قال لي المعلم غيّو: «سيكون هذا أول برنامج دراسي من نوعه في العالم. وسوف يكون لديهم مساران اثنان: واحد لتعلم فن الشاي -تخمير الشاي وتقاليد الشاي- كي يصير المرء «معلم شاي»، والثاني كي يصير المرء خبيرًا في تقييم الشاي... تصيرين هكذا مؤهلة على الإشراف على إنتاج الشاي، فضلًا عن نصح الذوّاقة والهواة في شأن ما يشترونه. سمعت أن عدد المتقدمين تجاوز ألفي شخص، لكنهم لن يقبلوا أكثر من ستين طالبًا في كل فرع من هذين الفرعين.

عندما طلبوا منا ترشيح واحدة من تلميذاتنا -الحاليات أو السابقات- علمنا تمامًا من ستكون التلميذة التي نرشحها: أنت لأنك الفتاة الوحيدة لدينا الآتية من جبال الشاي».

أدخل البوابة وأوقف الدراجة في فناء البناء المفتوح. ثم ألجُ مبنى غريب الشكل. أرى لافتة مكتوبًا عليها: *المقابلات، في هذا الاتجاه*. أنا واحدة من خمسين شخصًا في غرفة الانتظار. امرأة معها لوح صغير تنادي المتقدمين واحدًا تلو واحد. من المقابلات ما لا يطول أكثر من عشر دقائق. أحاول ألا أكون متوترة. ثم تقرأ المرأة اسمي فأسير خلفها في ممر مطلي بلون أخضر كلون البازلاء وندخل غرفة فسيحة فيها مقعد واحد يواجه طاولة من خلفها فاحصون: امرأتان وثلاثة رجال. يشير إليّ الرجل الجالس في الوسط بأن أجلس على المقعد. وبعد أن أجلس -كاحلا قدميَّ متشابكان، مزاحان جانبًا بكل تواضع، ويداي مستقرتان في حجري- يستعرض الرجل المعلومات الأساسية فيتأكد من اسمي ومن إثنيتي ويسألني عن المكان الذي ولدت فيه. ثم يسألني: «ما عمرك؟».

«أنا في السادسة والعشرين».

«هل يعني هذا أنك متزوجة؟ هل لديك طفل؟».

أجيبه: «غير متزوجة».

تقول امرأة مرتدية كنزة حمراء اللون: «في هذا السن؟».

كيف أستجيب لقولها هذا؟

تنتقل الأسئلة إلى خلفيتي التعليمية.

«لم أُنهِ مدرسة المستوى الثالث». أعترف بهذا وأغيّر صوتي إلى ذلك الصوت الذي أتكلم به مع نزلاء الفندق. اكتشفت أن هذا الصوت (وكذلك أسلوب الحركة الذي تعلمته بنفسي، ذلك الأسلوب الذي يجعلني أبدو كأنني فتاة مرسومة على زهرية من السيراميك من عصر أسرة مينغ) يساعد الناس في نسيان أنني من قبيلة من قبائل الجبال... «لكني تعلمت في المدرسة التجارية كيف أنظّم الملفات وأرسل الإيميلات، وكيف أنشئ جداول إكسل».

أجل الأمر يبدو سهلًا، لكني واجهت صعوبات كبيرة في تعلم أمور كثيرة من بينها كيفية استخدام المرحاض. فهل يجثم المرء فيه مواجهًا الباب أم الجدار؟ وماذا عن الاستحمام تحت الدوش؟ واه! وفكرة أنني أستطيع إنارة وإطفاء مصباح كهربائي. في مهجعي يأتي التيار الكهربائي ساعة في الصباح وساعة في المساء، لكني كنت أضغط على مفتاح النور مرات كثيرة جدًّا، خلال أسبوعي الأول هناك، فهددتني المشرفة بأن تقطع التيار عن المبنى كله يومًا كاملًا إذا لم أتوقف عن فعل ذلك. حرصت زميلاتي في السكن على ألا أمس المفتاح مرة أخرى، لكنهن سمحن لي بالنظر إليهن عندما يشعلن النور وعندما يطفئنه في بداية وفي نهاية الفترة الصباحية والفترة المسائية. صحيح أنني كنت، آنذاك، شديدة الغباء.

يطفئ الرجل الجالس في الوسط سيجارته، ثم ينظر إليَّ نظرة متمعنة. «يزعم المعلم غيّو أنك تجيدين اللغة الإنجليزية، فهل هذا صحيح؟».

أجيبه بأن أتحول إلى الكلام بالإنجليزية. «لا أدري ما جعلني أجد اللغة الإنجليزية أسهل عليَّ مما هي عند الطلبة الآخرين. قد يكون هذا

لأنني اعتدت في نشأتي سماع لغات القبائل المختلفة في الجبال أو قد يكون هذا لأنني كنت في المكان الصحيح في الوقت الصحيح... تعبير تعلمته يوم أمس من واحد من نزلاء الفندق».

يطلق الرجلان الآخران ضحكتين خفيضتين ساخرتين فيحرجان الرجل الجالس في الوسط. أراه يكتب شيئًا في الأوراق التي أمامه.

لا يمكن الحصول على وظيفة أو مركز تعليمي من غير الإجابة عن أسئلة سياسية. ومن الممكن أن تكون تلك الأسئلة خداعة. تنقر أصابع مستجوبي على الطاولة.

«ما رأيك في التغيرات في كومينغ؟».

أبتسم وأُظهر من أسناني قدرًا كافيًا لأن أبدو ودودة، لكن من غير أن أبالغ في ذلك بحيث أجد نفسي مضطرة إلى تغطية فمي.

«منذ عشر سنين، أتى إلى قريتي رجل من هونغ كونغ». أخفض عيني كي أبين مدى تواضع شخصيتي... «ما كان لدينا علم بما هو جارٍ في بقية أنحاء الصين. حدثنا ذلك الرجل عن الزمن الجديد، زمن الإصلاح والانفتاح. وقد حدث فعلًا كل ما قال إنه سيحدث. بل أكثر من ذلك. أتى السائحون من أنحاء العالم لرؤية الجدار العظيم والقصر الصيفي ولرؤية المحاربين المصنوعين من الطين في جيان. علينا أن نكون مقرين بفضل الحكومة المركزية لأنها طبّقت، في وقت لاحق، حملة الانفتاح على الغرب. وكما تعلمون، كان القصد من ذلك تشجيع السياحة الأجنبية في الأقاليم الغربية من البلاد». أتوقف لحظة كي أقدّر استجابتهم لكلامي. أحس أنني لم أفلح في خلق انطباع قوي

لديهم. أمر غريب لأن مقابلتي طالت، حتى الآن، أكثر من أي مقابلة سبقتها.

أسارع إلى القول: «ومنذ ثلاث سنين، سمحت الحكومة المركزية لمقاطعتنا الجميلة بتغيير اسم مدينة جونغديان فصار شانغريلا...».

يتبرع الرجل الجالس إلى اليمين بإكمال جملتي... «فتفوقت على سيشوان والتيبت وسبقتهما إلى هذا الشرف. في وسعنا الآن القول إن يونان صارت جنة العالم».

لكن الآخرين قابلوا هذا التشدق باللامبالاة إذ راحوا ينظرون من النافذة ويتفحصون أقلامهم.

«هل لي أن أطرح سؤالًا؟ ما الغاية من افتتاح كلية من أجل شاي بيوَّر؟» لا أستطيع إلا أن أكون فضولية.

قال الرجل المسؤول وهو يكتب شيئًا جديدًا في أوراقه: «آه، تحاولين أن تكوني فتاة ذكية!». هل هذه خسارة أخرى لي؟ يجعلني أنتظر إلى أن يفرغ من الكتابة ويشعل سيجارة ويأخذ منها نفسًا ثم يطلقه صوب السقف... «على ما أظن، تبدو لك كومينغ مدينة حديثة جدًّا بالمقارنة مع المكان الذي أتيت منه، لكنها، وكذلك مقاطعة يونان كلها، لا تزال بطيئة التطور في حين بدأ العالم اندفاعه إلى بيجين وشنغهاي وغوانزو، كانتون».

تذكرت أثناء كلامي الملصقات التي كنت أدرسها على جدران البامبو في مدرسة المعلم زهانغ ظانة أن ما أراه فيها محض اختلاق. لكنني أذهب الآن إلى السينما وأتابع التلفزيون. وأنا أفعل هذا بعينين مختلفتين

اختلافًا تامًّا... هذه الصور كلها لا بد أن تكون حقيقية مهما بدت غير قابلة للتصديق.

يتابع الرجل كلامه: «في الطرقات اختناقات مرورية، وتلوث الهواء يخنق الأطفال الصغار والكبار في السن، والجميع مندفع، مندفع، مندفع كي يغتني. فماذا عن الناس الذين يعيشون في هذه الأماكن؟ يتوقون إلى زيارة يونان لأن شوارعها هادئة وهواءها نظيف وحياتها اليومية وادعة. تلك الأمور كلها صارت متجسدة، قبل أي شيء آخر، في شاي بيوَّر».

لست أدري ما كان يمكن أن يحدث إن أخبرته كيف كان أثر هذه التحولات التي ذكرها في حياتي. فمنذ تغيير اسم المدينة كي يصير شانغريلا، تقول الحكومة إنها ستغير اسم مدينة سيماو كي يصير بيوَّر. لا شك عندي في أن هذا سيحدث بعد سنة، أو نحو ذلك. تبعث هذه التسميات الجديدة (على الرغم من بساطتها) رسائل إلى أكثرية هان الصينية فتتقبلها وتعتمدها مثلما هو مراد لها. ففي يومنا هذا، صار يجري استخدام كلمات كثيرة على سبيل المديح بعد أن كانت، في ما مضى، مستخدمة للتقليل من شأن المقاطعة. ما عادوا يعتبرون مقاطعة يونان متخلفة، تلك المقاطعة التي يسكنها بشر «أغبياء». ليس هذا لأن يونان قد تغيرت أو لأن أهلها قد تغيروا. الحقيقة أن معنى كلمة «تي يو» - غبي هو الذي تغير. صار معنى الكلمة الآن «لم تمسه شرور المدنية». بدأ السائحون، من الصين ومن الخارج، يزورون كومينغ وليجيانغ ودالي و«وادي النمر الوثّاب». بل صاروا راغبين أيضًا في زيارة قبائل الجبال! صاروا يتوسلون من أجل المشاركة في «مهرجان رش الماء» لدى شعب داي، وصاروا يأتون لرؤية

أسنان نساء الدجينوو المصطبغة بالسواد بسبب عصارة «شجرة الورنيش» ولشراء ما يحوكه شعب ماياو. يسأل رجال في سن الشباب لهم حقائب ظهرية وعقول صغيرة عن الاتجاهات المفضية إلى قرى موسوو لأن النساء في تلك الثقافة الأمومية يخترن شركاءهن في الفراش... وتختار تلك النسوة كثرة من العشاق المختلفين سواء أكانوا من الموسوو أو من الهان أو من الأجانب، وذلك ابتغاء متعتهن. صارت كلمة «تو يو» ذات قيمة رفيعة إلى درجة جعلت الحكومة تعلن هذه السنة، في العيد الوطني للبلاد، بدء حملة بحث للعثور على توائم من كل أقلية إثنية من الأقليات المعترف بها في البلاد البالغ عددها خمسة وخمسين أقلية كي يشاركوا في مسيرة الأولمبياد بعد أربع سنين من الآن. وبما إننا، نحن الأكها، ضمن فئة واحدة مع شعب هاني، فإن الحكومة سوف تبحث لديهم عن توائم بلغوا سنًّا تسمح لهم بتمثيلنا.

تقول المرأة ذات الكنزة الحمراء: «سأجيب على سؤالك بطريقة مختلفة. زائرو مقاطعة يونان، سواء أكانوا من أكثرية هان أم من الألمان أم الفرنسيين أم الأميركيين، تلزمهم تذكارات يعودون بها إلى ديارهم. فأي تذكار يمكن أن يكون أفضل من شاي بيوَّر؟ قالب الشاي صغير الحجم يسهل وضعه في حقيبة. وعند اليابانيين يعتبر الشاي هدية مناسبة على الدوام. وأما الأجانب...»، تطلق ضحكة صغيرة ساخرة... «فتعجبهم الأشياء التي تفوح برائحة قبائل الجبال غير اللطيفة».

عند بعض الناس، ليس التمييز وعدم التسامح إلا جزءًا من طبائعهم.

تسألني بأسلوبها المتعالي: «هل سمعت بشاي بيوَّر قبل الآن؟».

«كبرت وأنا أشربه مع أننا لا نسميه هكذا».

يتنحنح الرجل المسؤول ويقول: «تبدأ الدراسة بعد مهرجان الربيع. ستكون بداية سنة القرد مبكرة، يوم الثاني والعشرين من يناير بحسب التقويم الغربي. يتم إبلاغ المرشحين يوم الخامس عشر من يناير. إذا كنت مقبولة فـ... لدينا متقدمون عندهم صلات قوية، وأنت ليست عندك تلك الصلات. لدينا متقدمون منحدرون من عائلات مرموقة. وأنت لست هكذا. أنت متسلقة. نستطيع استنتاج هذا من جلستك ومن نعومة صوتك. لعلك تعلمت كيف تظهرين أنك متمالكة نفسك ولكن، ليست لديك فرصة في...».

ينفتح الباب وتدخل الغرفة زوبعة من بشر وأشياء. خمس نساء شابات يحملن أوراقًا وغلاية ماء لها سلك متدلٍّ منها وصينية وعلب كبيرة وصغيرة، وفي وسطهن رجل قصير القامة، أكبر سنًّا. فردتا بنطلونه الواسع مربوطتان عند كاحليه بشرطين مطاطيين. في قدميه شبشب كونغ فو من غير جوربين. قميصه فضفاض.

«هل أنت الفتاة القادمة من جبل مانوو؟». تلمع عيناه لمعانًا خبيثًا. شعرة واحدة طويلة منبثقة من أذنه اليمنى، علامة الحكمة... أو، لعلها علامة قلة العناية. «تبدين لي صغيرة جدًّا. لعلك أصغر مما ينبغي».

سمعت هذا الاتهام من بشر كثيرين منذ قدومي إلى كومينغ. وأنا أستغرب كيف لا تظهر في وجهي تلك الأمور التي عانيتها كلها. أكثر الأحيان، كان هذا الأمر مواتيًا لي، (مدير الفندق لا يريد إلا فتيات

جميلات في مكتب الاستقبال). وفي أحيان أخرى، مثلما هو الأمر الآن، يجعلني وجهي أحس أنني أقل قيمة. هذا إحساس لا أحبه.

أفلح في العثور على صوتي فأقول: «أنا لست صغيرة السن. قلت لهم قبل قليل إنني في السادسة والعشرين».

«تبدين كأنك في الخامسة عشرة».

«لست كذلك».

«إذًا، قولي لي... لماذا تبدين لي صغيرة جدًّا؟».

وهو يبتسم ابتسامة عريضة كأنه معتوه، في حين يتبادل الجالسون خلف الطاولة نظرات انزعاج. أحس أن هذا كله مهين لي.

«أنا سون، معلم الشاي». يسير إلى الطاولة مسرعًا ويشير إلى الرجل الجالس في الوسط بأن يخلي مقعده. يجلس معلم الشاي. والرجل الذي ظننته مسؤولًا يقف طاويًا ذراعيه فوق صدره والسيجارة متدلية من شفتيه. يحاول إخفاء ضيقه، لكن من غير نجاح. «دعونا نشرب الشاي. ماذا جلبت معك؟».

«لم يُقل لي أن أجلب شايًا».

«لكني أسمع أنكم تحملون الشاي معكم دائمًا. ما هو متوفر لدينا في المقاهي وفي بيوت الشاي ليس جيدًا بما فيه الكفاية في نظر صبية من الأكها».

أُقرّ بكلامه: «أفضل الشاي الذي ترسله أمي».

«ممتاز. دعينا نتذوقه».

أسأله، «ألديكم ماء نبع؟».

«فقط!». يبتسم معلم الشاي ابتسامة كبيرة للجالسين إلى يساره، ثم للجالسين إلى يمينه، كي يدرك أعضاء اللجنة كلهم أن سؤالي قد سرّه... «لكن الظروف ترغمنا على قبول بعض العناصر الحديثة». يفرقع بأصابعه فتصل واحدة من مساعداته غلاية الشاي بالتيار الكهربائي في حين تفتح شابة أخرى علبًا مختلفة: فناجين شاي، وقصعة ومجموعات من قوالب الشاي.

أخرج من حقيبة يدي ظرفًا فيه شاي آما. وعندما يدفن معلم الشاي سون أنفه في الكيس كي يشم أوراق الشاي، يتبدد عنه مظهر الخبث كله. يضع نحو ثمانية غرامات من أوراق الشاي في قصعة «غايوان» -فنجان شاي كبير قليلًا مؤلف من ثلاث قطع وله غطاء وطبق من تحته- إلى أن تعلو أوراق الشاي وتبرز من الوعاء كأنها رابية من خيوط ثخينة. يرين الصمت على الغرفة وننتظر سماع صوت جيشان الماء في الوعاء.

وعندما ينبئنا الماء بأنه صار جاهزًا، يسألني معلم الشاي: «هل ترين كيف أضع يدي اليسرى على الطاولة بزاوية خمسة وأربعين درجة في حين أرفع الغطاء بيدي اليمنى؟»

يصب الماء الحار في سبعة فناجين صغيرة كي يصير فاترًا ثم يصب الماء في الغايوان فوق أوراق الشاي. «عندما أضع الوعاء من يدي، أستأنف الحركة بيدي اليسرى. إذا تم قبولك في هذا البرنامج التعليمي فسوف يكون عليك تطوير قوة جانبي جسدك معًا، ورشاقتهما». يدير

حافة غطاء الغايوان على امتداد وجه أوراق الشاي الغارقة في الماء كي يزيل فقاعات الهواء، ثم يغطي الوعاء ويميله بحيث يسيل الماء إلى وعاء آخر مع بقاء أوراق الشاي في الداخل.

يسألني: «لماذا أتخلص من الماء؟».

أجيبه، «كي تغسل الأوراق».

«لماذا؟».

«هل تعلم من أين يأتي شاي بيوَّر؟ وهل تعلم كيف تتم معالجته؟».

يضحك عند سماعه أسئلتي. «تماما! من أجل النظافة. لكننا، أيضًا، نفتح الخصائص العطرية في هذه الأوراق. والآن، راقبي ما أفعله. ينبغي النظر إلى تقديم الشاي كأنه رقصة. ينبغي أن تكون كل حركة من الحركات انسيابية. انظري كيف تنتقل حركاتي من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى ويظل كل شيء سلسًا». أثناء كلامه يصب فوق الأوراق مزيدًا من الماء ويعيد غطاء الغايوان إلى مكانه. «يستمر التخمير خمس عشرة ثانية. كيف أعلم أن هذا هو الزمن الذي انقضى؟». لا فكرة عندي لأنه من غير ساعة يد... «إنني أحصي دقات قلبي! أستطيع تعليمك كيف تقيسين الزمن هكذا».

يصب الشاي في دورق من زجاج، وهذا رمز يشير إلى أننا متساوون جميعًا وأننا نستطيع كلنا معًا أن نرى الشاي المخمر نفسه ونشربه. نتأمل لون السائل الأصفر العسلي معجبين به في حين يستخدم المعلم ملقطًا كي يحمل كل فنجان شاي صغير ويفرغ الماء الذي وضعه فيه كي يصير دافئًا. وأخيرًا، يصب الشاي في الفناجين.

«لاحظي كيف أتحرك في عكس عقارب الساعة. هذا ما يدعى «أسلوب الترحيب». والآن، سأعيد كل شيء إلى موضعه الأصلي». يفعل هذا كله بحركات هيّنة، ثم تشير يده بحركة مهيبة من اليسار إلى اليمين داعيًا إيانًا جميعًا. «استمتعوا، من فضلكم!».

أظل جالسة في حين يتحدث الآخرون عن الـ«ماوتشا» المصنوع من أوراق الشجرات الشقيقات.

يقول الرجل الذي ظننته مسؤولًا: «أستطيع تذوق جزيئات الهواء. كلما طال بقاء السائل على لساني، أحسست طعم هواء الجبال النقي».

توافقه المرأة التي كانت، في السابق، شديدة التعالي عليَّ. «هذه النكهة الدافئة العطرة تداعب كل خلية من خلايا فمي. والـ«هويغان» -النكهة الراجعة- تأتي سريعًا».

يقول معلم الشاي سون: «شايك ليس مُرضيًا فحسب، بل أفضل من ذلك. فيه طعم قابض خفيف وقدر طيب من المرارة الأولى. يعجبني أكثر من هذا كله النقاء الواضح في نكهته. يمتدح هواة نماذج الشاي الذي من لاوبانزهانغ ويدعونه ملك الشاي لأن طعمه ممسك، ذكوري، جريء في الفم. وهم يدعون الشاي الآتي من يوّو ملكة الشاي لأنه طعم مغرٍ كأنه امرأة متألقة تنتظر حبيبها. لكن في وسعك أن تفخري بالشاي الآتي من جبل مانوو لما فيه من نعومة ورهافة. سيأتي يوم يقدره الناس مثلما يقدرون ملك الشاي وملكة الشاي، إن لم يكن أكثر. ألا تزالين تمكثين أوقاتًا طويلة في جبل مانوو؟».

«لم أزُر موطني منذ ثماني سنين».

أرى معلم الشاي يمص خديه وهو يفكر في إجابتي. ما هذه الفتاة التي لا تعود إلى موطنها من أجل حضور مهرجان الربيع، أو حفل زفاف، أو جنازة؟ لكنه لا يقول شيئًا عمّا يبدو واضحًا أنه ابتعاد عن حسن السلوك. يقرر المعلم المضي في اتجاه مختلف.

«أود أن أعرف رأيك في هذه». يخرج من الغايوان أوراق الشاي التي أرسلتها إلي آما مع أن من الممكن استخدامها عشر مرات أخرى. «هذا الماوتشا جيد مثلما قلت لك، لكني أفضل شخصيًّا شاي بيوَّر المعتق زمنًا طويلًا، تعتيقًا طبيعيًّا. *يصير الإنسان أكثر حكمة ونضجًا من خلال تجارب الحياة*. يصح قول الأمر نفسه على الشاي».

يحضّر خمس وجبات من الشاي. وفي كل مرة، يرشدني المعلم سون إلى التعرف على النكهات. «أستطيع تخمير هذه الأوراق تحديدًا مدة تبلغ خمس عشرة دقيقة. ومع كل تخمير، يتغير الطعم قليلًا لأنه يأتي من أجزاء مختلفة من ورقة الشاي وينشّط مواضع مختلفة في اللسان. تكون الأشجار في مصاطب زراعة الشاي مُطعّمة، وهذا ما يجعل نكهتها موحدة تمامًا. لكن شاي الأشجار البرية يكون مركّبًا، ويكون مغريًا».

أمضي في تذوق الشاي فأزداد وقوعًا في أسره. الشاي نفسه يغريني جسديًّا. يقول لي المعلم مع جولة الشاي الثالثة إن ثمن الفنجان الواحد من هذا الشاي في هونغ كونغ يبلغ مئتي يوان. أراه لذيذًا، لكني لست مهتمة بقيمته المالية. أعلم من عيشي في كومينغ أن هذا أمر عشوائي. هل تريدين أن يكون التيشيرت أزرق اللون أم أصفر اللون؟ أواجه هذا السؤال مع أنني كنت، قبل عشر سنين، أجهل حتى معنى كلمة

تيشيرت! إن لدى نزلاء فندق «كينغوورلد» نظرة عجيبة إلى القيمة. يرفضون النزول في غرفة إن لم يكن فيها مرحاض ذو مقعد. اقتضاني تقبل هذا الأمر زمنًا طويلًا. لأن... من عساه يحب أن يجلس في المكان نفسه الذي استقرت عليه مؤخرة شخص آخر كي يقضي حاجته؟

يفرغ معلم الشاي فناجيننا مرة أخرى، ثم يغسلها بالماء، ثم يخمّر شايًا جديدًا. منذ رشفة الشاي الأولى، ينفتح صدري سريعًا فأحس أنه قد يُغمى عليَّ. يسري في صدري دفء ويتورد وجهي. ما يحدث في جسدي أحسه بالغ القوة كتلك الأيام الأولى عندما وقعت في حب سان-با.

يقهقه معلم الشاي ضاحكًا عندما يرى ردة فعلي. يسألني: «أهو سلس؟ هل فيه قوة حياة جيدة؟ تفحصي مشاعرك. أنت تسمعين نشيد الطبيعة من خلال ورقة شاي».

أقول: «الطعم خفيف... كالندى على بتلات زهرة. طعم أنيق...».

«أنيق! أنت محقة. اسمه «بسيط وأنيق حقًّا». هل تذوقته قبل الآن؟».

أهز رأسي نفيًا فيواصل الكلام... «ظننت أنك يمكن أن تكوني قد جربتِه من قبل. منذ إحدى عشرة سنة، ذهب شخص من تايوان اسمه لو إلى لوشويدونغ، ومنها إلى قرية منعزلة في جبال الشاي».

كان ذلك قبل سنة واحدة من قدوم السيد هوانغ إلى بئر النبع.

«أراد السيد لو أن يصنع دفعة من الشاي من أشجار قديمة وبالأسلوب التقليدي. عثر على معلم شاي متقاعد. ثم...»

أقاطعه: «السيد لو؟ هل أنت واثق بصحة اسمه واسم البلد الذي أتى واسم القرية والسنة؟»

يرمقني معلم الشاي سون بنظرة ازدراء. «أجل. وقد التقيت السيد لو عدة مرات. وهكذا اشتريت عددًا من قوالب الشاي التي صنعها».

أيمكن أن يكون قد وُجد رجلان اثنان في الوقت نفسه تقريبًا يفعلان الأمر نفسه؟

قلت: «هل سمعتَ يومًا بشايٍ آخر صُنّع...»

يقاطعني معلم الشاي: «عالَم الشاي صغير جدًّا. ولهذا، أعرف الشاي الذي تسألين عنه. ولديَّ أيضًا بعضٌ منه. إن كان هو الشاي الوحيد الذي صُنع بعد تلك السنين كلها، فسوف يصير أيقونة. لكن السيد لو، لم يستخدم أوراق الشاي إلا من لوشويدونغ. وكما قلت لك من قبل، أعتقد أن أوراق الشاي من جبل مانوو جيدة وأنها ستنال التقدير يومًا من الأيام. وأما الآن، فهي غير قادرة على منافسة شاي «بسيط وأنيق حقًّا». ولكن...» يميل قليلًا في اتجاهي، ثم يقول... «كان لدى صانع الشاي الذي ذكرتِه لي مزية خاصة: مصدر مختلف لم يكشف عنه لأي شخص. لم يصنع إلا قالبي شاي...».

إنهما قالبا الشاي اللذان صنعتهما بنفسي من أوراق الشجرة الأم.

يقول المعلم: «تقول الإشاعة إن الرجل الذي صنعهما نفسه لم يتذوق شايًا مصنوعًا منهما. إن كانا متميزين إلى هذا الحد، فعليه أن يكشف عنهما للناس الذين يمكن أن يقدّروهما، أليس كذلك؟».

هذا الحديث يجعل عناكب شبحية تجري على ذراعي وساقيَّ.

يعلن قائلًا: «والآن، سنجرّب الشاي الأخير. قبل التحرير، كانت في مقاطعتنا شركات شاي خاصة كثيرة تحمل أسماء مختلفة. وبعد

التحرير، صارت لدينا أربع شركات فقط تملكها الدولة. كانت واحدة منها في مينغاي».

«مركز استلام الشاي في منطقتي كان يرسل الأوراق كلها إلى مينغاي...».

يقاطعني ماضيًا في كلامه: «كان اسم ذلك الشاي يونغيين (رِد ليبل)، وكان أول دفعة تُصنع بعد التحرير. قالب شاي واحد كهذا مصنوع منذ خمس وأربعين سنة بيع هذه السنة بخمسة وثمانين ألف يوان. وهذا ما يتجاوز عشرة آلاف دولار. والآن، سوف نجرّبه».

لون الشاي المخمّر غني، داكن، فيه غموض. النكهة الأولى فلفلية، لكنها تضمحل وتصير حلاوة سماوية. تاريخ شعبي يومض في عظامي. ومع كل رشفة، أكون كأنني أستعرض تاريخ أسلافي من غير كلام. وفي وقت واحد، أجدني مندغمة بأسلافي ومن سيأتون بعدي. نشأت مؤمنة بأن الشاي منعش، وبأن الشاي شافٍ. لكني أدرك الآن أنه يديم الصلة ويفتح طريقًا للحلم. ذلك إغواء أشد قوة وأكثر عمقًا من إغواء أي رجل.

يبدو لي المعلم سون مدركًا أنني تحوّلت إلى عالم آخر، لكن كلماته تظل من غير لون على الإطلاق. «إذًا، إنه شاي بيوًر. قولي لنا ما تعلمين عن هذا الشاي».

أدرك أمرين اثنين لحظة يوجه إليَّ هذا السؤال. الأول: صرت الآن أشد رغبة في هذه الفرصة، أشد كثيرًا. والثاني: قد أكون المتقدمة الوحيدة من القبائل الجبلية، وقد أكون مقبولة في نظر الآخرين من أعضاء هذه اللجنة، لكن معلم الشاي هو الشخص الوحيد المهم في الغرفة.

أجيبه: «هذه الأيام، لا يبحث الجميع عن شاي بيوَّر المعتق. يريدون البيوَّر الخام -ماوتشا- لأنهم يعتبرونه صحيًّا وأكثر غنى بالمعاني الثقافية. مع ذلك، وكيفما نظر الشخص إلى شاي بيوَّر... خام، مخمّر تخميرًا اصطناعيًّا، معتّق تعتيقًا طبيعيًّا، أشجار فتية، أشجار كبيرة، أشجار عتيقة، أشجار برية، أشجار مغروسة... فما من أحد يرمي الشاي بعد ستة شهور. ما عاد أحد يفعل هذا. الجميع متفق على أن الشاي يزداد جودة كلما ازداد قدمًا».

«أنت تقولين لي فكرتين متناقضتين».

«يمكن وجود فكرتين متناقضتين في وقت واحد. وقد يوجد أكثر من فكرتين».

يضحك المعلم، لكن الآخرين لا يضحكون.

أقول: «سألتني لماذا أبدو صغيرة السن هكذا... فهل هي جرأة زائدة مني إن سألتك عن تفسيرك؟».

يحرك ذراعه كأنه يرحب بي. «يعلم الجالسون هنا جميعًا سبب ذلك. أنت تشربين شاي بيوَّر. إن سارت كل امرأة في هذه البلاد على منوالك فسوف تكون لدينا أجمل النساء في العالم كله».

ترمقني المرأتان الجالستان خلف الطاولة بنظرات لئيمة، ويتورد وجه فتاة الشاي، لكن المعلم لم يفرغ بعد.

«مع تواصل ازدهار الصين، يحب شعبنا التمتع بأفخم الأشياء في الحياة. يُعتبر شاي بيوَّر سبيلًا لمن أثروا حديثًا إلى التعبير عن انتصارهم على فقر الماضي. وهو أيضًا قناة للاستثمار في بلد يظل مواطنونا فيه

محترسين إزاء ما قد تفعله الحكومة. يعتبر هذا الشاي «تحفة قابلة للشرب». ومن جديد، صار الشاي، هذا الشراب الذي ظل عشرات السنين موضع تجاهل، مادة لمن يهوى جمعها واقتناءها. وحتى مع تصنيفه من بين التحف العتيقة، فهو لا يزال حيًّا. وكل رشفة منه تفتح -من خلال حاستي التذوق والشم- قلوبنا على ذكريات العائلة والحب والمشقات التي تم تجاوزها. كان أسلافنا مؤمنين بأن أفضل أنواع الشاي قادر على إزالة الغرور وتبديد قلة الصبر، وكذلك على تلطيف المزاج. يبدو لي أنك مدركة هذه الأمور كلها، لكني أظن أن زملائي لا يزال أمامهم الكثير مما ينبغي تعلمه عن شرابنا الجميل هذا. فما رأيك؟».

لقد تحدث عن افتقار بقية النساء إلى الجمال، لا في هذه الغرفة وحدها، بل في الصين كلها. ثم وجه انتقادًا حادًّا إلى لجنته. وأنا نشأت على ألا أقول ما من شأنه أن يكون إهانة لغيري، لكنني أتلو قولًا مأثورًا: *«إن ضربت بيمناك، فعلى يسراك أن تواسي»*. يرين على الغرفة صمت مفاجئ. بتوجيه هذا التوبيخ العلني إلى معلم الشاي، أضع نفسي في فئته نفسها، وقد يكون في هذا دمار لآمالي، أو ضمان لها.

هيلي ديفيس ـ الصف الثالث، الآنسة هندرسون، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٤

أشياء ضخمة تلزمني	أشياء كبيرة تلزمني	أشياء صغيرة تلزمني
ماء	تعليم جيد	حذاء التزلج
طعام	أبوان	أصدقاء
شمس	سلام	أوتار الكمان
أرض	جسد	فستان عيد الفصح
هواء	بيت	دمية الأرنب
قمر	شاربان (قطتي)	كتاب هاري بوتر الجديد

لقد أتى العالم

أبدأ انتظاري. *أريد هذا!* أستلقي في الليل يقظة، منتظرة فرصتي في الالتحاق ببرنامج شاي بيوَّر، مشكّكة في الإجابات التي قدمتها إلى معلم الشاي سون، لائمة نفسي على فظاظتي مع أنه لم يفعل شيئًا غير إبداء اهتمامه بي. وبعد خمسة أيام، أنا مشوشة، نافدة الصبر مع نزلاء الفندق، حادة الطبع مع العاملات. حتى الآن، لم أتغيب عن عملي في إجازة، لكني محتاجة إليها الآن.

فوجئت عندما سمعت أول مرة بأمر الإجازات والعطلات لأن أقرب ما لدينا إليها، نحن الأكها، هو فصل الأمطار... شهور العتمة حين نعتبر أن الأرواح تحظى بفرصتها في الإساءة إلينا، حين ننكب على الحياكة والخياطة والتطريز. من هنا، كنت أرفض دائمًا كل فرصة للذهاب في عطلة. وحتى إذا أُرغمت على ذلك، فأين أذهب؟ أأذهب إلى موطني حيث لا يزال من المحتمل أن يلومني الناس لموت سان-با الرهيب؟ أم أذهب وحدي إلى وجهات سياحية فتذكرني وحدتي بأنني من غير أحد يحبني؟ هذا ما أكسبني محبة زميلاتي وزملائي وعرفانهم لأنني أغطي نوبات عملهم عندما يتغيبون. لكني الآن في

حاجة إلى أسرتي. أتمنى أن يروا المسافة التي استطعت اجتيازها، وأنا في حاجة إلى طيب تمنياتهم. هذا قرار ضخم قد لا تكون نتائجه مثلما أرجو، لكني أسأل مديري إن كنت أستطيع السفر إلى موطني مدة ثلاثة أسابيع. يقول لي: «هذا طلب مفاجئ. ولكن، كيف أستطيع أن أقول لا؟ لقد كنت موظفة مثالية على امتداد سنين كثيرة، ولم تطلبي شيئًا على الإطلاق».

أنطلق عشية اليوم الذي يدعوه الغربيون «عيد الميلاد»، وأعد المدير بأن أعود في الوقت المناسب كي أحل محل الآخرين الراغبين في زيارة أسرهم عندما يأتي «مهرجان الربيع». أشتري بطاقة للسفر إلى مينغاي بباص الليل. لا تطول الرحلة أكثر من اثنتي عشرة ساعة لأن الطريق تحسنت كثيرًا. وفي الصباح، بعد ليلة غير مريحة لم أنم فيها، أصعد إلى ميكروباص يأخذني إلى الجبال مع نحو عشرة أشخاص آخرين عبر طريق ترابية جديدة خشنة شديدة الضيق كثيرة الحفر. وبعد بضع ساعات، أنزل عند موقف «قرية غابة البامبو». عندما كنت صغيرة، ما كانت هذه القرية شيئًا مذكورًا... ما كانت أفضل من بئر النبع، ولا أسوأ منها. لكن هذه القرية، مع الطريق الجديدة وموقف الباص، صار فيها الآن مقهى صغير وسوق فلاحين صباحية. نساء كثيرات مرتديات ملابس داي أو بولانغ أو أكها تقليدية. والبقية مرتديات ملابس مثل ملابسي: بنطلونات جينز زرقاء، وتيشيرتات، وأحذية رياضية. أبدأ ملاحظة التغيرات المفاجئة عندما تمر بي دراجة آلية. يصيح قائدها عليَّ كي أبتعد عن الطريق. أنا في دهشة شديدة.

ألقي حقيبتي القماشية على ظهري وأسير خارجة من قرية غابة البامبو. وبعد وقت قصير من سلوكي الدرب الذي سيأخذني إلى بئر النبع، أمر على موقع بناء فيه جرافات وعمال يبنون جدران استنادية ضخمة. لا يزال هيكل البناء الرئيسي أحجية لأن من حوله سقالات من البامبو يزحف عليها عشرات العمال كزحف النمل. لا أستطيع تخيل ما قد يكونه هذا المبنى ولا سبب وجوده هنا. لكن ضجيج الموقع وبشاعته سرعان ما يصيران خلفي. أنا الآن في الدرب الجبلية الهادئة. الناس في الخارج، يعتنون بأشجارهم. تأتيني الأغاني مع نفحات النسيم. هذا فصل الشتاء، لكن موسم قطاف الشاي بات قريبًا وصارت كل شجرة تبدو مستعدة لأن تتفجر براعم خضراء زمردية. تمتد كل ورقة ملتمسة شمس الصباح وتبعث شذاها الخفيف المتألق. أقطف ورقة شاي وأمضغها. ومع كل نفس من أنفاسي، تتكشف طبقة جديدة من «بويغان» (الحياة). أنا في دياري.

أعلم أن أوضاع أسرتي قد تحسنت. منذ بداية عملي في الفندق، بدأت أسدد المال الذي أتاني من آما. ثم صرت أرسل مالًا كي أساعد الأسرة. لكن المعلم زهانغ كتب إليَّ منذ عامين قائلًا إن الحياة في دياري جارية على أحسن ما يرام (ازداد دخل العمل في الشاي خمسين ضعفًا... رقم يصعب عليَّ أن أستوعبه). قال أيضًا إنني ما عدت في حاجة إلى القلق على أسرتي. مع ذلك، لا أزال أتوقع أن يكون كل شيء على حاله، إلى هذا الحد أو ذاك، لاقتناعي بأن ثقافتنا وتقاليدنا قديمة جدًّا، وبأنها متينة، قادرة على الصمود أمام محاولات تغييرها. أطمئن عندما أبلغ

بوابة الأرواح التي تحمي قرية «بئر النبع». فماذا أرى عندما أتابع سيري؟ كلاب تنبح وسط الطريق الماضية في القرية، ودجاجات تنقر الأرض، لكن كل شيء آخر مختلف. زال كثير من بيوت البامبو والقش وحلت محلها «صناديق» رمادية اللون مبنية من حجارة. أحواض بلاستيكية وردية وبرتقالية وخضراء أراها هنا وهناك وأرى فيها ثيابًا منقوعة أو خضراوات تُغسل من أجل وجبة العشاء أو علفًا للحيوانات. زجاجات مياه بلاستيكية فارغة واقفة صفًّا منتظمًا، كأنها جنود، على واحدة من الشرفات. وتمامًا مثلما رأيت في قرية «غابة البامبو»، أرى أشخاصًا كثيرين مرتدين ملابس على النمط الغربي مع أن كل امرأة تغطي شعرها بوشاح من نوع ما. لا أعرف أحدًا، ولا يبدو لي أن ثمة من يعرفني. لكن ما يفاجئني أشد مفاجأة هو كثرة الناس الجالسين على الأرض وأمامهم أكوام من أوراق الشاي، ومساومات جارية بينهم وبين رجال ليسوا من القرية. أمر بجماعة من الزوار المنهمكين في المساومة. إنهم كوريون!

ثم أصل بيتي... لقد اختفى البيت واختفت أكواخ المتزوجين حديثًا. حيث كان بيتنا، أرى الآن مبنى يشبه بيتًا زجاجيًّا للزراعة... ألواح من زجاج ضمن إطارات من الألمنيوم وعلى مقربة من البيت أرى أربعة أكواخ... أرخص المواد وأبشعها، من غير روح كأنها معقمة، ونوافذها من غير زجاج. ليس فيها كوخ قائم على ركائز، أي إن ما من مكان للحيوانات تحتها. واحد منها أكبر قليلًا من بقيتها. لا أرى شرفتين منفصلتين من أجل قسم الرجال وقسم النساء. والباب الوحيد مفتوح.

أصعد درجات السلم وأصيح: «مرحبا!». ألقي نظرة داخل البيت حيث يتحرك الناس جيئة وذهابًا. «مرحبًا!». أقولها من جديد، أقولها مترددة.

كبار وصغار، رجال ونساء، توقفوا جميعًا عمّا كانوا يفعلون ونظروا في اتجاهي. وبعد لحظة طويلة، يقول واحد منهم: «إنها البنت». أعرف صوت آبا. يتباعد الآخرون مفسحين له طريقًا. في قدميه صندل من البلاستيك، وبدلته مموهة كأنه في فيلم حربي... أمر غريب يشوشني مثلما شوشني كل ما رأيته حتى الآن. وأما غير ذلك، فهو آبا نفسه... قصير، نحيل. ثم تأتي آما وتقف إلى جانبه. أراها مرتدية سترتها النيلية وتنورتها وبنطلونها وغطاء رأسها... مظهر رائع، مرحب، مريح إلى أقصى ما أتمنى.

*

في تلك الليلة، أعمل مع آما والكنات الثلاث على تحضير وجبة ما كان تخيلها في طفولتي ممكنًا: لحم بأربعة أشكال «شرائح مقلية، وأضلاع مشوية، وأحشاء مطهوّة، وكرات لحم في مرق صافٍ»، وإوزة مشوية بصلصة الصويا، وبطيخ مر مع بيض مقلي، وأرز، وطبق من الفاكهة. وبدلًا من تناول الطعام على الأرض في الغرفة الرئيسية من حول دفء نار مفتوحة ومن حول تألقها، نجلس على كراسيٍّ صغيرة حول طاولة منخفضة. تبين قطع الأثاث هذه (التي هي صغيرة الحجم لتقليل تكلفتها وتسهيل خزنها) أن ظروف أسرتي قد تحسنت. وأثناء تناول الطعام، يمطرني أقاربي بأسئلة عن العالم الكائن خارج جبل مانوو. يسألني إخوتي عن المصارف والقروض لأن لديهم الآن نفقات

كثيرة. وتسألني الكنات عن مواد التجميل فأعطيهن أحمر الشفاه الذي معي كي تستخدمنه، وبناتهم الثلاث اللواتي وُلدن جميعًا في ثلاثة شهور متعاقبة صِرن الآن في التاسعة من العمر. يذهبن إلى مدرسة المعلم زهانغ، ويطرحن أسئلة كثيرة:

«عمتي، أتظنين أنني أستطيع الذهاب إلى المدرسة الثانوية؟»

«عمتي، كم ينبغي أن يصير عمري كي أستطيع أن أسرق الحب؟»

«عمتي، متى أستطيع زيارتك في كومينغ؟»

وبعد العشاء، نجلس جميعًا من حول مدفئة كهربائية صغيرة ومن فوقنا مصباح كهربائي خافت الإنارة متدلٍّ من السقف. كهرباء! ثم يأتي وقت الشاي فأستجمع شجاعتي لسؤالهم عن التغيرات التي حدثت في بئر النبع مشيرة إلى أن أمورًا كثيرة جدًّا قد تطورت خلال السنوات الثماني التي غبتها، وذلك بعد قرون من حياة مستقرة ساكنة. «وقد بدأ هذا كله مع السيد هوانغ...»

يقول آبا: «شهدت حياتنا تغيرًا سريعًا بعد قدوم ذلك الرجل من هونغ كونغ. لكننا لم نرَه منذ سنين. تعلمين كيف هو... يبحث عن شيء لم ينلَه أحد غيره. لعله يُجري تجاربه على أوراق الشاي في واحدة من القرى في جبال الشاي الأخرى. فليكن هذا! لسنا في حاجة إليه لأن لدينا كثرة من الزائرين من تجار الشاي وجامعيه».

أسأله: «لكن، ماذا عن تقاليدنا؟» أرى الوجوه كلها تنظر إليَّ صامتة، لكن الرسالة واضحة: *من عساك تكونين كي تطرحي هذا السؤال، يا صاحبة عادات المدينة؟*

يقول آبا آخر الأمر: «تغير كل شيء. لا نزال نعيش في الغابة. لكن العالم أتى إلينا. لا يزال لدينا مهرجان الأرجوحة. ونحن نقيم بوابة أرواح جديدة كل سنة ونشاور الروما في شأن موعد المحاصيل وقطاف الأوراق وتواريخ زواج ملائمة، لكننا لا وقت لدينا من أجل شعائر التطهر أو الأضحيات، ولا وقت لدينا في التفكير في أيام الكلب وأيام الجاموس لأن لدينا عملًا كثيرًا ننجزه. تعلمين أن زراعة الشاي مربحة جدًّا».

هذا صحيح. وأغرب منه طريقة آبا الواقعية في إشارته إلى التخلي عن التقاليد أو طريقة كلامه على الأعمال! الأعمال...!

يتابع آبا كلامه: «علينا أن نحرس إنتاجنا. ثمة تجار جشعون جدًّا يرسلون إلى جبلنا أشرارًا كي يبحثوا عن أقدم الأشجار فيقطعون لأن قطاف أوراقها يصير أسهل عندما...».

أسأله مصدومة بما أسمعك «هل يمكن أن يقطعوا شجرة؟ ماذا عن روحها؟».

لا يبدو على أيٍّ منهم اهتمام بهذا الأمر.

يكمل الأخ الأكبر كلام آبا: «عندما فرضت الحكومة «معايير السلامة والجودة»، صرنا غير قادرين على تجفيف أوراق الشاي أو تخميرها اصطناعيًّا على الأرض في الخارج أو على أرض البيت. عمليات تحضير الشاي كلها ينبغي أن تتم على مسافة خمسين مترًا من الحيوانات. هذا ما اضطرنا إلى بيع حيواناتنا. ثم اتضح أن هذه القواعد الجديدة كانت في صالحنا لأن ما من شيء يمكن أن يشوب نكهة شاينا بعد الآن.

اقترضنا خمسين ألف يوان كي ننشئ مبنى تجفيف الشاي ومعالجته مكان بيتنا القديم».

يقول الأخ الثالث: «صار لكل منا بيت خاص به فيه حمام داخلي».

تفاؤلهم وسخاؤهم في الإنفاق ناجم عن تمديد «سياسة ثلاثين سنة من دون تغيير» مدة ثلاثين سنة أخرى. صار الأخ الأكبر موقنًا من أن أرضه ستظل «ملكًا له» حتى سنة ٢٠٣٤، فما كان منه إلا أن اقتلع شجيرات الشاي من المصاطب المدرجة، في حين أزال الأخ الثاني أشجار الشاي مقطوعة الرؤوس كي تحل محلها غراس شاي جديدة مستنبَتة من البذور. تخلى آبا عن زراعة الخضار -«نستطيع شراء ما يلزمنا من قرية غابة البامبو»- وهكذا صار بدوره قادرًا على غرس أشجار شاي جديدة. أشجار الشاي البرية في أرض كل واحد منهم، ساعدته في دفع نفقات هذه التحسينات، في حين صارت أشجار الأخ الثالث القديمة التي لا قيمة لها أثمن ما تمتلكه الأسرة.

يضيف آبا، «أشجاره، وبستانك... بطبيعة الحال، لا نستطيع جعل أمك تسمح لنا بأن ننظر إلى...».

لحسن الحظ، يقاطعه الأخ الأول: «ما كان لأحد منا أن يتنبأ بهذا الوضع الذي نعيشه اليوم. يأتينا مشترون من أنحاء آسيا كلها من أجل شاي بيوَّر... يشربونه ويبيعونه ويقتنونه. ويكون علينا أن نقيم لهم ولائم كبيرة آملين أن تسرهم. المنافسة شديدة. وهذا ما يجعلنا في حاجة إلى قروض بفائدة أقل».

«ولا تزال أسعار الشاي تزداد وتزداد».

تضايقني أسئلتهم عن فرصي في دخول كلية الشاي.

يقول الأخ الأول متهللًا: «إذا كان أداؤك جيدًا، فباستطاعتك أن تبيعي شاي أسرتنا وأن تجعليه مشهورًا».

ليست لديَّ غير إجابة واضحة: «ينبغي أولًا أن يقبلوني فيها».

*

ما من أحد يجسد التغيرات في بئر النبع بأكثر مما تجسدها سي-ته التي رأيتها في الليلة التالية في وليمة أقامتها أسرتي من أجل مشترٍ من اليابان. الظاهر أن طريقتها الخاصة في الضحك قد اختفت. واختفت معها مطرزاتها التي تُبين أنها واحدة من الأكها. ازداد وزنها مثلما ازداد وزن معظم أهل قرية بئر النبع - وصار بطنها وثدياها عبئًا على أزرار بلوزتها القطنية المزهّرة.

تقول ملحّة: «زوريني غدًا!». أزورها. بيتها أجمل بيت في القرية... أمر طبيعي. تقول سي-ته مباهية: «أول بيت فيه كهرباء». وهي أيضًا أول شخص في قرية بئر النبع يحمل هاتفًا خلويًّا. ثم إنها تصر على أن نتبادل أرقام هاتفينا: «كي لا تنقطع الصلة بيننا». مر زمن كنا فيه لصيقتين تمامًا، لكن حياتي وحياتها سارتا في اتجاهين مختلفين، وهذا ما تذكرني به مرة بعد مرة. «لقد هجرتِني. رحلت من غير كلمة واحدة. أنت تؤلمينني كثيرًا». يظل ما وقع في حياتي سرًّا مكتومًا، لكن خطواتها في حياتها معروفة جيدًا في جبل مانوو كلها. فبعد وفاة والديها، جمعت سي-ته الأراضي التي خُصصت لأسرتها بموجب سياسة «ثلاثون سنة من دون تغيير». وإضافة إلى ما لديها من بساتين، تستأجر سي-ته من أسر

أخرى أراضي فيها أشجار شاي، وهذا ما جعلها تصير أكبر مزارعي الشاي في جبل مانوو. ثم إنها عززت موقعها بأن دفعت إلى الروما والنيما مالًا كي يسمحا لشقيقها سي-دو بالعودة إلى بئر النبع بعد مراسم تطهر روحي (لم يخبرني أحد شيئًا عن شدة تلك المراسم أو اتساعها)، فضلًا عن تسعة أيام من الصيام من أجل كل رجل وامرأة وطفل في القرية... دفعت سي-ته مقابل ذلك كله. ما أكثر ما يستطيع المال شراءه!

«صارت لديه زوجة جديدة، وطفلان أيضًا. الزمن يتغير، لكن البصمة التي لحقت به نتيجة إنجابه رفضين بشريين لا يمكن أن تزول تمامًا». تقول سي-ته هذا من غير كبير اهتمام... «من الأفضل للجميع أن يمضي، مع أسرته، معظم السنة في زيارة المواقع الرائعة في بلادنا».

على أن وفرة مالها ونجاحها وقدرتها لم تسعفها في التأثير في «الأرواح التي تصنع الأطفال». أنجبت من لاو-با ثلاث بنات، وخالفت عادات تسمية الأطفال لدى الأكها كي تعبر عن خيبتها: ماه-كاو (اذهبي واعثري على شقيق)، ماه-لاو (اذهبي وأحضري شقيقًا)، ماه-زيو (اذهبي واشتري شقيقًا).

تسألني في يوم آخر أثناء جلستنا لشرب الشاي في سرادق البامبو الذي أقامته كي تستقبل فيه المشترين الأجانب: «لماذا لم تتزوجي؟ إذا ماتت الزوجة، ففي وسع الزوج أن يتزوج امرأة أخرى بعد ثلاثة شهور. وعندما يموت الزوج، يكون على المرأة أن تنتظر ثلاث سنين. لكن هذه المدة انقضت منذ زمن بعيد».

أتراها تستخدم هذه الأقوال التقليدية كي تغيظني؟ لا شك في

أنها تخلت عن تقاليد كثيرة، لكن علاقة المحبة والتناقض بيننا لا تزال على حالها. أرد عليها بإجابة لا طعم لها. «أود أن أسير قدمًا في حياتي». لكن الحقيقة أمر أشد غموضًا. أنا وحيدة أعيش إحساس الوحدة منذ ثماني سنين. أرغمت نفسي على عدم النظر إلى إعلانات المواعدة عن طريق الإنترنت. تعلمت أيضًا كيف أسير في الحدائق وأتجاهل الأمهات في أواسط العمر ممن يأتينني حاملات صور أبنائهم مع قوائم تعدد منجزات أولئك الأبناء وممتلكاتهم: دراجة آلية أو سيارة، يعيشون مع أهلهم، يستأجرون شقة، أو يمتلكون شقة. قالت لي أكثر من واحدة منهن: «أنت أكبر من أن تظلي غير متزوجة». بالمناسبة، يفعلن ذلك كله من غير أي مبادرة من جانبي. «من فضلك، فكري في ابني!». لكني لا أستطيع السماح لنفسي بأن أكرر أخطاء الماضي. إن كان لي أن أقع في الحب من جديد، فينبغي أن يكون ذلك وقوعًا في حب شخص تقبله أسرتي وإلا فسوف ينكسر قلبي أكثر مما أطيق.

تظل سي-ته على إلحاحها، وتستخدم تعبيرًا غربيًا: «هل تواعدين؟ هل تذهبين إلى السينما مع رجال وتتناولين النودلز معهم؟».

«لا يرغب أكثر الرجال في الخروج مع فتاة من الأكها». أقول هذا آملة أن أنهي الحديث.

تومئ برأسها إيماءة العارف. «تبدين صغيرة جدًا. وأنت هادئة أكثر مما ينبغي. أنت «تو»، وهذا ليس مما يدعو إلى الإعجاب. ما رأيك في سرقة الحب في الغابة أثناء وجودك هنا؟ من المؤكد أن رجالنا سيتغاضون عن عيوبك، وسوف يكون الأمر ممتعًا لك أيضًا».

«لا أريد سرقة الحب».

تتجاهل إجابتي وتسألني: «وماذا عن الأجانب؟ أنت تعملين في فندق. قد تستطيعين الزواج بشخص أجنبي والذهاب إلى أميركا».

وهذا أيضًا، كنت عاجزة عنه. يصعب عليَّ أن أشرح لسي-ته شدة إحساسي بانفصالي عن الجبال وعن أسرتي وعن عاداتنا... مع أن أمورًا كثيرة جدًّا قد تغيرت.

تميل برأسها متفحصة إياي: «هل صرت واحدة من النساء اللواتي تكرهن الرجال؟».

عندما أستعيد ذكريات سنوات في كومينغ، أستطيع على الرغم من كل شيء أن أكون شاكرة لأنني لا أحس مرارة. وأنا أيضًا لست مثل ديه-جا (أينما كانت الآن): أعجزها وأقعدها هجران سي-دو. لكن عليَّ أن أحمي قلبي حتى إن كان معنى هذا أن أظل وحيدة.

أجيبها: «لن أكره الرجال أبدًا». لن أبوح أبدًا بما وقع لي... لكني أضيف: «لكني لا أريد الوقوع في أخطاء جديدة».

تتجاهل كلامي كأنه لا يعني شيئًا: «انظري إليَّ، أنا بدينة، لكنك لا تزالين جميلة. أستطيع أن أعثر لك على من يتزوجك هذه الليلة».

تستطيع فعل هذا، لكني غير مهتمة.

ينتقل فضول سي-ته إلى غيرها. الكنات، وآبا، وإخوتي، بل إن بعض بنات إخوتي وبناتهم بدأ يدس أنفه في شؤوني مُلحًّا مثل إلحاح البعوض ويسألني عن سبب عدم زواجي مرة أخرى، ويقدم إليَّ النصائح، ويحاول إثبات أنه شديد الاهتمام بحسن حالي.

يقول لي الأخ الثالث: «نحن لا نريد لك أن تعيشي الوحدة».

وينطلق الأخ الثاني من وجهة نظر عملية: «إذا لم تتزوجي، فمن سيرعاك عندما تكبرين؟».

ويكون الأخ الأول أشدهم صراحة: «إذا لم تتزوجي، فمن سيرعى أمرك بعد أن تذهبي إلى الحياة الأخرى؟ ينبغي أن يكون لديك ابن كي يقدم الأضاحي إليك». يرفع إصبعه محذرًا إياي... «لا تستطيعين أن تظلي امرأة تأخر زواجها إلا زمنًا محدودًا. وبعد ذلك، سيكون الأوان قد فات. لن تجدي راغبًا في الزواج بك».

وآبا الذي لا يجوز أن يكلمني كلامًا مباشرًا في أمور من هذا النوع، يبعث برسائله من خلال الكنات. هذا ما يقتضيه السلوك السليم.

تكلمني الكنة الثالثة ذات صباح عندما نخرج لجمع الحطب: «لا تستطيعين أن تكوني شديدة الانتقائية».

وتنقل إليَّ الكنة الثانية الرسالة التالية: «ما من رجل يرغب في أن يتزوج امرأة شديدة الطموح أو امرأة راغبة في أن تصير لامعة أكثر منه».

ويجعل آبا الكنة الأولى تحمل إليَّ رسالة أشد وضوحًا: «سيقول الناس إنك لا تحبين الجماع. لكن من واجبك أمام الأمة وأمام الأسرة أن تنجبي طفلًا».

يجعلني كلامهم أحس ضيقًا وقلة أمان.

وخلال الأسبوع الثالث من إقامتي، أمشي إلى قرية «ظل السقيفة» كي أؤدي إلى والدي سان-با واجب الاحترام لكنني أجد أنهما ماتا في جائحة التيفوئيد منذ خمس سنين. أزور أيضًا المعلم زهانغ في المدرسة

الابتدائية حيث لا تزال الخرائط والملصقات القديمة نفسها معلقة بجدران البامبو تمامًا مثلما عرفتها عندما كنت صغيرة. أبوح له بما في قلبي من قلق لاحتمال فشلي في تلك المقابلة ولاحتمال أن أخذل أسرتي من جديد.

هذا ما يقوله لي: «لا تستطيعين الآن فعل أي شيء في هذا الشأن. وأما إذا أردت سماع رأيي -أظنك تريدين سماع رأيي- فأقول إنك ستنجحين في دخول الكلية. ففي آخر المطاف، من الذي يمكن أن يكون أكثر منك استحقاقًا؟».

هذا ما يرفع روحي المعنوية.

لا تسنح لي أبدًا فرصة لرؤية آما كثيرًا، ولا فرصة للكلام معها، فهي الشخص الوحيد (إضافة إلى المعلم زهانغ) الذي لا يبدو عليه أي تغير... من ملابسها إلى حركاتها إلى أسلوبها في تجاهل العالم المندفع من حولها. لكنها شديدة الانشغال كعهدها دائمًا. تطهو الطعام للأسرة، وتسوّي الخلافات التي تنشب بين الكنات، وتغسل الملابس بيدها، وتغزل الخيوط، وتحوك القماش، وتطرز القبعات وتزيّنها من أجل حفيداتها، وتولد النساء، وتمزج الأدوية من أجل من يأتونها مرضى أو مصابين بجروح. انشغالها الشديد لا يسمح لي بالانفراد بها إلا مرة واحدة عندما نزور الشجرة الأم والشجرات الشقيقات في آخر يوم من أيام إقامتي. نسير معًا في البستان وتتوقف هنا وهناك كي تداعب غصنًا أو تقطف بضع أوراق أو تلتقط بعض الطفيليات المتعلقة بالشجرة الأم كي تستخدمها في أدويتها. آخر مرة كنا فيها هنا معًا...

تقول آما: «لا يقدر شيء على محو ألم خسارة طفل. تبلغ مشاعري نحو ابنتك أوجها، هنا في الطبيعة، في الهواء الطلق. هذا لأن يان-يه ذهبت في الهواء. تلاشت في الأثير».

«حزني عليها مثل فجوة كبيرة. يجري كل شيء من حول تلك الفجوة. أرغم نفسي على السير قدمًا، لكنني لا أستطيع التقدم أبدًا».

تنظر آما إليَّ كأنها تزن كلماتي. وعندما تنطق أخيرًا، يكون ذلك كي تطرح الفكرة نفسها التي ظلت تأتيني من كل اتجاه منذ عودتي إلى دياري: «لا يجوز أن تكون وحيدة. وليس لك أن تتركي ذكريات ما جرى في الماضي تحوّلك إلى شخص لن تتعرفي على نفسك فيه. كوني على طبيعتك، يا بنت، وسوف يجدك الشخص المناسب، وسوف يحبك».

على الرغم من اعتقادي الثابت بأن الحب لن يحدث لي من جديد، فإن كلماتها تشد من عزيمتي كي أودعهم وأسير وحدي عائدة إلى قرية غابة البامبو وأصعد إلى ميكروباص ذاهب إلى مينغاي وأسافر إلى كومينغ.

*

أدخل شقتي فأجد رسالة من المعلم غيو يطلب مني فيها أن أزوره على الفور. يترك وجبة العشاء مع أسرته كي يزف إليَّ النبأ. من بين ألفي شخص تقدموا بطلباتهم، كنت الطالبة الوحيدة المقبولة في الفرعين معًا. أنا في غاية السرور. أبيع دراجتي ومعظم مقتنياتي كي أجمع مالًا أعتاش عليه من غير حاجة إلى عمل إضافي كي أعيل نفسي.

وخلال اثني عشر شهرًا بعد ذلك، لا أكاد أبتعد عن معلم الشاي سون. يعلمني في الفرع الأول كيف أشتري الشاي الخام وأخزنه وأترك الطبيعة تتولى بطريقتها أمر تعتيقه. أتعلم كيف أقدر الدقائق اللازمة كي تذبل أوراق الشاي، أتعلم قتل الخضرة والعجن والتشميس والتخمير. (كنت على معرفة مسبقة ببعض هذه الأمور وهذا ما منحني مزية على بقية الطلبة). وفي الفرع الثاني، أدرس خصائص الشاي وأتعلم أفضلها بحيث يمكن لي، ذات يوم، أن أصير معلمة شاي، شيء مثل «سوميلييه النبيذ»[1] - هذه أول كلمة فرنسية أتعلمها.

يزرع معلم الشاي سون أفكارًا في ذهني. «التذوق في حاجة إلى تكريس عمر من أجله. لديك ذوق بسيط نشأ في طفولتك، غرسته فيك ينابيع الجبال وأغنته تربتها. يعجبني هذا فيك، لكن عليك أن تتعلمي الرهافة والرقي. سوف تتعثرين وتقعين في أخطاء، لكنك ستتعلمين إذا بقيت صادقة متواضعة. وأنت تحبين الشاي. أرى هذا في وجهك. تذكري دائمًا: *من لا يحب الشاي لا يستطيع أن يصنع شايًا جيدًا*».

لم ينشأ بيني وبين معلم الشاي أي شيء رومانسي، لكن الشهور التي أمضيتها قريبة منه كانت كفيلة بإزالة آخر ما كان باقيًا في نفسي من وحدة وحزن، إذ تبدد ذلك كله مثلما تتبدد الغيوم بعد العاصفة. عندما أنظر إلى ماضي حياتي -إلى ستة وعشرين عامًا- أرى الرجال الكثيرين الذين ساعدوني وأرى أن ما من واحد منهم كان في مثل أهمية معلم

---

(١) (sommelier): كلمة فرنسية تعني الشخص الخبير بأنواع النبيذ وبالمأكولات التي يصلح تناولها مع كل نوع منها.

الشاي سون الذي فتح عيني وقلبي وروحي. تمتد الأمور التي علمني إياها من العملي إلى الروحي.

«كان كونفوشيوس يعلم تلاميذه أن الشاي قادر على مساعدة الناس في فهم ميولهم ونزعاتهم الداخلية. في حين يضفي البوذيون على الشاي أسمى الخصائص الروحانية ويرون أن الشاي واحد من أربع سبل مفضية إلى تركيز العقل مثله مثل المشي وإطعام الأسماك والجلوس من غير حركة. وهم مؤمنون بأن الشاي قادر على إقامة الصلة بين عوالم التأمل. إن ما تمر به أجسادنا عندما نشرب الشاي، أي بحثنا عن الهويغان، يجعلنا نتجه إلى دواخلنا ونتأمل، إذ يحيط السائل باللسان وينحدر في الحلق، ثم يعلو شذاه من جديد. ويرى الطاويون الشاي سبيلًا إلى تنظيم الكيمياء الداخلية وإلى أن يصير المرء متناغمًا مع العالم الطبيعي. يرون أنه واحد من مكونات إكسير الخلود. تعلمنا هذه الديانات الثلاث معًا أن ننظر إلى الأعلى كي نرى حال السماوات وإلى الأسفل كي نلحظ ما في الأرض من ترتيب طبيعي. لكن الفم هو ما يقرر طبيعة الشاي وجودته مهما يكن معتقدك ومهما تكن نظرتك إلى الحياة.

تعلم فمي كيف يعثر على أفضل النكهات وكيف يميز جسد الشاي (خفيف أم ثقيل)، وكيف يقدّر بنيته (كالماء أم كالمخمل)، وكذلك كيف يلتقط التلاوين المزعجة: طباشيري أو مغبر أو متزنخ، أو فيه أثر من بترول أو مبيد حشرات أو بلاستيك. صرت ماهرة في تحديد الاختلافات بين أنواع الشاي: بيوَّر، ربة الرحمة الحديدية، بئر

التنين، الإبرة الفضية، وزهرة الفاوانيا البيضاء. أدرس أسعار المزادات وأرى كيف تتغير الأسعار وكيف ترتفع. في سنة ٢٠٠١، بيع نوع خاص من شاي «ربة الرحمة الحديدية» بـ ١٢٠ ألف يوان، وبعد سنة واحدة من ذلك بيع شاي بيوَّر معتّق ثلاث سنين بقيمة ١٦٨ ألف يوان. ومنذ سنتين، أي سنة ٢٠٠٤، عندما بلغ اليوان أعلى مستوى في تاريخه مقابل الدولار الأميركي، بيعت كمية من شاي بيوَّر تبلغ ثلاثة غرامات، وكانت مخزونة في «متحف القصر» بقيمة ١٢ ألف يوان... أغلى من الذهب باثنين وثلاثين مرة! والآن، وقت تخرجي، بيعت مئة غرام من شاي بيوَّر بمبلغ ٢٢٠ ألف يوان، أي نحو ٢٨ ألف دولار.

كيف لي ألا أكون فرحة بحسن حظي من حيث عيشي مع هذه الورقة بعينها، ورقة الشاي، وكيف لي ألا أحتفي بما صار لي من علم بها، وكيف لي ألا أكون جريئة في الكشف عن هذه المعرفة أمام الآخرين؟ حان الوقت الذي أبدأ فيه «قطاف التلال وغلي المحيطات» بأن أدخل عالم تجارة الشاي؟ لديَّ الآن في كومينغ وحدها خيارات كثيرة يمكنني انتقاء ما يعجبني منها. ظهر في هذه المدينة أكثر من أربعة آلاف تاجر شاي من تجار الجملة والتجزئة، فضلًا عن عدد كبير جدًّا من بيوت الشاي التي انبثقت في كل مكان مثلما تنبثق الفطور بعد موسم الأمطار. لكن معلم الشاي سون يأتيني، قبل أن أفلح في الالتحاق بأي واحدة من تلك المؤسسات كلها، بعرض من شركة تَودُّ الاستثمار في مستقبل شاي بيوَّر بأن تفتتح لها متجرًا في «سوق فانغون للشاي» في غوانزو الذي هو أكبر سوق لتجارة الشاي بالجملة في الصين كلها.

يقول لي معلم الشاي سون موضحًا الأمر: «سوف يوظفون رأسمالًا - ليس كبيرًا، لكنه كافٍ لاستئجار مكان ولشراء كمية من الشاي. وسيكون عليك أن تحملي عبء العمل كله وعبء القلق على سير العمل. تتقاضين عمولة على المبيعات إلى أن تستطيعي استعادة الاستثمار الأولي. وبعد ذلك، تصير ملكية العمل مناصفة بينك وبينهم. لا أظنك ستحظين بفرصة أفضل من هذه».

من عساه يستطيع مساءلة الأقدار؟ وقعت لي أمور سيئة، ثم تغير حظي عند ذهابي إلى المدرسة التجارية وإلى كلية شاي بيوَّر. وها هي الآن لحظة ميمونة تتفتح أمامي. لعل ما تقوله أكثرية هان صحيح: *يأتي الحظ الطيب ثلاثًا*. أوقّع العقد مع شركة «غرين جيد ليمتد» عملًا بنصيحة معلم الشاي.

وقبل صعودي إلى القطار الذاهب إلى غوانزو، أبعث إلى المعلم زهانغ بالرسالة التالية:

أرجو إخبار سي-ته وأسرتي وجيراننا بأن يبحثوا لي عن كمية من أفضل أنواع الشاي، وسوف أبيعها من أجلهم.

رسالة هيلي إلى كونستانس في عيد ميلادها، ١ آذار ٢٠٠٦

ماما العزيزة،

صار عمري عشر سنين، وصار عمر بابا ستين عامًا. واليوم، يصير عمرك خمسين عامًا. ثمة صفر في عمر كل واحد منا. أرى هذا أمرًا لطيفًا. الصفر عددي المفضل.

أحب التزلج معك. وأحب ركوب الخيل معك. أنت تأخذينني بالسيارة إلى أماكن كثيرة. وأنت تسمحين لي ولصديقاتي بتناول الكثير من الآيس كريم. جيد وياسمين تحبانك كثيرًا. وأنت أيضًا تأخذيننا إلى السينما. تسمحين لنا بالكلام عندما نكون جالسات في السيارة ولا تطلبين منا الصمت مثلما تفعل والدة جيد. تساعدينني في العمل على الكمبيوتر. وأنا أحب العلوم مثلما تحبينها.

أنت أفضل أم في العالم. لا يمكن لأي أم أخرى أن تأخذ ابنتها إلى المرصد كي تنظر إلى التلسكوب عندما لم يكن هناك أحد غيرنا. أحبك كثيرًا، بقدر الكون كله.

عيد ميلاد سعيد يا ماما

هيلي

ندى السماء الحلو

مضى أسبوعان على وجودي في غوانزو. تكون معدتي متقلصة عند استيقاظي كل صباح. ومع أنني في الطابق السابع، أستطيع سماع ضجيج المدينة الذي لا يهدأ وأعلم أن عليَّ أن أمضي فيها -أن أكون جزءًا منها- ويا له من تحدٍّ! أرتدي ملابسي وأتناول إفطاري واقفة. ثم أغادر شقتي. الممر عبقٌ بروائح الثوم ودخان السجائر. أنحشر في المصعد الصغير مع أشخاص آخرين يعيشون في هذا المبنى. وعندما نبلغ الطابق الأرضي، يدفعني إلى الخلف جيراني المسرعين كي يكونوا أول من يعبر إلى الردهة ويخرج من الباب. أتمهل لحظة بعد ذهابهم. أستنشق نفسًا كي أشد من عزيمتي. *تستطيعين فعل هذا!* أخطو خارجة فأنجرف على الفور ضمن تيار جارٍ من آلاف من البشر متجهين إلى العمل وإلى المدرسة.

ما كنت قادرة على تخيل مدينة كبيرة هكذا ولا حتى في أحلامي. مدينة صاخبة مزدحمة فيها أكثر من ضعفي عدد سكان كومينغ. وبدلًا من أفواج الدراجات التي كنت أراها في ملصقات المعلم زهانغ، أجد الطرقات متخمة بالسيارات التي تطلق أبواقها وهي غير قادرة على الحركة من شدة الازدحام. أمر بواجهات مطاعم غاصة بأحواض كبيرة

فيها مخلوقات بحرية لا أعرفها تنتظر أن يلتقطها الطاهي من أجل غداء أسرة أو من أجل عشائها. «لماذا يأكل الناس هذه الأشياء؟». والمتاجر تبيع أنواع السلع كلها... أكثر مما قد يحتاجه كل إنسان وأكثر مما قد يكون أي إنسان راغبًا فيه. *الاغتناء أمر رائع!* لكن نجاح هذه الحملة له أيضًا وجه قاتم: «المتسولون». لا يجوز أن يكون في الصين متسولون، وعلى الحكومة أن تبقي الريفيين في الريف. ولكن، بالنظر إلى كثرة الناس وقلة المراقبين...

أسير مسافة قصيرة حتى أبلغ موقف المترو الواقع على مقربة من «حدائق ذكرى الشهداء». أصير على الرصيف رقم ١ وأترك سيل البشر يحملني معه إلى داخل العربة التي ستنقلني سبع محطات قبل أن أتركها عند «سوق فانغون للشاي» في منطقة ليوان.

شدة الازدحام في العربة تضغطنا كلنا معًا فأتمايل مع بقية الركاب كأننا جسم واحد، نتمايل مع كل تسارع واهتزاز وانعطاف. تصير الأمور هادئة قليلًا عندما أخرج إلى الشارع من جديد، لكنها ليست هادئة كثيرًا لأن عدد من يعملون في هذه السوق يبلغ المئات، بل ربما الآلاف. لا أزال أجد صعوبة في استيعاب مدى اتساعها. السوق ممتدة على عدة كتل من المباني، والأعمال الجارية فيها كبيرة. الهدف الموضوع لهذه السنة هو بيع ما قيمته ٦٧ مليون يوان من الشاي، وذلك بحيث تشكل مبيعات شاي بيوَّر ثلث هذا المبلغ. وفي كل طابق في كل واحد من تلك المباني في كل كتلة من تلك الكتل، ثمة عشرات وعشرات من المتاجر. بعضها لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار في أربعة أمتار. وبعضها كبير يشغل نصف

طابق. إلا أن منها أيضًا ما هو صغير جدًّا لا يتسع لأكثر من كرسيين تحيط بهما أكياس الشاي وتشرف عليه أسرة واحدة في الممر، ومن حوله أماكن مماثلة لبائعين صغار. في الممرات الطويلة إنارة خافتة منبعثة من مصابيح نيون. وحاويات الشحن وسلال وصناديق من الورق المقوى وأكياس خيش محشوة منتشرة كالحواجز أمام باب كل بائع. ولكن، لا يبيع الشاي كل واحد من هذه المتاجر. بعضها يبيع فناجين وآنية ودوارق زجاجية وشوكات لتفتيت قوالب الشاي وطاولات وصوانٍ لتقديم الشاي... والأسعار متباينة إلى أقصى ما يستطيع المرء تخيله.

عندما أفتح باب متجري، «متجر زهرة منتصف الليل للشاي» يلاقيني عبير شاي بيوَّر المسكر، نوع الشاي الوحيد الذي أبيعه هنا. أسترخي قليلًا لأنني أعلم الإيقاع الذي ستمضي عليه بقية يوم عملي. زبوني الأول من بيجين. نتبادل بطاقتينا ويجري كل منا حسابات داخلية مثلما يحدث هذه الأيام في كل صفقة في الصين. أرى أن حزامه قد اتسع، وأن بكلته قد انتقلت ثقبين اثنين. هذا ما يقول لي إن أعماله جارية على خير ما يرام، مهما تكن طبيعة أعماله، لكن ليس إلى الحد الذي يجعله مستعدًّا لشراء حزام جديد. أهو جامع شاي أم هاوٍ يحاول دخول هذه السوق؟ أدرك أنه جادٌّ إذ يقول لي إنه يريد شراء «جيان» يضم اثني عشر كدسًا في كل واحد منها سبعة «بينغ»، وهذا ما يبلغ مجموعه كله أربعة وثمانين قالبًا من شاي بيوَّر يود تقديمها هدايا إلى أشخاص في الحكومة لمساعدته في بناء علاقات (غوانجي). مع ذلك، سرعان ما يصير واضحًا أنه لا يعرف عن الشاي شيئًا. أستطيع استغلال هذا الأمر -أستطيع بيعه شايًا

منخفض الجودة أو أن أطلب منه ثمنًا زائدًا- لكني بدأت، في غضون أسبوعين فقط، أكتسب سمعة طيبة، سمعة أنني مستقيمة صادقة، وهذا شيء لا يمكن قوله عن بعض المنافسين هنا. فضلًا عن هذا، إن كان الرجل رائد أعمال صاعدًا، فقد تكون هذه صفقة أولى تعقبها صفقات كثيرة.

أخمّر شايًا، ونتذوقه معًا. أخمِّر شايًا آخر، ونتذوقه معًا، وهكذا دواليك مدة ساعتين كاملتين. أعلمه قولًا شائعًا ظهر في الآونة الأخيرة: *سوف تندم غدًا على ما لا تخزّنه اليوم*. تشجعه الفكرة بما يتجاوز توقعاتي. يشتري كيلوغرامًا واحدًا من الشاي من أجل استخدامه الخاص. وبعد ساعة، نبدأ العمل الحقيقي: يطلب عشرين كيلوغرامًا من شاي بيوَّر من قرية بئر النبع كي يُدرِجه ضمن قائمة الأصناف المتوفرة في ثمانية مقاهٍ يديرها. أبدأ تسجيل معلومات الشحن فيسألني عن منطقتي الأصلية.

أجيبه: «وُلدت في مقاطعة يونان».

يتغضن أنفه حسدًا. ثم يسألني سؤالًا أكاد أسمعه كل يوم: «لماذا تنتقلين إلى غوانزو؟ يتوق كل من يعيش هنا إلى الهدوء والسكينة في منطقتكم. منطقة بعيدة لم تمسها يد. منطقة فيها هواء نقي وغابات برية».

أقول معترفة: «أنا مشتاقة إليها. لكني أساعد أسرتي في بيع الهبات الطبيعية من جبلنا». الحقيقة أنني أبيع كنوزًا من جبال الشاي العظيمة الستة ومن عشرين جبلًا غيرها. ليس جبل مانوو إلا واحدًا من تلك الجبال. استطاعت سي-ته العثور على أنواع رائعة من شاي لاوبانزانغ. ما ترسله ليس من أعلى مستويات الجودة، لكن الشاي جيد واسم المنطقة

ذو قيمة لا تضاهى. وأنا أعتبر ما لديَّ من شاي بيوَّر من لاوبانزانغ مزية صغيرة، لكنها مفاجئة، آتية من منطقة تقدم منتجات تخلب الألباب.

وبعد ذهاب الزبون، تظل فترة بعد الظهور طويلة أمامي. أجلب زجاجات من ماء، وأغسل أدوات الشاي ثم أجففها. وأغلّف شايًا ضمن مظاريف صغيرة في كل واحد منها وجبة شاي واحدة بغية بيعها أو استخدامها نماذج أقدمها إلى الناس. أغلق المتجر عند الساعة الخامسة، وأعود إلى الخط رقم ١ الذي لا يزال ازدحامه فظيعًا مثلما كان هذا الصباح. لكن نظرتي إليه تصير الآن أحسن لأنني سأكافئ نفسي عند نهاية هذه الرحلة. أنزل عند موقف «حدائق ذكرى الشهداء». أشتري زجاجة ماء من امرأة تبيع على عربتها حمالات مفاتيح تذكارية ودوّارات هواء ورقية وغير ذلك من أشياء. ألوّح بيدي وأسلم بلغتي الكانتونية العرجاء على ثلاثة رجال متقاعدين مرتدين زي جيش التحرير الشعبي... متقاعدون يأتون إلى الحديقة بطيورهم المغرّدة في أقفاصها ويدخنون السجائر ويتبادلون القصص. أمضي عبر الممرات قاصدة واحدًا من المقاعد المحيطة بالنصب التذكاري. أجلس وأتنفس، وأصغي. لا سبيل إلى الفرار من هدير المدينة المسعور، لكن حفيف أوراق الأشجار في النسيم يزيل عني توترات نهاري.

عثرت على هذه البقعة منذ أسبوع واحد، وصرت منذ الآن على معرفة بأنماط سلوك الأشخاص الذين هم مثلي، أي الذين يلتمسون الراحة في حضن الحديقة. على مقعد إلى يساري تجلس امرأة في الستين تقريبًا. وهي مرتدية ملابس النساء اللواتي في مثل سنها: بلوزة بيضاء

قصيرة الكمين وبنطلون رمادي اللون. مشقات الماضي تركت آثارها خطوطًا ظاهرة في وجهها. تفاجئني عيناها كثيرًا لأنهما واسعتان إلى حد مدهش بالنسبة إلى امرأة صينية. تستخدم حقيبة يدها ثقلًا كي لا تعبث الريح بمجموعة أوراق أفترض أنها نسخ من سيرة ابنها الذاتية مع صور له. لا أجد شيئًا فيها من الإلحاح والرجاء الذي كنت أراه عند الأمهات في حدائق كومينغ، تلك الأمهات اللواتي كن يطاردنني باحثات عن كنّات، عن زوجات لأبنائهن. خلال الأسبوع الماضي كله، كانت مكتفية بمراقبة الشابات المتجولات في الحديقة من غير أن تبادر أيًّا منهن بالكلام.

*

بعد شهر من ذلك، أصل إلى الحديقة مستعدة لترك زحمة النهار الطويل تسقط عن كتفي فأرى المرأة على المقعد المجاور تشير إليَّ بأن أجلس معها.

تقول لي بالإنجليزية: «أنا السيدة تشانغ. لاحظت أنك لا تتقنين اللغة الكانتونية، ومعرفتي بلغة الماندرين هزيلة. أستطيع الكلام بالإنجليزية إن كان هذا ملائمًا لك». تربت على المقعد إلى جانبها... «اجلسي، من فضلك!».

أطيعها لأنني لا أعلم كيف أتهرب من دعوتها تهربًا مهذبًا، لكنني أحرص على عدم النظر إلى الأوراق الموضوعة بيننا. إن كانت تراقبني مثلما كنت أراقبها، فهي تدرك أنني لست مهتمة بالعثور على زوج.

تقول من غير مقدمات: «أنا أرملة».

صراحتها تجعلني أكون صريحة مثلها: «أنا أيضًا أرملة».

«هذا مؤسف كثيرًا لأنك لا تزالين صغيرة جدًّا». ترفرف عيناها بضع مرات... «وأنا أيضًا كنت شابة عندما فقدت زوجي».

طوال هذه الأسابيع، كانت تبدو لي امرأة لطيفة من موقعي على مقعدي، وأما إن كانت تظن أنها ستجعلني أتكلم عن سان-با فأنا...

تتابع كلامها: «منذ سنين، كنت معلمة للغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية، وكان زوجي أستاذًا للفلسفة في جامعة جنوب الصين. هل سمعت بها؟»

«لا. لقد نشأت في مكان بعيد».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«هذا واضح».

أحس حرارة في وجنتي... يا لي من «تو»!

«وأنا أمضيت زمنًا في الريف». تتابع كلامها متجاهلة ضيقي... «لقد اعتبرونا، أنا وزوجي، خلال الثورة الثقافية، من المثقفين السود فأرسلونا إلى الريف كي نتعلم من الفلاحين. كنت في الشهر السادس من حملي. هل حملت من قبل؟ هل لديك طفل تعتنين به؟»

«أجل، ولا».

تنظر إلى عيني كي ترى إن كنت أقول لها الحقيقة. «لا أسرار بيننا، يعجبني هذا». تصمت قليلًا ثم تقول: «تعلمنا، نحن التحريفيين البرجوازيين، كيف نزرع البطاطس الحلوة والدخن».

هي تكلمني وأنا أفكر: *تبوح لي بالكثير ونحن لما نكد نتعارف بعد!*

«بعد خمس سنين من مولد ابننا، أصابت زوجي نزلة برد لم تلبث

أن تحولت إلى التهاب رئوي». تغُصُّ قليلًا، ثم تتابع... «وبعد موته، أرغمت نفسي على البقاء». تمامًا مثلما كان عليَّ أن أفعل... «كانت مهمتي أن أحمي ابني وأربيه. قدمت إلى السلطات التماسًا كي تسمح لنا بالعودة إلى غوانزو، وتذرعت بمشقات الحياة. لكنهم لم يسمحوا لي بالعودة إلا بعد زيارة الرئيس نيكسون إلى الصين. قيل لي إن البلاد ستكون، من جديد، في حاجة إلى الانضمام إلى المجتمع الدولي. ستكون الصين في حاجة إلى معلمي لغة إنكليزية. ومنذ ذلك الوقت، عشت هنا مع ابني».

«يسرني أنكما استطعتما العودة. معلمي حيث نشأت لم يستطِع العودة إلى دياره. لم يستطِع الحصول على إذن بذلك».

«هذا ما جرى لبشر كثيرين. أنا وابني كان حظنا طيبًا».

في الأمسية التالية، والأمسية التي أعقبتها، أجلس مع السيدة تشانغ. تحكي لي قصصًا عن الريف ولا تفوّت شيئًا من ذلك. لم تذهب إلى مقاطعة يونان. لا تنوي زيارتها مع أنها سمعت بجمالها.

تقول لي: «أفكر في الريف فلا أتذكر شيئًا غير المعاناة».

*

مضى شهران ولم يكد نظامي اليومي يشهد أي تغير. لا أزال أجد صعوبة في التعامل مع الضجيج ومع الازدحام. لكني أتأقلم. أذهب بالمترو إلى سوق الشاي، وأعمل، وأعود بالمترو إلى الحديقة، وأسير مباشرة إلى مقعد السيدة تشانغ. نلتقي كل مساء، عدا أيام الأحد. نتحدث نصف ساعة، أو نحو ذلك وننظر إلى الفتيات العابرات...

نُقيِّمهن كي نرى من يمكن أن تصلح لأن تكون كنّة لها. أوه... وكم نضحك! هذه نحيلة جدًّا، وتلك بدينة جدًّا. هذه تُكثر من أحمر الشفاه، وتلك شاحبة الوجه كثيرًا. هذه مدللة، وتلك تبدو عاملة مصنع تبحث عن رجل يشتري لها ذهبًا وجواهر. لكن كلامنا غير مقتصر على تقييم الفتيات. فكلما زاد بوحها لي، أحسست أنني أتحرر من الماضي... أمرٌ ما كنت حتى الآن قادرة على فعله. تعلم السيدة تشانغ كل شيء عني. تعلم كل شيء. لم تنتقدني أبدًا، ولم تجعلني أحس خجلًا من نفسي. لكنها قالت لي ذات مرة: «لقد فعلتِ أحسن ما هو ممكن بالنظر إلى ظروفك. بعض الأحيان، لا نستطيع شيئًا غير اعتبار أنفسنا محظوظين لأننا بقينا أحياء».

هذا المساء -كالعادة- نحن جالستان نقيّم الفتيات العابرات أمامنا -هذه مولعة بالدراسة، وهذه من غير طعم، وهذه خرقاء، وهذه واثقة بنفسها أكثر مما ينبغي- لكن السيدة تشانغ تفاجئني بالقول: «هل أنت مستعدة لمقابلة ابني؟».

أتجمد وأحس إهانة لأنها تحطّ من شأن صداقتنا. «أنا لم أكُن أتحدث إليك كي أعثر على زوج».

تجيبني بهدوء: «هذا صحيح بالطبع، لكن من الممكن أن تكونا ثنائيًّا ميمونًا».

«لا أريد أن أتزوج من جديد...»

«بسبب ما جرى لك...»

«الأمر ليس هكذا. أسلوب حياتي الآن... لديَّ حرية لفعل ما أريد».

«في نظري، هذه ليست إلا طريقة أخرى للقول إنك عانيت المشقات. أنا عانيت المشقات أيضًا، وكذلك ابني. ألا ترين أننا، جميعًا، استطعنا أن نكسب قدرًا من الطمأنينة والرضا؟».

تعجبني السيدة تشانغ، لكنها مخطئة إن ظنتني راغبة في مقابلة ابنها، ناهيكم عن الزواج به. مع ذلك، كانت تعمل بطريقتها الذكية منذ رأتني أدخل الحديقة أول مرة. ترفع الأوراق الموضوعة بيننا، الأوراق التي لم تمسها طوال هذه الأسابيع، وتتزحزح مقتربة مني.

تقول لي: «دعيني أريك بعض الصور. هذا هو ابني جين عند إنهائه المدرسة الابتدائية. كان ذلك بعد فترة وجيزة من عودتنا إلى غوانزو. أترين كم كان نحيلًا؟».

رفقة السيدة تشانغ ممتعة لي، وأنا لا أريد أن تنتهي. لذا أنظر إلى صورة من الصور بأقصى قدر من اللباقة، لكن من غير أي قدر من الاهتمام.

*

في شهر حزيران بحسب التقويم الغربي (بعد أسبوعين من مكاشفة السيدة تشانغ إياي بخطتها، وبعد ثلاثة شهور ونصف الشهر من قدومي إلى غوانزو)، تغلغلت حرارة هذه المدينة المدارية ورطوبتها في «متجر زهرة منتصف الليل للشاي» مثلما تغلغلت في كل متجر من متاجر سوق فانغون للشاي. على أن هذا الطقس غير المحتمل لا يثني الناس عن المجيء. فعند الساعة العاشرة صباحًا، تشغل كل كرسي وكل مقعد من حول طاولتي تشكيلة دولية من المشترين... من

كوريا وتايوان واليابان. وفي أواخر فترة بعد الظهر، ينصرف أولئك المشترون ويصل الزبائن المعتادون. يكون السيد لين (الرجل الستيني الرشيق الناجح في اقتصادنا الجديد) أول الواصلين إلى متجري حاملًا اللابتوب كي يستطيع متابعة أسهمه والمضاربة على عقود الشاي الآجلة. وفي اليوم التالي، أتى السيد تشاو بلابتوبه. يبدو ستينيًّا أيضًا، لكن ما من خصلة رمادية في شعره الكثيف الأشعث. إنه رائد أعمال... وماذا يكون غير ذلك؟ وهو صاحب سلسلة من خمسة متاجر أحذية في أنحاء المدينة. لا يزال رجلًا متواضعًا رقيق الحاشية. السيد كوان أصغر منهما ببضع سنين، وهو الوحيد الذي اضطر إلى التقاعد الإجباري. وبما إنه معلم مدرسة سابق، فهو غير قادر على شراء لابتوب. لكن الرجلان الآخران يطلعانه على ما يتوصلان إليه: النشاط كله متركز في شاي بيوَّر.

لكل من هؤلاء الرجال الثلاثة فنجانه الخاص. يفتح السيد لين (أغنى الرجال الثلاثة) علبة من البامبو ويتناول من بين حشياتها الحريرية فنجانًا مصنوعًا من الخزف الصيني الأبيض، فنجانًا مثاليًّا للتمتع بنقاء السائل. السيد تشاو الأحدث عهدًا بالثراء اشترى بدوره فنجانًا من بورسلين أبيض، وعلى هذا الفنجان من الخارج كتابة بلون أزرق. إنها مقطوعة شعرية صغيرة لائقة بأرمل مثله: *كان لقاؤك صعبًا وأصعب منه وداعك. ريح شرقية تهب هبوبًا هينًا، وتتساقط الأزهار كلها*. وفنجان السيد كوان نسخة رخيصة من «فنجان الدجاجة»، من أسرة مينغ عليه رسم دجاجة تحمي صغارها.

يتبادل رجال الشاي الثلاثة النمائم فيما بينهم كأن معرفة تجمع بينهم منذ الطفولة. يناقشون العروض النهائية في مزادات الشاي، وأسعار الشاي العالمية، وأثر الطقس في الشاي البري وشاي المصاطب المدرجة في يونان وفي فوجيان وغيرها من مناطق زراعة الشاي في العالم. وهم اليوم يناقشون منافع شاي بيوَّر الصحية. يغوص السيد لين عميقًا في الماضي كي يؤكد على فكرته. هو الأوسع احترامًا والأفضل تعليمًا بين الثلاثة.

«كتب معلم الشاي العظيم لو يو قائلًا إن الشاي يخفف انسداد الأمعاء ويزيل الكآبة ويشفي آلام الدماغ وحرقة العين وتورم المفاصل. وقد قال إن الشاي أشبه بندى السماء الحلو، ومن الطبيعي أن تكون آثاره حسنة كلها».

يوافقه السيد تشاو، «يساعدنا الشاي في التفكير تفكيرًا أسرع، والنوم نومًا أقل، والحركة حركة أقل، والرؤية رؤية أوضح.

يضيف السيد كوان الذي يحاول دائمًا أن يتفوق على من هم متفوقون عليه: «يقول لنا أطباؤنا الصينيون التقليديون إن للشاي، ولشاي بيوَّر خاصة، ما لا يقل عن مئة فائدة مثبتة: يعزز جهاز المناعة، ويوازن بين طباع الجسد الحارة والباردة، ويخفض ضغط الدم وسكر الدم، ويساعد في إزالة آثار الشراب، ويشفي السرطانات».

يذكرهما السيد تشاو: «لقد ساعد زوجتي».

يطرح عليه السيد كوان سؤالًا لا يمكن القول إنه ليس لطيفًا، «كيف تعلم هذا، لعل الشاي أطال عمرها».

يقاطعه السيد لين، «وماذا عني أنا؟ لم أعد أذهب إلى أطباء الأعشاب وأطباء الوخز بالإبر. أنا مؤمن بالطب الغربي...».

قال السيد كوان كمن يدافع عن نفسه: «أنت قادر على تحمل التكلفة، ولكن دعني أشير إلى أن العلماء الأميركيين يدرسون الآن الكاتيكينات والبوليفينولات. لا بد أنك قرأت عن هذا. هذه هي مكونات الشاي التي تعطي خصائصه المضادة للسموم والالتهابات والجراثيم والسرطان...»

ينخفض السيد تشاو في مقعده. من الواضح أن ذكريات مرض زوجته لا تزال تؤلمه.

أتدخل في الحديث محاولة تلطيف الجو: «مضادة لهذا ومضادة لذاك ومضادة لكل شيء. رأيت في الصيدلية يوم أمس شاي بيوّر «طبيًّا» يضمن تخفيف الوزن...»

يقول السيد كوان موافقًا: «بالطبع! هذا لأنه يذيب الشحوم. والعالم يعرف هذا. نسبة الكوليسترول انخفضت كثيرًا، والشحوم الثلاثيّة أيضًا صارت...»

أسأله: «ولكن، ما أهمية هذه المزاعم كلها في نهاية المطاف؟ ألا يجدر بنا أن نكتفي بالاستمتاع بالشاي؟ حيث نشأت، كنا دائمًا نشرب الشاي الخام. تقولون لي إنكم تفضلون خصائص للشاي من قبيل تدفئة المعدة وتطرية الفم، تلك الخصائص المتوفرة في شاي بيوّر المعتق طبيعيًّا مدة خمس سنين أو أكثر. دعونا نناقش مزايا كل نوع من أنواع الشاي». أصب لهم شاي بيوّر الذي أرسلته إليَّ سي-ته من لاوبانزانغ. خلال

الفترة التي انقضت منذ قدومي إلى هذه المدينة، ازداد سعر الجملة لهذا النوع من الشاي خمسة أضعاف، ثم ستة أضعاف. نتيجة ذلك، صرت قادرة على تسديد الاستثماري الأولي الذي وظفته شركة «غرين جيد»، وصرت الآن مالكة لخمسين في المئة من هذا المشروع المزدهر. وقد صار لنجاحي أثر في غيري أيضًا. صار أبي وإخوتي يتمتعون بما هو، بالنسبة إليهم، ثروة فورية. أستطيع القول معتزة إنني ساهمت في هذا. وأما المنافع الصحية المفترضة لشاي بيوَّر، فمن الصعب معرفة حدودها. كانت آما تصنع أدويتها مما تجلبه من الشجرة الأم والشجرات الشقيقات، لكن من المحتمل أن الناس الذين أعطتهم تلك الأدوية كانوا سيتعافون على أي حال. ولعل أكاسيرها كانت تريح الناس مثلما يريحهم إنشاد الروما ونوبات ذهول النيما! كنا نقتنع بأننا نتحسن. ما كان في القرية كلها شخص بدين، لكن هذا لأننا كنا فقراء وما كان لدينا طعام يكفينا. ومن ناحيتي، ترضيني رؤية هؤلاء الرجال الثلاثة يرتشفون الشاي معجبين به... بهدوء.

*

يأتي يوم الأحد التالي، يوم عطلتي، فأمشي إلى «حدائق ذكرى الشهداء» قاصدة مقعد السيدة تشانغ. تلح هذه المرأة عليَّ من غير انقطاع... «قابلي ابني... مرة واحدة... من الممكن أن نتناول الطعام معًا. إذا لم يعجبك، ففي وسعنا أن نظل صديقتين». تواصل إلحاحها حتى أصير غير قادرة على احتمال المزيد. والآن، ها نحن هنا في انتظار وصول جين الغالي عليها. احتكامًا إلى الصور، أعلم ما سأراه: رجل

متوسط طول القامة، متوسط البنية الجسدية (لا أستطيع أن أطيق واحدًا من رجال الأعمال الكانتونيين الثقال)، وشعر غزير. أعلم من قصص السيدة تشانغ أنه في الثامنة والثلاثين، وأنه رائد أعمال... مثلما هو الآن، كل شخص آخر، تقريبًا، في الصين هذه الأيام. يستورد إلى الصين قمامة أميركية (صناديق ورق مقوى قديمة وورق مستعمل من أنواع مختلفة) بغية إعادة تدويرها لصنع صناديق جديدة يعاد شحنها إلى الولايات المتحدة محتوية على سلع استهلاكية مختلفة، وهذا ما يبدو لي أمرًا مربحًا، بل أستطيع القول إنه لافت جدًّا. يسافر كثيرًا بحكم طبيعة عمله. وعدتني السيدة تشانغ بألا تخبره شيئًا عن «سلبياتي». قالت لي: «لن أحدثه عن ماضيك، ولن أكشف لك شيئًا عن ماضيه. هذه أمور متروكة لكما، إن أردتما الحديث عنها. ولكن، لماذا نشغل بالنا بهذا؟ فلنرَ أولًا إن كان كل منكما يعجب الآخر. من هنا، وبحسب ما أعلمه، يمكن أن يكون متوجسًا مثلما أنا متوجسة الآن. ولعله آتٍ كي يجعل أمه تتركه وشأنه وتكف عن محاولة إقناعه بي! أكاد أستطيع سماع السيدة تشانغ تقول له: «قال لي-يان... مرة واحدة فقط... سوف نتناول الطعام معًا. إذا لم تعجبك، فأنت لا تخسر شيئًا...»

يلوّح جين لنا بيده فور ظهوره، وأحظى بفرصة مراقبة سيره صوبنا بخطوات واسعة مصممة. إنه مرتدٍ ملابس مريحة ـ حذاء من جلد، وبنطلون بلون أزرق بحري وقميص بولو - هذا مظهر شخص حقيقي، ليس مصطنعًا. بضع شعرات رمادية عند صدغيه أراها تلمع في الضوء. عيناه الواسعتان الذكيتان تثبتان أنه ابن أمه. فضلًا عن هذا، أرى فيهما

شيئًا عميقًا يريح أعصابي على الفور. يأتي حاملًا هدايا يضعها تحت ذراعه كي يصافحنا. هو رجل أعمال، لكن راحة يده خشنة نتيجة العمل الشاق. وهو غير خجول، لكنه ليس زائد الاندفاع. جلب لأمه ما أعلم من قبل أنه هدية كانتونية تقليدية: علبة بسكويت دنماركي مستورد.

«ومن أجلك، لي-يان، قليل من الشاي. قالت لي أمي إنك معلمة شاي شابة. لذا، آمل أن تتقبلي هديتي المتواضعة هذه».

تقول اللصاقة على علبة الشاي إنه شاي بيوَّر معتق تعتيقًا طبيعيًّا مصنوع من أوراق شجرة عمرها أربع مئة سنة في لاوبانزانغ. هذا الشاي موضوع في علبة فاخرة حمراء اللون قد يعادل ثمنها دخلي في شهر كامل. ينبئني هذا بأنه إما أن يكون مباهيًا بثرائه أو مهتمًّا بي اهتمامًا صادقًا نتيجة ما سمعه عني من أمه.

أسأله: «أأستطيع تجربته على الغداء».

تسبقه السيدة تشانغ قبل أن يتمكن من الإجابة: «عليكِ أن تفعلي هذا بالتأكيد. حجزت لكما طاولة في مطعم الحديقة الجنوبية. اذهبا الآن!».

اعترض على هذا، ويعترض جين. كان منتظرًا أن تذهب معنا، لكنها تصير كأنها حية ابتلعت فأرًا. وفور انطلاقها صوب محطة المترو، يقول لي وفي صوته مسحة من المزاح: «خسرنا أول معركة لنا مع أمي!».

لديه سيارة، هذا ما قد يستهوي بعض النساء. الشمس والقمر! أأخادع نفسي؟ سيارة مرسيدس! تعجبني كثيرًا. لقد قالت لي السيدة تشانغ إن ابنها يبلي بلاء حسنًا في أعمال إعادة التدوير، لكن هذا حسن

جدًّا! إلا أن المال آخر ما يهمني. مع ذلك، يعجبني أسلوبه في قيادة السيارة. يقودها من غير كبير اهتمام، ويسند معصم يده على أعلى عجلة القيادة. لا يطلق بوق السيارة مثلما يفعل شخص مهووس ولا يناور بين السيارات كي يكسب بضعة أمتار إضافية.

المطعم كبير، ممتلئ كله. يقودوننا عبر متاهة من الصالات والحدائق وكهوف فيها شلالات. نجتاز جسرًا متعرجًا وندخل صالة صغيرة مبنية على هيئة سرادق عتيق. نجلس إلى طاولة مشرفة على واحدة من أشجار الصفصاف الباكي تتدلى ذؤابات أغصانها الكسلى فوق بركة ماء تكسو سطحها أزهار اللوتس. يأتيني النادل بماء حار كي أخمّر الشاي. لكنني أفتح العلبة فتهاجم أنفي رائحة تراب وعفن.

يسألني جين: «ما الخطب؟».

«لست أدري كيف أقول هذا...»

يستحثني: «لن تجرحي مشاعري».

«أخشى أن أحدهم قد باعك شيئًا زائفًا». تخبو ابتسامته. لن يفاجئني أن يكون هذا النبأ إيذانًا بانتهاء عشائنا قبل أن يبدأ. لكنه يبتسم بعد ذلك ويقول: «غشوني من جديد! ظننت أن تلك الأيام صارت ورائي».

أقول مواسية: «ثمة غش كثير. حتى الذواقة يتعرضون للغش أحيانًا».

«من الآن فصاعدًا، ستتولين اختيار شاينا، وسوف أهتم بالأمور الأخرى... كطلب الطعام مثلًا».

أرى في قائمة الطعام شاي بيوَّر عالي الجودة، ويطلب جين تشكيلة مغرية من الفطائر المقلية. أتوقع سماعه يتحدث عن نفسه فقط، لكنه يبقي حديثنا مستمرًّا من خلال طرح أسئلته عليَّ، هل تعجبني غوانزوا؟ هل أعرف كيف أقود سيارة؟ هل أحب أن يعلمني قيادة السيارة؟ هل ذهبت إلى هونغ كونغ؟ ينتهي بي الأمر إلى أن أجد نفسي مستمتعة أكثر مما توقعت. وبعد فراغنا من تناول الطعام، نعود أدراجنا عبر الساحات والصالات ونتوقف عند الشلال الكبير كي نتأمل الماء المتساقط على الصخور. يأتي عامل المطعم بالسيارة فيمسك جين بمرفقي وهو يجلسني على المقعد الأمامي.

يقول لي بعد أن يجلس خلف مقود السيارة: «ما رأيك الآن في نزهة؟ قد نزور حديقة الزنبق، أو قد نذهب إلى جزيرة شاميان ونجلس في الخارج ونتناول قهوة أميركية. أوه، هل تشربين القهوة؟».

«أحب القهوة. لكن... ربما في وقت آخر».

لا بد أنه يظنني أحاول تفادي إطالة هذا اليوم أو أحاول تفادي رؤيته من جديد. أقول هذا لأن ابتسامته تخبو سريعًا مثلما خبت عندما قلت له إن شاي بيوَّر الذي اشتراه ليس جيدًا.

أقول: «كنت أعني هذا. سنشرب قهوة عندما نلتقي مرة أخرى. أنا حرة كل يوم أحد...»

«إذًا، الأحد القادم...».

وأضيف: «وأنا حرة كل مساء». أراه يبتسم.

يقترح أن يأخذني بالسيارة إلى بيتي. لكني أطلب منه أن ينزلني

عند «حدائق ذكرى الشهداء». يودعني وأودعه، ثم يذهب. وقبل أن أعود إلى شقتي، أجلس على مقعد وأضغط على رقم هاتف سي-ته الخليوي.

أقول لها: «خرجت في موعد. هذا أول موعد لي».

تطلق تلك الضحكة التي تميزها وتطالبني بسماع التفاصيل كلها.

*

وعلى امتداد شهور بعد ذلك، أرى جين مرتين في الأسبوع، بعد العمل. وأراه كل يوم أحد. لا أذهب إلى شقته، ولا يأتي إلى شقتي. لعل سيارته غالية الثمن، لكني أحسه شخصًا متواضعًا في تطلعاته لأنه غالبًا ما يرتدي الملابس نفسها - ملابس نظيفة، لكنها هي نفسها. (إما أن يكون الأمر كذلك أو أنه يحاول جعلي أرى أنه لا يرى مشكلة في أن تكون تشكيلة ملابسي محدودة). أعلمه الطريقة الصحيحة لشرب الشاي. إنه صاحب ذوق رفيع فهو لا يجد صعوبة في التمييز بين شاي بيوَّر الخام وشاي بيوَّر الناضج، ويعرف إن كان في نكهته أثر من عشب أو أزهار أو فاكهة، وإن كانت النكهة حادة أو داكنة أو ناعمة أو فيها ما يشبه أرض الغابة أو جو الكهوف. يأخذني إلى مطاعم في أرجاء المدينة كلها حيث أجرّب القواقع وخيار البحر وقنديل البحر. أجد كل لقمة غريبة، وثمة أشياء كثيرة لا تعجبني، لا تعجبني أبدًا. يقول لي: «صحيح أن السرطان يشبه العنكبوت. إن كان لا يعجبك، فلست مضطرة إلى تناوله مرة أخرى». وفي الأمسيات التي لا نذهب فيها لتناول العشاء ولا نذهب فيها إلى السينما أو إلى حفلة موسيقية، أذهب إلى الحديقة وأتحدث

مع السيدة تشانغ. إنها ذكية في التقريب بيننا، فكلما ازدادت أسئلتي عنه قلّت إجاباتها. يعني هذا أن ما من سبيل أمامي غير قضائي مزيدًا من الوقت معه.

أعود مع جين مرة بعد مرة إلى جزيرة شاميان كي نتأمل الجمال المتداعي في القصور الاستعمارية الإنكليزية المهجورة والمصارف الغربية ومباني القنصليات. نتوقف دائمًا كي نتناول الشاي أو القهوة في مقهى مفتوح للسائحين الذين يحبون زيارة هذه الآثار الحديثة. يقول جين ذات مساء: «منذ سنين، ما كان العيش هنا مسموحًا به إلا للأجانب». ومن طاولتنا، نستطيع رؤية ممر مبلط بالحجارة تحف به الأشجار من الناحيتين حيث أم شابة تجري خلف طفلها الوحيد. «ما كان الصينيون قادرين على دخول الجزيرة من غير إذن. وفي الليل، تظل البوابات الحديدية على الجسور مغلقة، وتظل محروسة. أتساءل كم يكلف ترميم واحد من هذه البيوت واستعادة حديقته». تبدو الفكرة رائعة، لكنها غريبة جدًّا، فأكتفي بأن أومئ برأسي موافقة على كلامه.

صحيح أن جزيرة شاميان وادعة ساحرة (هي مكاني المفضل في غوانزو)، لكننا نستطلع أجزاء أخرى من المدينة. نذهب في رحلة بالزورق في «نهر اللؤلؤ» كي ننظر إلى المباني السكنية التي تعلو منبثقة على الضفتين. يمطرني بأسئلته: «هل تحبين الماء؟ هل رأيت المحيط من قبل؟ هل تستطيعين السباحة؟» وعندما أجيبه قائلة: لا أعلم، لا، لا، يرد عليَّ بقوله: «آه... إن في انتظارنا مغامرات كثيرة». يبدو أنه اتخذ قرارًا، لكن ثمة أمور كثيرة لا تزال غير محكية.

وفي يوم الأحد، يأخذني إلى الريف. نمر بما يدعونه «حدائق الفيلات» حيث نرى صفوفًا أنيقة من بيوت متماثلة. وبين تلك الأحياء المنعزلة، نرى حقول الأرز، وحقولًا أخرى، ونرى الفلاحين حاملين دلاء الماء الثقيلة معلقة بعصيٍّ ممتدة فوق أكتافهم. نزور «جبل السحاب الأبيض». لا أراه أكثر من تلٍّ، لكن إطلالاته على دلتا «نهر اللؤلؤ» جميلة حقًّا. نذهب إلى «جروف النجوم السبع» التي يقول لي جين إن نسخة مصغّرة عن منطقة غويلين حيث الأنهار والقمم الملفعة بالضباب. يقول: «سآخذك يومًا إلى غويليم الحقيقية، سوف تعجبك كثيرًا».

واليوم، هذا اليوم الذي يبدو أنه أشد أيام الصيف حرًّا ودبقًا، نذهب بالسيارة إلى دينغوشان التي هي منتجع جبلي شهير آخر، نذهب لرؤية معابد أسرتي تانغ ومينغ. ما أكثر الناس! كأن سكان غوانزو أتى نصفهم إلى هذا المكان هربًا من لظى الحر في المدينة. لكنَّنا نسير في الدروب ويلتقط لي جين صورًا كثيرة.

يسألني: «هل تفضلين العيش في فيلا بين الحقول وقيادة سيارتك إلى متجرك كل يوم أم تفضلين أن تكون لك شقة في المدينة وتزورين الطبيعة في عطلات نهاية الأسبوع؟».

«وكأن من الممكن يومًا أن أعيش في فيلا». أفلح في قول هذا بين ضحكاتي... «أو أن تكون عندي سيارة! أو أن أحظى بعطلة نهاية أسبوع من غير عمل».

«ولكن، ماذا لو استطعت العيش في الريف؟ هل يعجبك هذا؟ حدائق الفيلات غير بعيدة عن المدينة...»

إنه جاد في سؤاله. تذكرني هذه الرحلات بأنني أحب نقاء الهواء النظيف وغناء الطيور وأصوات الشلالات والجداول المترقرقة. تمضي السيارة عائدة بنا إلى المدينة، وأحس نفسي منتعشة، مستعدة لبدء أسبوع جديد، لكنني أحس أيضًا أنني مشتاقة إلى دياري. كيف أستطيع أن أشرح له أن دينغوشان جميلة لكن جبالها ليست جميلة ولا عالية ولا معزولة ولا عذراء مثل موطني في الطفولة؟

كأنه يقرأ أفكاري. يقول: «قد تأخذينني يومًا من الأيام إلى حيث نشأت فتسنح لي فرصة التعرف على أسرتك».

لا أدري ما أقول. ماذا إن جاء إلى بئر النبع وعاش تلك الأمور التي أحب... أرض الغابة كأنها وسادة من طحلب، وأوراق الأشجار ترفرف في النسيم، والطيور والقرود تثرثر بين الأشجار؟ أم... لعله يرى قريتي، وأسرتي أيضًا، متخلفة، بدائية! انتبه إلى أن أفكاري تظل متناقضة هكذا خلال الوقت الذي أمضيه مع جين. أسئلته وتعليقاته تجعل قلبي يحس حلاوة ومرارة، وتتركني مشوشة... لكنني لا أكون مشوشة إلى درجة تجعلني أرفض دعواته.

لم أقل له شيئًا عن زواجي بـ سان-با ولا عن رحلتنا إلى تايلاند عبر ميانمار. لكنه يقول لي يوم الأحد التالي: «ينبغي أن يكون لديك جواز سفر فقد ترغبين يومًا من الأيام في السفر إلى بلد آخر»، فأمضي مع فكرته. وبطبيعة الحال، ليس الحصول على جواز السفر أمرًا سهلًا. لكن الظاهر أنه يعرف أشخاصًا يعرفون أشخاصًا آخرين. يجمعني مع واحد تلو واحد من كوادر الحزب والبيروقراطيين. يقول لهم:

«إنها سيدة أعمال». ثم يتبع ذلك بالقول: «هل تحب شاي بيوَّر؟ طبعًا! منافعه الصحية وحدها... من فضلك، اقبل منها هذه الهدية!»، وهكذا دواليك.

ما إن أحصل على جواز سفري، حتى ينصحني بالحصول على فيزا لمرة واحدة من أجل زيارة الولايات المتحدة «لأنك لا تعلمين ما يمكن أن يحدث في هذا البلد». لا يعلم أن لي ابنة في أميركا، لكني أملأ الأوراق المطلوبة وأذهب إلى المقابلة وأبدأ خفية ادخار المال لشراء بطاقة الطائرة. وبعد حصولي على خاتم فيزا الولايات المتحدة على جواز سفري، صرت أفتحه كل ليلة كي أنظر إلى ذلك الخاتم. هل يمكن أن أعثر عليها إذا سافرت؟ لا يدرك جين هذه الهبة التي أعطاني إياها -الأمل- لكني مدينة له بها.

كثيرًا ما أذكِّر نفسي بما قالته لي السيدة تشانغ: من يعانون يفوزون بالرضا! لعلي فزت بالرضا. صحيح أن التعارف بيننا، أنا وجين، يأخذ مجراه مثلما أرادت السيدة تشانغ، لكني أتساءل عمَّا سيحدث عندما أحكي له قصتي. قد يأتي وقت يجد كل واحد منا نفسه راغبًا في إخبار الآخر بكل شيء، وقد لا يأتي ذلك الوقت. يبدو لي أن لديه الإحساس نفسه لأن أحاديثنا تمضي إلى الداخل وتمضي إلى المستقبل لكنها لا تعود رجوعًا. كل كلمة بيننا تكشف شيئًا... من الكلمات قليلة الأهمية، بل حتى السخيفة، إلى الكلمات العميقة التي تمضي إلى لب حقيقة كل منا. ومن عساه يدري؟ لعلنا أقل اهتمامًا بالافتتان والحب الرومانسي منا بالفهم والتوافق والرفقة غير المشوبة بآثار الماضي.

«أحب اللون الأصفر». هكذا أجابني عندما سألته عن لونه المفضل ... «ليست عندي ذكريات حلوة كثيرة عن عيشي في الريف عندما كنت صبيًّا، لكني كنت أستمتع وقت الربيع عندما يزهر اللفت».

أقول له: «وأنا أحببت اللون النيلي طوال عمري. قد يقول المرء إنني ينبغي أن أكون قد مللته. ارتديت ملابس بذلك اللون كل يوم من أيام حياتي إلى أن ذهبت إلى كومينغ. وكان كل شخص عرفته في صغري يرتدي اللون نفسه. لكني لم أمله لأنه يذكرني بتقاليد موطني ومسرّاته».

يسألني إن كنت أحب الكلاب. أقول: «أفضل القطط لأنها نافعة ولأنها تعرف كيف تعتني بنفسها. الكلاب ليست جيدة إلا من أجل النذور والأضاحي».

«عديني بأنك لن تأكلي كلبي».

«ألديك كلب؟ أحب الكلاب».

هذا ليس تنازلًا مني. وأنا لا أحاول تغيير طبعي كي أرضيه. لا مانع عندي من الخروج مع الكلب في نزهة ومن رفع فضلاته مثلما أرى الناس يفعلون هنا في المدينة. هذا لأنني أحب جين وأحب قضاء الوقت معه. (اتضح لي أنه كان مازحًا فارتحت). لكنه يزن كل ما أكشف عنه... هل أستطيع احتمال هذا الأمر؟ هل أستطيع التعايش مع ذلك الأمر؟

ومع قدوم الخريف، تنمو مشاعري نحوه وتتغير. لم يحاول حتى الآن أن يقبّلني. أدرك أننا من ثقافتين مختلفتين وأنه ليس غير مألوف عند أكثرية هان أن يتبادل الناس القبل أو أن يتعانقوا أمام الناس، بل حتى ليس مستغربًا أن تعبر معظم الثنائيات التقليدية، بعيدًا عن الناس، عن

الهوى الجسدي. مع هذا، كلما استخدم رؤوس أصابعه كي يدس خصلة شعر هاربة خلف أذني وكلما أمسك مرفقي كي يساعدني على الجلوس في السيارة، أحس ذلك الدفء الذي أوقعني في مشكلات كثيرة مع سان- با. لكنني لم أعد فتاة صغيرة. أذهب إلى واحدة من عيادات تنظيم الأسرة للحصول على أقراص منع الحمل. إذا قررنا يومًا أن نسرق الحب، فأنا جاهزة. لكن، متى؟ أفكر في الوقت الطويل الذي أمضيناه معًا فتفاجئني فكرة أنه يخفي عني شيئًا أسوأ كثيرًا من المحنة التي عاشتها أسرته في الريف. بالطبع. وأنا مثله. يخفي كل منا أمورًا كثيرة...

كلمات كي تتهجاها هيلي في الصف الخامس

تلامس	قساة	مليونيرات	المجرم	تضايقني
إسبانيا	بلاستيك	مقاطعة	قرنبيط	مأساة
مشردون	أتواصل	مخيلة	مهنة	شبيبة
محترف	شبح	تحلية	مياه جوفية	إسفنجة

١. مباني المكاتب تلامس السماء.

٢. يمكن أن يكون الأصدقاء قساة.

٣. معظم الآباء والأمهات مليونيرات.

٤. إذا سألنا المجرم عن طبيعة عمله، فسوف يقول إنه يعمل لدى الحكومة.

٥. ليت عندي أخت لكي تضايقني.

٦. هل ترسلون إليَّ أختًا من إسبانيا؟

٧. وجه جدتي كأنه من بلاستيك.

٨. يقول بابا إن الناس يستطيعون مقاطعة الأشياء التي لا تعجبهم.

٩. أود أن أقاطع القرنبيط.

١٠. مأساة عندما يطلق معلم الكمان ريحًا.

١١. لا بد أن المشردين بائسون جدًّا.

١٢. أريد هاتفًا لي كي أتواصل.

١٣. يقول جدي إن لي مخيّلة «كبيرة جدًّا».

١٤. ينبغي أن تكون لكل فتاة مهنة.

١٥. شبيبة آسيا مختلفة عن غيرها.

١٦. كل سنة، تستعين ماما بمصور محترف كي يلتقط لي صورًا.

١٧. أتمنى لو كان عندي شبح ألعب معه.

١٨. لن أستخدم بعد الآن كلمة تحلية في أي جملة.

١٩. نتعلم في صف الآنسة غوردون أمورًا عن المياه الجوفية.

٢٠. لو كانت عندي أخت صغيرة، لنظفت فمها بإسفنجة.

القسم الرابع

الطائر المتميز عن غيره

٢٠٠٧-٢٠٠٨

دجاجة وعنزة وقطعة نقدية

في ليلة السنة الغربية الجديدة، أخذني جين مع أمه إلى مطعم في أعلى فندق فخم حيث نستطيع أن نرى الألعاب النارية - هالات عملاقة من ضياء ونجوم تتفجر فوق المدينة. طلب الشمبانيا التي كنت أتحدث عنها مع زبائني في المتجر، لكني لم أذقها من قبل. وبعد صب الكؤوس، يرفع جين نخبنا متمنيًا لنا نجاحًا وسعادة وصحة ذهبية في هذه السنة الجديدة.

أرفع نخب السيدة تشانغ فأقول: «أشكر لك مصادقتك إياي، أنا الغريبة».

وتقول السيدة تشانغ عندما يأتي دورها: «عسى أن تكون هذه أول ليلة من ليالي كثيرة نحتفل فيها معًا بالسنة الجديدة - غربية كانت أم قمرية».

كلماتها جريئة جدًّا. وهي أم حريصة لرجل غير متزوج صار في أواخر الثلاثينيات، لكني أخشى أن يدفعه إلحاحها إلى الابتعاد عني. أحاول أن أتمالك نفسي وأخفي حرجي خلف تعبير باسم أرسمه على وجهي قبل

أن أنظر في اتجاه جين. وعندما أنظر إليه، أجد هناك، أجد عينيه تنظران إليَّ نظرة تفرس تجعلني أسارع إلى خفض نظري إلى الجمبري المملح في طبقي.

وبعد أسبوع، في أول يوم أحد من السنة الجديدة، يطير جين إلى لوس أنجلوس لعقد سلسلة اجتماعات هناك. وعند لقائي السيدة تشانغ في الحديقة في بحر الأسبوع، لا يتطرق حديثنا إلى اللحظات المرتبكة التي أعقبت النخب الذي رفعته يوم رأس السنة، لكن حقائق غير منطوقة تملأ ذهني. لقد وقعت في حب جين، لكنني لست واثقة بأنه يبادلني المشاعر نفسها. أستطيع أن أحاول حماية قلبي بالقول إنني لا أريد رؤيته أو رؤيتها من جديد. لكن، ماذا سيحل بي؟ وحدة قاتلة على الفور.

أود إطالة أمد هذه المشاعر إلى أقصى ما أستطيع حتى إن كانت ستسبب لي ألمًا في المستقبل.

عندها، أتذكر آما. قبل سنتين من الآن، أو بعد قرابة عشر سنين من موت سان-با الرهيب، قالت لي آما محذرة: «لا يجوز أن تظلي وحيدة». قالت أيضًا إن عليَّ ألا أترك ذكريات الماضي تحيلني إلى شخص لا أعرفه. أظن أن هذا برهان على أنني لم أفعل ذلك، فها أنا لا أزال حمقاء طائشة كعهدي دائمًا. لكن آما قالت لي أيضًا: «سوف يعثر عليك شخص مناسب ويحبك». عليَّ الآن تصديق أن هذا قد حدث لأن جين لن يتردد لحظة عندما يدرك ما يحسه نحوي. ماذا لو طلب الزواج بي وذهبنا إلى قرية بئر النبع وأحبه آبا وآما وتزوجنا في حفل زفاف على طريقة الأكها... الزفاف الذي كان ينبغي أن يكون لي قبل سنين طويلة؟ ماذا لو عدنا إلى غوانزو وعثرنا على شقة نسكنها معًا؟ بالتأكيد، لن تكون لديه قوس،

لكن... ما حوائجه الأخرى التي سيأتي بها إلى بيتنا؟ وكيف ستمضي حياتنا؟ ماذا لو أنجبنا طفلًا؟ يكفي أن أفكر في هذا...

ألا ترين؟... أنت حمقاء متهورة.

*

يأتي يوم السبت، أعمل في سوق الشاي، لكن عقلي في مكان آخر. اليوم يعود جين، وقد اتفقنا على اللقاء هذا المساء في مقهانا المفضل في جزيرة شاميان. متجري مزدحم أكثر من أي وقت مضى. أعمل، وأصب الشاي، وأزنه، وأبيع، وأستمع إلى الأحاديث الجارية بين ضيوف الشاي الثلاثة الأثيرين عندي. يفاخر السيد لين بكثرة ما خزنه من شاي بيوَّر المعتق اثني عشر عامًا. يشير إلى شاشة اللابتوب. «تعالوا وانظروا كم جنيت من المال بين عشية وضحاها؟».

ويقول السيد تشاو: «على الورق فقط».

ويمازحه السيد كوان: «تعني على الشاشة فقط». ثم ينتقل حديثهم، كعادتهم دائمًا، إلى حجم أقبيتهم المضبوطة درجة حرارتها. هذا يوم عادي لولا أفكاري عن جين التي تحول بيني وبين مشاركتهم ثرثرتهم.

يظل نهاري ماضيًا على منواله المعتاد إلى أن يدخل المتجر زبونان جديدان. ينتزعني أكبرهما سنًّا من أحلام اليقظة. إنه السيد هوانغ! وإلى جانبه صبي في سن المراهقة. لا بد أن يكون هذا الصبي ابنه. جيان-رونغ. انقضى أكثر من عشر سنين مذ رأيتهما آخر مرة. لو رأيت السيد هوانغ في أي مكان لعرفته، لكنه لا يبدو اليوم شديد الاختلاف عن الرجال الآخرين الذين يدخلون متجري. لا تزال علامات حسن التغذية ظاهرة

عليه. لكنه مرتدٍ الآن بنطلونًا أبيض اللون وقميصًا مخططًا وحذاء جلديًا أبيض. والصبي يدخل متلكئًا، عيناه إلى الأرض - نحيل، أشعث، على وجهه كثرة من بثور حب الشباب. لا يعرفاني... بالطبع! لكن رؤيتهما تعيد إلى ذاكرتي إخفاقاتي كلها، أمًّا، وزوجة، وواحدة من الأكها: بيعي أوراقًا من الشجرة الأم، وتركي ابنتي، وإدمان سان–با وموته.

يقول السيد هوانغ: «أبحث عن شيء فريد حقًّا. كلما كانت أوراق الشاي نادرة وكلما كانت معالجة بطريقة فنية أكثر، كان ذلك أفضل». يبرهن على أن رغباته لا تزال مثلما كانت.

ينبري رجال الشاي الثلاثة إلى إجابته.

يقول السيد لين متشدقًا: «لديَّ شاي مقطوف من أشجار عمرها ألف سنة».

يمضي السيد تشاو خطوة إضافية: «لديَّ أوراق شاي مقطوفة من شجرة واحدة عمرها ألف سنة».

في وسع السيد كوان أن يزايد عليهما: «اشتريت من فلاح في مقاطعة فوجيان أوراق شاي قطفتها قرود مدربة».

يظهر على وجه السيد هوانغ تعبير مرتبك. ينقر على طاولتي بأصابعه طالبًا الانتباه: «هل عند أي واحد هنا أوراق شاي قطفتها شفاه عذارى أكدت شهادة طبيب عذريتهن؟»

يتبادل الرجال الثلاثة في ما بينهم تمتمات خفيضة. من منا لم يرَ مقالات على الإنترنت تتحدث عن هذا الشاي؟ لا يتعين أن تكنّ عذارى فحسب، لكن ينبغي أن تكون أثداؤهن كبيرة. بل إن من تلك الروايات

ما يزعم أن الفتيات ينمن واضعات أوراق الشاي على صدورهن كي تبثن فيها حيوية وإثارة.

يقول السيد لين ساخرًا: «ما من أحد يصدق تلك القصص. إن كنت تصدقها، فهذا يعني أنك مخدوع. أرجو ألا يسوءك كلامي. حتى أنا تورطت ذات مرة فاشتريت شايًا زائفًا من بائع يزعم أن ذلك الشاي آتٍ من أشجار شاي في الغابة، لكنها لم تكن كذلك، ولم تكن مخمرة تخميرًا طبيعيًّا، بل مخزونة في بيئة شديدة الرطوبة والحرارة كي تكتسب اللون المناسب. لكنها لم تكتسب ذلك المذاق العميق. علينا أن نتذكر دائمًا ما قاله لنا معلم الشاي العظيم لو وو منذ ألف وثلاث مئة سنة: *الفم وحده من يقرر جودة الشاي وطيب طعمه*».

يتدخل السيد تشاو: «كيف يتحقق المرء... ذلك هو السؤال! هل يقول البائع الحقيقة في شأن مزايا شايه؟ وهل ورق الأرز المغلف به الشاي ورق أصلي؟ لكن، مثلما يقول السيد لين، عليك أن تقرر من خلال المذاق. وسوف يخبرك جسدك. إذا لم يكن المذاق صحيحًا، فالشاي غير صحيح».

يخلص السيد كوان إلى نتيجة مختصرة. «على الشاري أن يكون منتبهًا!».

يضحك السيد هوانغ فتعيدني ضحكته أعوامًا كثيرة في الماضي. يستجيب جلد ذراعي فينكمش من غير قدرة على ضبطه وكأني دست على أفعى البامبو السامة. هذا الرجل تجسيد مادي لأخطائي كلها حتى إن لم يكن مذنبًا في كل أمر أربطه به.

يقول السيد هوانغ: «أحب الرجال الحكماء. كل ما سمعته منكم صحيح. نحن مثل جامعي الأعمال الفنية، أليس كذلك؟ نتذوق الشاي كل يوم. ويعرف كل منا أنواع الشاي التي عنده. لا يصدق أحد حكاية أوراق الشاي التي قطفتها شفاه العذارى لأن الصين، هذه الأيام، ما عاد فيها عذارى أبدًا!».

يرفع ذقنه وهو يسألني: «هل تشكين في كلامي عندما أقول لك إنني كنت أول من عاد إلى طرائق الصناع القديمة في معالجة شاي بيوَّر؟».

تتسع عينا جيان-رونغ كأنه سمع هذه القصة ألف مرة من قبل، لكن السيد لين يجيبه بعبارة لا معنى لها: «أمر لافت جدًّا». ثم يضيف بعد أن يعجز عن كبح فضوله: «أخبرنا بالمزيد!».

يقول السيد هوانغ: «إن كنت ذواقة حقًّا، فقد سمعت ما قلته. لقد بدأتُ عهدًا جديدًا... من أجل العودة إلى صنع الشاي بعلامة تجارية خاصة». يسأله السيد تشاو بقدر واضح من الإجلال: «هل أنت السيد لو الذي ابتكر شاي «بسيط وأنيق حقًّا»».

يختفي صوت السيد هوانغ الصادح، وتتهدل كتفاه. ثم تستعيد عيناه تلك النظرة الفولاذية التي أتذكرها جيدًا: «أنا والسيد لو كنا في جبال الشاي في الوقت نفسه تقريبًا. أوراق الشاي التي استخدمتها كانت، بدورها، من أشجار لم تُقطف أوراقها مدة أربعين عامًا...»

يقول السيد لين مناكفًا: «هل قطفتها عذارى أم قرود؟».

يتوتر السيد هوانغ توترًا واضحًا. ليته يخرج من متجري كي يحل الهدوء من جديد!

«الشاي الذي ابتكرته شاي من نوع خاص، قوي جدًّا...»

يقاطعه جيان-رونغ متحدثًا بإنجليزية لا شائبة فيها: «بابا!» ثم يخاطب الآخرين قائلًا: «من فضلكم، سامحوا أبي».

«نحن أيضًا لدينا قصصنا». يقولها السيد لين بطيبة قلب. يضع يدًا على كتف صديقه ويدًا على كتف صديقه الآخر... «هيا، فلنترك هذين الغريبين يتابعان عملهما مع صبيّتنا».

أرجوهم أن يبقوا، لكن رجال الشاي الثلاثة يجمعون الهواتف واللابتوبات والفناجين.

يعلن السيد تشاو: «نعود بعد الغداء». لعله يقول هذا كي يحذر السيد هوانغ وابنه أو كي يطمئنني، لست أدري.

فور خروجهم، يلتفت جيان-رونغ في اتجاهي: «أعتذر عمّا بدر من أبي. إنه مثل ذلك الصياد الذي ترك سمكة كبيرة تفلت منه. بالنسبة إليه ما من شيء مهم غير السمكة التي أفلتت. منذ أن صنع مزيج الشاي الأول، صار يسافر كل سنة إلى جبال الشاي محاولًا إعادة تركيب شاي بعينه لم يصنع منه إلا قالبين اثنين...»

يقاطعه السيد هوانغ: «لكن مكونًا خاصًّا كان ينقصني دائمًا... أوراق الشاي من بستانك».

تسري القشعريرة في ظهري. يعلمان من أكون، منذ البداية.

أسأله: «كيف علمت أنني هنا».

يضحك السيد هوانغ: «عدت الربيع الماضي إلى قريتك. ألم تخبرك عائلتك. لديَّ أيضًا صديق قديم. إنه معلم الشاي سون».

تنقبض معدتي. هل عاد إلى بئر النبع؟ وهل يعرف معلم الشاي الذي كان أستاذي؟ ظننت أن معلم الشاي سون تذوق شاي السيد هوانغ من غير أن يعرف الرجل نفسه.

يقول جيان-رونغ: «لا تنزعجي من أبي، يا خالتي». يقول هذا بالإنجليزية لكنه يخاطبني بكلمة خالتي... «لقد أخطأ فباع القسم الأكبر من قوالب الشاي التي صنعها في جبل مانوو. اشتراها منه جامع شاي كوري. هل تتخيلين ما قيمتها الآن؟ سأقول لك: ألف وثلاث مئة ألف دولار للقالب الواحد».

وااااو!

يتابع جيان-رونغ: «انسي أمر الصياد. أبي مثل آهاب في بحثه عن حوتِه»[1].

لا بأس! هذا يلخص الأمر كله.

أود أن يخرجا من متجري. عرق تحت إبطي. أبذل الجهد كي لا أرتعش، لكني أرتعش. الغرفة غير كبيرة، وثلاثتنا واقفون معًا: الرجل الذي ينظر إليَّ، والصبي الذي أحرجه سلوك أبيه، وأنا التي صرت أحس الآن أنني عدت فتاة القبيلة الجبلية غير المتعلمة، فتاة لا أهمية لها، «تو». لكني لا أدفعهما إلى الخروج بل أقرر أن أبدو ودودًا، متعاونة.

أقول لهما محاولة أن يظل صوتي ثابتًا: «اجلسا، من فضلكما. وسوف نتناول بعض الشاي». أشير إلى المقاعد أمام طاولة الشاي.

---

(١) الكابتن آهاب: إشارة إلى الكابتن آهاب بطل رواية «موبي ديك» لهرمان ملفيل (١٨٥١).

نمضي بعد ذلك ساعتين في شرب الشاي وتبادل الأنباء، بحسب تعبير السيد هوانغ. لا يزال يعيش في هونغ كونغ، لكن لديه مشاريع بناء كثيرة في غوانزو، ولهذا السبب لديه شقة هنا. لقد أرسل ابنه إلى مدرسة أندوفر في أميركا حيث كان واحدًا من طلبة أجانب كثيرين في تلك المدرسة. يقول السيد هوانغ شاكيًا: «لكن الفتى وقع في حب فتاة بيضاء، فكنت مضطرًّا إلى إعادته إلى البلاد. هو الآن في المدرسة الأميركية الدولية في هونغ كونغ. (ألا يدرك السيد هوانغ أن ابنه ستكون أمامه فرصة مماثلة للوقوع في حب فتاة أجنبية في المدرسة الأميركية)... «إنه في المرحلة الثانوية. عمره الآن سبعة عشر عامًا. نأتي مساء كل يوم جمعة على متن الهيدروفيل كي نمضي عطلة نهاية الأسبوع وكي نستطيع تعليمه أصول العمل الذي سيرثه ذات يوم».

لا يبدو الفتى المعني مهتمًا بهذا الأمر أكثر من اهتمامه بحفر الخنادق.

يذكر جيان-رونغ قولًا مأثورًا يقوله بلغة الأكها: *«الحصان الذي لا يُركب يصير كسولًا»*. لا يزال صوته يبدو لي ضجرًا، لكن عيناه تشرقان أول مرة منذ دخوله متجري، تشرقان وتتلألأان لتواصلنا السري هذا... *«إن كان الفتى من غير مهارات فسوف يواجه المصاعب»*. «هذا صحيح في العالم كله، أليس كذلك، يا خالتي؟».

يعجبني كثيرًا سماع لغة أكها من فمه، ويسرني أنه لا يزال محتفظًا بما تعلمه عندما كان صغيرًا. في المستقبل، إن زاراني من جديد (أعرف مدى إصرار السيد هوانغ وأتوقع أن يعود يوم السبت القادم، ويوم السبت

الذي بعده)، فسوف تكون لدينا، أنا وجيان-رونغ، سبيل للتواصل من غير أن يفهم والده ما نقول.

يتجاهل السيد هوانغ ابنه ويقود الحديث إلى ذكريات جبال الشاي وكيف كان الأمر عندما ذهبا إلى قرية بئر النبع أول مرة. في الظاهر، يبدو كل شيء مهذبًا، يسيرًا، لكن الوضع كله مقلق. يحاول السيد هوانغ استجوابي في شأن علاقاتنا المشتركة: لماذا لم أعلم أنه ذهب ربيع السنة الماضية واشترى الشاي من آبا وإخوتي؟ وما هو رأيي في شاي بيوَّر الشهير الذي صنعه السيد لو؟ ولماذا أظن أن معلم الشاي سون لم يخبرني شيئًا عن أنهما على معرفة تجمع بينهما منذ سنين طويلة، منذ الفترة التي أمضياها معًا في أعلى دوائر ذواقة الشاي؟

يقول لي واثقًا بأن هذا الأمر يهمني: «فتحت واحدًا من قالبي الشاي اللذين صنعناهما معًا من أوراق الشاي الخاصة التي جئت بها، هل يهمك أن تعرفي ما وجدت؟».

أرفع ذقني متظاهرة بقلة الاكتراث.

«تخللت القالب كله خيوط صفراء...»

لا بد أن تلك الخيوط من الشجرة الأم قد نمت وانتشرت. لكن ما يفاجئني أكثر من ذلك هو أن هذا ما قالت لي آما إنه موجود في قالب الشاي الذي رافق ابنتي.

«والرائحة كانت...» يخفت صوته قليلًا... «سماوية».

لا أستطيع الامتناع عن سؤاله. «كيف كان المذاق؟».

يطلق ضحكة من أعماق بطنه. «لم أشربه!». هذا ما تناقلته الشائعات

مثلما قال لي معلم الشاي سون أثناء مقابلتي، لكني وجدته أمرًا غير مفهوم إلى أن واصل السيد هوانغ كلامه... «أعدته إلى غلافه من جديد. هذا ما تفعلينه بالذهب، أليس كذلك؟».

يلتفت إلى ابنه ويداعب خده مداعبة لطيفة، ثم تستقر يده على كتف الصبي. أتذكر كيف كانت آما تقول دائمًا إن السيد هوانغ يحب ابنه كثيرًا، لا يزال هذا واضحًا.

لكن جيان-رونغ صار الآن في سن لا تلائمها هذه الرقة الأبوية. ينتظر دقيقة أو اثنتين قبل أن يتزحزح مبتعدًا عن لمسة أبيه الحانية. من نواحٍ كثيرة، أرى أن هذا الصبي الذي لم يتشكل بعد ولم يكتمل نموه أكثر تقدمًا من والده في ما يتصل بالشاي. قدرته على تذوق أنواع الشاي التي أصبها لهما رفيعة إلى حد غير مألوف. وفي نهاية الزيارة، عندما يذهب والده إلى دورة المياه التي في آخر الممر، يسألني جيان-رونغ إن كان في وسعه أن يعود إلى زيارتي (من غير والده). يقلقني سماع هذا. ثم يعود السيد هوانغ بخطوات سريعة في الممر ذي الإنارة الخافتة، وهو يتفقد سحاب بنطلونه بحركة عفوية، وينظر إلى واجهات متاجر جيراني المنافسين. يصير رجاء جيان-رونغ ملحًّا. «أرجوك، يا خالتي! من فضلك، اسمحي لك بزيارتك! سوف نتحدث بلغة الجبال ونعبر عن صداقتنا من خلال شرب الشاي».

أحسه وحيدًا، هشًّا، فأوافق على طلبه خلافًا لما أظنه أصلح لي.

*

المترو مزدحم، لكني أحس ازدحامه خانقًا أكثر من المعتاد وأنا ماضية إلى الموقف القريب من جزيرة شاميان. أسير وحيدة إلى المقهى كي ألتقي جين، وأبذل جهدًا كي أضبط جماح مشاعري. السيد هوانغ ... لماذا أتى إلى متجري؟ أصير قريبة من المقهى وأرى جين جالسًا إلى طاولتنا المفضلة تحت المصابيح الملونة وأمامه فنجان شاي واحد. أنظر إليه. إنه الأمر الوحيد الذي أستطيع فعله كي لا أجري إليه ملتمسة السلوى. بدلًا من ذلك، أستنشق نفسًا عميقًا كي أهدئ من روعي، كي أضيف لبنة جديدة إلى الجدار الذي يخفي أسراري. أحاول أن أجعل وجهي موحيًا بتعبير آمل أن يكون تعبيرًا سارًّا. ينهض واقفًا عندما يراني ويضع نقودًا على الطاولة، ثم يخرج من باب المقهى قبل وصولي إليه. يلاقيني.

يقول لي بصوت جاد: «لي-يان، هلَّا أتيت معي؟» عقلي مضطرب كثيرًا. تلقائيًّا، أظنه سيقول لي إنه ما عاد راغبًا في رؤيتي. نسير معًا، جنبًا إلى جنب. أحاول أن أحفظ هذه اللحظة في ذاكرتي: علو كتفه فوق كتفي، وحافة سترته تمس سترتي أحيانًا أثناء سيرنا، وصوت خطواتنا على الرصيف، وحفيف الأشجار فوق رأسينا.

وعندما أراه يعبر بوابة حديدية ويدخل فناء بيت، أعثر في نفسي على قدر من القوة كي أناديه: «انتظر، لا يمكنك الذهاب هناك!».

لا يرد بشيء، ولا يلتفت إليَّ. بدلًا من ذلك، أراه يسير بخطوات واسعة في الممر الذي تحف به الزهور من الجانبين، ثم يصعد درجات شرفة فيلا على الطراز الاستعماري أبديت إعجابي بها في وقت مضى

على الرغم من وضعها المتهالك. أرى الآن أن طبقات الطلاء المتقشر قد أُزيلت وحل محلها طلاء أصفر اللون، وأرى على النوافذ مصاريع جديدة وأفاريز بيضاء لامعة. يفتح جين باب البيت ويمد يده مستحثًّا إياي على الانضمام إليه. لا بد أنه مدرك ما يفعله. أقول هذا في سري - لكن في نفسي خوف من احتمال اعتقالنا لأننا نقتحم أملاك الغير.

أصل إليه فيمسك بيدي ويجذبني عبر باب صغير فندخل غرفة كبيرة إلى يميننا مطلة على الحديقة وعلى الممر ذي الزهور. أتملى التفاصيل كلها في لحظة واحدة: زهور شذية قُطعت منذ آونة وجيزة أراها في زهريات من الكريستال. وسجادات من حرير يدوي صيني عليها رسوم متداخلة. ومصابيح تقليدية على الطاولات الصغيرة مع إضاءة مخفية تخلق جوًّا لطيفًا. زوج من لفافات الأسلاف التقليدية معلق على الجدار. والجدار المقابل عليه لوحات صغيرة عن الحياة في المدينة، لوحات لا بد أنها مرسومة منذ بُني هذا البيت أول مرة.

«ما هذا المكان؟» ... يرتعش صوتي... «وماذا نفعل هنا؟».

يجيبني: «على امتداد شهور، زرنا بقاعًا كثيرة في الريف وفي أحياء المدينة. جعلتك ترين حدائق الفيلات والشقق المحاذية للنهر، لكنك بدوت لي دائمًا أشد إعجابًا بهذه الجزيرة الصغيرة. لذلك، اشتريت هذا البيت منذ فترة. ثم عملت بعد ذلك على ترميمه. آمل أن نكون سعيدين هنا».

أنا في دهشة شديدة -بل هي أكثر من دهشة- فلا أستطيع كلامًا. صمتي المرتبك يجعل لمحة شك تظهر على وجهه. أراه يشد على أسنانه.

يقول من غير مقدمات: «لي-يان، أطلب أن تتزوجيني. ما أعنيه هو، هل تقبلين الزواج بي؟»

أجيبه من غير تردد: «أجل... سوف أذهب كي أعمل وآكل معك».

نتبادل قبلة. تدوّخني مشاعري وتنهار الجدران التي بنيتها من حول قلبي كي أحميه. وعبر هذا المزيج الفوضوي من التشوش والفرحة، أفلح في صوغ فكرة واضحة.

«وعدت نفسي يومًا بألّا أتزوج إلا إذا رأى أبي وأمي زواجي مناسبًا». لا أنطق كلمة «مجددًا» لأنني كنت أريد القول «ألا أتزوج مجددًا...». لا يمكن أن يدرك جين هذا الأمر، لكن نصلًا من إحساس بالذنب يخترق سعادتي. قبل أن يتمكن هذا الإحساس من الطغيان عليَّ، يضع جين بين يدي رزمة كبيرة ثقيلة إلى حد مفاجئ ملفوفة بقماش بيتي الصنع نيلي اللون.

يقول لي: «افتحيها. مباركة والديك موجودة فيها».

أفك طبقات النسيج وأجد غطاء رأس مزينًا بحلي أعرفها على الفور: سمكة فضية من الكنة الأولى، وخيط من كرات فضية بحجم حبات البازلاء من الكنة الثانية، وسرب فراشات من تطريز الكنة الثالثة الأنيق، وقطعة نقود معدنية من آما، ومعها ريشات وكرات ملونة من صوف. أجد تحت غطاء الرأس ملابس زفاف تقليدية مطوية: تنورة، وسترة، وبنطلون، وبكلة حزام، قرطين، ولوحة للصدر، وعقدًا. لعل هذا كله يزن أكثر من خمسة عشر كيلوغرامًا من الفضة (أثقل كثيرًا جدًّا مما تلقيته عندما تزوجت سان-با). أحاول استيعاب هذا كله، لكن جين لا يزال ماضيا في كلامه.

يبدأ بالقول: «كذبت عليك في بعض الأمور. أنا ثري مثلما ترين. لكني لم أقل لك هذا لأنني أردت أن تحبينني لشخصي لا لمالي فقط. لكن هذه ليست كذبتي الوحيدة. لم أكن في لوس أنجلوس خلال عطلة نهاية الأسبوع. كنت في بئر النبع».

يلتهب خداي حرجًا عندما أتخيل وجوده في قريتي المتخلفة.

يتابع كلامه غير آبهٍ بخجلي الواضح: «لم تكن تلك زيارتي الأولى. ففي السنة الماضية، سافرت أربع مرات إلى بئر النبع كي ألتقي أسرتك وأطلب الموافقة على زواجي بك». يتوقف لحظة كي أستوعب كلماته. ثم يقول: «وكان والدك يقول لي دائمًا أن أعود مرة أخرى».

أغطي عيني بكفي وأهز رأسي: «هذا كثير جدًّا».

«أرادوا أن أثبت لهم أنك سعيدة. أخذت إليهم صورًا التقطتها لك. لم أكن لأقبل الرفض. وقد التقيت أيضًا ذلك الشخص... ماذا يدعونه؟ الشخص الذي يختار التواريخ الميمونة... مثل العرّاف في قصة فينغ شوي!»[1].

«إنه الروما».

«لقد حدد لي تاريخًا».

يعني هذا أن جين يخطط لهذه اللحظة منذ أمد بعيد جدًّا...

يقول: «هذا ليس كل شيء. الظاهر أنه لا بد من عمل تعويذة للأرواح من أجلي. لم يوضح لي أحد سببًا لهذا الأمر، لكنه كان مشتملًا

(١) فينغ شوي: ابتكار من أصل صيني قديم يُزعم أنه يستخدم قوى الطاقة كي يجعل الأفراد متناغمين مع محيطهم.

على ذبح دجاجة وعنزة وتناول قطعة نقود معدنية قديمة من يد إلى يد. ما معنى هذا؟». إنه يسألني صادقًا.

«هل يطلبون منا أن نذهب إلى قريتي من أجل زفافنا؟». أفلح في نطق كلمة «زفافنا» بصوت مخنوق لأنني لن أوضح له الآن أن ثمة طقسًا خاصًّا لا بد من أدائه عندما تتزوج أرملة مرة أخرى كي لا تصير حياة الزوج الجديد قصيرة. تضاف العنزة لحماية الزوج الجديد عندما يكون زوج الأرملة السابق قد مات ميتة رهيبة.

«كانت لدى أمك فكرة مختلفة. الظاهر أنها سمعت بشهر العسل». يقول هذا باسمًا... «قالت إنك قد تكونين راغبة في شهر عسل في أميركا. انتحت بي جانبًا كي تقول لي هذا عندما زرتهم أول مرة». يبتسم ابتسامة عريضة هو يخبرني بهذا.

يعني هذا أنه أعجبها منذ البداية... هذا هو السبب في أن لديَّ الآن ثوب زفافي ولديَّ الآن جواز سفر وتأشيرة... لكن هذا يعني أيضًا أنها تعمدت أن تذكرني بابنتي، يان-يه...

يقول لي: «جعلتني أمي أحبك حتى قبل أن ألتقيك. وبعد ذلك، عندما رأيتك أول مرة جالسة معها على ذلك المقعد، كنت جميلة جدًّا، بل حتى أجمل مما قالته لي أمي».

«جميلة!؟». نحن الأكها لا نستخدم هذه الكلمة في وصف الناس. هذه أول مرة يقال لي إنني جميلة. *جميلة!*

«أعجبت أمي بك لأنها رأتك صادقة ولأنها رأتك مجدة في العمل. أرجو أن تغفري لي كذبي. أعدك بأن هذا لن يتكرر».

أعض على شفتي كي أحبس مشاعري. كان يخفي عني أسرارًا، لكن ذلك نابع من لطفه ومن طيبته. وأما أنا... كيف استطعت أن أقول له نعم مع أنني لا أستحقه؟ أخفض رأسي وأرخي العنان لدموعي. يجذبني بين ذراعيه. لعله يظن أن السعادة قد طغت عليَّ. أسند رأسي إلى سترته الناعمة. أحس دفء جسده ونبض قلبه. أسمح لنفسي لحظات قليلة بأن أتمتع بما كان ممكنًا أن يكون. ثم أرغم نفسي على الابتعاد. لا أستطيع أن أمضي إلى زواجي حاملة أسراري مهرًا وحيدًا لي.

أقول له: «أحبك. وأحب أن أتزوجك. لكنك قد لا تكون راغبًا في الزواج بي عندما تعلم حقيقتي».

«لن يستطيع التقليل من شأنك في نظري أي شيء تقولينه لي».

«أنت لم تسمع قصتي بعد».

نجلس على الأريكة، نجلس متقابلين. جين يمسك يدي. أبدأ كلامي مترددة. أبدًا بأهون خطاياي وأقلها إدانة لي: نكثت بوعدي لآما ألّا أبيع أوراق الشاي من بستاني الذي لا يجوز استخدامه إلا لغايات طبية ولا يجوز أن تذهب أوراقه إلى أي رجل، وذلك خاصة إلى رجل مثل السيد هوانغ. يتقبل جين هذا الأمر من غير صعوبة ويقول: «كنت صغيرة، وكنت فقيرة. لقد أخطأت. يبدو لي أن الشجرة الأم لم يصبها أذى دائم». بعد ذلك أحكي له قصة زواجي وترمّلي. تتسع عيناه دهشة مع كل تفصيل جديد. يلزمه بعض الوقت كي يستجمع شتات نفسه بعد أن أصل إلى نهاية القصة. يقول لي آخر الأمر: «أنا لم أتزوج من قبل. ولكن، هل يكون منصفًا لي أن أنظر إلى عينيك وأنكر

أنني كنت مع نساء أخريات قبلك؟ لو نشأت في جبلك، لكنت قد تزوجت أيضًا».

أقول: «مهما يحدث بعد الآن، أود أن تعلم أنني سأراك على الدوام رجلًا محترمًا». يشد على يدي، يمنحني قوة... «لقد حملت قبل زواجنا، أنا وسان-با. ولم أدرك ذلك إلا بعد سفره إلى تايلاند. يعني هذا أنه لم يعلم بالأمر. ولدت سرًّا وتركت طفلتي. وعندما عاد سان-با إلى جبل مانوو. كانت أسرة من أميركا قد تبنت ابنتنا». يفلت جين يديّ بحركة بطيئة، ثم ينهض واقفًا ويعبر الغرفة إلى النافذة. يظل موليًا إياي ظهره كأنني غير موجودة. لست ألومه. أتنهد وأنهض كي أذهب.

يسرع إليَّ قائلًا: «انتظري!». أرى دموعه منسابة على خديه. يمسحها بحركة خشنة. «أنت شجاعة جدًّا، يا لي-يان. شجاعة أكبر كثيرًا من شجاعتي. لكل منا أسراره، لكنك امتلكت شجاعة لأن تكوني صادقة معي». معاناته واضحة... «غلطة واحدة قد تغيّر مجرى حياتك كلها. لا تستطيعين العودة إلى دربك الأصلي ولا تستطيعين العودة إلى الشخص الذي كنته».

«هذا ما أحسه دائمًا. لو لم أتناول تلك اللقمة من فطيرة سان-با... لو استمعت إلى نصيحة آما عندما قالت إنها لا تريد أن أواصل رؤيته... لو لم أسمح لأفكار زائفة عن المستقبل بأن تغريني ببيع أوراق شجرتي للسيد هوانغ...»

«لكنك لم تفعلي شيئًا أفضى إلى موت إنسان». يتوقف لحظة كي يتأكد من أنني منتبهة تمامًا... «أنا مسؤول عن موت أبي».

أسأله حائرة: «كيف تقول هذا؟ مات والدك بعد إصابته بالتهاب رئوي. كنت طفلًا عندما مرض...»

«لعلك تستطيعين أن تفهمي قليلًا كيف كان الأمر بالنسبة إلى أبي وأمي. ذهبا من غوانزو إلى قرية في مقاطعة آنهوي اسمها «بركة القمر». يا له من اسم جميل! لكن لا شيء هناك غير الظلمة. لقد ولدت هنا، وعشنا في كوخ من غرفة واحدة، كوخ مبني من طوب طيني. كان ذلك الكوخ أشد بؤسًا من أي شيء رأيته في قريتك».

تلسعني جملته الأخيرة خاصة أنه لم يرَ بئر النبع قبل كل ما شهدته من تغيرات. لكن هذا ليس وقت الإحساس بالإهانة.

«فقد أبي وأمي منصبيهما وملابسهما وأوراقهما وصورهما وأصدقاءهما وكل شيء. كان الأثر الوحيد من الماضي الذي حملاه معهما هو خمسة من كتب أبي الفلسفية خبأاها تحت اللوحة الخشبية التي كانت سريرًا لنا. تعلمت أمي كيف تأتي بالماء، وكيف تغسل الملابس بيدها، وكيف تصنع لأحذيتنا نعالًا من أي قصاصات ورق تستطيع العثور عليها. كان أبي يجمع فضلات أسر مختلفة وينثرها في الحقول. ألمّ بهما ضعف نتيجة مشقة العمل تحت شمس لا ترحم أو نتيجة البلل حتى العظام في موسم الأمطار. أبكر ذكرياتي هي إصابتي بالزحار لأن مياه الشرب كانت غير نظيفة. مرضنا جميعًا». يصمت لحظة ثم يسألني: «ماذا تتذكرين من الثورة الثقافية؟».

أجيبه بصوت خافت: «كانت ولادتي بعد وقت قصير من نهايتها. ثم إنا كنا فلاحين أصلًا. أسرتي وأسر الجيران كلها عاشت تلك الحياة

دائمًا. لكن لي صديقًا اسمه المعلم زهانغ. لقد أرسلوه إلى جبل مانوو. لقد عانى...».

يكرر الكلمة من بعدي. «عانى! للمعاناة أشكال كثيرة. الجوع. البرد. الخوف. الألم الجسدي والألم النفسي. وقد كان أهل القرية سيئين معنا. كانت تسنح لهم فرصة كل يوم كي يعذبوننا. لكن وحدة من الحرس الأحمر كانت تزور القرية أحيانًا. كانوا يرغمون القرية كلها على الاجتماع كي تشهد عقاب والديَّ وإهانتهما أمامها. اضطرا إلى احتمال جلسات «نقد ذاتي» كثيرة ما عدت أتذكر الكثير عن أبي إلا أنني كنت أستيقظ أحيانًا في وقت متأخر من الليل فأراه يقرأ في واحد من كتبه على ضوء مصباح الزيت. يسرع إلى إغلاق الكتاب، ويعيده إلى مخبئه، ويقول لي: «أنت تحلم، يا ولدي. عُد إلى نومك الآن، وانسَ كل شيء!»».

يلوذ جين بصمت كئيب. أخمن اتجاه قصته، لكن هذا لا يسهل عليَّ سماعها.

يستأنف كلامه أخيرًا: «عاد الحرس الأحمر من جديد بُعيد عيد ميلادي الخامس. كانوا شبابًا في مقتبل العمر. هل تعلمين هذا؟ كانوا يلعبون معي. أعطوني حبة سكاكر... أول حبة سكاكر أتذوقها. ظننت أنهم يحبونني. سألوني إن كان أبي وأمي يخفيان أي شيء، فتطوعت متحمسًا وقلت لهم ما أعلمه. بعد ذلك، جرّوا أبي إلى خارج البيت، وجعلوه يركع على زجاج متكسر. قيّدوا ذراعيه إلى الخلف في وضعية الطائرة وبعد ذلك، راحوا يضربونه بالعصي. مزقوا صفحات كتابه ثم أحرقوها. جعلوني أقف أمامه دائمًا حتى يعلم أنني وشيت به».

«كنت في الخامسة من عمرك. كنت صبيًّا صغيرًا...».

يسألني بصوت معذّب: «ولكن، أي ابن يفعل هذا؟ لقد حطمت قلبه وحطمت فيه إرادة الحياة وإرادة الكفاح من أجلنا. وأما البقية، فهي مثل ما حكت لك أمي. أصابه التهاب الرئة، وكان موته سريعًا جدًّا».

يؤلمني قلبي حزنًا عليه. أقول له محاولة مواساته: «كان ذلك زمنًا شيطانيًّا كله أشخاص سيئون جدًّا. وأنت كنت طفلًا صغيرًا. لقد خدعوك. حدثت هذه المآسي مع أشخاص أكبر منك كثيرًا وأعلم منك كثيرًا. لا تستطيع أن تلوم نفسك».

لكنه يستطيع، بالطبع! يستطيع لأنني بدوري لمت نفسي كثيرًا. أمسكه بذراعه، وتلتقي عيوننا. ما كنت أراه دائمًا في عينيه، صرت الآن أعرفه من النظر إلى صورتي في المرآة، من النظر إلى عيني في المرآة، ألم وإحساس بالذنب.

أقول له: «قلت لي قبل قليل إن غلطة واحدة يمكن أن تغير حياة المرء طوال عمره. يبدو لي أن هذا قد غيّر حياتك. أعلم أنه قد غيّر حياتي. ولكن، ماذا لو كانت هذه فرصة لأن نفعل شيئًا صائبًا؟ ألن يضعنا هذا على درب جديدة كليًّا؟ ... دربٍ جيد؟ بل لعله يكون دربًا سعيدًا! هل أنت باقٍ على استعدادك لأن تتزوجني؟».

*

تستلزم حياتي الجديدة تكيّفي مع مفاجآت متتالية. نذهب في اليوم التالي إلى المطار كي نستقبل سي-ته التي وافقت على ترك زوجها وبناتها

مدة شهر كامل كي تهتم بمتجري أثناء سفري في شهر العسل. رتّبت سي-ته أمر حصولها على أحدث دفعات الشاي التي أنتجتها أسرتي، فضلًا عن كيلوغرامات كثيرة من شاي بيوَّر من لاوبانزهانغ التي أُرسلت مباشرة إلى متجري. فكيف كان انطباعي عندما رأيتها أول مرة بعيدًا عن قرية بئر النبع؟ بدينة و«تو» بثياب على النمط الغربي لا تلائمها وأكياس منتفخة كثيرة متدلية من ذراعيها مصنوعة من شِباك بلاستيكية حمراء وبيضاء وزرقاء. تلتقط سي-ته حكمي السلبي عليها إذ تراه في نظرة عيني فيكون أول ما تقوله لي: «أنا أول شخص من جبل مانوو يسافر بالطائرة». إن بيننا صداقة طويلة معقدة، وأنا مبتسمة ابتسامة كبيرة لفرحتي بها.

وبعد ذلك، نعرّج على والدة جين كي نأخذها معنا قبل متابعة طريقنا إلى مكتب تسجيل الزواج. أنسلّ مع سي-ته إلى حمام السيدات كي أستطيع ارتداء ملابس زفاف الأكها، وكي تستطيع أن تطرح عليَّ أسئلة كثيرة، عشرات الأسئلة: «هل جرّب زوجك الجديد أعواد الثقاب أم لم يجربها؟».

سمعت هذه الجملة آخر مرة عندما وجهها الروما إلى سان-با لأنها كانت جزءًا من طقوس زواجنا. أقول لها إنه لم يجرب شيئًا فتتسع عيناها حتى تصيرا كقصعتي حساء.

تسألني: «أليست لديهم غرفة أزهار في غوانزو؟».

لا... لكن ثمة مقابِلات كثيرة لها حيث يستطيع الشبان والفتيات والرجال والنساء أن يختلوا كي يتبادلوا الأحاديث والقبل: البارات

والنوادي الليلية وشقق الأصدقاء. أبدأ وضع أحمر الشفاه كي لا أظل مضطرة إلى الإجابة عن أسئلتها.

لكنها تظل مصرة... هذه الفضولية. «إذًا، لا بد أنكما سرقتما الحب في الغابة».

أسألها وقد بدأت أسئلتها تضايقني: «هل رأيت أي غابات هنا؟ ثم إنني أجبتك منذ قليل، لم يجرب أعواد الثقاب».

لكنها لا تكل ولا تمل. تغيّر الموضوع. «إذًا، كم هو ثري؟».

أجيبها: «ثري بما يكفي لأن يشتري لك بطاقة سفر بالطائرة».

«لم أكن في حاجة إليه كي يشتري لي بطاقة السفر. كان في وسعي أن أشتريها بنفسي. تجني أسرتي الآن ما يعادل مئة ضعف مما كنا نجنيه قبل خمس سنوات فقط. هذا كله بفضل شاي بيوَّر». تضحك غير مصدقة، على ما أظن، جنونية التغيرات التي شهدناها. لكن تشدقها بثرائها يجعلها تعود إلى موضوعها الأصلي. «حقًّا... كم هو ثري؟ هل هو مليونير؟ هل هو بليونير؟».

«لا أدري. وهذا أمر لا يهمني أصلًا». أكرر هاتين الجملتين لنفسي منذ أربعة وعشرين ساعة مضت. والحق أنني لا أمانع في معرفة الإجابة مع أن جزءًا مني يخشاها.

«أتراه يكون مستعدًّا لأن يستثمر في الأعمال معي؟».

أضع غطاء رأسي فتلاقي عيناي عيني صديقتي في المرآة. «يا سي-ته، أنتِ أصلًا تبيعين شايك من خلال متجري. هل تحاولين منافستي؟». جعلت سؤالي يبدو خفيفًا، مازحًا.

تعبس سي-ته في وجه صورتي في المرآة. آمل ألا أكون قد بالغت وأهنتها. تسألني متجاهلة سؤالي: «لماذا لا تقيمين زفافًا غربيًّا ترتدين فيه ثوبًا طويلًا أبيض؟ هذا ما أراه في المجلات. هذا ما يتمناه الجميع».

أنظر إلى نفسي في المرآة. أبدو فتية لم تترك التجارب آثارها فيَّ. هذا مقلق ومريح معًا. تذكرني ملابسي بكل ما خسرت، وبكل ما كسبت أيضًا، وبكل ما ينبغي نسيانه... وبكل ما ينبغي تذكره. أحس غرابة في الخروج والسير أمام الناس في الممر مرتدية شيئًا شديد الإيحاء بأنني من أقلية إثنية. يقلقني انتظار ردة فعل جين، لكنه يشرق عندما يراني. سروره يجعلني أشد سرورًا. يظل ممسكًا بيدي طوال الإجراءات التي تستمر خمس دقائق فقط. تمسح السيدة تشانغ عينيها بمنديل. ضحكات سي-ته أحسها خفيفة كالهواء. لا يستطيع جين الكف عن الابتسام، ولا أستطيع. وليمتنا صغيرة... أربعة أشخاص فقط نتشاطر لحظة مسرّة كبرى.

نوصل حماتي إلى شقتها. وتثرثر سي-ته الجالسة وحدها على المقعد الخلفي، تثرثر كمن أفرطت في شرب القهوة، وتشير متحمسة إلى ناطحات السحاب وأنوار النيون وسيارات الليموزين. نبلغ موقف للسيارات في فندق مجاور لسوق فانغون حيث ستنزل (يصعب كثيرًا تعليم شخص «تو» إلى هذا الحد كيف يستخدم المترو أو كيف يستوقف سيارة تاكسي) فتميل صوب المقعد الأمامي وتهمس في أذني. «قولي له أن يفتح الطريق أولًا». تعطيني نصيحتها بلغة أكها وكأنني لم أعرف جماعًا من قبل.

وبعد ساعة من ذلك، أجلس مع جين في شرفتنا المطلة على الممر ذي الأزهار أمام بيتنا الجميع. نشرب الشامبانيا. أستأذن كي أذهب لأخلع ملابسي وأرتدي قميص نوم قطنيًّا اشتريته من «سوق الليل». صرت مستعدة. أفتح باب غرفة نومنا. لقد أغلق جين مصاريع النوافذ وأشعل شموعًا. أذكّره: «أنا لست بنتًا».

يضمني بين ذراعيه. نحن لا نسرق الحب ولا نقوم بجماع... نحن نمارس الحب.

*

وبعد ثلاثة أيام، أنا في بيفرلي هيلز أتناول العشاء في مطعم اسمه «سباغو». لا أزال أجد صعوبة في استخدام الشوكة والسكين (زوجي يجد هذا الأمر مسليًا جدًّا) وأخشى أن يصيبني غثيان بعد هذه الوجبة. كل شيء شديد الغنى، كثير البقر: لحم البقر، وزبدة البقر، وحليب البقر. لماذا لا يضعون الأطباق كلها دفعة واحدة وسط الطاولة كي نتشاركها معًا مثلما نفعل في كل وجبة عادية؟ في وقت لاحق، بعد رفع أطباق الصنف الرئيسي، يأتي وولفغانغ بوك نفسه إلى الطاولة كي يصافح جين ويقبل وجنتي. يعدنا بأن يرسل حلوى خاصة غير موجودة على قائمة الطعام... اسمها «غراند مارنييه سوفليه». سأكون سعيدة إذا لم أمضِ ليلتي كلها في التقيؤ. على كل زوجة أن تتأقلم، لكن التأقلم مع هذا الطعام صعب عليَّ. لكن، ماذا عن بقية الأمور؟ واو! يعجبني هذا العالم الأميركي، يعجبني كثيرًا. واو! واو! واو!

نحن في فندق «بيفرلي ويلشاير»... فندق يبدو أمامه فندق «كينغ

وورلد» أشبه بنزل بسيط. يأخذني زوجي للتسوق في شارع «روديو درايف» حيث يشتري لي ملابس جديدة. يقول لي: «لا نريد أن يكون مظهرك كأنك نزلت من السفينة الآن». أجرّب ملابس مصنوعة من منسوجات رفيعة الجودة. حرير وقطن وكشمير. ملابس لم أعرف مثلها من قبل لكنها تلائمني على نحو لم أكُن أظنه ممكنًا. ديور. برادا. آرماني. بل إنه يأخذني إلى متجر كي أشتري ملابس داخلية وقميص نوم جميلًا جدًّا لا أستطيع تخيل أن أنام فيه. لكنه يهمس في أذني: «لا أنتظر منك أن تنامي فيه». تسريحة شعر جديدة أيضًا. وفي نهاية اليوم الأول، أبدو شخصًا آخر (أعاني كثيرًا مشكلة اختلاف التوقيت... شيء كان السياح الذين كانوا ينزلون في فندق «كينغ وورلد» يتذمرون منه دائمًا)، وجين لا يستطيع الكف عن الابتسام والقول لي: «أنت جميلة». أنا الآن امرأة متزوجة، وقد تحولت حياتي تحولًا كليًّا.

لكن هذه ليست إلا أمورًا خارجية. فأنا الآن أبدو، ونحن جالسان في هذا المطعم الفاخر، كأنني منتمية إلى هذا الجو، وأما في داخلي، فأنا أحس نفسي في غير مكاني. لعله فارق التوقيت، أو لعلها صدمة مواجهتي أشياء كثيرة جدًّا دفعة واحدة، لكني أحس بدء أسئلة كثيرة تراودني، أسئلة لا أريدها. هل أنا مضطرة إلى أن يغيرني جين هذا التغير كله حتى يحبني؟ وهل يفسدني ماله بالسهولة نفسها التي أفسدني بها عرض السيد هوانغ بأن يشتري أوراق الشاي من بستاني؟ على أي حال، كم هو ثري زوجي؟ ثري بمقاييس قرية؟ ثري بمقاييس الصين؟ ثري بمقاييس أميركا؟ الشك في الذات وعدم الثقة مزيج سيئ.

أسأله عن طبيعة عمله أثناء انتظارنا وصول تلك الحلوى الغامضة، وأحاول أن يكونَ سؤالي لطيفًا. يجيب على سؤالي من غير تردد فيقول: «يجب أن تعرفي كل شيء عني، ويجب أن أعرف كل شيء عنك». بعض ما يقوله لي أعرفه من قبل. كان جين في العاشرة من العمر عندما سمحوا له ولأمه بالعودة إلى غوانزو. صحيح أن أمه حصلت على عمل، لكن المسكن الذي خُصص لهما كان غرفة واحدة غير مفروشة في أسوأ مبنى سكني في الجامعة. فضلًا عن هذا، كان القاطنون في ذلك المبنى يتلقون طعامًا شحيحًا.

«تعلمت في الريف أن أحتفظ بكل ما أعثر عليه لأننا لا نعلم أبدًا متى يمكن أن يلزمنا. ما كان ممكنًا أن نرمي أي شيء، ولا حتى قصاصة ورق».

«وأنا أيضًا نشأت في وضع مماثل...».

«لهذا أحبك». يتمهل لحظة ريثما أتشرب هذه الكلمة التي لا أمل سماعها أبدًا. ثم يقول: «هكذا بدأت، أنا الصبي الواصل إلى المدينة حديثًا، جمع ما أجده من بقايا الورق وحزمه وبيعه لمصنع إعادة التدوير كي أكسب بعض المال. كان عليَّ أن أعمل خِفية لأن الأعمال كلها كانت لا تزال ملكًا للدولة».

«هل كان هذا خطيرًا؟».

«بكل تأكيد. لكن عليك تذكر أن حاجة بلدنا إلى الورق وعجينة الورق كانت في تنامٍ سريع. فمن أين تحصل المصانع على المواد بعد أن تم قطع معظم غاباتنا خلال مرحلة «القفزة العظيمة إلى الأمام»؟».

وبالمال الذي كان يكسبه، صار قادرًا على شراء الضروريات وعلى شراء مزيد من الطعام. وقد تابع دراسته إلى جانب ذلك. التحق بكلية محلية بعد أن أحرز درجات جيدة، ودرس الهندسة في تلك الكلية.

«الهندسة!». كيف لم أعرف حتى هذا الأمر؟

يواصل كلامه: «تابعت عملي الصغير خلال تلك السنين كلها، وصرت أستأجر أطفالًا مثلي، أطفالًا فقراء جائعين كي يجمعوا بقايا الورق والورق المقوى. كان ممكنًا أن يرسلوني إلى واحد من معسكرات العمل إن أمسكوا بي، لكني كنت مضطرًّا إلى فعل ما أستطيع فعله كي أساهم في تحسين حياة أمي بعد ما فعلته بها». تنحرف عيناه جانبًا لحظة واحدة ثم تعودان إليَّ. «ثم إن الإنسان، عندما يكون يائسًا، يمكن أن يفعل أي شيء لجعل الحياة أكثر يسرًا، حتى إن كان ما يفعله خطرًا».

وبعد تخرجه، مكّنه تعليمه ومكنته علاقاته من الحصول على وظيفة في مصنع إعادة التدوير نفسه، لكنه لم يتخلَّ عن عمله الجانبي. كبر الأطفال الذين كانوا يجمعون له الورق، ومضوا في حياتهم، وحل محلهم أطفال جدد كانوا يعيشون ظروفًا صعبة دفعتهم إلى المخاطرة بالاعتقال لأنهم يجمعون الورق ويبيعونه.

«وعندما بدأ دينغ كسياوبينغ إصلاحاته الاقتصادية أواسط التسعينيات، كنت تواقًا إلى المشاركة فيها، وكان عندي مشروعي الخاص. لم أجد صعوبة في الحصول على تأشيرة للمجيء إلى هذه البلاد بموجب برنامج هجرة المستثمرين إلى الولايات المتحدة. وأي مكان أفضل من أميركا للبحث عن بقايا الورق؟ ... أرض الاستهلاك والفضلات».

دوّت ضحكته العالية في المطعم. التفت في اتجاهنا الناس الجالسون إلى الطاولات القريبة. احمرَّ وجهي وحدقت عيناي إلى مفرش الطاولة. هل يمكن يومًا أن أجد نفسي مرتاحة هنا؟

«وبطبيعة الحال، كانت لدى زهانغ يين نقطة انطلاق قوية. هل سمعت بها من قبل؟»

هززت رأسي نفيًا فقال موضحًا: «إنها ملكة الورق المقوى وأغنى شخص في الصين. هي ثاني أغنى امرأة عصامية في العالم كله بعد أوبرا وينفري». (لا فكرة عندي أبدًا عمن تكون تلك المرأة. لكن، ما أهمية هذا؟). «قالت لي زهانغ يين عندما التقيتها: «إن الناس يعتبرون قصاصات الورق قمامة. أنت وأنا نراها غابة من أشجار ينبغي استغلالها». كنت في غاية السرور بأن تشتري مني بقايا الورق. وأنا الآن أرسل سفن حاويات تحمل بقايا الورق عبر البحار إلى الصين، وتحوّل شركة «التنانين التسعة القابضة لصنع الورق» تلك البقايا إلى ورق مقوى. توضع السلع في تلك الصناديق وتوضع في حاويات شحن أخرى تعود بها مباشرة إلى أميركا حيث تصير من جديد بقايا ينبغي التخلص منها. وتتواصل هذه الدورة يومًا بعد يوم. لقد صرنا أثرياء مثلما توقع دينغ كسياوبينغ. أعلم أن خجلك لم يسمح لك أن توجهي إليَّ سؤالًا مباشرًا، ولهذا سأقول لك: إن كانت زهانغ يين ملكة الورق المقوى، فقد أكون الأمير رقم مئتين».

لا أستطيع الآن أن أقدّر ما قد يعنيه تعبير «الأمير رقم مئتين».

ثم تأتي الحلوى فيغير جين موضوع الحديث تغييرًا مفاجئًا. «أود

أن آخذك في جولة في هذه البلاد كلها كي تري الأماكن بنفسك. ولكن، هل عندك أي فكرة مسبقة عن المكان الذي تحبين العيش فيه؟».

«العيش؟».

يقول بنبرة عادية جدًّا: «علينا أن نشتري بيتًا هنا. لديَّ بالفعل بيت صغير في مونتيري بارك...»

«ألديك بيت هنا؟». عليه أن يكف عن مفاجأتي هكذا.

«إذًا، لماذا لم ننزل فيه؟».

«لأننا في شهر العسل! في ما بعد، أود أن نشتري لنا بيتًا جديدًا، حيث نستطيع أن تكون لنا بداية جديدة معًا». يتردد لحظة قبل أن يتابع ... «لكن هذا ليس سببًا وحيدًا. لا يعلم المرء أبدًا ماذا سيحدث في الصين. *اليوم كلب، وغدًا قط*. وبما إننا من رواد الأعمال، فإن علينا أن نفكر بطريقة نحمي بها مالنا».

بما إننا! يعجبني كيف يشملني معه بهذا القول كأننا متساويان... «إذًا، ماذا نستطيع أن نفعل؟ أنشتري ذهبًا وجواهر؟ أنشتري فندقًا؟ أنشتري أعمالًا فنية. أنشتري نبيذًا؟ لقد اشتريت قليلًا من ذلك كله».

«هل تملك فندقًا؟». لا بد لي من التخلص من هذه العادة، عادة تكرار ما يقول!

«نصف من أعرفهم من الصينيين يمتلكون فنادق هنا».

لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا.

يواصل كلامه: «أريد أن أجعلك سعيدة. أريد أن تحسي أنك جميلة. أريد أن تكون لنا حياة رائعة معًا».

عندما يصيغ الفكرة بهذا الشكل... واو! كلماته تكتسحني اكتساحًا. ما ألطف أن يحبني هكذا! صرت قادرة حتى على تناول تلك الحلوى مرة أخرى.

وحدة التاريخ الأميركي في الصف الخامس، صف السيد كيلي: **اخترَ شخصًا أو حادثة من الحرب الثورية، واكتب عن ذلك الشخص أو الحادثة. اقسم موضوعك إلى ثلاثة أقسام: الخلفية، الشخص أو الحادثة، وكيف لا يزال لهذا الشخص، أو لهذه الحادثة، أثر فيك وفي أميركا وفي حياة العالم في يومنا هذا. تاريخ التسليم ١٠ يناير ٢٠٠٩.**

حزب الشاي في بوسطن

بقلم هيلي ديفيس

الخلفية

تحتل الصين المرتبة الثالثة في إنتاج الشاي. واسم الشاي في علم النبات «Camellia sinensis». شجرة الشاي دائمة الخضرة. في سنة ٧٨٢، في عهد أسرة تانغ، فرضت الصين أول ضريبة على الشاي. عرف التاريخ قيام بلاد كثيرة بفرض ضرائب على الشاي. وفي القرن التاسع، بدأ الناس يستخدمون قوالب صغيرة من الشاي بمثابة نقود. وكان بعض الناس يقول إنها أفضل من الذهب أو الفضة لأنك تستطيع أكلها إن جعت. وفي القرن السادس عشر، تعرف على الشاي تجار وقساوسة من البرتغال سافروا إلى الصين.

وفي سنة ١٦٥٠، جلب شخص هولندي الشاي إلى مدينة نيو أمستردام (المدينة التي اسمها الآن نيويورك) على متن سفن شراعية.

وعندما استولى الإنجليز على هذه المستعمرة، اكتشفوا أن تلك المستوطنة الصغيرة تشرب من الشاي أكثر مما تشربه إنجلترا وهولندا معا. ما كان لدى المستعمِرين الكثير من المآكل ومن المشروبات، وقد أحبوا الشاي جدا. لكن شرب الشاي في إنجلترا كان مقتصرًا على الأثرياء. وفي سنة ١٦٩٨، منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية حق احتكار استيراد الشاي. لكن، وعلى الرغم من وجود ذلك الاحتكار، كان المهربون يأتون بالشاي إلى المستعمرات بأسعار أرخص كثيرًا. وفي العاشر من مايو ١٧٧٣، أقر البرلمان «قانون الشاي» الذي كان منتظرا منه أن يعِين الحكومة البريطانية على تسديد نفقات حروبها مع فرنسا وأن يساهم في بقاء شركة الهند الشرقية. كان الناس يقولون إن شركة الهند الشرقية ستعيش إلى الأبد لأنها كبيرة وقوية جدا، لكن الحقيقة أنها كانت تعاني فشلا. (يقول بابا إننا نسمي اليوم ما حدث في ذلك الوقت «خطة إنقاذ»). بعد ذلك، صار على ثلاث عشرة مستعمرة، وعلى سكان المستعمَرات دفع ضريبة كبيرة علاوة على ثمن الشاي نفسه.

حفلة الشاي في بوسطن

لم يقبل سكان هذه المستعمَرة أن تفرض عليهم ضريبة من غير أن يكون لهم تمثيل. وقد كان شعارهم: «أي شيء إلا الشاي البريطاني». عمدوا إلى مقاطعة الشاي الذي فُرضت عليه تلك الضريبة. وصارت المقاطعة رمزًا لعصيانهم. جعلت نيويورك وفيلادلفيا سفن الشاي تعود أدراجها إلى لندن. وفي تشارلستون، ترك الشاي على رصيف الميناء كي

يتعفن. وفي بوسطن، منع سكان المستعمَرة ثلاث سفن من تفريغ حمولتها من الشاي. وفي السادس عشر من ديسمبر ١٧٧٣، ارتدى بعض سكان المستعمَرة ملابس كملابس الأميركيين الأصليين، وتسلقوا السفن، وحطموا بفؤوسهم الهندية ٣٤٠ صندوقًا من الشاي الصيني وألقوا بمحتوياتها إلى مياه ميناء بوسطن. بلغت زنة تلك الكمية من الشاي تسعين ألف باوندًا. تبلغ قيمة ذلك، بعملة اليوم، مليون دولار أميركي. دعا الأب المؤسس جون آدمز تلك الحادثة «تدمير الشاي في بوسطن». ونحن ندعوها اليوم «حفلة الشاي في بوسطن».

جن جنون إنجلترا وسنّت «القوانين القسرية». لكن سكان المستعمرة دعوها «القوانين غير المحتملة». عاقبت تلك القوانين أهل بوسطن بإنهاء التجارة كلها وإغلاق الميناء إلى أن تسدد قيمة الشاي التالف. كما عاقبوا ولاية ماساشوستس بإلغاء الحكم الذاتي الذي كانت متمتعة به. أدى هذا إلى إثارة غضب المستعمرات كلها، ثلاث عشرة مستعمَرة. حدثت «حفلات شاي» أخرى في عدد من الموانئ. وفي شهر سبتمبر ١٧٧٤، التقى سكان المستعمرات في «الكونغرس القاري الأول». أرادوا الدفاع عن أنفسهم. وبعد سبعة شهور من ذلك، بدأت الحرب الثورية.

أثر حفلة الشاي في بوسطن فيَّ اليوم

على امتداد زمن طويل جدا، كانت الولايات المتحدة وإنجلترا، وبلدان أخرى أيضًا، غير قادرة على شراء الشاي إلا من الصين. قال أباطرة الصين إنهم سيقطعون رأس كل من يقدم على إخراج بذرة شاي

أو نبتة شاي من البلاد. لكن البريطانيين تمكنوا من سرقة بعض النباتات وأخذوها إلى الهند. أسس السير توماس ليبتون، الذي كان مالك متجر بقالة، مزرعة شاي في الهند. لا يزال جدي وجدتي يشربان شاي ليبتون.

الشاي ثاني المشروبات انتشارًا في العالم بعد الماء. وأكبر البلاد المنتجة للشاي هي الصين والهند وكينيا. وعلى وجه الإجمال، تعتبر الصين البلد الأكثر استهلاكًا للشاي، إلا أن البلدان الأكثر استهلاكا للشاي للشخص الواحد هي تركيا وأيرلندا والمملكة المتحدة. ففي تركيا، يستهلك الشخص الواحد سبعة باوندات من أوراق الشاي كل سنة. يعني هذا أن كل شخص من أهل تركيا، حتى إن كان طفلا صغيرًا، يشرب عشرة فناجين شاي كل يوم. تأتي الولايات المتحدة في المرتبة التاسعة والستين من حيث شرب الشاي للفرد الواحد. لا يستهلك الفرد الأميركي في السنة كلها أكثر من اثنتي عشر أونصة من أوراق الشاي. (أيضًا الأميركيون، ليسوا من البلدان العشرة الأولى من حيث شرب القهوة). بابا وماما يحبان القهوة، لكنهما يشربان الشاي عندما نذهب إلى مطعم صيني أو ياباني. وهما يسمحان لي بعض الأحيان، على سبيل المكافأة أن أشرب الشاي بالسكر. لكن هذا لا يحدث كثيرًا لأن السكر يزيد نشاطي فلا أستطيع النوم. صحيح أننا لا نكثر من شرب الشاي في الولايات المتحدة، لكنه شراب مهم جدًا في بقية أنحاء العالم.

الأشجار العالية تعصف بها الريح كثيرًا

بعد يوم من عشائنا في مطعم «سباغو»، أُصرّ (نعم، أُصرّ) على أن نذهب لزيارة بيت جين في مونتيري بارك. لقد دعاه «بيتًا صغيرًا»، لكنه أكبر من أي بيت عشت فيه من قبل، ولا بد أنه أكبر أيضًا من أي بيت عاش فيه جين. وفي اليوم الذي أعقب ذلك، ألغينا بقية رحلتنا، وتركنا الفندق، وانتقلنا إلى بيته. يأخذني بالسيارة إلى السوق فأجد أن كل شيء هناك صيني. في تلك الليلة، أقوم أول مرة بإعداد وجبة عشاء لجين: اللحم المطهو على نار هادئة مع الفلفل الحار، وكذلك «أونغ تشوي» مع التوفو المحفوظ، والبيض مع الطماطم، والأرز. نظل في البيت أسبوعًا كاملًا ولا نخرج منه إلا للتسوق. نتسوق، ثم نعود إلى بيتنا ونقفل الباب علينا ونمارس الحب ونأكل ونتابع قنوات تلفزيونية ناطقة بلغة الماندرين كي نرى ما هو جارٍ في الصين، وننام، ثم نكرر ذلك كله مع بدء اليوم التالي.

وفي الأسبوع الذي يأتي بعد ذلك، يصر جين، يصر فعلًا، على أن أذهب معه كي نبحث عن بيت جديد، وذلك بصفتي «زوجة جين». ومع تجولنا في أنحاء وادي سان غابرييل، أبدأ فهم الاختلافات بين

أحياء أركاديا وروزميد ومونتيري بارك وساوث باسادينا، وبالطبع، سان غابرييل. كل بيت ننظر إليه يبدو لي أكبر وأعظم مما أستطيع تخيله. لكن البيت الذي يعجبني أكثر من أي بيت آخر ليس إلا بيتًا مبنيًّا في عشرينيات القرن العشرين فيه غرفة نوم واحدة... لطيف، دافئ، ممتاز لنا نحن الاثنين.

يقول جين: «لكننا سنكون في حاجة إلى أكثر من غرفة نوم واحدة». يقول هذا ثم يتجهم وجهه إذ يدرك أننا لم نتحدث أبدًا في شأن الأطفال. «آمل أن تكوني راغبة في أن تنجبي أطفالًا».

يا للشمس ويا للقمر!

كيف يعلم مقدار إلحاح هذا السؤال على ذهني؟ في أول يوم لنا هنا، عندما كنا سائرين في طريق روديو، رأيت رجلًا وامرأة في سن الكهولة (من البيض) معهما طفلة لها شعر طويل أسود سائرة بينهما، ممسكة يديهما.

يان-يه؟ هل هذا ممكن؟

التفت كي أنظر بعد أن مررنا بهما. لا بد أنها طفلة متبناة. لكن من الواضح أنها من أكثرية هان، لا من الأكها. ظللت يقظة بعد ذلك، وظلت عيناي تبحثان عن أم بيضاء أو أب أبيض، أو أم وأب من البيض مع فتاة ذات شعر أسود سيبلغ عمرها، هذه السنة، اثني عشر عامًا. هل ستكون قصيرة مثل فتيات أكها؟ أم أن عيشها على الطعام الأميركي قد أكسبها طولًا إضافيًّا؟ رأيت فتيات هنا وهناك: أكبر مما ينبغي، أصغر مما ينبغي، أنف مسطح أكثر مما ينبغي، أثداء كبيرة أكثر مما ينبغي. ولكن ابنتي يمكن أن تكون في أي مكان من هذا البلد الواسع. قد تكون في مدينة نيويورك.

قد تكون مع أسرة من رعاة البقر في واحدة من المزارع. قد تكون في ألاسكا، قد تكون في هاواي. إدراكي أنني لن أعثر عليها أبدًا، والحب الكبير الذي أكنّه لجين، حرَّكا في داخلي رغبة في إنجاب طفل. لكنني لم أبدأ التساؤل إلا الآن عن الأثر الذي سيكون فينا لسياسة الطفل الواحد في الصين. بما إنني من إحدى الأقليات، ففي وسعي أن أنجب عدة أطفال. لكن جين لا يحق له أن ينجب أكثر من طفل واحد لأنه من أكثرية هان.

يسألني: «لماذا تشغلين بالك بالأنظمة؟ في وسعنا أن ننجب أطفالًا قدر ما نشاء، إن ولدوا في أميركا. وسوف يكونون مواطنين أميركيين. وحتى إن أنجبناهم في الصين، فماذا يمكن للسلطات أن تفعله؟ هل تجعلنا ندفع عشرة آلاف دولار غرامة؟ نحن لسنا من الفلاحين. نستطيع أن ندفع الغرامة عن أطفال كثيرين».

نبدأ العمل على صنع طفل جديد منذ بعد ظهر ذلك اليوم. أحس المشاعر والتقاليد القديمة تغلي وتطفو إلى السطح. لا أقول هذا لجين (قد يظنني شديدة التخلف)، لكنني أدعو في داخلي الأرواح الثلاثة التي تصنع الأطفال، تلك الأرواح التي تعيش في كل امرأة، أن تطلق مياهي من بحيرة الأطفال حتى أحبل سريعًا.

لعل ثمة حافزًا مماثلًا يستحث جين لأنه يعثر على بيتنا الجديد مع نهاية الأسبوع الثالث: بيت جميل على الطراز الإسباني فيه أربع غرف نوم قائم في شارع تحفُّ به أشجار الجاكاراندا في منطقة آركاديا. ولأول مرة، أرى كيف يكون زوجي رجل أعمال. إنه مفاوض صعب المراس و... صدقًا... لا أفهم معنى تلك الأشياء كلها التي يتحدث عنها: صكوك

الائتمان، وقواعد الاتفاق والشروط والقيود، والضمانات، وإثباتات الملكية، والتأمين... ليس لدينا شيء من هذا كله في الصين! بصرف النظر عن ذلك، يتضح لي أن عملية الشراء يمكن أن تكون سريعة جدًّا إن أراد المرء أن يشتري البيت نقدًا.

يتصل جين بأمه ويقول لها إننا لن نعود قبل رأس السنة الصينية الجديدة. وعندما أتصل بسي-ته وأشرح لها التغير الذي طرأ على خططنا، تقول لي: «كنت آمل أن أراك قريبًا، كي أسمع منك الأنباء كلها. اشتقت إليك».

ثم تسارع في القول قبل أن أفلح في الرد: «لا بأس في ذلك، سوف أجعلنا ثريتين، أنا وأنت».

أحاول القول لها أن تجعل طموحاتها متواضعة. أنبهها: «هذه تجارة شاي، لا أكثر»، لكنها تجيبني: «بل هي أكثر من ذلك في نظري، كثيرًا». أعلم عندها أنني تركت متجري بين يدي الشخص المناسب تمامًا.

نلغي رحلة العودة إلى الصين وننتقل إلى بيتنا الجديد. نوسّع غرفة المكتبة في الطابق السفلي، الغرفة المبطنة جدرانها بألواح من خشب الآس، كي تصير مكتبًا لجين. وأنا أيضًا لديَّ غرفتي (المكان الذي يدعوه الوسيط العقاري «غرفة التشمس») ولي فيها طاولة مكتب وهاتف وكمبيوتر وخط فاكس ووصلة إنترنت. أكلم سي-ته كل يوم تقريبًا.

تندفع قائلة: «كانت هذه الأسابيع التي تسبق العطلة مزدحمة جدًّا بالمتسوقين الذين يشترون الهدايا. بعت كل ما لدينا من شاي لاوبانزهانغ، وطلبت المزيد».

أمر مدهش، لكن عليَّ أن أسألها: «ألم تشتاقي إلى لاو-با وبناتك؟»

«لا، على الإطلاق».

آمل أن يكون ما تقوله صحيحًا لأن وجودها في متجري يسمح لي بتركيز اهتمامي في زوجي وبيتي. وبعد أسبوع من ذلك، في الثامن عشر من فبراير، أتى يوم رأس السنة الصينية الجديدة. لدينا، نحن الأكها، أدوارنا الزمنية الخاصة بنا وسنتنا الجديدة الخاصة بنا. هذا ما جعلني دائمًا أتجاهل احتفالات أكثرية هان عندما كنت في كومينغ وغوانزو.

ذات ليلة أقول لسي-ته في الهاتف: «الآن، بعد أن تزوجت رجلًا من أكثرية هان، أود أن أمنحه عيدًا حقيقيًّا. وحتى أدرك كيف أفعل هذا، شاهدت في التلفزيون برامج العيد السابق ونظرت إلى بقية البيوت في شارعنا لأرى كيف هي مزينة».

تنصحني سي-ته: «عليك أيضًا أن تنتبهي إلى ما تشتريه النساء في المتاجر».

أفعل ذلك، وأشتري زينات أعلقها بجانبي باب بيتنا وأشتري كذلك خنزيرًا من السيراميك مطليًّا بلون ذهبي ومربوطًا بشريط أحمر كي أضعه وسط طاولة الطعام. أقيم مع جين مذبحًا صغيرًا كي يحيي ذكرى أسلافه. لسنا إلا شخصين اثنين. ليست لدينا أسرة، وليس لدينا أصدقاء كي نحتفل معهم. لكن جارتنا روزي نغ تدعونا إلى الانضمام إلى أسرتها لتناول العشاء في واحد من المطاعم الكبيرة على طراز هونغ كونغ في «فالي بوليفارد» في مونتيري بارك.

*

يستقر لنا نظام حياة ثابت، أنا وجين. أرسلت إلي آما شايًا من جبل مانوو، وقد طلبت من سي-ته أن ترسل إليَّ من المتجر بضعة أنواع خاصة من الشاي بحيث نبدأ يومنا جالسين إلى طاولة صغيرة عند النافذة المشرفة على الحديقة الخلفية، ونشرب فناجين صغيرة من شاي ذهبي، ونستمد الإلهام من قول مأثور قديم: *«الساعة التي تنقضي في شرب الشاي ساعة يتشارك فيها الأمير والفلاح أفكارهما ويستعد كل منهما لمجريات حياته ومشقّاتها»*. هذا ما يجعل بقية اليوم تمضي مسترخية من غير قلق أو مخاوف. ومع حلول وقت الظهر، تأتي روزي كي تأخذني فنذهب ونتسوق الخضار معًا. وبعد الظهر، أخرج في نزهات مع جين. نجري اتصالاتنا مع الصين بعد تناول وجبة العشاء. يسعدني أن أداء متجري كان حسنًا جدًّا في غيابي. الحقيقة أن أداءه عظيم! تؤدي سي-ته عملًا ممتازًا، وتستفيد من كل فرصة تسنح لها. تقول لي: «ترتفع أسعار شاي بيوَّر ارتفاعًا صاروخيًّا. في شهر مارس، خلال أيام قطاف الشاي العشرة، ذهب آلاف من التجار والذواقة والصحفيين القادمين من أنحاء العالم كله إلى جبال الشاي في يونان. بل إن من الناس من أتى معه بقوالب شاي قديمة. قالوا إنهم ماضون في «حجٍّ إلى المكان الذي هو أصل هذا الشاي»!».

تبدو كأنها صارت شخصًا مختلفًا تمام الاختلاف. لكن كل شيء تقوله صحيح. رأيت ذلك في التلفزيون. حشود كبيرة تنزل من الباصات، وبشر يتدافعون كي تسنح لهم فرصة تجريب «قتل الخضرة» ويتصايحون بأسعار لا تفتأ تتزايد، يطرحونها على المزارعين الحائرين. كتب إليَّ المعلم زهانغ

قائلًا إن الشاي المقطوف من الأشجار البرية في الغابة هو الأكثر شعبية. باع الأخ الثالث واحدًا من التجار كيلوغرامًا من الشاي من واحدة من أشجاره القديمة بمبلغ ٧٥٠ يوان، أي خمسة وسبعين دولارًا!

سيكون لديَّ دائمًا في متجري شاي من جبل مانوو لأنني لا أزال مؤمنة بما قاله لي معلم الشاي سون: في يوم من الأيام، سيرى الناس أن له من القيمة ما يضاهي شاي الملك والملكة، إن لم يفقه. لكني وافقت على أن ترسل سي-ته زوجها إلى لاوبانزهانغ كي يشتري مزيدًا من منتجات تلك المنطقة. وفي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، تتصل بي سي-ته كي تقدم إليَّ تقريرها.

«لا تغضبي... لكنه أنفق مالًا كثيرًا».

«كم بلغ ذلك؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ثماني مئة يوان للكيلو...».

«لا!».

«اسمعي! أنا التي طلبت منه أن يفعل هذا. وقد اتضح أنها صفقة جيدة لأن السعر قفز في اليوم التالي إلى ألف ومئتي يوان للكيلو الواحد».

«واااااو!»

«لا تقلقي، أستطيع بيع هذا الشاي بسعر أعلى».

ليس باقيًا عندي غير شيء واحد أقوله لها: «من الواضح أنك سيدة أعمال ناجحة أكثر مني. لو كنت مكانك، أظنني سأفكر أكثر مما ينبغي في النكهة والرائحة والمنشأ بدلًا من التفكير في جني أرباح أكبر. أشكرك».

«لا. أنا التي أشكرك».

لعلي أسأت الحكم على سي-ته أول وصولها إلى غوانزو، لكني الآن ممتنة لذكائها وصلابتها.

*

عندما يفلح كلب روزي في الصعود إلى سقف بيتها، تكون تلك مناسبة لأن نلتقي، أنا وجين، بقية الجيران. كلهم صينيون من أكثرية هان. نقف على الرصيف ونضحك مشيرين إلى زوج روزي الذي نصب سلمًا يصعد إلى سطح البيت كي ينقذ ذلك الحيوان. نصب الشاي، ونتناول مأكولات خفيفة. نلتقي في الشارع مرة أخرى عندما ينكسر غصن من أغصان شجرة جاكاراندا فيغلق الشارع إلى أن تأتي «صيانة الشوارع» وترفعه وتأخذه بعيدًا. وفي عيد الفصح الأميركي، تستضيف روزي لعبة «اصطياد البيض» للأطفال الذين في الحين. توجه الدعوة إلينا أيضًا مع أننا لا نزال من غير أطفال. وعندما تسقط من يد روزي سلة ابنها فيتكسر عدد من البيضات المسلوقة، أرى أن ذلك لم يجعلها تتوتر فيسترخي إحساسي بالخجل من حقيقة أنني الدخيلة الوحيدة بينهم. أساعدها في رفع البيض وتنظيف آثاره وآثار الحلوى التي يسمونها «فاصولياء الجيلي». تشكرني روزي. إنها جارة ودود. وفي نهاية اليوم، تعطيني اسمًا على النمط الغربي: تينا-جين يعجبه هذا الاسم، ويبدأ الجيران تداوله في غضون أيام معدودة. وأتمرن على نطق اسمي مرة بعد مرة بالطريقة نفسها التي كنت أستخدمها لحفظ العبارات الإنجليزية عندما كنت في مدرسة التجارة: تينا تشانغ، تينا تشانغ، تينا تشانغ.

كل لحظة من كل يوم تبدو مثالية، لكنني لم أحبل بعد. ليس وقوع الحمل بالأمر السهل عندما يكون موضع محاولات ملحة. كلما مرت الأسابيع، ازددت بحثًا عن الإجابات في معتقدات الأكها. صحيح أنني لم أحلم بالماء مرة واحدة عندما كنت حبلى بابنتي يان–يه، لكنني الآن أذهب كي أنام كل ليلة آملة أن أحلم بمياه مندفعة لأن هذا الحلم سيكون معناه أن طفلًا قد أتاني من بحيرة صنع الأطفال. صار جين يعرفني معرفة جيدة: يراني خارجة من الحمام وعلى وجهي ملامح القلق فيذكرني أننا لم نتزوج إلا منذ بضعة أشهر. يريد من كلماته أن تطمئنني، لكنها تجعلني أشد قلقًا وتوترًا لأنها تنبهني إلى حقيقة أنه يحصي الأيام مثلما أحصيها.

وفي أوائل شهر مايو، تخبرني روزي عن طبيب يتكلم لغة ماندرين (طبيب متخصص في الحمل والتوليد)، لكن أمران غريبان يحدثان قبل أن أحدد موعدًا لرؤيته. كان الأمر الأول تسجيل رقم قياسي جديد عندما بيع أربع مئة غرام من الماوتشا (شاي بيوَّر الخام) في واحد من المزادات بأربع مئة ألف يوان. يقارب هذا ٥٣ ألف دولار! أفكر في أن الأمر قد ينتهي بي إلى أن أصير ثرية مثل زوجي (هذا مزاح، لكن التفكير فيه أمر ممتع). وعندما تبث محطة باللغة الصينية برنامجًا خاصًّا اسمه *«فقاعة شاي بيوَّر تنفجر»*، أتابعها في غرفة الجلوس بينما يغفو جين على الأريكة إلى جانبي.

يبدأ البرنامج من سوق فانغون للشاي، ويزعم المراسل الصحفي أن أسعار شاي بيوَّر مبالغ فيها كثيرًا. أقول في نفسي أول الأمر إن هذا ليس

انتقادًا شديد السوء. والواقع أن أمرًا من هذا القبيل كان متوقعًا. ففي نهاية المطاف: *«الأشجار العالية تعصف بها الريح كثيرًا»* و*«الطائر الذي يقف منفردًا يسهل اصطياده»*. لكن البرنامج يتخذ بعد ذلك وجهة كالحة.

يقول المراسل: «لا يقف الأمر عند المبالغة في رفع الأسعار، بل إن أنواعًا كثيرة من الشاي تزعم أنها شاي بيوَّر ليست إلا تزويرًا. يشتمل هذا على تسعين في المئة من الشاي المُشترَى في ييوو ـ المنطقة التي يدعونها موطن ملكة شاي بيوَّر. يكتبون على الشاي أنه «شاي أصلي من الغابة»، لكنه ليس إلا شايًا من أشجار شاي مزروعة في مصاطب مدرجة في مناطق أخرى».

ثمة اتهام آخر على صلة بشاي بيوَّر الآتي من منطقة لاوبانزهانغ. تتابع الكاميرا المراسل الصحفي وهو يسير بضعة أمتار ثم يتوقف أمام متجر «زهرة منتصف الليل» مباشرة. تتقلص معدتي. أهز جين كي أوقظه. ينتصب جالسًا وهو لا يزال نصف نائم، وأسمع المراسل يقول: «يزعم سوق فانغون للشاي وحده أن لديه خمسة آلاف طن من شاي لاوبانزهانغ مع أن تلك القرية كلها لا تنتج إلا خمسين طنًّا في السنة الواحدة. يعني هذا أن معظم شاي بيوَّر الذي يقال في سوق فانغون إنه من لاوبانزهانغ ليس إلا شايًا مزورًا».

ترتفع يدي إلى حلقي في محاولة لأن يظل صوتي هادئًا. «سي-ته تبيع شاي بيوَّر من لاوبانزهانغ. بل إنها طلبت من زوجها في الآونة الأخيرة أن يشتري مزيدًا منه. لا يمكن أن تبيع شايًا مزورًا. هل هذا معقول؟»

«لا. لن تفعل هذا. إنها صديقتك...»

أسمع المراسل ماضيًا في كلامه: «أنواع أخرى من الشاي الآتي من قرى أخرى يزعم أنه شاي بيوَّر، لكنه ليس كذلك. وكميات كبيرة من الشاي الذي يباع على أنه شاي معتق تعتيقًا طبيعيًّا ليس إلا شايًا مخمرًا بطرق اصطناعية. وكثير من المنافع الصحية المزعومة كاذب أيضًا. خلافًا للرأي العام، يقول بعض العلماء إن شرب الشاي بيوَّر المخمر تخميرًا اصطناعيًّا قد يسبب السرطان».

تجتاحني نوبة ذعر جديدة مع كل فكرة أسمعها. وعلى امتداد البرنامج، يحاول أصحاب المتاجر إخفاء وجوههم عن الكاميرا، ينجح بعضهم في ذلك، لكن منهم من ينكر تلك الاتهامات بأصوات عالية غاضبة النبرات ويهز قبضة يده في مواجهة الكاميرا. إلا أن ما من شيء يستطيع إخفاء أسماء المتاجر والأكشاك. «زهرة منتصف الليل» الاستنتاج (استنتاج توصلت إليه بنفسي) هو أن متجري ينبغي أن يكون من أول المتهمين.

أتصل مرارًا بالمتجر وبهاتف سي-ته الخليوي، لكن من غير إجابة.

أسأل زوجي: «ماذا أفعل الآن؟».

يحاول جين أن يبدو غير مضطرب لما سمع. «لعل هذا البرنامج لا يعني شيئًا. يتابعه الناس الآن، لكنهم سينسونه غدًا». يصمت لحظة ثم يسألني: «ألن تتصل بك سي-ته إن كانت لديها مشكلة؟»

أفكر في ما قاله، وأديره في رأسي. «لعل السؤال الأفضل هو «لماذا لم تتصل حتى الآن»؟». أشير إلى الشاشة... «نستطيع رؤية متجري كله، فأين هي؟».

أرى كيف يصير فم جين خطًّا كالحًا. من غير أي كلمة أخرى، يذهب إلى الكمبيوتر ويبدأ البحث عن رحلات جوية إلى الصين.

*

أدخل سوق الشاي بعد يومين من ذلك فأكون كمن يدخل قبرًا. الأنوار خافتة كعادتها، لكن الممرات خالية من الناس ومن البضاعة. متاجر كثيرة أخلاها أصحابها. ننعطف في الممر المؤدي إلى متجري. أرى شخصًا جالسًا على الأرض أمام المتجر مادًّا ساقيه أمامه. يقفز واقفًا عندما أقترب منه. إنه جيان-رونغ.

يعاجلني بالقول: «لم أعرف كيف أصل إليك. أطالب سي-ته منذ أسابيع أن تعطيني رقم هاتفك، لكنها لا تعطيني إياه».

أنظر عبر واجهة المتجر. أكياس كبيرة من الشاي مفتوحة على الأرض، وعلى الرفوف قوالب شاي معروضة، لكن متجري يبدو مثل بيت تسكنه الأشباح.

«جرّبنا، أنا وأبي، أن نتصل بالفندق الذي كنت مقيمة فيه في شهر العسل...».

«كان ذلك منذ زمن بعيد...»

لا يزال صبيًّا مراهقًا، لكن عينيه تفيضان قلقًا. ألتفت إلى جين. لقد أسدل على وجهه قناعًا لا سبيل إلى اختراقه. وفي داخلي، أحس أن نهرًا قد جرف كل ما عملت من أجله. أبحث عن مفاتيحي، وأفتح الباب. ينسلّ الصبي ويجلس خلف الطاولة من غير أي كلمة. نجلس قبالته. ينتابني إحساس غريب يقول إنني منفصلة عن هذا المتجر. إنه متجري، لكن

جيان-رونغ يتولى الأمر. يريني قالب شاي. ورق الأرز مطبوعة عليه علامة لاوبانزهانغ المميزة مع التاريخ والخاتم الذي يثبت أنه شاي أصلي.

أقول: «لا يمكن تزوير هذا».

يجيبني جيان-رونغ، «لا بد أن أحدًا قد باعها ورق تغليف غير مستخدم».

يفتح القالب ويستخدم شوكة كي يباعد بين الأوراق. يضع عددًا منها في طبق صغير، ثم يناولني الطبق كي أشم الرائحة. رائحة تراب وعفن، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن ما اشترته سي-ته (وما يبيعه متجري) شاي مزور. أمل يندفع من أعماقي فلا أستطيع مقاومته. لعل شاي بيوَّر هذا، الذي هو من لاوبانزهانغ، ذو جودة منخفضة، ولعله مقطوف آخر السنة أو خلال موسم الأمطار. يخمّر جيان-رونغ الشاي، ثم يصبه فتهاجم حواسي رائحة عفن الغابة... رائحة فضّاحة لشاي بيوَّر مخمر تخميرًا سيئًا بطريقة اصطناعية. تتأكد أسوأ شكوكي.

أسأله: «أين هي؟».

يجيبني جيان-رونغ: «بدأت المقابلات التلفزيونية منذ عشرة أيام، وقد رحلت في اليوم التالي».

«هل طارت عائدة إلى يونان؟». يبدو لي التفكير في أن سي ـ ته تستطيع أن تشتري بطاقة طائرة وتذهب إلى المطار بمفردها، حتى بعد ما صرت أعرفه الآن، أمرًا مستحيلًا، أمرًا يتجاوز قدرتها.

يرفع جيان-رونغ كتفيه ردًّا على سؤالي. يقول بعد لحظة: «جبل مانوو موطنها...»

«وزوجها وبناتها هناك».

ثم يضيف: «لم يتبادر إلى ذهني أبدًا أن شخصًا من الأكها يمكن أن يكون مخادعًا هكذا».

وأنا أيضًا غير قادرة على التصديق.

*

ما يحدث خلال اليومين التاليين أسوأ من أسوأ ما أستطيع تخيله. سوق شاي بيوَّر العالمي ينهار وتنخفض قيمة الشاي إلى النصف. من المقدر أن بائعي الشاي من أمثالي لديهم الآن ما يتراوح بين مئة طن وثلاث مئة طن من شاي بيوَّر المخزون الذي لن يستطيعوا بيعه. وفي غوانزو، تقول تقارير إن هذا المخزون كافٍ لأن يواصل كل واحد من سكان المدينة شرب شاي بيوَّر مدة ثماني سنين. وأسوأ من ذلك ما تقوله «مجلة الجيل الجديد» من أن عدد المضاربين على شاي بيوَّر في الصين قد بلغ ثلاثين مليونًا من البشر وأن بائعي الشاي والمصارف ومسؤولين حكوميين عملوا جميعًا، كلهم معًا، على غش أولئك المضاربين. يؤدي فيض الأنباء هذا إلى موت سوق الشاي. أغلق متجري بدوري من غير أن أقابل شركائي ولو مرة واحدة. يذهب القسم الأكبر من مخزوني إلى القمامة. يستشعر رجال الشاي الثلاثة الذين كانوا يأتون إليَّ هذه الفرصة الفريدة فيشترون أفضل ما عندي من شاي بأسعار بخسة معتزمين خزنه إلى أن يزداد سعره من جديد فيصير مثل سعر الذهب.

يقول لي السيد لين: «حتى أنا ستجعلين مني شخصًا غنيًّا ذات يوم». أعض باطن خدي كي أمنع نفسي من البكاء.

أعتكف مع جين في بيتنا في جزيرة شاميان. عندما يكون نائمًا أو خارج البيت، أذهب إلى الحمام وأقفل علي بابه وأبكي. يكاد الحزن والندم والإحساس بالذنب يمزقني. أنا من شعب أكها، لكني تجاهلت في حياتي الجديدة الجميلة (حياتي التي تبدو بعيدة عن خطر الأرواح) علامات كان عليَّ أن أدرك فورًا أنها نُذُر شؤم: الكلب الذي صعد إلى سطح بيت روزي بطريقة غامضة، وغصن الشجرة الذي أغلق الشارع، والبيض المسلوق الذي سقط على الأرض وتكسر. لم أُولِ تلك الأمور انتباهًا. كنت سعيدة جدًّا و...

لكن حياتي لم تنتهِ بعد. لديَّ زوج ثري، ولن أعود فقيرة من جديد. لكن أهلي هناك، في موطني، آبا وآما، بل ربما كل شخص في قرية بئر النبع... كلهم الآن غارق في الديون بعد تكاليف البناء التي تفرضها «معايير الجودة والسلامة»، لكنهم خسروا مصدر دخلهم. هل سيُلقَى بالجميع في الفقر من جديد. هل سيعيشون «من اليد إلى الفم»؟ يعصف القلق بعقلي، لكن الشكوك تساورني أيضًا. هل كانت سي-ته تتلاعب بمالي كي تبيع شاي بيوَّر الزائف؟ هل يمكن أن تكون أسرتي والآخرون في بئر النبع جزءًا من هذا؟ مرة بعد مرة، تعود بي أفكاري إلى سي-ته. كيف استطاعت أن تفعل بي هذا؟

أقول لجين إنني أريد الذهاب إلى موطني بضعة أيام، فيوافقني على ذلك ويقول: «سأذهب معك. قد أستطيع المساعدة».

نذهب بالطائرة إلى كومينغ، ثم نسافر إلى جينغهونغ. الوقت مساء، والمطر منهمر، والجو رطب شديد الحرارة عندما ننزل من الطائرة.

يستأجر جين سائقًا كي يأخذنا إلى فندق صغير في مينغاي ينزل فيه بائعو الشاي وجامعوه. يقول لي جين موضحًا، «المسافة إلى القرية صغيرة... نحو ساعة وثلاثين دقيقة. نستطيع البقاء في الفندق هنا كي تكون إقامتنا مريحة، ونستطيع الذهاب إلى قريتك والعودة منها كيفما نشاء». ليس هذا ما أتذكره عن الذهاب إلى قرية بئر النبع والعودة منها، لكنه يبدو واثقًا بكلامه. يضع السائق حقائبنا في صندوق السيارة، وأجلس مع جين على المقعد الخلفي، ونمضي في طريقنا.

تغيرات دراماتيكية خلال السنين الثلاث التي غبتها عن هذا المكان. الطريق من جينهونغ إلى مينغاي مزدحمة بالشاحنات والجرارات والباصات والسيارات الخاصة. طريق معبدة وعلى جانبيها أشجار النخيل والهيبيسكوس والبوغينفيليا. وبائعون متجولون يمرون بين السيارات والمركبات، يبيعون لحومًا مشوية ومشروبات غازية. نمر بلوحات عليها إعلانات عن دراجات آلية وورشات إصلاح وحليب أطفال.

ننعطف في شارع مينغاي الرئيسي الذي ينيره ألق أصفر من مصابيح على الأعمدة. تنحبس أنفاسي إذ أعود في الزمن إلى ليلة سيري وحيدة في هذا الشارع باحثة عن مكان أختبئ فيه قبل أن أهجر ابنتي. ومع اقترابنا من «معهد الرعاية الاجتماعية»، تتشبث يدي بقطعة البلاستيك عند حافة نافذة السيارة. أرى على درجات المدخل شخصًا نائمًا في المطر تحت صندوق متهالك من الورق المقوى. يضع جين ذراعه على كتفي ويشدني إليه. أدفن وجهي في قميصه. لماذا أعاني هذه الذكرى الآن بأشد مما كنت أعانيها عند مروري في هذا الشارع أثناء انتظاري كي أعلم إن كانوا قد

قبلوا التحاقي بكلية الشاي؟ منذ مغادرتي هذا المكان، كانت حياتي كلها صعودًا، صعودًا، صعودًا. أنا متزوجة برجل حنون أحبه حبًّا عميقًا. لدينا بيتان... فكرة كانت غير معقولة أبدًا حتى منذ سنة فقط. حظي جيد جدًّا، لكني لن أستطيع أبدًا أن أتفلت من ندمي على ترك ابنتي في هذا الشارع. خيانة سي-ته تزيد مشاعري تفاقمًا وتعقيدًا. الألم شديد في داخلي.

ننزل في الفندق. الحمام في غرفتنا من غير كرسي مرحاض. والماء الحار الموعود فاتر، والمناشف في حمامنا لا تزيد مساحتها ميليمترًا على مناشف المطبخ. يذرع جين الغرفة، ويبدو عليه القلق. يريد أن يتكلم. لا أريد الكلام. أنقلب مبتعدة عنه عندما يستلقي على الفراش. يضع يده على وركي كي يهدئ من روعي، لكني لا أتجاوب معه. أنا في حالة نفسية سيئة... مشروعي فشل، وأسرتي وقريتي على درب الفقر من جديد، وذكريات يان-يه التي توقظها هذه البلدة في نفسي... وأنا الآن زوجة جاحدة. فرق التوقيت بين أميركا والصين يزيد اضطرابي، ومشاعري مختلطة، لكني لا أستطيع أن أغفو. الفراش ليس طريًّا أبدًا، والمطر يصفع النافذة كأن الأرواح تدقها طالبة الدخول، وعقلي كيف ظننت أن السعادة التي عشتها مع جين في الشهور الماضية قد تستطيع يومًا أن تمحو حقيقتي وأن تمحو ما جنته يداي؟

يأتي الصباح، ولا يزال المطر منهمرًا. نذهب إلى صالة الطعام، ويطلب جين شايًا وحساء النودلز. أغسل أدوات الطعام بالشاي الحار كي أقتل الجراثيم. مناديل الطعام ليست إلا قطعًا من ورق الحمام.

يقول جين في الصمت العاري: «لستِ مضطرة إلى الكلام معي إن كنت غير راغبة في ذلك. لكن آمل أن تصغي إلى ما أريد قوله لك. أعلم وتعلمين أن الثراء والامتيازات والجد في العمل وحسن الحظ غير قادرة كلها على شفاء القلوب، ولا هي قادرة على إنقاذنا من الحزن أو الوحدة أو الإحساس بالذنب. دعينا نزور الميتم قبل ذهابنا إلى قريتك».

أهز رأسي. «لا. علينا أن نذهب الآن إلى بئر النبع. لقد سافرنا مسافة طويلة جدًّا، وعليَّ أن أتأكد من...»

«في وسع ذلك كله أن ينتظر ساعة أو نحو ذلك...»

أجيبه راجية: «عليَّ أن أذهب إلى قريتي، من فضلك، يا جين».

تتوتر عضلات حنكه وهو يتأمل إجابتي. يقول آخر الأمر: «سنذهب أولًا إلى بئر النبع، لكننا سنذهب إلى الميتم في وقت من الأوقات أثناء وجودنا هنا. أنت الآن في وضع مختلف عمَّا كان يوم ذهبت إلى ذلك المكان من غير والد طفلك. والآن، أنا معك».

*

على الرغم من الوعد بأن الرحلة إلى القرية صارت الآن سهلة، فقد جعل المطر المنهمر الطريق غير المعبدة طينًا زلقًا. علقت السيارة في الطين، وراحت العجلات تدور في مكانها، وراح السائق يطلق الشتائم. نزلنا من السيارة ووضعنا تحت العجلات حجارة وقشًّا. أفلحت السيارة في الحركة. عدنا إليها وتابعنا طريقنا. لكننا لم نمضِ بعيدًا قبل أن نعلق مرة ثانية. تلا ذلك مزيد من الانزلاق والاهتزاز. وعند منعطف حاد، تنزلق السيارة حتى حافة الهاوية. أصرخ مع انزلاق إحدى العجلات

إلى الفراغ. بقينا لحظة جالسين في سكون تام راجين أن تثبت العجلات الثلاث الباقية.

ترجلنا من السيارة بحذر شديد. يئن السائق ويشكو حزنًا على السيارة التي هي أثمن ما يمكن فيعِده جين بأن يشتري له واحدة أخرى إن سقطت هذه من فوق الجرف. أحس غثيانًا كذاك الذي أحسسته عندما رحلت عن جبل مانوو في صندوق السيارة الشاحنة التي تنقل الشاي. صحيح أننا بقينا على قيد الحياة، لكننا صرنا ثلاث قطط مبتلة. ملابسنا مبتلة كلها، ملوثة بالطين. ونحن ساخطون... صار شكلنا مضحكًا. أعلم هذا لأن الطريق مزدحمة مع أن ما من أحد غيرنا تبلغ به الحماقة حد قيادة سيارة أو دراجة آلية في هذا الطقس. لكن الفلاحين لديهم أراضٍ يجب أن يعملوا فيها وسط بؤس موسم الأمطار. أمهات مع أطفالهن ذاهبات كي يزرن أقاربهن. أطفال لديهم مدارس ينبغي أن يذهبوا إليها. نحن شذوذ مضحك. وأخيرًا، يأتي جرار زراعي مزمجرًا في الطريق. يشير جين إلى سائق الجرار، فأذهب إليه وأكلمه بلغتنا المحلية. وبعد بضع دقائق، أصعد مع جين إلى مقطورة الجرار ونقف متمسكين بحافته الفولاذية التي جعلها المطر زلقة. يبقى سائقنا مع سيارته بعد أن نعده بعودة الجرار إليه لمساعدته.

وبعد نصف ساعة، تعترضنا عقبة أخرى. لقد جرف المطر جزءًا من الطريق. نقرر اجتياز الكيلومترات القليلة الباقية سيرًا على الأقدام. على الأقل، هذا المطر دافئ. نمر بـ«غابة البامبو» ثم ننعطف في الدرب المؤدي إلى قريتي. إلى يميننا، عند موقع البناء، الذي أتذكره من زيارتي

السابقة، ينهض شيء لم أتوقع يومًا أن أراه في أي جبل من جبال الشاي: فيلا في مثل ضخامة واحدة من تلك الفيلات التي كنت أراها مع جين على مقربة من غوانزو. لهذه الفيلا سقف من القرميد، وشرفات ضخمة ممتدة فوق جدران استنادية ضخمة، وأنوار مشعة في كل نافذة من النوافذ في هذا اليوم المظلم المطير. أترك الطريق وأنعطف سائرة في درب صغير. جين سائر خلفي. نتدارك أنفسنا مرات كثيرة قبل أن نسقط على الأرض الزلقة. سرعان ما ندخل بوابة الأرواح في قرية يئر النبع. الدرب التي تخترق القرية مهجورة، بائسة. والكلاب والدجاجات وجدت مخابئ لها تحت بيوت البامبو والقش القليلة الباقية. تبدو البيوت المبنية من قرميد رمادي وجص كالحة، قديمة بعض الشيء. وماء المطر جارٍ على الألواح الزجاجية في سقائف تجفيف الشاي. رائحة كريهة منبعثة من تلك السقائف. نعم... إنهم يخمرون الشاي هنا.

ينعطف جين في اتجاه بيت أسرتي الجديد، لكني لا أحذو حذوه. أمضي مباشرة إلى بيت سي-ته. الباب مفتوح. أدخل من غير استئذان. أرى سي-ته جالسة إلى طاولة وأمامها فنجان شاي وكدس من أوراق. أراها مرتدية الملابس نفسها التي ارتدتها عندما طارت إلى غوانزو لحضور حفل زفافي. المطر منهمر على سطح البيت، لكني لا أسمع غير ذلك إلا أصداء الخواء. لا أحد هنا غيرنا.

تقول لي حتى من غير اهتمام بأن تنظر إليَّ: «كنت أتساءل كم سيطول بك الوقت قبل أن تأتي».

رسالة في الصف من هيلي إلى جيد ١٨ مايو ٢٠٠٧

جيد، لماذا صرتما، أنت وياسمين، لئيمتين معي؟ بل إنك لا تنظرين إليَّ في الصف. لكني أراك تتبادلين الرسائل مع ياسمين. قلت لي إننا سنذهب معًا، نحن الثلاثة، إلى المدينة القديمة كي نتسكع هناك في عطلة نهاية الأسبوع القادمة. قلت أيضًا إننا سنشتري ملابس متماثلة كي يصير مظهرنا واحدًا. قلت إن علينا أن نطلب من آبائنا وأمهاتنا أن يشتروا لكل منا تاماغوتشي هدية عند تخرجنا في الصف السادس السنة القادمة، وذلك كي نستطيع أن نعتني بها معًا.

قلت لي إنني وافدة حديثًا لأنني لست مولودة هنا مثلك. أجبتك بأن ياسمين ليست مولودة هنا فقلت لي إن هذا أمر لا أهمية له لأن والديها ليسا صينيين حقيقيين، ليسا مثل والدي. نحن الثلاثة شكلنا صيني، وأنت تعلمين هذا. لقد كنا صديقتين لصيقتين منذ روضة الأطفال. وعندما التحقنا بمدرسة ويستريدج في الصف الرابع، قلت لي إننا سنظل دائمًا صديقتين. وعندما نمت عندك، قلت لي إننا نكاد نكون توأمين. أنت كاذبة كبيرة.

وأنا لست قصيرة جدًّا. أنا لست قزمة. أنت أحقر شخص على الإطلاق.

هيلي

سلسلة حياة طويلة

ترمقني سي-ته بنظرة باردة. تبدو «تو» كعهدها دائمًا. لكن، ولأول مرة، أراها مختلفة. تقول لي: «لقد كنت تقللين من شأني دائمًا. ومنذ كنا فتاتين صغيرتين، كنت تتصرفين كأنك أذكى مني».

«وأنت كنت أغنى مني. لكني ظننت أننا صديقتان».

«أنت لا تعرفين شيئًا، يا لي-يان».

تقاطعها صيحات كاهن الأرواح. «سي-ته! لي-يان! الجميع! اخرجوا!».

لا تبيح شريعة أكها لي بأن أواجه سي-ته على انفراد، لكني كنت آمل أن أستطيع الانفراد بها قليلًا. تومئ سي-ته برأسها. ترتدي سترة مطرية، وتخطو خارجة من الباب، وتفتح مظلتها. أسير خلفها. صحيح أنني مبتلة تمامًا، لكني ممتنة لهذا المطر المنهمر من غير انقطاع. إلى جانبنا، في الطين، يقف كل من الروما والنيما ومعهما آما وآبا وإخوتي الثلاثة وزوجاتهم وأطفالهم جميعًا... وكل من يعيش في قرية بئر النبع.

بعض الناس مرتدٍ ملابس غربية الطراز، ويحمل مظلات على غرار سي-ته. والآخرون (آما وآبا من بينهم) على رؤوسهم قبعات مصنوعة من أوراق الأشجار. لم يرتدِ الروما والنيما ملابسهما الشعائرية، لكن الروما يحمل عصاه بيده. ألقي نظرة سريعة في اتجاه زوجي الذي لا يفهم لغة أكها. سيكون عليه أن يتابع الكلام اعتمادًا على حركات الجسد وعلى المزاج العام. يجعلني إدراك هذا الأمر أحس أنني أقل قوة.

يبدأ الروما بالقول: «مهما يكن ما تريد كل منكما قوله للأخرى، فمن الواجب، أن يقال هذا أمام الجميع لأن أفعالكما سببت اختلال توازن الغابة وكل من يعيش فيها».

أقول معترضة: «أنا لم أفعل شيئًا خاطئًا».

تشير سي-ته إليَّ بإصبعها: «هي التي فعلت كل شيء خاطئ».

«هذا ليس...»

تقاطعني سي-ته: «سوف تتهمنا بصنع شاي زائف. لكننا صنعنا شايًا مخمرًا تخميرًا اصطناعيًّا مثلما علمنا السيد هوانغ منذ سنين طويلة».

أرفع يدي كي أوقفها عن الكلام: «من فضلك، لا تقولي شيئًا على لساني. لا مشكلة في تخمير أوراق الشاي إن كان ذلك يتم على النحو الصحيح ويعطي منتجًا جيدًا. هذا ما كانت تفعله منطقة لاوبانزهانغ، وهذا ما كنت ترسلين إليَّ. وأما أن تضعي على شاي رديء مصنوع في بئر النبع لصاقة تقول إنه آتٍ من لاوبانزهانغ ثم تبيعين الزبائن ذلك الشاي الزائف بأسعار مبالغ فيها... أثناء غيابي...! وها أنت الآن تلومينني على ذلك!».

تقلل سي-ته من شأن ما قلت. «الجميع يفعل هذا... إنه غير مقتصر على قريتنا».

أجيبها: «صحيح. أقدمت قرى كثيرة على صنع منتجات زائفة. لكن هذا لا يجعل الأمر سليمًا. نحن أكها. نحن لا نغش الناس».

أسمع صوت رجل يصيح: «لي-يان! لم يفعل الجميع ما أرادته منا».

تقول امرأة واقفة إلى جواره: «ونحن أيضًا رفضنا طلبها».

يقول الأخ الأكبر: «رفضت أسرتنا بيعها ما لدينا من ماوتشا ورفضنا أن تستأجر أرضنا». يومئ كثيرون برؤوسهم كي أعلم أنهم رفضوا التعامل معها. كنت أعلم أن سي-ته تستأجر الأراضي، لكني لم أكن أعلم أنها استأجرت أراضي كثيرة جدًّا.

تقول سي-ته: «لو لم تطلب لي-يان منا إرسال كمية غير منطقية من الشاي إلى متجرها، لما فعلنا ما وجدنا أنفسنا مضطرين إلى فعله كي نلبي طلباتها. لم تُرِد إلَّا أن تصير ثرية!».

أتمنى لو أن الأمر لم يبلغ هذا الحد، لكني أرى فيها الآن شيئًا جديدًا. إنها خبيثة، أنانية. أتمنى أن أستطيع العثور في داخلها على الفتاة التي كنت أعرفها.

أمسّ ذراعها وأقول: «يا سي-ته! تعلمين أن الأمر لم يكن هكذا. لقد وثقت بك، يا صديقتي القديمة، ووثقت بأنك ستساعدينني. لدينا شيء ثمين نبيعه، لكنك أفسدت الأمر».

تبتعد عني لحظةَ يصيح واحد من الواقفين بين الناس: «ومن تكونين حتى تقولي لنا كيف نقوم بعملنا؟»

همهمات تسري بين الناس. أخشى ألَّا يصدقونني.

أقول: «لقد استفدنا جميعًا من إقبال الناس على شاي بيوَّر. وقد حاولت أن أجعلكم شركاء لي في الحظ الطيب الذي أتاني».

تقول سي-ته لهم متحدية كلامي، «إنها دخيلة علينا».

«نعم، لقد عشت في الخارج. لكن، أجيبوني على هذا السؤال: كم كانت تدفع إليكم مقابل شايكم المخمر تخميرًا اصطناعيًّا، ذلك الشاي الذي كنتم تضعون عليه أغلفة زائفة على الرغم من علمكم أن منتجكم النهائي ليس من لاوبانزهانغ؟»

يجيبني شخص لا أرى وجهه: «ألفا يوان للكيلو».

«هذا مال كثير. ولكن، هل تعلمون كم قالت لي إنها قد دفعت إلى الفلاحين في لاوبانزهانغ؟ ثلاثة آلاف يوان. على أقل تقدير، كانت تسرق مني ألف يوان مقابل كل كيلوغرام من شاي بيوَّر الزائف. من بيننا نحن الواقفين هنا الآن، ثمة شخص واحد يعلم كم كانت تطلب من الزبائن ثمنًا لذلك الشاي نفسه. عشرة أضعاف، عشرون ضعفًا، ثلاثون ضعف ما دفعته إليكم».

من جديد، تسري همسات بين الناس. لكني أحس أن مزاجهم قد تغير.

أظل ماضية في كلامي: «جنت سي-ته مالًا كثيرًا بمخالفتها شرع الأكها. وأنا أيضًا جنيت مالًا كثيرًا. وحياتكم تحسنت بدورها. بيوت جديدة. كهرباء. دراجات نارية. من الممكن أن يتحمل كل واحد منا جزءًا من المسؤولية. لكن هذا الغش تسبب في أذيتنا كلنا. ففي الخارج،

هوى سعر شاي بيوَّر إلى نصف السعر السابق، ولا يزال ماضيًا في التهاوي».

«هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا».

«كيف نستطيع أن نثق بك؟»

تستغل سي-ته الفرصة، «لا تستطيعون أن تثقوا بها. لدينا طن من الشاي، أو أكثر من ذلك، يتخمر الآن في سقائفنا. فكروا في هذا. ستكون يوم غد قد رحلت، لكني أضمن لكم أن أدفع ألف يوان لكل كيلوغرام».

هذا نصف ما كانت تدفعه من قبل، لكنه يعادل أكثر قليلًا من ١٣٠ ألف دولار مقابل طن واحد من شاي قرية بئر النبع بحسب صرف الصرف الحالي. يعني هذا قرابة ٣٢٥٠ دولار لكل بيت من بيوت القرية البالغ عددها أربعين بيتًا، وهو غير مشتمل على الشاي الذي يُصنع من القطافات الأدنى جودة في أوقات أخرى من السنة. أذكر عندما كان حظ أسرتي يعتبر طيبا إن جنت مئتي يوان في الشهر (أي ٣٠٠ دولار في السنة)، وكنا ممتنين لذلك.

«إذا كان كل واحد منكم راغبًا في صنع الشاي المخمر فلنصنع الشاي المخمر بطريقة سليمة. سوف أدفع إليكم أيضًا... قد لا أدفع إليكم ألف يوان في البداية، لكننا نستطيع العمل للوصول إلى ذلك السعر وإلى ما هو أعلى منه. لكن، علينا أن نمتنع تمامًا عن ادعاء أن شاينا غير ما هو عليه في الواقع...».

تقاطعني سي-ته، «لقد وعدتكم بأن أستأجر الأرض من كل أسرة

هنا. فلنفترض أن ما قالته لكم عن سعر شاي بيوّر كان صحيحًا. إذًا، يعني هذا أن أشجار الشاي التي عندكم، والأرض التي تحتها، لا قيمة لها. أريد مساعدتكم. لا تقبلوا أن تخدعكم دخيلة واقعة تحت تأثير الأرواح الشريرة».

أوجه سؤالًا إلى الناس التي في بئر النبع. «هل تدركون ما تفعله بكم؟ إنها تحاول سرقة أرضكم».

ترد سي-ته: «أنا لا أسرقكم. أنا أستأجر الأرض. إنني أتطوع بأن أظل مسؤولة عن كل أرض أستأجرها إلى أن يحين الموعد التالي لتجديد سياسة ثلاثين سنة من دون تغيير».

«أنت تحاولين أن تصيري مالكة أراضٍ!». هذا أسوأ اتهام أستطيع توجيهه إليها. تبحث عيناي عن جين. يومئ إليَّ برأسه إيماءة لا تكاد تبين. *قوليها! لا ترددي! أنت قوية.*

أقول: «على الدوام، كانت أسرتك أحسن حالًا من بقية الأسر في بئر النبع. لكنك الآن تريدين استئجار أراضي كل أسرة هنا. تريدين استئجارها لحظة تراجع السوق. وتراهنين على أن سعر الشاي سوف يعود مثلما كان».

تطلق ضحكة هازئة. «أنت لا تعلمين شيئًا عن هذا الأمر. لقد قررت اقتلاع أشجار الشاي مرة وإلى الأبد. سوف أساعد الناس لتحويل أرضهم إلى مزارع للمطاط والقهوة».

«لكن قريتنا مرتفعة جدًّا ولا تصلح لزراعة أشجار المطاط. ثم إن تلك الأشجار تدمر كل ما حولها. وأما أشجار القهوة...»

تقول بنبرة وقحة: «منذ الآن، تتواصل معي شركتا ستاربكس ونستلة. سوف يجني الجميع مالًا لأن الطلب العالمي على القهوة في ازدياد...»

«سوف تجردين الناس من الشيء الوحيد الذي لديهم... هذه الأرض وأشجارها الفريدة».

تقول سي–ته مخاطبة أهل القرية من جديد: «لكنكم ستجنون مالًا. أستطيع أن أدفع إليكم أكثر مما يمكن أن تجنوه من الشاي».

«سوف يكون لديكم مال مدة سنتين فقط، ثم ماذا؟». أحاول استمالة الجمع... «هل سيكون أبناؤكم وبناتكم مضطرين إلى السفر مثلما فعلت؟ تستطيعون أن تنظروا إليَّ الآن وتقولوا: «أوه، إنها غريبة!» أو «أوه، كانت أقدارها سهلة!». لكني أعلم كيف يكون الأمر هناك، خارج هذه الجبال، بالنسبة إلى واحد من الأكها من غير تعليم ومن غير فرصة».

كيف أستطيع جعلهم يفهمون؟

أقول لهم: «لدينا ما هو أهم من المال. ولأشجار الشاي عندنا قيمة أهم من الربح المالي. نحن نحفظ أنسابنا، لكن أنسابنا كامنة في أشجار الشاي أيضًا. نستطيع البدء من جديد، لكن علينا أن نفعل ذلك بطريقة سليمة من خلال المحافظة على ما هو أكبر قيمة بالنسبة إلينا. إن لكل شجرة روحًا. كل حبة أرز. كل...»

تفتح سي–ته فمها كي تعترض، لكن آبا يصيح قبل أن تسنح لها فرصة الكلام: «أصغوا إلى ابنتي! ابنتي هي الوحيدة من قريتنا التي

ذهبت إلى مدرسة المستوى الثاني ومدرسة المستوى الثالث. وقد خرجت مثلما قال المعلم زهانغ إنها ستفعل. نحن في حاجة إلى من يستطيع تمثيلنا والاهتمام بأمرنا».

تجتاحني مشاعر شديدة لأنه يتكلم عني هكذا. لكني أستجمع شتات نفسي وأضيف: «لكن فقط إذا استطعنا أن يكون مسلكنا مسلك الأكها السليم...»

يواصل آبا كلامه: «انظروا حولكم. عائلة ابنتي موجودة هنا كلها، فأين هي عائلة سي-ته؟ أين زوجها؟ وأين بناتها؟ كيف للمرء أن يكون أكها من غير عائلة؟».

يتقدم رجل كان يدافع عن سي-ته قبل قليل. «لقد استأجرت أرضي منذ ثلاث سنين وهي قريبة من قرية غابة البامبو التي هي قرية زوجها. بنت لنفسها بيتًا هناك». لا بد أنه البيت الهائل الذي رأيناه أنا وجين في طريقنا. مهما يكن حجم التطور الذي شهدته قرية بئر النبع (تطور كبير بالفعل) فهو يتقزم إزاء ما يوحي به بيت سي-ته الجديد من ثراء. يجعلني هذا كله أحس أنني حمقاء. لو كان مكان سي-ته أي شخص آخر لطرحت أسئلة، لكني لم أنظر أبدًا إلى ما يتجاوز السطح، سطح علاقتنا. لقد كانت محقة عندما قالت لي إنني لم أقدرّها حق قدرها.

دعوا الأمر للنساء كي تعرفوا ماذا يجري لأفراد أسرة سي-ته!

«أخوها وأسرته في ديزني لاند في هونغ كونغ».

«زوجها وبناتها في ميانمار، يشترون العقيق».

يصيح واحد من الناس: «بنت الكلب!». يطلق آخرون شتائم أشد

قسوة. لكن هذا لا يعني أن المزاج قد تغير تغيرًا تامًّا. يكسب كثيرون معاشهم من خلال سي-ته. ماذا يحل بهم إن تركوها؟ التوتر واضح. أخشى أن ينشب عراك جسدي بين الناس.

يضرب الروما الأرض بعصاه. يصمت الجميع ريثما يتشاور الروما والنيما. وبعد قدر غير قليل من الهمس والإشارات بالأيدي، يعلن الروما: «سوف نقيم طقسًا في بيتي».

*

نسير كلنا موكبًا متجهمًا صوب بيت الروما حيث يرتدي الاثنان عباءتيهما الشعائريتين. يجلس الكبار في دائرة من حولنا. وبعد أن يهدأ الجميع، يستدعي النيما سي-ته ويستدعيني كي نجثو أمامه. يرسم بهباب الفحم خطًّا من جبهتي حتى رأس أنفي. يكرر الأمر نفسه مع سي-ته.

يعلن قائلًا لإلهنا الأكبر آ-بويه-مي-يه: «هاتان الاثنتان اللتان رسمت علامة على وجهيهما هما من نريد أن تنظر إليهما وتتفحصهما». بعد ذلك، يربط خيطًا من حول معصمينا، أنا وسي-ته... «فلتكونا معًا في رحلتكما إلى العالم السفلي!». وأخيرًا، يسكب على الأرض قدرًا من الكحول فيتسرب عبر أرضية البامبو ويقطر على الأرض التي تحتها... «أدعوكم، يا أسلافنا، إلى مساعدتنا في البحث عن الحقيقة. هل ثمة روح تعبث بروحي هاتين المرأتين وتخنق قريتنا؟»

يدور محجرا عينيه خلفًا حتى لا يظل مرئيًّا غير بياضهما. ترتعش ذراعاه وساقاه فتتصادم القطع النقدية والعظام على عباءته وترن. تخرج من فمه كلمات غير مفهومة: «أووه، آو، تسا». يستمر الطقس ثلاث

ساعات يتوقف هطل المطر خلالها. لكن غياب صوت المطر المتساقط يجعل أنين النيما أعلى من ذي قبل. وعندما يخرج من غشيته، تؤمر كلتانا بالخروج كي يستطيع التشاور مع الروما ومع كبار القرية. لا يزال رجال القرية ونساؤها وأطفالها جميعًا منتظرين في الخارج تحت الرذاذ الضبابي. الانقسامات واضحة: الجماعة الأكبر استفادة من سي-ته والجماعة التي لا تزال متمسكة بأرضها وبأساليب العيش القديمة. لقد غبت عن القرية أكثر من عشر سنين في حين كان لسي-ته حضور نافذ دائم. وأنا أعدهم بشيء غير ملموس من أجل المستقبل في حين أنها قد غيّرت بالفعل حياة أشخاص كثيرين. أطالبهم بالشرف، وهي تضمن لهم سبل العيش.

يخرج الروما والنيما كبار القرية وينضمون إلينا. وبموجب التقاليد، يكون على الروما إعلان النتيجة ونقل توصيات النيما.

يبدأ كلامه. «يجري إلقاء الاتهامات جيئة وذهابًا كأنها سهام مسمومة. لكننا قيّمنا كل شيء، بما في ذلك ما رآه النيما في العالم السفلي». وعندما يطرح سؤالًا، «هل يمكن أن تكون روحًا قد دخلت سي-ته». أحس لمسة من أمل. «لو قال لي النيما إن روحها تشهق طالبة الهواء لأخذت أوراق موز محشوة رمادًا وقشور أرز وقطعًا نقدية ودعكت بها جسدها، لكنها لا تشكو ذلك. لو أنها جن جنونها ومزقت ثيابها وراحت تعوي كأنها حيوان، لطلبت من ثلاث نساء محترمات من قريتنا أن يتبولن على مكنسة لاستخدامها لكنس المشكلات عن سي-ته، لكنها لا تشكو شيئًا من هذا. لو كانت تصيبها نوبات صرع لشددت وثاقها بعرق نبات

سحري وذبحت لها عنزة وخنزيرًا ودجاجتين، لكنها لا تشكو شيئًا من ذلك. سي-ته لا تعاني أي تأثير ناجم عن الأرواح. كل ما فعلته كان من صنع يديها وقلبها وعقلها...»

يغمرني ارتياح عظيم، لكن سي-ته تنفجر غاضبة. تصيح: «كم أعطتك لي-يان كي تقول هذه الأمور؟».

يجيبها الروما ساخطًا: «الشامانات وكهنة الأرواح لا يكذبون. نحن لا نستطيع الكذب. وإن كذبنا، فإن الأرواح تغضب علينا. دعيني أتابع، من فضلك! الشرارة تشعل نارًا. والماء ينبت الحب. تقول لنا شريعة أكها إن لحظة واحدة تغيّر الأقدار. هذا ما جعلنا أنا والنيما نبحث في الزمن كي نجد اللحظة التي غيّرت كل شخص في بئر النبع وغيّرت هاتين الاثنتين أكثر مما غيرت أي شخص آخر. أتحدث عن تلك اللحظة عندما تسببت الأرواح الشريرة في ولادة توأمين بيننا».

يصمت الجميع، لكن ذاكرتي لا تعود بي إلى ولادة توأمي ديه-جا بل إلى طقس التطهر الذي أقيم من أجلي يوم حادثة سرقة الفطيرة. أحسست أن الروما قد فهم (بطريقته السحرية) كل ما حدث. لكنني أدرك الآن أن قدراته لا علاقة لها بالسحر بقدر ما هي قائمة على تفسير العالم تفسيرًا سحريًّا.

أسمعه يقول: «بالنسبة إلى لي-يان فقد جعلها مجيء الغلطتين البشريتين تبدأ النظر إلى ما خلف بوابة الأرواح، إلى العالم الذي في الخارج». أرى الآن أن ذكاءه جعله يحمِّلني قسطًا من المسؤولية. «وأما سي-ته...»

تكمل سي-ته جملته بنبرة حزينة: «خسرنا ثروتنا وسمعتنا، وخسرنا أخي».

«وهذا ما جعلك تبذلين جهدًا كبيرًا لاستعادة مركز عائلتك ورخائها. بل إنك أفلحت أيضًا في إعادة أخيك كي يكون قريبًا منك، وإن لم تستطيعي إعادته إلى حياة القرية». يضرب الأرض بعصاه... «دعونا الآن نطرد الأرواح الشريرة التي سكنت هاتين المرأتين. اتركيهما أيتها الأرواح! اذهبي عنَّا! اذهبي إلى الأبد!». يتوقف لحظة قبل أن يضيف: «سوف نبدأ الآن طقس الامتناع الشعائري».

في وقت من الأوقات، كان ممكنًا لهذا الأمر أن يسوّي كل شيء، لكن ما نحن فيه ليس أمرًا بسيطًا كأن يمس أحدهم بوابة الأرواح، أو كأن يصعد كلب ويقف فوق سطح واحد من البيوت.

يصيح شخص: «ماذا عن أرضي؟ هل تعيدها إلي سي-ته وتأخذ مالها؟».

تسري الفكرة عبر الحشد.

يصيح فلاح آخر: «قد يصلح هذا لك، لكني لا أستطيع إعادة المال لأنني أنفقته».

يعلو صوت رجل آخر: «ألا تنبغي معاقبة سي-ته؟».

عند ذلك، يفصح واحد من أنصار سي-ته عن رأيه: «لماذا يكون عليها أن ترحل؟ لقد أجرتها أرضي. لماذا لا أستطيع العمل لديها في غرس أشجار القهوة؟».

«اجعلوا الغريبة ترحل! انظروا إليها. هي ليست أكها حقيقية».

أسمع أصواتًا كثيرة تؤيد هذا الاقتراح الأخير.

يسأل الروما. «إذا تزوجت امرأة شخصًا من الخارج، فهل يعني هذا أنها لا تعود من الأكها؟ في الماضي، هل كف رجالنا عن كونهم من الأكها عندما كانوا يسافرون شهورًا أو سنين على طريق الشاي والخيل؟ إن أرادت لي-يان أن تظل بيننا، فهي موضع ترحيب. وأما سي-ته... فهي ليست غلطة بشرية. هي ليست قاتلة. وأنا لا أستطيع معاقبتها. إن لها بيتها الخاص بها خارج حماية بوابة الأرواح في قريتنا. فلتواصل عيشها هنا. ومن يريدون العمل معها يعلمون أن الأرواح الخيّرة والأرواح الشريرة تراقب ما يجري».

هذا ليس غفرانًا لسي-ته. ومن الواضح أنها لن تجد صعوبة في إثارة الناس من جديد. ينتصب ظهرها وتشق طريقها بين الناس متوقفة هنا وهناك كي تتحدث مع مؤيديها. أحس حزنًا عليها وعلى أسرتها التي نزلت بها خسائر كبيرة نتيجة ولادة التوأمين. أحس هذا لأنني أعلم الأثر الذي تركته تلك الولادة في نفسي. بل إنني معجبة (على مضض) بالرغبة التي نشأت لديها عندما كنا صغيرتين... الرغبة في مساعدة أسرتها. لكنني أراها تسير مبتعدة وأعلم أننا لن نعود صديقتين أبدًا.

*

بعد تمكني من فضح ما قامت به سي-ته، أحس ضرورة زيادة حضوري في القرية. أتمنى مساعدة أهل بئر النبع في استعادة اعتزازهم بشاينا وفي تنشيط تجارة شاي بيوّر، وكذلك في استعادة المال الذي صار الجميع معتمدًا عليه. يوافقني جين على هذا. يا لحسن حظي! وعلى

امتداد أسابيع بعد ذلك، مع تواصل موسم الأمطار وقلة ما نستطيع فعله من أجل الأشجار، أمضي وقتًا في الذهاب من بيت إلى بيت محاولةً بناء الثقة، في حين يتابع جين أعماله من خلال مكالماته الهاتفية، ويذهب إلى مينغاي أو جينغهونغ من حين إلى آخر كي يجتمع بشركاء له. وفي الليل، ننام في واحد من أكواخ المتزوجين حديثًا. هذا ليس وقتًا مناسبًا لبناء بيت، لكن الروما وجين يباشران البحث عن تاريخ ملائم لبدء البناء. وفي اليوم المقرر، يخرج الرجال إلى الغابة لقطع البامبو. وأما نحن النساء، فنجمع القش للسقف ونضفر حبالًا من البامبو. ينتهي إنشاء بيتنا الجديد مع حلول وقت الغداء. لا ينقصه شيء غير وسائل الراحة الحديثة التي وعد جين بأن يأتي بها. ننتقل بعد الظهر إلى بيتنا. وفي تلك الليلة، أحلم بالماء. ثم يمر أسبوعان فأستيقظ على ألم في بطني. لقد حبلت!

جين في غاية السرور. يتصل بأمه، وأستطيع سماع فرحتها عبر الهاتف. ابتسامة آما واضحة، واسعة. تقول: «هل كنت في حاجة إلى هذا الوقت كله حتى تدركي؟ أنا والكنات كان في مقدورنا قول هذا لك منذ نصف دور زمني». نبرة كلامها عادية، لكنها تشع سعادة كشمس صباح ربيعي.

هذا ما كنت أتمناه. هذا ما سيجعل حياتنا تامة. لكن المخاوف التي يثيرها حملي تقلقني. ماذا لو كانت بنتًا؟

يطمئنني جين. «لا أريد صبيًا. لست مضطرة إلى هذا من أجلي».

لكنه لا يدرك أن كل أكها يتمنى مجيء الصبي أولًا، وبعده بنت،

وبعدها صبي، وبعده بنت. هكذا نحفظ توازن العالم. لقد ولدت بنتًا والآن ينبغي أن ألد صبيًّا.

من غير قصد منه يزيد المعلم زهانغ من قلقي عندما يأتي مع امرأتين من مكتب تنظيم الأسرة في مركز استلام الشاي لزيارة قرية بئر النبع وتعليق ملصقات بجدران المباني تعلن إطلاق حملة جديدة رامية إلى معالجة «الجانب المظلم في المعجزة»، معجزة سياسة الطفل الوحيد. يقول المعلم زهانغ: «صار في الصين فائض ضخم من الرجال بالمقارنة مع عدد النساء. وهذا الفائض يزداد بمقدار مليون امرأة كل سنة». يحمل كل ملصق من الملصقات شعارًا مختلفًا، لكن الشعارات كلها ناطقة بالرسالة الجوهرية نفسها: *تشكل البنات الجيل التالي. الرجال والنساء يبنون معًا مجتمعًا متناغمًا. الطبيعة هي التي تقرر جنس المولود. تأتي ولادة البنت نتيجة إرادة الطبيعة.* لا يزيل أهل القرية تلك الملصقات لأن شعاراتها كلها منسجمة كلها مع شريعة الأكها. تأتي بنات إخوتي الثلاث إلى البيت وقد حفظن بعض العبارات التي يكثرن من تكرارها إلى حد منذر بالخطر:

«اعتنوا بالبنات! ساندوا طبقة البنات!»

«احموا بناتكم! في هذا نفع الدولة والشعب والأسرة»

«الاهتمام ببنات اليوم إعراب عن الاهتمام بمستقبل الصين»

ينبغي لهذا كله أن يجعلني راغبة في أن ألد بنتًا، لكن حذري يزداد كلما ازداد تشجيعي على ولادة بنت.

ليتني ألد صبيًّا!

*

في شهر أكتوبر، بعد خمسة شهور من المواجهة مع سي-ته، ينشأ لدينا إحساس بأن الوقت صار مناسبًا للعودة إلى غوانزو كي يهتم جين بعمله وكي أستطيع زيارة سوق الشاي لبحث ما هو لازم لافتتاح متجر جديد. علينا أن نمر بمنغاي كي نصل إلى المطار في جينغهونغ. لذا، ومثلما اتفقنا، أعرّج مع جين على «معهد الرعاية الاجتماعية». ينبغي أن يكون موسم الأمطار قد انتهى، لكنه يوم ماطر. متسولة جالسة تحت مأوى أقامته كيفما اتفق على درجات الميتم... في هذا الطقس ومن غير أحد معها! لست أدري إن كانت هي الشخص نفسه الذي رأيته نائمًا تحت غطاء من الورق المقوى عندما مررنا بمنغاي في طريقنا إلى بئر النبع. يتأخر جين عني كي يسقط في فنجانها بضع قطع نقدية، ثم يقفز الدرجات صاعدًا كي يلحق بي فندخل المكان معًا.

فور إغلاق الباب من خلفنا، تطغى رائحة البول التي يزيدها دفء هذا النهار ورطوبته. أطفال يحبون على الأرض وأطفال يسيرون مستندين إلى دراجات صغيرة، وأطفال رضّع يتلوون في مهود معدنية، وأطفال أكبر سنًّا (لدى أكثرهم اضطرابات جسدية أو عقلية) جالسون عند الجدران. واحد من الأطفال (صبي) جالس عند الجدار وساقاه الضامرتان تحته كأنهما غصنان مكسوران. على الرغم من وجود الأكاليل والزينات المعلقة بالجدران منذ رأس السنة، أرى أن الغرفة مفتقرة إلى الألعاب والكتب، على الرغم من نظافتها. ثلاث نساء مرتديات أثوابًا متماثلة وردية اللون وعلى رؤوسهن مناديل منهمكات في نشر الحفاظات المغسولة على حبل غسيل معلق بخطاطيف متدلية من السقف. ترانا

واحدة منهن فتترك عملها وتأتي إلينا. تمسح كفيها بردائها فأرى سوار آما في معصمها. إنها المديرة زهاو. تدور الغرفة بي.

تخاطبنا بنبرة مهذبة. «أهلًا بكما في معهد منغاي للرعاية الاجتماعية. ألا تشربان الشاي؟ هل تناولتما الطعام؟».

تدعونا المرأة إلى غرفة الجلوس التي فيها أريكتان حشوهما مبالغ فيه من تحت قماش حائل اللون. على مساند الأريكتين أغطية من قماش. تأتي العاملتان الأخريان بالشاي وبطبق فيه حزوز من البطيخ الأحمر والأصفر. يُصب الشاي فيزداد حر الغرفة وتزداد رطوبتها. وبعد تقديم الضيافة، تجلس المرأتان معنا مستعدتين للمشاركة في الحديث.

تسألنا المديرة زهاو: «هل تريدان تبني صبيًّا أم بنتًا؟ هذه الأيام، يزداد الصينيون إقبالًا على تبني الأطفال لأنهم لا يريدون أن يترك أطفالنا بلدهم الأم. أكثرهم يريد صبيًّا، لكن الصبيان الذين لدينا جميعًا من ذوي الاحتياجات الخاصة. يقال لنا إنهم «قمامة المجتمع»!». تتنهد المرأة... «إن لم يكن مسموحًا لك إلا بطفل واحد، فسوف تريده كاملًا. يصح قول هذا على الأهل الحقيقيين وعلى من يتبنون الأطفال أيضًا، أليس كذلك؟ أستطيع أن أعرض عليكما خيارات كثيرة من البنات. هل تريدان طفلة حديثة الولادة أم طفلة صارت قادرة على أداء بعض المهام وعلى العناية بنفسها؟»

أقول لها: «نحن هنا من أجل أمر آخر». أسرد ما لديَّ من معلومات فأرى المديرة زهاو تومئ برأسها مقرّة بأنها تذكر ذلك كله. صندوق الورق المقوى لم يكن أمرًا فريدًا ـ لعل أطفالًا كثيرين يأتون في صناديق

مثله ـ لكن قالب الشاي هو الأمر الفريد. والأهم من هذا أننا كنا، أنا وسان-با، الأبوين الوحيدين اللذين كانت لديهما شجاعة كافية، أو حماقة كافية للمجيء إلى هذا المكان للمطالبة بابنتهما التي تركاها هنا على نحوٍ غير قانوني.

تقول المديرة: «لم تنسَ أي منا ذلك اليوم. كان عليَّ أن أستدعي الأمن العام كي يعتقلكما. ثم رأيتك تغيبين عن الوعي. وأنا لست من غير قلب».

تتبادل العاملتان نظرات سريعة عندما تدفع المديرة بسوار آما كي تخفيه تحت كمها، تدفعه بيدها الأخرى التي من غير سوار. لكن اليوم ليس مثل الأمس. جين موجود معي. وها هو يمسك بزمام الحديث. صحيح أن النساء الثلاث يغطين أفواههن ويملن برؤوسهن كأنهن يفكرن عميقًا في هذه المعضلة الأخلاقية لكن المال الذي يحمله بيده إغراء كبير جدًّا.

تقول أصغرهن: «قيل لنا إنها أُرسلت إلى هوليوود».

هوليوود! أتمسك بمسند الأريكة.

تسألني: «هل ذهبتِ إليها؟»

أومئ برأسي غير راغبة في الكشف عن أي مزيد.

تشرق وجوه النساء بمن فيهن المديرة زهاو. هل يمتلك الجميع سيارات؟ هل تصبغ جميع النساء أظافرهن؟ ثم تصير الأسئلة أكثر شؤمًا.

«هل صحيح أن الأميركيين يتبنون بناتنا ويربوهن إلى أن يكبرن بما فيه الكفاية للاستفادة من أعضائهن؟»

«هل يتبنون بناتنا من أجل الجنس؟»

يقول جين: «هذه دعاية حكومية. لا يصح أن تكررن قول هذه الأشياء».

أسألهن: «هل أنتن واثقات بأنها في هوليوود؟»

تقول العاملة الأصغر سنًّا: «يريد الجميع الذهاب إلى هوليوود».

تقول المديرة زهاو بقدر من الفظاظة: «هي لا تعرف شيئًا عن هوليوود». تحاول أن تجذب إليها الانتباه (والرشوة المعروضة أيضًا). تنتظر بينما يحصي جين الأوراق النقدية ويضعها كدسًا على الطاولة. تقول بعد أن يعجبها المبلغ المعروض: «قلت لك المرة الماضية إن الطفلة أُرسلت إلى كومينغ. ومن هناك أرسلوها إلى لوس أنجلوس إلى مكان من الأماكن في محافظة لوس أنجلوس. نحب القول إنها ذهبت إلى هوليوود».

لوس أنجلوس ليست محافظة، لكنها مدينة كبيرة. يعني هذا أن يان-يه يمكن أن تكون في أي مكان من فينيس بيتش إلى سان غابرييل، ومن وودلاند هيلز إلى... لست أدري. ربما إلى ديزني لاند.

يقول جين: «نريد رؤية الملف».

تعثر المديرة على الملف من غير مشقة. تناولني إياه. أجد في الملف صورة (في الصورة طفلة رضيعة عمرها بضعة أيام مع غطاء رأس نيلي اللون مزين بحليٍّ فضية)، وبصمة قدم بحبر أحمر، وورقة واحدة تحتوي على معلومات عامة عن وصول يان-يه إلى الميتم. هذه الأشياء الثلاثة هي الدليل الملموس الوحيد على وجود ابنتي.

أمر بإصبعي على الصورة وأسأل المديرة: «ألا ينبغي أن يكون في الملف ما يتجاوز هذا؟»

تبتسم لي ابتسامة تعاطف. «بقية الوثائق وواحدة من الصور ذهبت مع ابنتك إلى مركز الرعاية الاجتماعية في كومينغ بغية تثبيت هويتها هناك. لكن حريقًا شبَّ منذ سبع سنين فأتلف سجلاتهم كلها. تستطيعين زيارة المركز الجديد هناك كي تري إن كان ثمة من يتذكر شيئًا. لكن الأطفال يأتون إليهم من أنحاء المنطقة كلها كي يتم تبنيهم خارج البلاد. لا أرى كيف يمكن أن يتذكروا طفلة واحدة من بين أطفال كثيرين».

إذًا... ما من إجابات يسيرة وما من أدلة أستطيع متابعتها. مع ذلك، صرت الآن عارفة مكان وجود ابنتي... إن كانت هذه المعلومات دقيقة، وإذا كان من تبنوها لم يغيروا مكان إقامتهم. هل يعقل يمكن أن تكون ابنتي في لوس أنجلوس لا في أي مكان آخر لكني لا أواصل البحث عنها هناك في كل لحظة. أبدأ البكاء. السيدات لطيفات معي، يربتن على ظهري، ويهدلن، ويسكبن لي مزيدًا من الشاي. بل إن المديرة تعرض أن تعيد المال الذي أعطاها إياه جين وتقول: «لا يقع لنا كثيرًا أن نرى معاناة الأمهات هنا، نحن لا نرى غير الأطفال».

تعطيني الصورة وبصمة القدم، ثم ترافقنا النساء الثلاث حتى الباب. يبكي الأطفال الصغار في مهودهم، ويحبو أطفال أكبر منهم قادمين صوبنا. ويحاول الأكبر بين الأطفال أن ينظروا إلى عيوننا، لكنها نظرات يأس لإدراكهم أننا لسنا هنا من أجلهم. تضع المديرة يدها على كتفي فتنضغط حافة سوار آما على كتفي مواسية إياي.

تقول لي: «لو استطعت لساعدتك».

أسألها عبر دموعي: «إن كنت لا أستطيع استعادة ابنتي، فهل من شيء أستطيع فعله من أجل بقية الأطفال؟»

«أوه، لا! نحن بخير. يعطوننا كل ما يلزمنا».

أحاول التفكير في أمور كبيرة. «ربما... ما قولك في غسالة مع آلة تجفيف؟»

تقول: «لا نستطيع أبدًا قبول هذا السخاء الكبير». لكنها تحاول أن تكون مهذبة على الطريقة الصينية.

يعني هذا أن طيراننا عائدين إلى غوانزو سوف يتأخر يومًا. نفتح مظلتينا ونخطو خارجين إلى المطر. المتسولة التي كانت طوال الوقت عند المدخل تلوح لجين مشيرة له بأن يقترب منها. لقد أعطاها مالًا عند دخولنا، لكنه يضع يده في جيبه من جديد ويتحرك على الدرجات جانبيًّا كي يقترب منها. تؤلمني رؤية المتسولين في غوانزو والمشردين في لوس أنجلوس. لكن مصادفة متسولة في محافظتي...! لقد نشأنا على أرضنا. متى وجدنا طعامًا أكلناه، ومتى لا نجد لا نأكل شيئًا. لكن فكرة أن تصير واحدة منا متسولة.

«سيدي، اقترب قليلًا من فضلك». تقول المرأة هذا بلغة ماندرين، لكن لغتها مكسّرة... «دعني أريك شيئًا. إنني في انتظار المشترين المناسبين. أنت وزوجتك تبدوان شخصين من أصحاب الذوق الرفيع. أعلم أن من بين يأتون من بعيد بغية اقتناء التحف سيدفعون مبلغًا طيبًا...».

ما كنت في حاجة إلا لسماع أولى كلماتها كي أعرف صوتها. تمسك بي الكلمات كأنها فخ يطبق عليَّ. إنها ديه-جا. ما أحسه من خسارة لا تعوض لأنني فقدت ابنتي تعقبه مصادفة لقاء ديه-جا فأحس هذا كله يطغى عليَّ ويجتاحني كأنه موجة هائلة. تمر لحظة لا أستطيع فيها حراكًا لأن استيعاب الأمر شديد الصعوبة. كانت بالكاد حية عندما رأيتها أثناء ذهابي مع سان-با إلى تايلاند، لكن هذا مختلف. ديه-جا، ابنة الأكها، صارت الآن متسولة! لم أسمع شيئًا كهذا من قبل. أستنشق نفسًا عميقًا كي أستطيع تمالك نفسي، ثم أتقدم وأقف إلى جانب زوجي حيث تعرض ديه-جا (قذرة تكاد تكون من غير أسنان، شديدة السمرة والتغضن مثل ثمرة خوخ مملح) أثمن ما لديها للبيع: غطاء رأسها يوم زفافها.

لا تعرفني إلا عندما أتكلم. نعم، لقد تغيرتُ كثيرًا.

تقول من غير أن يظهر عليها أي حرج نتيجة وضعها. «ساقك القدر في اتجاه، وساقني في اتجاه آخر. والآن، هل تريدين شراء غطاء رأسي؟ أظنك تذكرينه».

«أذكره بالطبع، لكني لن أشتريه. سوف تأتين معنا». يرتفع حاجبا جين في مفاجأة واضحة.

«لا مصادفة، لا قصة». أنطق بهذه الحكمة القديمة قبل أن أشرح له الأمر... «في وقت من الأوقات، كانت ديه-جا من أهل بئر النبع. وقد كنا معًا، أنا وهي، في أسوأ لحظاتنا». أتوقف لحظة وأنظر إلى عينيها... «ثم التقينا مصادفة حيث كان مستبعدًا جدًّا أن نلتقي. لا بد أن لهذا معنى، أليس كذلك؟».

كان منتظرًا أن تنقضي الساعتان التاليتان في سماع قصة ديه-جا الحزينة عندما عاشت سنوات طويلة عيشة النّساك في الأدغال قبل أن تنطلق سائرة في دروب الجبال (وحيدة دائمًا) عائدة إلى محافظة جيشوانغبانا. بدلًا من ذلك، تتالت سلسلة طويلة من ضحكاتها وصيحاتها التي تطلقها استغرابًا وهي تجرّب أول دوش في حياتها، وأول مرحاض حقيقي، وأول وجبة في مطعم، أول برنامج تلفزيوني، وأول فراش، وأول مكيف هواء، وأول قميص نوم، وأول استخدام للكهرباء. لا تكف عن إطفاء المصباح إلى جانب السرير وإضاءته من جديد.

أجلس على السرير إلى جوارها، وأمسك يدها محاولة جعلها تطمئن إلى النوم أول مرة في حياتها داخل غرفة لها أربعة جدران حقيقية صلبة. تسألني: «لماذا تفعلين هذا من أجلي؟».

«لعله ليس من أجلك! لعله من أجلي أنا! سنذهب غدًا إلى ديارنا...»

«إلى بئر قرية النبع! لا أستطيع الذهاب إليها».

«نحن ذاهبان إلى غوانزو...».

«يا للشمس ويا للقمر! هذا مستحيل!».

«نحن من الأكها، أي إن سلسلة حياة طويلة تربط بيننا. ألا تزالين مؤمنة بشرور الأرواح وبقدرة أسلافنا على درء خطرها؟»

بالطبع، لا تزال مؤمنة بهذا.

أواصل كلامي: «اليوم، كنا واقفتين معًا على تلك الدرجات. لا ضرورة أن نعلم سببًا لهذا. ليس علينا أن نفعل شيئًا غير تذكر أن أرواح

أسلافنا تريد لنا أن نكون معًا. تأمرنا شريعة أكها بألا نتجاهل نذر المصادفات».

ثم يأتي صباح اليوم التالي، فتخوض ديه-جا أول تجربة لها في التجول بالسيارة إذ يأخذنا السائق إلى جينغهونغ كي نشتري الغسالة وآلة التجفيف. لشدة ذعرها، يستحيل وجهها أبيض اللون كأنها شبح. ولا أكف عن تذكيرها بأننا نستطيع التوقف إن داهمها غثيان وأرادت أن تتقيأ. يكاد ثمن الغسالة وآلة تجفيف الملابس يبلغ ثلاث مئة دولار. مبلغ بسيط بالنسبة إلينا، لكن هاتين الآلتين كفيلتان بتغيير طبيعة حياة الجميع في مركز الرعاية الاجتماعية. لا أريد المغامرة بأي شيء. لهذا، نلحق بالسيارة الشاحنة عائدين إلى منغاي حيث نحرص على التأكد من تركيب الآلتين ومن أنهما تعملان من غير مشكلات. تبتسم السيدات الثلاث عبر دموعهن. يقترب الأطفال الأكبر سنًّا كي ينظروا عن كثب. يحيط الصغار بديه-جا على الدراجات التي تساعدهم في المشي فتعلو ضحكاتها خفيفة صافية كماء شلال متساقط على الصخور.

قاربت الساعة الرابعة بعد الظهر. يعطي جين العامل الذي ركّب الآلتين مبلغًا من المال ويتركه يذهب في سبيله. تعرض علينا المديرة زهاو شايًا ووجبة طعام. الآن، بعد أن رأتنا نتبنى متسولةً، صارت تأمل أن نأخذ معنا أيضًا طفلًا من عندها. تصيح مسرورة عندما أقول لها إنني حبلى، «نبأ رائع! فيما بعد، عندما تريدين أن تكون لطفلك أخت صغيرة، فأنت تعلمين أين تجدينها». تسير معنا حتى الباب، وتمسك بيدي وتدس

فيها شيئًا. إنه سوار التنين، سوار آما. تقول المديرة: «إن لك قلبًا كبيرًا كريمًا. يؤسفني ما أصابك من حزن وما كان لي من دور في ذلك، لكن الحكومة تفرض علينا القيام بهذا العمل».

ثقل سوار الفضة في معصمي يهدئ روحي... كأنني بدأت أعيد الأمور إلى نصابها.

*

مع أن غوانزو مدينة ضخمة جدًّا، فإن ديه-جا لا تكاد تنتبه إليها لأنها شديدة الانشغال برعايتي. التعبير الذي نستخدمه، نحن الأكها، للإشارة إلى الحمل هو «شخص يعيش تحت شخص آخر» بمعنى أن الزوجة تعيش تحت زوجها ولن تقدر على الفرار منه.

لكن واقع الأمر أننا، أنا وجين، نعيش تحت ديه-جا. ما أشد تسلطها! ليست لدينا قطة في البيت، لكنها تذكر جين مرة كل يوم، أو أكثر، بألا يضرب القطة وبألا يرفسها كي لا يتصرف طفلنا كالقطط بعد أن يأتي إلى هذا العالم. تحظر عليه تسلق الأشجار لأن من شأن هذا أن يجعل الطفل يصرخ خوفًا ويبكي من غير انقطاع. لكن من غير المحتمل أن يتسلق جين أي شجرة.

وعندما يبلغ حملي الشهر الخامس، تمنع ديه-جا جين من أن يقص شعره. إلا أنها تظل محتفظة من أجلي بأشد أوامرها صرامة، وذلك حتى في أتفه الأمور. تقول لي موبخة: «لقد ربوك على أن تسيري بزاوية مائلة عندما يكون في بطنك طفل كي يصير انتفاخ بطنك أقل ظهورًا». أحاول الانتباه كي لا أخالف هذه القاعدة، لكن الأمر

صعب عندما تسير في أنحاء غوانزو كلها نساء حوامل مرتديات بنطلونات مرنة وتيشرتات ضيقة، يسرن معتزات بأن يرى العالم كله أنهن موشكات على الإنجاب.

المخطوط الخاص بمجموعة د. آرنولد روزن للمعالجة النفسية للصينيين المتبنين، ١ مارس ٢٠٠٨

د. روزن: تسرني موافقتكم، يا آنساتي، على رؤيتي ضمن هذه المجموعة. بالطبع، كانت لنا لقاءات فردية. منكم من أراها منذ سنين، ومنكم من لم تكن لي معها إلا بعض جلسات، كهيلي مثلًا. اسمحوا لي بأن أتجول في الغرفة وأعرفكن على الجميع هنا. جيسكا، أنت أكبرهن سنًّا لأنك بلغت السابعة عشرة. تيفاني وآرييل في السادسة عشرة. هيلي وهيدي تبلغان الثالثة عشرة هذه السنة. من منكن تحب أن تبدأ؟

جيسكا: لا أرى سببًا لأن أتحدث عن نفسي أمام اثنتين من المراهقات التافهات.

تيفاني: وأنا مثلك.

د. روزن: إذا وضعنا فارق السن جانبًا، نجد أن ثمة أمورًا مشتركة كثيرة بينكن جميعًا. أنتن مقيمات في مناطق متقاربة، في باسادينا وأركاديا وسان مارينو...

جيسكا: عظيم! يعني هذا أننا سنلتقي مصادفة في الشارع...

د. روزن: تتلقين جميعًا تعليمًا متماثلًا. وقد ذهبتن إلى مدرسة كريست فيو الابتدائية أو تشاندلر أو يستريدج أو بولي.

جيسكا: بدأت أخشى منذ الآن.

د. روزن: وجميعكن صينيات.

جيسكا: وماذا؟

د. روزن: وقد تم تبنيكن جميعًا من الصين.

جيسكا: لا زلت لا أرى لماذا ينبغي أن تكون هاتان الاثنتان معنا هنا.

د. روزن: من هما؟

جيسكا: الفتاتان الصغيرتان.

د. روزن: إنهن أصغر منك قليلًا. لكنهما لن يخشيا الكلام حتى نسمعهما.

جيسكا: أنت تعني أنهما لن يخشيا أن يتكلما عليَّ! لا بد أنك دعوتهما كي يتعلما من مثالي السيئ. أنتما... قولا لي اسميكما مرة أخرى.

هيلي: أنا هيلي.

هيدي: وأنا هيدي.

جيسكا: اسمعا نصيحتي أولًا، ثم عودا إلى ماما في البيت. لا تقبلا ممارسة الجنس الفموي في حفلة مقامة في واحد من البيوت لمجرد أن شابًّا يطلب منكما ذلك. لا تشربا الويسكي الممتاز الذي عند بابا إن كان من ذاك النوع من الأشخاص الذي يلاحظ أن الزجاجة قد نقصت قليلًا. بل ينبغي أن أقول لكما: لا تشربا الويسكي. لا تحاولا معالجة أنفسكم. أنتما تريان د. روزن. وهو يعطيكما أدوية أفضل كثيرًا.

د. روزن: أشكر لك مساهمتك، يا جيسكا! أستطيع رؤية أنك غاضبة.

جيسكا: أنت تقول هذا دائمًا.

د. روزن: هل تستطيعين التفكير في أي سبب آخر لوجوب ألا تكون هيلي وهيدي هنا؟

جيسكا: لا.

هيلي: قد تكون الفتيات الأكبر سنًّا قادرات على التعلم منا أيضًا.

د. روزن: ماذا تعنين بهذا، يا هيلي؟

هيلي: ماما وبابا أرسلاني إليك لأنني أعاني مشكلات مع صديقاتي. لديَّ أيضًا مشكلات أخرى. أمور لا أحب التحدث عنها. ربما تحب جيسكا وتيفاني وآرييل سماع ما لدينا. لعل حياتنا تشبه أحجية كبيرة جدًّا. يكفي أن تعثر على القطعة الصحيحة حتى تتضح لك الصورة كلها ويصير لها معنى.

جيسكا: واو! أليست هذه هي الفتاة الذكية؟

هيلي: لا شك عندي في أن كل من في هذه الغرفة قد اضطر يومًا إلى التعامل مع هذه الصفة التي تشبه لصاقة موضوعة على شيء من الأشياء.

تيفاني: أنا اضطررت إلى التعامل معها.

هيدي: وأنا أيضًا.

جيسكا: وأنا أكره اللصاقات. أكره كلمة لصاقة.

آرييل: لا يكفي أن نكون صينيات حتى نكون ذكيات.

جيسكا: صحيح. لكن الاستثناء موجود أيضًا. فتيات المدرسة الثانوية يدركن ما أتكلم عنه. يا إلهي! تلك الساعات كلها التي أمضيتها في الذهاب إلى دروس «كومون»، وصار لديَّ الآن مشرف من أجل الاستعداد لامتحان الذهاب إلى الجامعة. بذلت هذه السنة جهدًا كبيرًا في الدروس الإضافية. استدعت المدرسة أمي لإبلاغها أنهم قلقون عليَّ. «إن ذهبت إلى تلك الدروس الإضافية كلها، فكيف يبقى لديها وقت كي تأخذ مقررات من خارج المنهاج؟ كيف سيكون لها أصدقاء وتصير شخصًا متكاملًا؟». وبالطبع، سبب هذا قلقًا كبيرًا عند أبي وأمي. لكن الأوان قد فات، ألا ترون هذا؟ فبعد إلحاحهما...

تيفاني: ماذا ستقولين لهما؟

جيسكا: وماذا أستطيع القول؟

«كثرة الدراسة تسرني، يا ماما. هل أنا واقعة في مشكلة، يا بابا؟»

لقد اقتنعا بهذا لأن الأمور بيننا تسير هكذا منذ اليوم الأول. والآن سيكون وقتي كله عملًا إلى أن أدخل الجامعة. المناقشات، والتنس، وصنع بطانيات للمشردين، وذلك الهراء كله. وأنا أيضًا ملتزمة بدروس عزف التشيلو. أنا منهمكة في الترويج للصورة النمطية عن الآسيويات.

هيلي: ولكن، هل أبوك وأمك من الصينيين؟

د. روزن: اللافت أنكن جميعًا ممن تبنتهن أسر بيضاء.

هيدي: أنا طالبة متفوقة...

جيسكا: نعم، تشدقي بهذا! لماذا لا تتشدقين به؟

هيدي: ثمة اختلاف كبير بين التشدق والحقيقة. أنا ممتازة في الرياضيات والعلوم. وينبغي أن أعزف آلة موسيقية...

تيفاني: وأنا أيضًا. ماذا تعزفين؟

هيدي: البيانو. يريد أبي وأمي أن أصير مثل لانغ لانغ.

جيسكا: بالنسبة إليَّ إنه التشيلو. وسوف أصير مثل يو يو ما[1].

آرييل: أنا أعزف الكمان. مثل سارة تشانغ، كما تعلمون. وهي ليست صينية! إنها كورية! لكن عليَّ أن أتابع عزف الكمان لأن هذا سيكون نقطة إيجابية عند تقديم طلب الالتحاق بالجامعة. ألا يحصل كل طفل آسيوي في البلاد على درجات تامة ويعزف آلة موسيقية أيضًا؟ لست أدري. لعل عليَّ أن أوقف دراستي وأصب تركيزي كله على عزف الكمان كي أذهب إلى كلية جويلارد[2] بدلًا من الذهاب إلى ستانفورد أو هارفارد أو ييل. يا إلهي! ما أروع هذا!

د. روزن: وماذا عنك، يا هيلي؟

هيلي: بدأت دروس الكمان عندما كنت في السادسة. يقول بابا وماما إنه من الممكن أن أصير مثل سارة تشانغ. لقد ورث بابا مزرعة قريبة من آسبن.

جيسكا: عظيم! عبقرية وثرية أيضًا...

---

(١) يو يو ما: عازف تشيلو أميركي فرنسي شهير من أصل صيني. لانغ لانغ: عازف بيانو صيني شهير.

(٢) معهد شهير لدراسة الموسيقى.

د. روزن: يا جيسكا، دعي هيلي تكمل كلامها، من فضلك. تابعي، يا هيلي.

هيلي: في الصيف الماضي، كنا في آسبن كعادتنا. لديهم هناك مهرجان موسيقي كبير. نحن في الخيمة نستمع إلى عزف سارة تشانغ. من عادة أمي أن تنحني فوقي وتهمس إليَّ. وقد قالت: «من الممكن أن تكوني مكانها ذات يوم». تفعل ماما هذا طوال الوقت، وهذا ما يزعجني دائمًا. وأما في ذلك اليوم، عندما كنت مصغية إلى سارة وهي تعزف كونشيرتو الكمان لسيبيليوس من مقام دي مينور، أدركت أنني لن أكون مثلها أبدًا. مستحيل أن أكون مثلها. لم أمس الكمان بعد ذلك.

آرييل: كيف سمحا لك بذلك؟

هيلي: لم يسمحا لي. توقفت عن العزف فحسب.

آرييل: ألم تخافي؟ أعني... ماذا لو...

هيلي: ماذا؟ هل يجبرانني؟

جيسكا: لو كنت مكانهما لأجبرتك.

تيفاني: ماذا بك يا جيسكا؟ من منا لم يكن لديها هذا الإحساس. عندما كنت صغيرة، ظن بابا وماما أنهما يساعدانني بالقول إنني كنت محظوظة جدًّا لأنهما تبنياني. «أراد لك والدك ووالدتك أن تحظي بحياة أفضل في أميركا».

آرييل: وأنا سمعت هذا أيضا.

جيسكا: سمعناه كلنا. لكن، من فضلك، لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الحقيقي لدى أهلنا بالولادة جميعًا.

هيلي: *محظوظة!* يقول الناس إنني محظوظة لأن ثمة من تبناني. ويقول لي الناس إن أبي وأمي محظوظان لأنهما حصلا عليَّ. ولكن، أأكون محظوظة لأنني فقدت أبي وأمي بالولادة وخسرت الثقافة التي ولدت فيها؟ أجل، أنا محظوظة لأن اللذين تبنياني شخصان طيبان. لكن، هل كان هذا حظًّا؟

جيسكا: عجبًا! أنت ذكية!

تيفاني: أبي وأمي محاميان. وهما يبالغان دائمًا في إغراقي بالمعلومات.

د. روزن: معلومات مثل ماذا، يا تيفاني؟

تيفاني: أنت تعلم، لأننا تحدثنا في هذا من قبل.

د. روزن: لكن من الممكن أن تجعلي زميلاتك يسمعن ذلك أيضًا.

تيفاني: أمور من قبيل أن عليَّ، وأنا لا أزال صغيرة جدًّا، أن أتعلم أشياء من تاريخ الصين... فيما يتصل بالقتل الرحيم.

هيدي: إنهم يقتلون البنات جميعًا هناك.

جيسكا: ظننت أنني الوحيدة التي سمعت هذا الكلام من أهلها.

آرييل: كانت أمي تقول إن بي فضولًا مرضيًّا في شأن القتل الرحيم. ماذا؟ كنت أفكر فيه فأبكي وأبكي إلى أن أنام. الحقيقة... كي أنام... أظنني لا أعني هذا بالضبط...

جيسكا: بقيت زمنًا طويلًا لا أستطيع فهم هذه الكلمة، كنت أظنها شيئًا آخر.

هيلي: وأنا أيضًا لم أسمعها على نحو صحيح. السنة الماضية، عندما

كنت في الصف الخامس، وقعت في مشكلة عندما كتبت شيئًا عن هذا الأمر في دفتر واجب التهجئة البيتي. اتصلت المعلمة بماما التي غضبت كثيرًا. قلت: «الشباب في آسيا أم القتل الرحيم؟[1] ما الفرق؟ أن يلقوا بك في النهر، أو يتركونك في العراء كي تأكلك الوحوش، أو يلقون بك من فوق الجرف... في آخر المطاف، أنت ميتة».

جيسكا: أنا لم أفهم هذا، يا دكتور! لماذا لم يرغمها أبواها على العودة؟

هيلي: هذا ليس ظريفًا.

د. روزن: فلنترك تيفاني تكمل فكرتها.

تيفاني: وأيضًا، قال لي أبي وأمي إن أهلي بالولادة اضطروا إلى التخلي عني بسبب سياسة الطفل الواحد في الصين. فهناك، يريد الناس أن يكون طفلهم الوحيد ولدًا، لا بنتًا. هذا هو السبب. لكن من الممكن أحيانًا أن تحبل المرأة أكثر من مرة. لعل هذا ما جرى مع أمي بالولادة. لو اكتشفت السلطات ذلك، لجعلوها تدفع غرامة تبلغ ستة أضعاف دخل الأسرة في السنة كلها. هكذا سمعت! عند ذلك، تضطر المرأة إلى الإجهاض. بل إنهم يرغمون النساء على الإجهاض حتى بعد شهور طويلة من الحمل. أبي وأمي من أنصار «الحق في الحياة» المتحمسين. لذلك، يقولان إنه كان من الممكن ألا أولد أبدًا. يقولان: «فكري في الأمر، يا تيفاني! لو أمسكت السلطات الصينية بوالدك ووالدتك لما سمحت بمجيئك إلى هذه الدنيا». في وسعكم أن تتخيلوا الأمر... صرت غير قادرة على النوم. ولا أزال...

---

(١) «الشباب في آسيا» = «Youth in Asia». «القتل الرحيم» = «euthanasia».

هيدي: سياسة الطفل الواحد تثير ذعري.

د. روزن: كيف هذا؟

هيدي: تجعلني أحس أنني ثمينة، لكن بطريقة غريبة. أعني أنني لم أكن ثمينة في نظر والدي ووالدتي إلى حد يجعلهما يحتفظان بي، لكنني أحس أحيانًا أنني ثمينة أكثر مما ينبغي في نظر ماما وبابا. أنا طفلتهما الوحيدة.

آرييل: هيدي محقة. في كل سنة، إلى أقصى ما أستطيع تذكره، يأتي أبي وأمي بمصور محترف كي يلتقط لي صورًا. يقولان إنهما يريدان صورة جميلة لوضعها على بطاقة عيد الميلاد.

هيدي: هذا ما يحدث معي أيضًا.

هيلي: وفي بيتنا أيضًا.

تيفاني: لعله يحدث في بيوتنا جميعًا.

جيسكا: هذا صحيح... وماذا؟

د. روزن: ترسل أسر كثيرة بطاقات عيد ميلاد تحمل صور أطفالهم. هل يجعلكن هذا مختلفات عن غيركن؟

هيدي: يلتقطان الصور في غرفتي... وأنا جالسة إلى كمبيوتري أو إلى البيانو.

آرييل: نحن نلتقط الصور في غرفة المكتبة، أكون جالسة أقرأ كتابًا أو شيئًا من هذا القبيل. ذات مرة، كنت أعزف الكمان.

هيلي: صورنا تكون في الخارج عادة. ودائمًا أكون الشيء الوحيد في الصورة... لا ماما، ولا بابا، ولا قطتي، ولا حتى البيت ولا الحديقة.

جيسكا: هل فهمت الأمر، يا دكتور؟ هذه صور لنا باعتبارنا بنات معبودات عند أهلنا. نحن موضوع كل انتباه وحب. نحن موضوع... هل فهمت؟ يجعلني هذا راغبة في التقيؤ. انتبهوا جميعًا... هل أخبركم أن لديَّ حالة من الشره المرضي؟ هل بينكن من لديها هذه الحالة؟ ... أو فقدان الشهية؟ أكره أن أقول هذا، يا تيفاني، لكنك نحيلة كأنك ميتة...

تيفاني: لست كذلك!

آرييل: الأمر الذي يجعلني أتقزز هو طريقة أمي في تسريح شعري وتسوية ياقتي وترتيب حاشية ثوبي و...

جيسكا: تظنين أن أبي وأمي لا يلمسانني و...

آرييل: أمضي فترة بعد الظهر كلها في الابتسام بهذه الطريقة والابتسام بتلك الطريقة والنظر إلى البعيد، والنظر إلى الأسفل. وضعيات، وضعيات، وضعيات. من جهة أولى، لم يستطِع أهلنا بالولادة في الصين أن يتخلصوا منا بالسرعة الكافية. ومن ناحية أخرى، نحن أعظم هدية تلقاها أهلنا بالتبني. أحاول أحيانًا أن أتخيل كيف كان ممكنًا أن تصير حياة أبي وأمي لو لم يحصلا عليَّ. أمر غريب جدًّا، ألا ترون هذا؟ في الصين، كانوا يعتبروننا من غير قيمة. أعني... من غير قيمة فعلًا. وها نحن هنا متمتعات بقيمة فائقة مثلما قالت هيدي. لكن من الممكن القول أيضًا إن آباءنا وأمهاتنا وقعوا ضحية الغش لأنهم حصلوا على أسوأ ما في القمامة... على من جرى التخلص منهن.

جيسكا: على الأقل، لم يلقوا بنا في بئر، أو أي شيء من هذا القبيل.

د. روزن: ما قولكن في أن نتحدث أكثر عن الآباء والأمهات؟

جيسكا: هذه مجموعتك. علينا أن نفعل ما تقول لنا أن نفعله سواء أأعجبنا أم لم يعجبنا.

د. روزن: لا أحب أن أصوغ الأمر بهذا الشكل. أتمنى أن تكون جلساتنا مفيدة لكل واحدة منكن.

جيسكا: لا تنسَ يا دكتور أن أبي وأمي طبيبان. أنا أعلم غاية هذا الأمر. سوف تستخدمنا كي...

د. روزن: يا جيسكا! قد نستطيع في وقت آخر أن نتحدث عن رغبتك الدائمة في معارضتي. لكن هذه الجلسة للجميع. هل نستطيع العودة إلى سؤالي. آرييل، هل تودين أن تحكي لنا قليلًا عن أبيك وأمك؟

آرييل: تثير أمي غضبي حتى أكاد أجن. آسفة! هل أستطيع قول هذا هنا؟ نعم؟ جيد. أحبها، لكنها أم غريبة. ترتدي أشياء تحرجني كثيرًا.

تيفاني: لا تستطيع الأمهات الامتناع عن هذا. هكذا هن.

آرييل: أنت متفهمة جدًّا، يا تيفاني. ولكن، هل سمعت أمك تتكلم عنك في الهاتف مع صديقاتها؟ منذ أيام، سمعتها تدعوني «وحشًا هرمونيًّا». وحتى عندما تقول لي أمورًا لطيفة، أمورًا من قبيل «أحبك» وأشياء من هذا القبيل، يحس جزء مني أنها كاذبة. ذات مرة، فقدت أعصابي وصحت عليها: «ليتني كنت في الصين مع أمي الحقيقية!». أغضبها هذا كثيرًا، راحت تصيح عليَّ: «ماذا؟ لا بأس! اذهبي! حاولي العثور عليها! انظري إن كانت تقبل استعادتك!». وفي وقت لاحق، أتت إلى غرفتي باكية بكاء شديدًا جدًّا، واعتذرت. تكرر هذا كثيرًا. وأنا أقول لها: لا بأس، يا ماما! ... يا إلهي!

د. روزن: هذا ما يقوله كثير من الناس لأهلهم. «*ليتك لم تكوني أمي!*» أو «*أتمنى لو كان لي أب آخر!*». ولعل أمك نفسها قالت لأمها أو لأبيها أشياء من هذا القبيل عندما كانت في مثل سنك.

آرييل: ربما. فماذا؟

د. روزن: بحسب رأيك، كيف كان إحساسها عندما أتت إليك معتذرة؟

آرييل: كان ذلك صعبًا عليَّ و...

د. روزن: لقد سمعت هذا، لكني أسألك عن شعورها.

تيفاني: لعلها كانت حزينة لأنها قالت لك كلامًا غير لائق أبدًا. غير لائق. أسمع هذه الكلمة كثيرًا من أبي وأمي.

جيسكا: ينبغي أن تكون قد أحست بالذنب لأنها تصرفت مثلما تتصرف أسوأ الأمهات.

آرييل: ربما. لكن، لعلها كانت محقة في ما قالته. أعني... هل يعقل أن أتمكن يومًا أن أعثر على أمي التي ولدتني؟ لا. إذًا ليس لديَّ أحد غير بابا وماما.

هيلي: يقول بابا وماما دائمًا إن الآباء والأمهات هنا يصلون مع بناتهم اللواتي تبنوهم إلى نهايات سعيدة وإن «الفجوات في قلوبهم تمتلئ حبًّا». ولكن، ماذا يحدث لآبائنا وأمهاتنا بالولادة؟ أفكر في هذا عندما أعجز عن النوم. هل ظلت في قلبيٍّ أبي وأمي بالولادة فجوات أم أنهما نسيا أمري؟

آرييل: لا أدري كيف يكون الأمر لدى الأطفال البيولوجيين... أو البيض. عندما كنت في سن أصغر، كنت عاجزة عن استيعاب فكرة احتفاظ المرأة الحامل بطفلها. إن رزقت يومًا بطفلة، أتمنى أن تكون مثلي حتى إن تزوجت شخصًا أبيض.

هيلي: سيأتي إلى المستشفى ويقول لك: «أوه، إنها تشبهك كثيرًا».

آرييل: لم يقل أحد أبدًا إنني أشبه شخصًا في أسرتي. عندما أصير أمًّا، لن أكون مضطرة أبدًا إلى الإجابة عن أسئلة يطرحها أشخاص غرباء... من أين حصلت عليها؟ وهل هي ابنتك حقًّا؟ أو...

هيلي: هل هي من منغوليا؟

آرييل: ولن تكون ابنتك مضطرة إلى الإجابة عن أسئلة الذين يريدون معرفة من يكون أهلها الحقيقيون.

جيسكا: أوه، أكره هذا. أعني... اللعنة عليهم. ما معنى كلمة حقيقيين أصلًا؟ أليس هذا ما نعانيه؟

تيفاني: سوف أكون أمًّا عظيمة. وبكل تأكيد، سوف تكون طفلتي شبيهة بي. لن تكون مرتدية أسمالًا، ولن يدب النمل على وجهها مثلما كنت عندما استلمني أبي وأمي. ستكون ابنتي قريبتي الوحيدة بالدم، القريبة الوحيدة التي أعرف... وسوف أحبها إلى الأبد.

د. روزن: ألا تعتقدين أن أباك وأمك سيحبانك إلى الأبد؟

تيفاني: بالطبع، سيحبانني. لكن، لا أدري إن كنت قادرة على شرح هذا الأمر. أحبهما ويحبانني، لكن هذا يشبه ما تحدثت عنه آرييل. يزعجني أنني لا أشبههما أبدًا. لهما شعر أشقر! ولكل شخص في عائلتهما

شعر أشقر. نمضي وقتًا طويلًا في زيارة الأقارب... وهم كثر جدًّا... في ولاية إنديانا. سألتهم ذات مرة، في عشاء عيد الشكر عندما كنت في السادسة على ما أظن، لماذا أكون السمراء الوحيدة بينكم؟ أجابني عمي جاك: «أنت صغيرتنا الصفراء الوحيدة».

جيسكا: لا بد أنك مازحة! يا إلهي! هذا سيئ جدًّا!

هيلي: لا بد أن كلامه جرحك فعلًا. لو كنت مكانك لجرحني.

تيفاني: لكنكن لم تسمعن الجزء الأسوأ. الصفة التي تكون كأنها لصاقة... نعم، هذه لصاقة أخرى، تظل باقية. الآن، يدعوني أقاربنا في إنديانا «صفراؤنا الصغيرة الوحيدة». طلب أبي وأمي منهم مليون مرة أن يكفوا عن قول هذا، لكن عبثًا. يعتقدون أنها عبارة ظريفة. لكن المشكلة هي أنني لست هكذا في إنديانا وحدها. أصدقاء أهلي كلهم من البيض. وكل شخص، تقريبًا، في كنيستنا أبيض. أكره هذا الأمر. أنا الوحيدة المختلفة بينهم. الأمر قاسٍ فعلًا لأنه يجعلني أحس أنني لست واحدة منهم.

آرييل: أحب أن أذهب إلى الصين كي أعثر على أمي التي ولدتني.

جيسكا: لا تهتمي بهذا الأمر. الناس في الصين كثيرون جدًّا.

د. روزن: آرييل، قلت الآن إنك تتمنين العثور على والدتك، ماذا عن والدك؟

آرييل: صحيح. أتساءل كثيرًا عن أبي وأمي معًا. من هما؟ متى التقيا؟ أيكون لي شقيق أو شقيقة؟ أيكون لي جدان؟ ... والخالات والعمات والأخوال والأعمام وأبناؤهم وبناتهم؟ لماذا تخلت أمي عني؟ هل تفكر فيَّ! وتتذكرني؟ هل بحثت عني يومًا؟

د. روزن: ألاحظ أنك عدت إلى الحديث عن والدتك وحدها. ما السبب، في رأيك؟

جيسكا: سوف أجيب على هذا السؤال. هذا ليس صعبًا، يا دكتور. لقد نمونا داخل أمهاتنا، لكنهن رميننا وتخلصن منا.

آريبل: لو ذهبت إلى الصين لوددت أن أبحث عن أمي مع علمي أنه بحث من غير أمل. هذا يحزنني كثيرًا.

جيسكا: أنت وحيدة في العالم مثلنا جميعًا.

هيدي: لكن كل واحدة منا لديها الآن رفيقات... بقيتنا.

جيسكا: لديها بقيتنا! أنا لا أعرفك أصلًا. أنت وهذه التي معك ـ هذه الذكية جدًّا ـ ستصيران الخريف القادم في الصف السابع. ألست محقة؟ تلك هي أسوأ السنين على الإطلاق.

تيفاني: صحيح... فتيات وضيعات.

آريبل: في نظري، لا يزال الأمر سيئًا حتى الآن بعد أن صرت في الصف العاشر. الأطفال الآسيويون في مدرستي كثيرون جدًّا. من الذي يذهب للدراسة في المدرسة بدلًا من قضاء الوقت مع الأصدقاء وقت الغداء؟ من الذي يحصل على أحسن الدرجات؟ من الذي يمتنع عن الذهاب إلى الحفلات وبقية النشاطات الاجتماعية كي يأخذ دروسًا إضافية؟ من الذي سيدخل أفضل الجامعات؟ نحن لسن في منافسة مع الآخرين جميعًا كي ندخل الجامعة. نحن لا نتنافس إلا مع التلاميذ الآسيويين لأن علينا أن نحقق هذا الإنجاز وأن نجعله واضحًا في سجلاتنا المدرسية.

تيفاني: على الأقل، أسماء عائلاتنا ليست صينية. في صفي فتاة صينية مولودة هنا من أبوين مهاجرين سألت إن كانت تستطيع تغيير اسم عائلتها بحيث يصير سميث، أو شيء من هذا القبيل كي تصير متميزة عن غيرها. أظن أن هذا أمر طريف تمامًا. معظم التلاميذ في مدرسة سان مارينو الثانوية من الآسيويين. أنا آسيوية، لكني من الأقلية في المدرسة لأن الآسيويين غير المتبنين لا يعتبرونني واحدة منهم نظرًا إلى نشأتي ضمن أسرة بيضاء. في نظرهم، أنا بيضاء من حيث الجوهر. أولئك التلاميذ لديهم أحكام قاسية حقًّا.

جيسكا: وماذا عن التلاميذ البيض؟ يعتقدون أنني أحرز درجات جيدة من غير صعوبة نتيجة انتمائي العرقي. لا يعلمون كم أبذل من جهد في الدراسة.

هيلي: أتيت إلى البيت وقد نلت درجة «A^-» في امتحان التاريخ فجن جنون ماما. قالت لي: «إن كنت تريدين الذهاب إلى جامعة جيدة، فعليك أن تبذلي جهدًا أكبر في الدراسة. وإن لم تجتهدي، فسوف ينتهي بك الأمر مثل...» الحقيقة أنني لا أريد تكرار ما قالته. على أي حال، قلت لها، يا ماما، أنا في الصف السادس وقد أحرزت درجة A^-، هذا كل ما في الأمر. أعدك أن يكون أدائي أفضل في المرة القادمة.

د. روزن: يبدو لي أنكن تتحدثن جميعًا عن أمرين مختلفين. الضغوط الدراسية...

جيسكا: الأمر متعلق بما هو متوقع منا... مثلما قلت لك من قبل.

أشكالنا تقول إننا صينيات، أي إن علينا أن نكون مهووسات وأن ندرس كثيرًا مثل أولئك التلاميذ الذين لديهم آباء وأمهات صينيون.

د. روزن: لقد فهمت فكرتك، يا جيسكا. النقطة الأخرى هي الضغط الاجتماعي.

جيسكا: هل تقصد... من لديه أهل أثرياء؟

تيفاني: في ما مضى، كانوا يتحدثون عن فتيات باسادينا من أصحاب الثراء المتوارث. لكنهم الآن يتحدثون عن بنات المليونيرات والبليونيرات من الصين.

جيسكا: من التي تصير عندها سيارة فور بلوغها السادسة عشرة؟ وما نوع تلك السيارة؟

تيفاني: بي إم دبليو أو فولفو أو نيسان؟

آرييل: صارت عندي سيارة عندما بلغت السادسة عشرة.

هيدي: هل هذا صحيح؟ ما نوع...

جيسكا: ومن لديها أفضل بيت؟

تيفاني: فيلا كبيرة في أوك نول. واحدة من تلك الفيلات القرميدية الضخمة. مال موروث.

جيسكا: دعيني أخمن! أنت تعيشين هناك، يا هيلي.

هيلي: أعيش قريبًا منه في شارع هامينغبيرد. لقد ورث أبي...

د. روزن: دعونا نبقي تركيزنا في التبعات الاجتماعية. الأثر الذي يكون لذلك كله عليكن...

تيفاني: لا بأس. إذا... هل أنت في بيت لا يزال فيه مهاجرون صينيون يأكلون من أكياس بلاستيكية أم أنك في واحدة من تلك القلاع الفخمة التي يشتريها الصينيون البليونيرات؟ هل هذا ما تعنيه؟

د. روزن: هممم!

تيفاني: يقول أبي إن المهاجرين الصينيين يعتاشون على حسن الضيافة الأميركي، في حين أن المرجح أن يكون أثرياؤهم حفنة من المجرمين... كالمافيا الصينية، أو شيء من هذا القبيل.

جيسكا: يا لها من حفنة من هراء ضيق الأفق.

تيفاني: لم أقل إنني مقتنعة بـ...

هيلي: يقول أبي وأمي إن أولئك الناس، سواء أكانوا أثرياء أم فقراء، بذلوا جهدًا كبيرًا للوصول إلى هنا. الجميع راغب في الحلم الأميركي، تمامًا مثلما أرادت لي أمي بالولادة. هذا ما جعلها تتخلى عني.

د. روزن: أسمع كل ما تقلن، يا بنات. لكن، هل يمكننا التفكير في الضغط الاجتماعي على نحو شخصي أكثر؟ جيسكا... سمعتك قبل قليل تنبهين هيلي وهيدي إلى ما ينتظرهما. ماذا عنيت بذلك؟

جيسكا: أوه... كما تعلم... الأشياء المعتادة. الأمر كله متصل بمن تكون ذات شعبية. أعني... من الفتاة التي هي أشد أناقة؟ هذا أمر يتغير طوال الوقت. هل أنت آتية من هونغ كونغ أم من شنغهاي أم سنغافورة؟ تلك الفتيات؟ واو! أعني الفتيات الثريات. أم أنك آتية من «ويست هيلز» أو «تشينو»، أو... أعني الأماكن النائية.

تيفاني: وأيضًا، من التي تُدعى إلى الحفلات التي تقام في البيوت؟ ومن التي لا يدعوها أحد؟

آرييل: من التي تصاحب الشباب؟ جيسكا، قد تعلمين شيئًا عن هذا.

هيلي: عندي صديقة اسمها جيد. صاروا يدعونها في المدرسة «مُستهلَكة»[1].

آرييل: هذه قسوة! وأنت لا تزالين طفلة، لا أكثر.

هيلي: سمعت ماما تقول لبابا إن جيد اكتسبت هذا الاسم بالأسلوب القديم، مهما يكُن معنى ذلك.

جيسكا: الجنس الفموي.

آرييل: هذا مقزز، يا جيسكا! ألا نستطيع أن نسترخي قليلًا؟ أنا لست في حاجة إلى سماع...

تيفاني: في نظر الفتيات الصينيات في مدرستي، ما من أمر أهم من لون جلدهن. من التي لديها بشرة بيضاء القمر؟ واحدة من الفتيات، «أميرة حمراء» كان والد جدها شخصًا رافق ماو في المسيرة الطويلة... لا بأس، فهمنا هذا. أنت مهمة جدًّا! ... تفوزين بتلك الجائزة من غير صعوبة. أعرف بنات كثيرات تأخذهن أمهاتهن إلى الأطباء من أجل تلقي معالجة لتفتيح لون الجلد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) الكلمة هي «Jaded».

هيلي: تفتيح لون الجلد؟ كيف يفعلون هذا؟

تيفاني: البنات المولودات في أميركا والبنات مولودات في الصين يسخرن منا جميعًا لأننا بنات صينيات جرى تبنينا، وذلك أن سمار لوننا يبين أننا من بنات الريفيين.

هيلي: جلدي أسمر، لكني أبدو أيضًا مختلفة عن بقية الفتيات... يقولون إنني لست صينية بالقدر الكافي.

د. روزن: هذا يعني أننا نتحدث عن تصور...

هيلي: هذا يحزنني كثيرًا. أظن أن هذا هو السبب الذي جعل ماما وبابا يرسلانني إلى هنا.

هيدي: د. روزن، أليست هذه صورًا نمطية؟

جيسكا: أوه، يا إلهي! ها هي عبقرية أخرى. كم قلت لي إنك بلغت من العمر؟

د. روزن: ماذا تعنين بهذا، يا هيدي؟

هيدي: كان الناس يعتبرون أن الصينيين من منزلة وضيعة، أليس هذا صحيحًا؟ يعملون في السكك الحديدية ومحلات غسل الملابس وكيها، وأمور من هذا النوع. والآن، يعتبرونهم أذكياء ويعتبرونهم أثرياء. أعني... أليست هذه صورة نمطية لأقلية نموذجية؟ قرأت مقالة تقول إن الناس الذين مثلنا -لست مقصودًا بهذا، يا د. روزن- يوصفون الآن بأنهم مثابرون، متبصرون، طموحون. يوصفون بأن لديهم عبقرية وصلابة وذكاء.

جيسكا: يا إلهي، أيتها الطفلة! أنت لست في حاجة حتى إلى الالتحاق بتلك الدورة الغبية التي تسبق الدخول إلى الجامعة. تعرفين هذه الكلمات الكبيرة كلها منذ الآن!

هيدي: كل ما أقوله هو أن ثمة استخفافًا بمدى القسوة التي يمكن أن تكون بين البنات. كنت أقرأ عن هذا الأمر لأنني مذعورة من... أوه، يا دكتور روزن، لا أدري إن كان عليَّ قول هذا.

د. روزن: تابعي، من فضلك! أتمنى أن تعتبري أن المكان هنا آمن.

هيدي: أنا أخشى فتيات من أمثال... من أمثال جيسكا. أيكون هذا هو السبب الذي جعل أبي وأمي يرسلانني إليك؟ كي أصير أقوى؟ أستطيع أن أكون قوية. أستطيع حقًّا. أم أن ثمة سببًا آخر، يا دكتور روزن؟ ستوضح لي الأمر، أليس كذلك؟

د. روزن: لكل منكن أسبابها في الوجود هنا. وما لا أجد مشكلة في قوله لكُنَّ جميعًا هو أن أهل كل واحدة منكن لا يريدون شيئًا غير أن تكون ابنتهم سعيدة. والآن... تحدثنا اليوم في أمور كثيرة جدًّا، لكنني أود العودة إلى فكرتين ظهرتا أثناء كلامنا.

هيلي: من قبيل أن ما من واحدة منا تستطيع أن تنام جيدًا.

د. روزن: يسرني أنك انتبهت إلى هذه النقطة، يا هيلي.

هيلي: أنا أتجول دائمًا في البيت عند منتصف الليل. هذا ما جعلني أسمع أبي وأمي يتجادلان في شؤون العمل، وشأن تلك المرأة التي هي واحدة من مريضات بابا، وكذلك في شأن ما ينبغي فعله من أجلي.

آرييل: في ما يخصني، من الواضح أن قلة النوم ناتجة من التوتر. توتر في المدرسة وتوتر في البيت. يبدو لي أنني أمضيت حياتي كلها مستيقظة خلال الساعات الممتدة من الثانية حتى السادسة صباحًا... أحدق إلى شاشة التلفزيون الصامتة، وأدرس كأنني مهووس، وأحاول تعلم الحياكة كي «أفعل شيئًا منتجًا» مثلما يقول بابا. كانت هديته لي في واحد من أعياد ميلاد أن دفع ثمن دروس حياكة أذهب إليها. دروس حياكة! ثم إن جيسكا ليست الوحيدة التي تشرب. فأنا أسترق جرعات من النبيذ الباقي على العشاء. أبي وأمي غبيان لا ينتبهان إلى الأمر أبدًا. وقد دخنت الحشيش في فناء البيت الخلفي. كنت أذهب إلى طبيب آخر قبلك، يا د. روزن. وقد وصف لي دواء اسمه آمبيين.

هيلي: وأنا أيضًا لا أنام. تقول ماما إن هذا لأنني لا أزال على توقيت الصين.

جيسكا: هذه قسوة!

د. روزن: ماذا يحدث عندما يحين موعد نومك؟

هيلي: أحيانًا، بعد أن أطفئ النور، أحس أنني قد بدأت أستيقظ. أطير خارجة من النافذة وأجتاز المحيط إلى ذلك الميتم في الصين. أرى صفوفًا وصفوفًا من مهود الأطفال وأرى نساء صينيات مثل تلك النادلات في مطعم «السرادق الإمبراطوري» اللواتي يسرن جيئة وذهابًا دافعات عربات الطعام. أتخيل تلك اللحظة التي وضعوني فيها على متن باص أو شاحنة وذهبوا بي إلى الفندق. لا بد أنني كنت مذعورة. لا بد أنني كنت باكية طوال الوقت. يقول بابا وماما إن ذلك كان

توزيعًا سريعًا وإنهم وضعوا طفلة بين ذراعي كل واحدة من الأمهات الجديدات. هل ذهبت إلى الأب والأم الصحيحين؟ هل ثمة أمر غير سليم عندي يجعلني أبدو مختلفة عن بقية الطفلات الصغيرات اللواتي تم توزيعهن ذلك اليوم، مختلفة عن بقية الفتيات في الأسر التي تبنت أطفالًا من الصين؟ مختلفة عن صديقاتي في المدرسة؟ عندها، يكون عليَّ أن أنير مصباح الغرفة من جديد.

آرييل: يا د. روزن، أنا لا أفهم هذا. أعرف فتيات كثيرات من «معسكر التراث من أجل الأسر التي تتبنى أطفالًا» ليست لديهن أي مشكلة. إنهن سعيدات جميعًا. أو... هكذا أراهن.

هيلي: إنها محقة. أعرف البنات في مدرستي منذ كنا صغيرات جدًّا. لا تتركن الأمور السخيفة التي يقولها الناس تزعجهن. أتذكر الآن واحدة منهن. كنا في الثامنة تقريبًا. سألتها امرأة غريبة إن كانت تلميذة أتت إلى البلاد بموجب برنامج تبادل الطلاب. يزعجني هذا النوع من الأسئلة. لكن، هل تعلمون كيف أجابتها؟ قالت: «لا يكون معظم طلبة التبادل في الثامنة من العمر!».

آرييل: هل سألك أحد يومًا من الأيام لماذا لا تتكلمين الإنجليزية بلكنة صينية؟ لقد سئلت هذا السؤال.

هيدي: أكره عندما يسألني الناس إن كنت أتكلم الإنجليزية أو كنت قد تأقلمت مع الحياة في أميركا. غريب جدًّا!

تيفاني: لدينا في كنيستنا مجموعة خاصة بالفتيات اللواتي مثلنا... فتيات تم تبنيهن، لكن من روسيا ومن رومانيا ومن أماكن أخرى.

نذهب إلى لقاءات يُنتظر أن نتعلم فيها كيف نرد على التافهين الذين يطرحون أسئلة من قبيل «متى علمت أنك متبناة؟». يتخيل معظم الناس مشهدًا يجعلك أهلك فيه تجلسين كي يحدثانك و«تكتشفين من أنت». لم أكن في حاجة إلى تلك اللقاءات كي أعرف كيف أرد لأنني لم يلزمني فعل شيء غير أن أنظر إلى المرآة. عندما يطرح الناس عليَّ ذلك السؤال، أجيبهم دائمًا: «متى اكتشفت أنك غير متبنى؟ وكيف تعلم أن أمك هي الأم التي ولدتك فعلًا؟»

آرييل: تبدو هذه إجابة ساخرة قليلًا.

هيلي: من الممكن أن تجربي قول شيء من قبيل «الاختلافات المظهرية بيني وبين أبي وأمي كانت واضحة دائمًا. لا أعلم علم اليقين كيف يكون شعورك إن كنت طفلًا بيولوجيا لأبويك أو إن كنت قد وُلدت أبيض اللون كأبي وأمي».

تيفاني: اختلافات مظهرية؟

هيلي: لقد نفذت مشروعًا عن هذا الأمر من أجل صف العلوم في مدرستي. فزت بـ...

د. روزن: لا أحب مقاطعتك، يا هيلي. لكن، اعذريني! جيسكا، أراك صامتة على غير عادتك. ألا تقولين لنا فيمَ تفكرين؟

جيسكا: إنني أفكر في ما قالته هيدي عني قبل قليل. هل ترون جميعًا أنني متنمرة أو وضيعة أو...

هيلي: يوحي سلوكك بأنك صلبة، لكني واثقة بأنك خائفة مثل بقيتنا.

جيسكا: أنا لست خائفة. مم أخاف؟

د. روزن: سوف أتدخل هنا. أعلم من سماعي إياكن اليوم، يا بنات، أن الصفات التي يطلقها الناس عليكن، كأنها لصاقات، لا تعجبكن. وأنا بدوري لا أحب هذا. لكن مهنتي تستخدم تلك الصفات مثلما تستخدمها معظم المهن الأخرى. لذا، دعونا نفكر لحظة في واحدة من الصفات التي يطلقها الناس على المتبنين الصينيين، أي على من هم مثلكن.

جيسكا: عظيم! هذا ما كان ينقصني، لصاقة أخرى؟ ماذا ستدعوني الآن؟

د. روزن: هل تلقى عبارة *«شاكرة لكنها حانقة»* صدًى عند أيٍّ منكن؟ من الممكن أن تكون الواحدة منكن شاكرة لأن لديها أبًا وأمًّا يحبانها ويوفران لها حياة جيدة فيها مزايا كثيرة.

جيسكا: بعضنا أكثر من بعض...

د. روزن: أظن أن «شاكرة» أمر واضح تمامًا. ومثلما قالت آرييل، ثمة كثير من الأطفال المتبنين الذين هم سعداء تمامًا...

تيفاني: أكثرهم، من غير شك.

جيسكا: ربما لأنهم لا عقول لديهم...

د. روزن: لكن التبني غالبًا ما يكون مشكلة فقدان: فقدانك أسرتك الأصلية، وفقدانك ثقافتك وجنسيتك. وبالطبع، فقدانك نمط الحياة الذي كان ممكنًا أن تعيشيه. وهنا يظهر الجزء المتعلق بالحنق. لقد عبرتن اليوم عن أشكال مختلفة من الحنق وعن أسباب حنقكن. في

مهنتي، نختصر الأمر على النحو التالي: حنق لأن أبويك بالولادة تخليا عنك. وهكذا، تكون اللصاقة *«شاكرة لكن حانقة»*. لكنكن سمعتنني في جلساتي الخاصة أتحدث عن الحنق بطريقة خاصة. هيلي، هل تتذكرين ما قلته لك؟

هيلي: قلت إن الحنق يمكن أن يكون غطاء يخفي أمرًا أعظم منه.

د. روزن: هل تودين إخبارنا عما كان ذلك الشيء بالنسبة إليك؟

هيلي: الحزن. حزن شديد حقًّا لأن لي، في مكان من الأماكن هناك، أمًّا وأبًا لم يحباني بالقدر الكافي لأن يحتفظا بي. لقد تخليا عني. تخلصا مني. لم يريدا أن أكون طفلتهما الوحيدة التي يحق لهما إنجابها. لم أهتدِ أبدًا إلى طريقة تسمح لي بالأسى لهذا الأمر. أعني... كيف أستطيع أن أكون مع بابا وماما اللذين أحبهما كثيرًا جدًّا، ثم أبكي من أجل أبي وأمي بالولادة مع أني لا أعرفهما ولم يكن لهما أي وجود في حياتي. وفي الوقت نفسه، لماذا لم يرَني أبي وأمي في الصين جيدة إلى حد يجعلهما راغبين في الاحتفاظ بي؟ والآن، لا بد لي من العمل الجاد حقًّا (ليس في الدراسة وحدها) كي أكون شخصًا يمكن أن يفخرا به... لو عرفاني. أريد أيضًا أن أكون شخصًا يستطيع بابا وماما الآن أن يفخرا بي.

جيسكا: تعنين أنني حزينة لأن أمي بالولادة لم تكن مهتمة بي ولأنها تركتني أمام محطة قطار... تركتني وحدي... وسط الليل... في الشتاء... ولم ترد حتى أن تعرفني...

تيفاني: من لا يكون حزينًا عندما تصوغين الأمر بهذه الطريقة؟

جيسكا: أنا لست حزينة. أنا غاضبة جدًّا.

آرييل: «شباب في آسيا»[1].

جيسكا: اللعنة عليها!

هيلي: آسفة لأنني جعلتك تبكين.

جيسكا: لا بأس! أظن أن هذا ما يُنتظر منا فعله هنا. وبالمناسبة، يا هيلي، لا تهتمي أبدًا بما قلته من قبل. من المحتمل جدًّا أن تفعلي أشياء كثيرة مما أفعله الآن... الشرب، وذلك كله... لكن اسمعي ما سأقوله لك الآن. تابعي اهتمامك بدروسك، ولا تنسي أن تلتحقي ببعض الصفوف الإضافية، ولا تدعي أحدًا يمسك بك. هل اتفقنا؟ لا تدعي أحدًا يمسك بك! وأنت، يا هيدي، سأحاول أن أكون أشد لطفًا مع الطفلات اللواتي هن مثلك. كل ما في الأمر أنني أجد صعوبة في ذلك.

د. روزن: لا بأس، يا بنات! يبدو لي أن وقتنا قد انتهى. كانت جلستنا الأولى جيدة. هل أستطيع أن أكون مطمئنًا إلى أنكن ستأتين جميعًا إلى جلسة الأسبوع القادم؟

(١) اسم فرقة موسيقية بريطانية شهيرة.

تنفَّسي، تنفَّسي، تنفَّسي

عدنا إلى قرية بئر النبع، أنا وجين وأمه ومعلم الشاي سون وديه-جا، وكانت عودتنا أوائل شهر مارس ٢٠٠٨، تمامًا قبل بداية موسم قطاف الشاي. حماتي التي ليست لديها أي ذكريات طيبة عن عيشتها في الريف، تركت عند آما والكنات الثلاث انطباعًا طيبًا عندما تطوعت لجلب الماء منذ أول صباح لها في القرية. السيدة تشانغ مستعدة لفعل أي شيء لكي تكون مع ابنها ومع الطفل الذي ينمو في أحشائي. صار حملي في الشهر السادس، وطفلي الذي في بطني (ليته يكون صبيًّا!) يتحرك ويرفس ويلكز بذراعيه. كبر حتى بلغ رئتي وتغلغل مسافة قدم داخل قفصي الصدري وبات ضاغطًا على مثانتي. تحرص آما على أن أتناول حساءها الخاص المكون من قوائم الخنزير وحبات التمر والفول السوداني كي تغذيني وتغذيه. وأما ديه-جا...

كنت مستعدة لأن أدفع إلى رئيس القرية وكبارها وإلى النيما والروما تكلفة كل ما يلزم من أضاحٍ وطقوس (مثلما فعلت سي-ته من أجل شقيقها) كي تتمكن ديه-جا من العودة إلى القرية. صحيح أن الروما طرح مسألة إنجابها غلطتين بشريتين خلال تلك المشادة التي كانت

بيني وبين سي-ته، فإن أحدًا في القرية كلها لم يعرفها عند عودتها (لم يعرفها أحد غير آما، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة لعلمها أن ديه-جا تعتني بي كثيرًا). بعد أن أتت ديه-جا إلى قرية بئر النبع عند زواجها، لم تطل إقامتها فيها سنة كاملة قبل أن تلد توأميها... وقد انقضت عشرون سنة بعد ذلك وكانت حياتها شديدة القسوة عليها. تبدو الآن أكبر من آما، وتجعلها الأسنان الجديدة التي صارت في فمها تبدو أغرب من أي شخص شاهده الناس في تلفزيوناتهم. لو كنا نعيش بحسب طرقنا القديمة، لكان ما أفعله الآن خرقًا لشريعة الأكها. ولكن، إن وُلدت غلطتاها البشريتان، اليوم، لما لقيا نهايتهما المؤسفة ولما أُنزل العقاب بها وبزوجها سي-دو. على الرغم من ذلك، نمتنع أنا وديه-جا عن المغامرة بأي شيء. سوف تظل هويتها سرًّا. ثم إن اسم ديه-جا شائع جدًّا، وسي-دو وأسرته ليسوا في القرية الآن.

يعلن الروما والنيما موعد بدء القطاف. وفي وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، قبل انقشاع ظلام الليل، يُطلب مني قول بضع كلمات. ما أغرب هذا! ... نصف أهل القرية واقفون أمامي، وقد استطاعت هذه البنت التي لا قيمة لها أن تتغلب على ماضيها. المخاطر التي نواجهها كلنا كبيرة جدًّا. ينبغي أن ينجح ما نقوم به وإلا فسوف تهيمن سي-ته من جديد. أبدأ بما علمني إياه معلم الشاي سون.

أكرر القول المأثور: «*من لا يحب الشاي، لا يستطيع أن يصنع شايًا جيدًا*». وبعد ذلك أقول: «أشجار الشاي عندنا نعمة من الرب، ومن خلالها، نستطيع أن نرى طريق الأكها. إذا قلّمنا رؤوس أشجار الشاي

المزروعة على المصاطب المدرجة ثم مرضت واحدة منها، فسوف يصيبها المرض كلها. يصح قول الأمر نفسه على قطع رؤوس الأشجار لأن هذا يضعفها كثيرًا. لكننا نعلم بعض الأشياء عندما نعثر على شجرة شاي برية: إن لهذه الشجرة من القوة ما مكّنها من البقاء والنمو بمفردها. إن لها تكوينها الوراثي المختلف الفريد. إذا مرضت واحدة من هذه الأشجار، فإن الأشجار المحيطة بها لا تتأثر بمرضها. نحن الأكها نفهم هذا لأن زواج الأقارب محرم عندنا. وهذا ما يجعلنا نحفظ أنسابنا».

يدمدم الناس معلنين موافقتهم على كلامي وفهمهم ما هو كامن خلفه. النقاء، لا الزيف. مكتبة سُر مَن قرأ

«عندما نقطف أوراق الشاي اليوم، دعونا نتذكر أن سير العمل ينبغي أن يكون بطيئًا... نقطف البراعم واحدًا فواحدًا. إذا قطفنا أوراقًا ممتازة، فسوف يكون شاينا هو الأفضل. وسوف نجعل العالم كله يرى كيف يكون طريق الأكها».

يقترب مني المعلم زهانغ لحظة فراغي من كلامي. يقول لي: «هل أستطيع المساعدة؟». أناوله سلة فينضم إلينا في صعودنا الجبل مهتدين بآخر ما بقي من ضوء القمر. تشرق الشمس علينا ونحن ماضون في العمل، ولا نرتاح إلا كي نشرب الشاي ونأكل كرات الأرز. ثم ننهي إفطارنا ونعود إلى القرية حيث يشرف معلم الشاي سون على فرش أوراق الشاي كي تحظى باستراحتها الأولى.

ثم يكون اليوم الثاني أطول من اليوم الأول، نقطف أوراق الشاي ونفرشها كي تتشمس. وبعد ذلك نمضي بضع ساعات في إلقاء دفعات

من قطاف الأمس (تضم كل واحدة منها ستة كيلوغرامات من الأوراق التي ارتاحت) في القدور كي نقتل خضرتها. وبعد أربع عشرة ساعة، نجلس في الخارج معًا، تجتمع الأسر، ونتناول وجبة أعدتها الكنات اللواتي بقين في القرية للعناية بالأطفال الذين تجاوزوا سن الرضاعة لكنهم لا يزالون أصغر من أن يخرجوا معنا للمساهمة في القطاف.

فمن الذي يصل إلى القرية صباح اليوم الثالث؟ إنه السيد هوانغ مع ابنه.

يعلن جيان-رونغ قائلًا وهو ينزل من السيارة: «أنا في عطلة الربيع». لا يزال نحيلًا مثلما كان، ولا يزال شاحبًا قليلًا... لعل شحوبه ناجم عن سفره بالسيارة عبر منعطفات الطريق الجبلية وحفرها.

«جئت كي...»

أرفع يدي كي أوقف السيد هوانغ فلا ينطق أي كلمة أخرى، «لا تقلها!»

يكمل السيد هوانغ جملته مبتسمًا ابتسامة عريضة، «كي أساعدكم». على رأسه قبعة من قش، وأزرار قميصه المتغضن مفتوحة حتى أسفل صدره. في قدميه صندل من البلاستيك، وقد رفع ساقي بنطلونه حتى الركبتين لأن الطقس حار.

يندفع إليه معلم الشاي سون كي يصافحهما، «يا صديقي القديم! يا صديقي الشاب! ما أحسن أن نرى هنا اثنين من ذواقة الشاي الخبراء!».

يتبادل الرجال السجائر دلالة على الصداقة والمودة بينهم (لا يعني هذا أنهم من المدخنين). لا يزال السيد هوانغ يثير اضطرابي كعهده دائمًا

لأن لديَّ إحساسًا دائمًا بعدم الراحة عندما يكون قريبًا مني. لكن معلم الشاي سون واثق به. لعل من الواجب أن أحاول أن أكون واثقة مثله، ولو قليلًا. وأما الصبي فقد أخذته آما إلى داخل البيت ولعلها تسقيه الآن كأسًا من شايها الخاص قبل أن يذهبا إلى القطاف. الصداقة بينهما مستمرة منذ أتى مع أبيه إلى قريتنا أول مرة.

نحمل سلالنا ونعلقها بأكتافنا، ثم نبدأ مسيرتنا الطويلة صاعدين الجبل قاصدين أشجار الشاي.

*

تكون الأيام الستة التالية أشد أيامنا انشغالًا إذ نقطف أول دفعة من أوراق الشاي ونعالجها. بعد فراغنا من هذا، يستعد السيد هوانغ وابنه للعودة إلى هونغ كونغ. يبدو الفتى أحسن حالًا من وقت وصوله: صار أقل شحوبًا وزاد وزنه قليلًا بفعل الطعام اللذيذ الذي تطهوه الكنة الأولى. وبالطبع، يسألني السيد هوانغ عن بستاني السري فأُكمل ذلك الطقس المعتاد بأن أرفض الكشف له عن بستاني. ثمة أمور لا تتغير أبدًا.

أنقل بعض ما تعلمته في كلية الشاي إلى آبا وإخوتي وبقية الرجال في القرية. تشتمل خطتي على قسمة أوراق الشاي إلى مجموعتين (مثلما فعل السيد هوانغ قبل سنين كثيرة): واحدة لشاي ماوتشا، الشاي نصف المعالج الذي يستطيع الناس شربه على حاله ويستطيعون تركه يتعتق تعتيقًا طبيعيًّا، والقسم الآخر من أوراق الشاي من أجل التخمير الاصطناعي. في الوقت الحاضر، نحوّل أكبر سقيفتين من سقائف التجفيف في بئر النبع إلى صالتي تجفيف. يُكوّم الشاي نصف المعالج

أكوامًا يبلغ علو الواحد منها نصف متر. نرش الأكوام بالماء، ثم نغطيها بالخيش ونترك حرارة التحلل الطبيعية تفعل فعلها. أعلم أن كل شيء جارٍ على خير ما يرام عندما أرى النحل محوِّما في الخارج لأن شذا الشاي الحلو الدافئ يجذبه. ما من شيء يشير إلى تعفن أو اهتراء أو رائحة سيئة. أكوام الشاي فائحة برائحة الأرض والحياة والتفاح الناضج وغبار الطلع. هاتان الفئتان من الشاي سوف تُبَخَّران بعد ذلك وتُصنع منهما قوالب الشاي التي تُوضع في الخارج على صَوانٍ من أجل مرحلة تجفيف أخرى. وأخيرًا، نضعها في أغلفة «قرية بئر النبع» الجديدة المصنوعة من أفضل أنواع ورق الأرز.

وكل مساء، يخمّر الشاي معلم الشاي سون ويصبه لنا. نجتمع كلنا من حول الطاولة، آما وآبا والسيدة تشانغ وإخوتي وأنا وجين والمعلم زهانغ (الذي تجعله حماتي يضحك مثلما لم يضحك من قبل). نختبر كل دفعة من الشاي كل ثلاثة أيام لنرى كم صار الطعم قابضًا لأن هذا مؤشر على سير عملية التخمر. هذه أوقات سعيدة أمضيها مع أسرتي مع أن الكنات يبقين منفصلات عنا لأن هذا ما تمليه العادات.

على أن أجمل لحظاتي هي التي أمضيها مع نساء أسرتي إذ نعمل على المهمة التي أراها دائمًا أكثر أجزاء العمل رتابة: تصنيف أوراق الشاي إلى مستويات مختلفة. أوراق الشاي المصفرة أو المعيبة يمكن أن يُصنع منها شاي منخفض الجودة يستهلكه المعلمون المتقاعدون وعمال المصانع والفلاحون في مقاطعات الصين الأخرى. نبيع هذا الصنف بأربعين يوانًا للكيلوغرام الواحد. وأما أفضل الأوراق (وهي قليلة)، فتوضع

جانبًا لإنتاج دفعات خاصة أتولى معالجتها بنفسي. ولدينا أيضًا أوراق الشاي الواقعة بين هاتين الفئتين: أوراق ستجد في نهاية الأمر هدفها المناسب ومشتريها المناسبين. نجلس نحن النساء عند السلال أمام بيتي، وننهمك في تصنيف أوراق الشاي ورقة ورقة. تدور الأحاديث بيننا، وأعلم من منهن واقعة في الحب ومن تزور «غرفة الزهور» أو تسرق الحب في الغابة أو تستعد للزواج. أسمع أنباء المشاجرات والخلافات الصغيرة. وتحكي النساء لي القصص التي فاتتني خلال سنوات غيابي.

أرى كم تغيرت الحياة بالنسبة إلى الشابات، كبنات إخوتي الثلاث، اللواتي يحكين لي عن حملة حكومية جديدة تستهدف فتيات الأقليات العرقية كي يحرزن «الاستقلالية، وتعزيز الذات، والذكاء، وتطوير المهارات». يُنتظر منهن فعل أشياء من قبيل تعلم كيفية حياكة حقائب يد تحمل رموزًا تبين ثقافتهن الفريدة، لكنني لا أستطيع رؤية كيف يساعدهن هذا في أن يصرن كوادر القرية أو يذهبن إلى الجامعة أو يبدأن مشاريعهن الصغيرة الخاصة بهن. لكني أسمع ابنة الكنة الأولى تردد شعارات شائعة من قبيل «قللي عدد الأطفال، واغرسي مزيدًا من الأشجار»، أو «إذا أنجبت أطفالًا أكثر مما ينبغي، فسوف يكون في هذا دمار أسرتك»، فأفهم أن بنات إخوتي الثلاث يفكرن في حياتهن ويخططن لها على نحو مختلف تمامًا عمَّا عرفته عندما كنت في مثل سنهن.

وأما آما فلا تزال تقودنا جميعًا بالطريقة نفسها... يد صارمة، لكنها منصفة. وهي قاسية على ديه-جا خاصة على الرغم من مهارتها في تصنيف أوراق الشاي، وذلك لأن ثمة مسؤوليات مهمة تنتظرها.

تقول آما مخاطبة ديه–جا كأنها خادمة عندي: «ستكون ابنتي في حاجة إلى تناول غذاء نافع عندما تضع حملها. فكل أم جديدة ينبغي أن تتناول لحم الكبد كي تعوض ما فقدته من دم، وينبغي أيضًا أن تأكل البابايا الخضراء للمساعدة في إدرار الحليب. عليها أيضًا أن تأكل كلية الخنزير كي تخفف عنها أوجاعها وآلامها. وهي في حاجة إلى مأكولات تجعلها تحس دفئًا - الزنجبيل والدجاج والقرع. سوف تحرصين على أن تكون تغذية الأم الجديدة هكذا مدة ثلاثة أدوار زمنية، ستة وثلاثين يومًا لا تنقص يومًا واحدًا».

ديه–جا أمية. هذا ما يرغمها على مواصلة تكرار هذه الوصفات أثناء تصنيف أوراق الشاي كي تستطيع أن تحفظها. وأما عني أنا فإن في ذهني فكرة مختلفة عمّا سيحدث عندما يصير جنيني مستعدًّا للسقوط إلى الأرض.

مع أن أيامنا طويلة، ومع أننا لسنا في موسم الأمطار، أطلب من آما أن تساعدني في صنع غطاء الرأس التقليدي من أجل مولودي. وعلى الفور، تصير نساء الأسرة وفتياتها جميعًا راغبات في المشاركة. وها نحن الليلة جالسات معًا، وفي خلفية المشهد شاشة التلفزيون التي تعرض برنامج منوعات فيه أغنية صادحة «خمسون وخمسون أقلية، حلم واحد». باتت الألعاب الأولمبية وشيكة، وبثّت الحملة الرامية إلى العثور على خمسة وخمسين زوجًا من التوائم شعور الاعتزاز في أرجاء البلاد كلها. تقهقه بنات إخوتي الثلاث ضاحكات وهن ينظرن إلى شاشة لابتوبي ويستعرضن مواقع إنترنت تنشر صورًا لـ«أجمل الفتيات

في خمسة وخمسين أقلية إثنية» ويتابعن استطلاعات الرأي التي تطرح السؤال التالي: «من بين خمسة وخمسين أقلية، ما الأقلية التي فيها أجمل الفتيات وأصلحهن للزواج؟». وتحاول كناتي تذكيري بمهارات لم أستخدمها منذ سنين.

لا تزال الكنة الثالثة صاحبة أفضل تطريز، ولا تزال دروسها دقيقة كعهدها دائمًا، وهي تنتقل من الرقة إلى الغضب في ثوانٍ معدودة... بحسب أدائي. تقول لي: «أشغال الإبرة تُظهر اجتهاد المرأة وفضائلها. عليك أن تضيفي إلى قبعة مولودك قطع نقود معدنية وثمار فلفل حار أحمر مجففة وأسنان حيوانات لأنها تطرد الأرواح الشريرة. الطفل المحمي جيدًا ينبغي أن يكون عليه ما لا يقل عن عشرة كيلوغرامات من الفضة». لن يحدث هذا الأمر، لكني لا أقول لها هذا... «ولا تنسي أن تضيفي بعض المرايا الصغيرة جدًّا. تكره الأرواح أن ترى انعكاس صورتها في المرآة». فماذا عن تطريزي؟ وااااه! عليَّ أن أطرز ضفدعًا وأرنبًا وقردًا وقطة كي يكون مولودي ذكيًّا، سريعًا، نشيطًا، محترسًا كتلك الحيوانات. تقول الكنة موبخة إياي: «تؤلمني عيناي عندما أرى هذا العمل القبيح. هل ستجعلين الناس يرون مولودك مرتديًا هذا؟ سوف يعلمون أن أمه لا تحبه». أعمل على قطبات التطريز، وتحاول الكنتان الأخريان إشغال الكنة الثالثة عن انتقاداتها المتواصلة بأن يناقشن معها وضعية جنيني في بطني.

تقول الكنة الأولى: «الجنين نائم في الناحية اليمنى من زوجة جين. لا بد أنه صبي».

وتقول الكنة الثانية معترضة على ما تقول الكنة الأولى: «لا، لا. الجنين نائم في الناحية اليسرى. إنه بنت، للأسف!».

لا صعوبة في التلاعب بالكنة الثالثة، لا رأيها يمكن أن يتغير بحسب حالتها المزاجية. في الليلة من الليالي تكون مقتنعة بأن الجنين صبي، وفي الليلة التي بعدها تكون مقتنعة بأنه بنت. لكن ذكاءها يسعفها هذه الليلة، فتسأل آما: «ما رأيك؟»

تجيبها آما: «يستطيع أيًّا كان رؤية أن البنت ستهب زوجها صبيًّا».

في وقت لاحق، أنقل هذا النبأ إلى جين عندما نصير وحدنا، لكن استجابته تكون متوقعة. يقول: «صبي أو بنت... سأكون سعيدًا. طفل سليم معافى... هذا ما نريده جميعًا، أليس كذلك؟» أحبه أكثر قليلًا مع كل يوم يمر. أسرتي معجبة به أيضًا لأنه يحترم تقاليدنا على الرغم من كونه واحدًا من أكثرية هان، وعلى الرغم من أنني تزوجت شخصًا ليس من جماعتنا.

الجد في العمل، والاحترام المتبادل، والهدف الواحد... هذه هي الخيوط التي صارت الآن تربطنا جميعًا... زوجي وجنيني وأسرتي وأهل قريتي، وأنا أيضًا.

*

بعد مشاورات مع رئيس القرية والروما والنيما، يتم انتقاء تاريخ ميمون من أجل إعادة البناء السنوية لبوابة الأرواح في قرية بئر النبع. يشتمل هذا على نحت رسمين جديدين يمثلان رجلًا وامرأة لهما أعضاء جنسية عملاقة، فضلًا عن نحت صورة كلب وطيور، وذلك كله على

أخشاب يختارها الروما اعتمادًا على ما تتمتع به أرواح الأشجار من قوة. يشارك في العمل أكبر رجل من كل أسرة، فيصطحب آبا جين معه لأنه رأس الأسرة التي أعيش فيها الآن. تظل النساء بعيدًا، كما ينبغي، لكن صوت الروما يأتينا عبر الأشجار.

يأتي صوته صادحًا: «فلتدرأ عنا بوابة الأرواح الشرور كلها وتجعلها تحول طريقها وتدور من حول القرية! فلتطرد بوابة الأرواح النمر والحدأة! فلتحمنا من نوبات الصرع ومن البرص. أيتها الأرواح الشريرة، ويا مصاصي الدماء، ويا أيتها الذئاب الضارية، انظري كيف يحمل هذا الذكر على بوابتنا بأس الحديد بين ساقيه كي يدفع بك في وجهة أخرى! أيتها الآلهة، انظري كم جعلنا بدينة هذه الأنثى المنحوتة على بوابتنا. ستضمن لنا ولادة أطفال كثيرين في قرية بئر النبع على امتداد العام القادم!». وأخيرًا، يوجه خطابه إلى الشكلين المنحوتين: «أيها الرجل القوي، أيتها المرأة القوية، فلتدعا النقاء كله والخير كله يدخل قريتنا! ويا أيتها الكلاب، فلتعضي السارقين وأولئك الذين يريدون بنا شرًّا. ويا أيتها الطيور، فلتجعلي الثروة تأتينا من غير أن تفسدنا».

تنتهي مهمة الرجال وقت الظهر، ثم نحتفل بأن نضحي بخنزير كي تشارك القرية كلها في الوليمة سواء أكان المشاركون من عصبة سي-ته أم من عصبتي. وأما نحن النساء، فلا يصح أن نزور بوابة الأرواح الجديدة إلا صباح اليوم التالي.

على أن البوابة ليست التدبير الوقائي الوحيد عندنا. نذهب بالسيارة، أنا وجين، إلى لاوبانزهانغ كي نرى ما يفعل أهلها الآن لحماية

أصالة شأنهم. يرينا رئيس القرية بوابات حراسة ويقول لنا إن محصول ثلاث سنين سوف يُصادر إذا تم اكتشاف أن ثمة من يبيع شايًا زائفًا. لهذا السبب، وبالإضافة إلى بوابة الأرواح التقليدية في قريتنا، ينشئ رجال بئر النبع بوابة إلكترونية عليها مركز حراسة يتولى تفتيش كل سيارة تأتي إلى القرية بغية ضمان ألا يكون مع ركابها «شاي دخيل»، فضلًا عن تفتيش كل سيارة تخرج من القرية للتأكد من أنها لا تحمل شايًا غريبًا معبأ في أغلفة تحمل شعارنا. كل قالب شاي ننتجه نغلفه ونضع عليه لصاقة حماية جديدة تبين مصدره وصنفه.

*

تنتهي معالجة الشاي كله بعد شهرين من ذلك. يعود معلم الشاي سون إلى دياره. وأتعاقد مع المعلم زهانغ كي يدير العمل ويشرف على الأمور في غيابي. يعدني بأن يكاتب السيدة تشانغ. بعد ذلك، يكون علينا، أنا وجين ووالدته وديه-جا، أن نعود أدراجنا إلى غوانزو حتى يستأنف زوجي عمله هناك من غير أن يعوقه بعد المسافة وحتى أختبر الشاي الذي صنعناه لأرى إن كانت جودته مثلما أتوقع لأنني سأضعه في متجري الذي سأعيد افتتاحه عقب وصولي. وفي وسع ديه-جا وحماتي أن تتصديا لمن يحاول الإساءة إلى سمعتي.

وتبعًا لما صار تقليدًا حتى من غير أن نتكلم فيه، أذهب مع آما لزيارة بستاني في آخر يوم من أيام إقامتي في جبل مانوو. تعكف آما على التقاط الطفيليات النامية على الشجرة الأم كي تصنع منها أدويتها، ونتعاون معًا على وضع الخيوط الصفراء المقتلعة من لحاء

الشجرة في علبة صغيرة. وبعد فراغنا من ذلك، نتجول في البستان وأبوح لأمي بأمنيتي.

أقول لها: «أود أن أعود إلى القرية كي أنجب طفلي هنا. أتمنى أن تقومي أنت بتوليدي».

لا يلزمها أكثر من أن تفكر أكثر من لحظة واحدة قبل أن تجيبني: «عليَّ أن أرفض هذا».

أسألها: «ألأنه محرّم؟ أنت التي أتيت بيان-يه إلى هذا العالم».

«الأمر ليس هكذا. يشرفني أن تطلبي مني ذلك، لكن من يعشن خارج القرية يذهبن جميعًا إلى المستشفى أو العيادة للولادة».

«أنا لست من خارج القرية».

«لا أريدك أن تذهبي إلى أي مستشفى. تحدثت في هذا الأمر مع زوجك، فوعدني بأن يأخذك إلى أميركا كي تنجبي حفيدي هناك».

«وماذا عن تحريم زيارة أي قرية أخرى، أو غير ذلك، كي لا أُجهض فيها».

«لقد سافرت كثيرًا بالفعل أثناء وجود الجنين في أحشائك».

«لكن بئر النبع هي موطن طفولتي، وأنا أريد منك أن تقومي على توليدي...»

«يا بنت، أريد أن تنجبي طفلك في أميركا لسببين اثنين. السبب الأول، أنك ستكونين هناك قريبة من يان-يه. قد تعلم في قلبها أنه قد صار لها أخ. والسبب الثاني هو أن يكتسب ابنك الجنسية الأميركية.

هذا ما يفعله كل من يستطيع احتمال تكلفته. حتى أنا أعلم هذا الأمر».

«هل تأتين معنا؟».

تتصادم الحلي الفضية وقطع النقود على غطاء رأس آما وترن وهي تهز رأسها. «لا بد لي من البقاء هنا فقد يمرض واحد من الناس. ثم إن في قرية ظل السقيفة طفل سيولد عمّا قريب. لا أريد أن يداهم المخاض تلك العروس من غير أن يكون هناك أحد لمساعدتها غير حماتها».

بعد ذلك، تعطيني آما أشياء كي آخذها معي إلى المستشفى الأميركي تحسبًا لاحتمال ألا تكون لديهم أدوية مناسبة: دمامل من قدم قرد كي يدعك بها الطبيب ظهري إذا تعسر المخاض، وقشرة بانغولين لتدليك معدتي بغية مساعدة الرحم في التقلص بعد الولادة، وحشيات من كف الدب كي أستخدمها إذا كان النزيف غزيرًا. وعشبة خاصة أضعها بين ساقي بعد الولادة كي تَشفي مخرجي.

تنصحني: «إذا أصاب طفلك التهاب في العين، فاقطري في عينه حليبًا من صدرك. هل لديهم ملاريا في أميركا؟ أنت تعلمين علاجها، لكنني أعددت كمّادة خفيفة من أجل وليدك، فمن يدري؟».

*

يسير افتتاح متجري الجديد على أحسن ما أحب وأشتهي. وفي غضون أيام معدودة، يعود رجال الشاي الثلاثة الذين كانوا يجلسون عندي. ما أروع أن أراهم من جديد! يثرثرون معي عن حجم بطني ويتمنون عليَّ أن أختار لطفلي واحدًا من أسمائهم، «أمر ظريف، عذب».

من الواضح أن هذا ليس أفضل وقت لبدء عمل جديد، لكن ثمة بشرًا كثيرين معتمدين علي، وثمة شاي ينبغي قطافه وبيعه بحسب مواعيده الطبيعية. وهكذا، أترك أمر الاهتمام بمتجري بين يدي حماتي بعد أسبوعين فقط من وداعي أمي في بستاننا. وفي اليوم التالي، أصعد مع جين وديه-جا إلى طائرة ذاهبة إلى كاليفورنيا.

ثم يأتيني المخاض بعد أسبوع واحد، صبيحة الخامس عشر من مايو بحسب التقويم الغربي. نصل إلى مستشفى هنتينغتون في باسادينا فيملأ جين الأوراق اللازمة، ثم يضعونني على سرير ذي عجلات ويأخذونني إلى غرفة الولادة. لقد وعدتْ ديه-جا آما بألَّا تفارقني أبدًا، لكنها تخرج إلى الممر بعد دقائق من ذلك وتنخرط في مجادلة مع جين الذي وعدني أيضًا ألَّا يفارقني.

«إن رأى رجل زوجته أثناء الولادة، فقد يموت نتيجة ذلك». أسمع صوت ديه-جا يصرخ مثل منشار غاضب. يأتيني صوت زوجي خفيضًا عبر الجدار، يأتيني هادئًا، مصرًّا. ثم ينتهي الأمر بكليهما إلى البقاء معي. يسرني وجودهما وتسرني مساندتهما، لكن هذا شديد البعد عن تقاليد الأكها. نتعاهد ثلاثتنا على عدم إخبار آما بما جرى.

العاملون في المستشفى صبورون معنا، لكن كيف يستطيع أي شخص أن يجادل جين ويغلبه؟ أسمعه يقول للممرضة: «إذا قالت زوجتي إن عليها أن تشرب الماء الحار كي تساعد الجنين في الخروج، فعليك أن تأتيها بماء حار». ويقول للطبيب: «إذا طلبت زوجتي، بعد الولادة، تدليك بطنها بمادة من عندها، فهذا ما سوف يحدث». وعندما

تفرش ديه-جا على الطاولة الصغيرة قطعة قماش نيلية اللون وتضع عليها بيضة وسكينًا وخيطًا يخرج جين محفظته من جيبه ويحاول أن يدس في يد الطبيب نقودًا.

يقول الطبيب بنبرة متيبسة: «أنا أحاول العناية بزوجتك، يا سيدي. هذا النوع من الأمور لا ضرورة له».

يشتد الطلق عليَّ. ولا يكف جين عن القول: «تنفسي، تنفسي، تنفسي» لأن هذا ما اعتاد رؤيته في الأفلام. أحبه، لكني أعتمد على ديه-جا في أشد اللحظات صعوبة. تساعدني في أن أجلس القرفصاء. أحس أنني صرت عالية جدًّا على السرير. يحاول الطبيب وممرضاته التدخل، لكنها تبعدهم عني.

تقول لي ديه-جا: «تذكري ما قالته أمك عن السمك! ... اتركي ابنك ينزلق خارجًا!».

دفعة أخيرة و... ها هو.

يقول الطبيب راجيًا: «ألا تدعيني أرى المولود؟ أريد تنظيف مسالكه التنفسية».

أسأل: «أهو صبي؟»

يجيبني جين: «أجل، صبي». ابتسامة كبيرة على وجهه.

أتزحزح مبتعدة عن طفلي وأستلقي على الفراش مادة ساقي إلى جانبيه. لا يزال مكسوًّا بالمخاط، بالطبع، لكن على رأسه شعر كثيف أسود اللون وجلده وردي ناطق بالحياة، وبين ساقيه تلك الأشياء المنتفخة الثلاثة التي ستجعلني ذات يوم جدة. تتحرك شفتا ديه-جا

وهي تحصي من غير صوت: عشرة أصابع أقدام، عشرة أصابع يدين، ذراعان، قدمان...

يقول الطبيب مطالبًا: «فليقل أحدكم لهذه المرأة أن تتحرك».

ديه-جا لا تتكلم الإنكليزية. وجين لا يعلم ما ينبغي أن يحدث بعد ذلك. أفلح في القول: «دقيقة واحدة، من فضلك. لا يكون *الطفل قد ولد حقًا قبل أن يصيح ثلاث مرات*». يتنهد الطبيب ويتراجع إلى الخلف خطوة.

مع كل صرخة من صرخات طفلي القوية، تتلو ديه-جا الكلمات الشعائرية: *الصرخة الأولى للبركة. الصرخة الثانية للروح، الصرخة الثالثة طول العمر.*

بعد ذلك، تشير إلى الطبيب وإلى الممرضات بأن يتقدموا. يقص الطبيب حبل السرة ويسمح لجين بأن يربطه تحت موضع القص بالخيط الذي أتينا به معنا. ثم يقص الخيط. دفعة واحدة فيخرج من جسدي «الصديق الساكن مع الطفل»، يخرج من غير مشقة. تناولني ديه-جا البيضة كي آكلها، لكني نسيت آلام الولادة منذ الآن. أحس تعبًا، لكني فرحة جدًّا. ينقل الطبيب طفلي إلى طاولة أخرى ويعكف مع واحدة من الممرضات على التحقق من عافيته. ابني في وضع ممتاز.

أهمس في أذنه عندما يسمحون لي بوضعه على صدري: «الأرواح العظيمة الأربعة هي الشمس والقمر والسماء والأرض، لكن عليك أيضًا أن تعلم الأرواح الأصغر منها، تلك التي توجه الريح والبرق والشلالات والبحيرات والينابيع. ثمة روح لكل ما في الأرض... حتى لحبة أرز واحدة».

يطلب جين رقم هاتف آما الخليوي ويجعل ديه-جا تعلن لها النبأ بلغة أكها: «سيكون لدى الأسرة الآن طريدة صيد تأكلها». يعني هذا أنني أنجبت صبيًّا. تأتيني صيحات أبي عبر الهاتف فتبلغ فراشي.

وعند منتصف الليل، يعبر جين الممر كي يتابع ختان ابننا على يد د. كاتز الذي هو طبيب أطفال نُصحنا به لأنه اعتنى بأطفال صينيين كثر. وبعد صباحين اثنين، نصير مستعدين لمغادرة المستشفى، لكننا لا نستطيع مغادرته قبل أن نعطي الموظفة المسؤولة اسمًا كي تسجله في شهادة الولادة.

يقول جين: «سيكون اسمه الأميركي بول ويليام تشانغ».

نضع بول الصغير (على رأسه قبعته التي صنعتها له) في كرسي الأطفال في السيارة وننطلق إلى بيتنا.

تلحق بنا ديه-جا إلى الطابق العلوي وتدخل غرفة نومنا. يزيح جين الأغطية ويضع الوسائد كي أستطيع الاستلقاء على السرير مع طفلي. تزقزق ديه-جا وتتحرك كثيرًا. وعندما يصعد جين إلى السرير ويجلس إلى جانبي كي نستطيع أن ننظر معًا إلى وجه طفلنا، تبدأ السير من أول الغرفة إلى آخرها مظهرة انزعاجها.

يسألها جين: «ما المشكلة، يا ديه-جا؟».

ترفض النظر إلى جين، وترسل كلماتها السريعة إليَّ بلغة أكها كي لا يستطيع جين أن يفهم شيئًا. «تقضي القواعد ألا ينام الزوج والزوجة معًا على فراش واحد مدة عشرة أدوار زمنية -مئة وعشرون يومًا- لأنك، إذا حبلت من جديد وولد لك طفل آخر قبل مرور سنة، فسوف يعتبر ذلك الطفل...».

هي في ضيق شديد. لا تستطيع إكمال جملتها. أتذكر هذا التحريم فأشفق عليها كثيرًا: الطفل المولود بعد أقل من سنة كاملة من ولادة سابقه، سواء أكان أخًا أم أختًا، يعتبر توأمًا له.

أربت على الفراش وأقول لها: «ديه-جا، تعالي!». تجلس مترددة... «أفهم قلقك، لكني لن أنام إلا مع جين».

تهمس إليَّ: «وماذا عن الجماع؟».

«أنا لا أزال في النفاس».

«يحظر على الرجال محاولة الجماع في هذا الوقت، وذلك لسبب تعلمينه، وكذلك كي يتاح للزوجة وقت لشفاء «أجزائها». لكن الرجل يظل رجلًا، والأدوار الزمنية العشرة تدوم زمنًا طويلًا...». تقول هذا هامسة.

أبتسم. «لا تقلقي، أنا وجين سنكون في أحسن حال».

ترضخ آخر الأمر... ترضخ ضمن حدود. تخرج كي تتنزه قليلًا، ثم تعود بعروق من اللبلاب قطعتها من حديقة روزي. «لم أستطِع العثور على عروق سحرية. لذا، ينبغي أن تكون هذه وافية بالغرض». تعلق تلك العروق المورقة على باب بيتنا وعلى باب غرفة طفلي كي تقيه الأرواح التي تهاجم الأطفال. وبعد ذلك، تعود إلى غرفتي مستحيية، تخرج من سترتها كيسًا شفافًا فيه شيء إسفنجي أحمر اللون له ما يشبه ذيلًا عائمًا داخل الكيس.

تقول بصوت منخفض جاد: «لقد أخذت «الصديق الذي يعيش مع الطفل» عندما كان الرجل الذي في مستشفى غير منتبه».

أقول لها: «هل تقولين إنك سرقت مشيمتي؟».

ينتبه جين فيرفع رأسه وينظر إلينا. زوجي الذي كان شجاعًا طوال هذا الأمر كله، يشحب وجهه الآن فيصير كالرمل عندما يراها تلقي بالكيس على الطاولة الصغيرة من غير كبير اكتراث.

«سوف أدفنه تحت البيت، تحت الموضع الذي فيه مذبح الأسرة. لا يجوز أن ينفصل ابنك عنه! ولا تقلقي! سأتولى مسؤولية سقايته مرتين كل يوم إلى أن يتلاشى كله».

تأتي بعد قليل وقد كستها الأتربة وشباك العنكبوت نتيجة زحفها في ذلك الحيز الضيق تحت البيت.

ثم يأتي صباح اليوم التالي، فنقوم بكل ما نستطيع كي نؤدي طقس تسمية الطفل بحسب تقاليد أكها. كان عليَّ أن أشتري ديكًا وأربيه كي يضحي به جين في هذا اليوم. (ألحت ديه-جا كثيرًا كي أفعل ذلك). بدلًا من الديك، يذهب جين إلى متجر قصاب في مونتري بارك ويقف عنده إلى أن يذبح دجاجة وينظفها ثم يأتي بالدجاجة إلى البيت. تطهو ديه-جا الدجاجة ثم تأتي بثلاثة خيوط غليظة وتغمسها في كل طبق من أطباقنا، ثم تربط خيطًا على معصم واحد منا، أنا وجين والطفل، كي نعيش زمنًا طويلًا من غير فراق. بعد ذلك، تحمل ابني وتتلو تعويذة. «اِكبر! كن قويًّا! لا تبكِ! عسى أن تكون محاصيلك وافرة وأن تكون حيواناتك في أتم عافية!».

اسم جين مؤلف من مقطع صوتي واحد. ولهذا السبب، نسمي طفلنا جين-با.

يقول جين: «آمل أن يكون الأول في سلسلة طويلة».

منذ أن كنت طفلة صغيرة، تغيرت مشاعري إزاء ما يتسم به الأكها من تطيّر، وهذا جزء من السبب الذي حدا بي إلى طلب العون من المعلم زهانغ منذ سنين كثيرة. ولكن، إن كان أي من احتياطات ديه-جا قادرًا على ضمان السلامة لابني فلن أعترض عليه أبدًا. وسوف أعلمه التقاليد الصحيحة كأن يمتنع تمامًا عن وضع ساقٍ فوق ساق في حضرة الكبار، وأن يعلم إن جاء الرعد أن من الواجب صنع الفطائر المقلية. سأهمس في أذنه قائلة إن الأرواح ليست على قدر كبير من الذكاء، وسأعلمه كيف يخدعها. سأقول له إن الزلازل تحدث عندما يمسك تنينًا يعيش تحت أرض جذور الأشجار ويهزها وإن خسوف القمر ناجم عن روح كلب تحاول التهامه. سأحكي له قصصًا عن آما ماتا، أم البشر والأرواح جميعًا، وكيف قسمت العالم إلى قسمين. وبالطبع، سأعلمه كيف يسرد نسبه حتى إن كان ذلك نسب أسرتي فقط، لا نسب أسرة أبيه.

*

بعد شهور من ذلك، أجلس مع جين وديه-جا ونتناول عشاءنا أمام التلفزيون كي نتابع حفل افتتاح الألعاب الأولمبية في بيجين. أضع قطعة صغيرة من لقمتي على شفتي بول كي يعلم أننا نأكل. لكن الحقيقة أن انتباهنا مشتت لذهولنا أمام العرض الرائع الذي تقدمه بلادنا إلى العالم. تبدو مسيرة التوائم الصينيين الخمسة والخمسين المنحدرين من الإثنيات العرقية مؤلفة، في أكثرها، من أشخاص من أكثرية هان مرتدين ملابس كملابس الأقليات. على الرغم من هذا، تبكي ديه-جا عندما ترى هذا

المشهد. يقول جين إن نساء الأكها أجمل نساء الصين كلها ولكن... ماذا يستطيع أن يقول غير هذا؟ أحتضن ابني راضية.

كانت الشهور التي أمضيها بعد ذلك في أركاديا أسعد شهور حياتي كلها. جين أبٌ طموح شديد الانشغال. وأنا أساعد أهل قريتي. متجري الجديد في سوق الشاي في فانغون يسير على نحوٍ مقبول فيمنحني هذا أملًا في عودة قيمة شاي بيوَّر إلى سابق عهدها. صرت في الثلاثين من عمري. أحب طفلي أكثر حتى مما أحب حياتي نفسها. وأنا مستعدة لفعل أي شيء من أجله. إذًا، يعني هذا من الناحية الشخصية أنني استعدت قواي من جديد وصرت في أحسن حال. إلا أن تلك كانت فترة عانى فيها اقتصاد العالم حالة ترنح شديد. وهو الآن في تراجع عميق. أظن أن قيمة العقارات في الولايات المتحدة وفي الصين قد تراجعت كثيرًا مع حلول نهاية السنة. وعلى امتداد العالم كله، صار الناس يغلقون أكياس نقودهم ويخفون محافظهم. يعيش الناس حالة ذعر تجعلهم يتوقفون عن شراء الألعاب ومكيفات الهواء وشاشات التلفزيون وغير ذلك من السلع التي تُشحَن ضمن صناديق من الورق المقوَّى. لسنا واثقين بأن شركة جين ستكون قادرة على اجتياز هذه المرحلة الصعبة. لكن السيدة تشانغ تشجعنا وتقول لنا على الهاتف بعد ظهر ذلك اليوم: «أنت وجين محظوظان لأنكما أنجبتما طفلًا في حقبة سياسة الطفل الواحد في الصين». هذا ما يمنح جين قوة كي يقاتل من أجل شركته ويبث فيَّ قوة وتصميمًا على مساعدته مثلما ساعدني.

القسم الخامس

فتاة الشاي

من زقاق هَمينغبيرد

٢٠١٢-٢٠١٦

مهمة مدرسية: ركزنا في صف الإنجليزية المتقدمة قبل التقدم للانتساب إلى الجامعة على كتابة مواضيع استعدادًا لصياغة طلبات الالتحاق بالجامعة التي ستكتبونها العام القادم. لكني أطلب منكم الآن أن تعتمدوا مقاربة مختلفة من خلال استطلاع مخيلاتكم واستكشافها بأن تكتبوا قصصًا قصيرة. «آمل ألا يتأفف أحد!». جرت العادة على أن يُطلب ممن يؤدي هذه المهمة أن يكتب عمّا يعرفه. خذ أمرًا وقع لك، ثم تخيل الأمر نفسه من جديد كأنه عمل أدبي خيالي. يحق للمرء أن يكتب بصيغة المتكلم أو بصيغة الغائب. يحق له أيضًا أن يغير الأسماء إذا رأى أن من شأن هذا أن يمنحه قدرًا أكبر من الحرية (لن يقرأ المواضيع أحد غيري). تذكروا من فضلكم أن كل واحد منكم سيكتب في تطبيق الالتحاق بالجامعة أمورًا عن رياضيات يمارسها أو عن تطلعه إلى أن يصير طبيبًا أو عن تجربة والديه في الهجرة إلى أميركا. لا تستطيعون الآن أن تتناولوا هذه الأمور المألوفة كثيرًا. كونوا خلّاقين، ووسّعوا عقولكم، ودعونا نرى إن كان أحدكم يستطيع كتابة شيء قابل لأن يُترجم إلى موضوع جامعي قادر على جعل صاحبه يتميز عن الآخرين.

آخر موعد لتقديم المواضيع: ١٣ أكتوبر ٢٠١٢.

الخيبة

بقلم هيلي ديفيس

في ليلة مظلمة من ليالي شهر مارس، طلب كل من آدم وأليس بوين من ابنتهما آمي أن تجلس كي يتحدثا معها. هل ستكون هذه محاضرة جديدة في شأن النهي عن مهاجمة خزانة المشروبات في البيت؟ أم هي أسئلة قلقة عمّا شهدته جلسات المعالجة النفسية من تطورات؟ أم هي القصة القديمة نفسها... «كيف كانت المدرسة اليوم؟ وكيف كان أداؤك في اختبار الكيمياء؟ هل أنجزت واجباتك المدرسية كلها؟». هل سيقولان لها إنهما قررا الانفصال؟ (لن تجد آمي أي مفاجئة في هذا الأمر، إن شئنا الصدق). لعل أباها مصاب بالسرطان، أو لعله في حاجة إلى جراحة قلب مفتوح (سيكون هذا مخيفًا لآمي، لكنه لن يكون مفاجئًا لأن أباها كان في سن الكهولة عندما تم تبنيها). إلا أن آدم بدأ كلامه بكلمتين اثنتين... «هذا الصيف...»، فبلغت آمال آمي عنان السماء. هل سيرضخان أخيرًا ويسمحان لها بالذهاب مع أصدقائها إلى أوروبا معًا؟ «... سوف نأخذك إلى الصين، نريدك أن تستكشفي جذورك». هذا آخر شيء في العالم يمكن أن تكون آمي راغبة فيه أو أن تطلبه. فعلًا. في سنها هذه، من عساه يحب الذهاب في عطلة عائلية. لكن، ما الذي تستطيع فعله؟ *تستطيع محاولة إقناعهما بالعدول عن ذلك، هذا ما تستطيعه*. قالت: «لا أريد الذهاب في واحدة من تلك الرحلات السخيفة من أجل استكشاف الجذور».

في وقت مضى، كانت فكرة الذهاب إلى الصين تعجبها. وكانت لديها رغبة في الحصول على معلومات عن الشيء الذي وجدوه معها.

أكثر الأطفال الذين يتخلى عنهم أهلهم في الصين تكون معهم هدية خاصة من أمهاتهم: عقد، أو تميمة للحظ، أو كنزة يدوية الصنع، أو لحاف بيتي، بل من الممكن أيضًا أن يكون ذلك مبلغًا من النقود الصينية. تعلم آمي هذه الأمور لأنها رأتها في السينما: أب وأم جديدان يقفان للالتقاط صورة مع طفلهما المتبنى ويرفعان الهدية التي أتت معه كأنها جائزة رياضية. إلا أن التذكار الذي تركته لآمي أمها بالولادة كان أمرًا غير مألوف: قالب شاي مدوّر تزينه رموز لا معنى لها ويقارب وزنه باوندًا واحدًا. عندما كانت آمي صغيرة، كانت تُخرج هذا القالب كل ليلة وتنظر إليه. لا بد أن له معنى... لكن، ما معناه؟

ثم وقعت تلك الحادثة في الصف الثاني عندما نفذت مشروعًا مدرسيًا وقالت لكل من في المدرسة (ولأهالي التلاميذ أيضًا) إنها أول شخص من عائلتها يأتي إلى أميركا. كانت تلك حقيقة، لكنها ألحقت ألمًا بأبويها اللذين تبنياها. ما كان هذا ما أرادته آمي... أبدًا. أصابها ذعر حقيقي. *هل سيعيدانها إلى الصين؟* لا تزال تجد صعوبة في فهم هويتها، وهي تبحث أحيانًا في الإنترنت كي ترى إن كان في وسعها أن تعثر على أي شيء عن أمها التي ولدتها أو عن قالب الشاي. تفعل هذا سرًّا لأنها لم تنسَ أبدًا عواقب ما جرى عندما كانت في الصف الثاني. لا تريد أن تؤذي مشاعر أبويها مرة أخرى، لكنهما لا يفهمان هذا. ففي آخر المطاف، ماذا يحسبان أنها ستحققه الآن من خلال هذه الرحلة إلى الصين؟ لن تعثر على جذورها، ولن تحصل على أي إجابات في شأن قالب الشاي أو في شأن هويتها الحقيقية. ثم إن هذه الرحلة (هذا هو الأمر الأهم) ستجعلها

أسوأ حالًا. هي تعيش منذ الآن مشاعر فقدانها والدتها الحقيقية. لن يكون السفر إلى الصين مفيدًا لها. فضلًا عن هذا، ذهبت كل البنات المتبنيات اللواتي تعرفهن في «رحلات اكتشاف جذور» من خلال شركة متخصصة في أسفار الأسر مع الأطفال المتبنين... يعني هذا أن الرحلة إلى الصين لن تجعلها متميزة عن أي واحدة منهن. تعلم أنها لم تكن إلا جزءًا من موجة كبيرة أتت بآلاف البنات الصينيات اللواتي مثلها وألقت بهن على هذه الشواطئ. *أمر غريب. أمر حزين. أمر لا أهمية له.*

سألتها أليس: «هل اصطحبناك سابقًا في أي جولة إلى أي مكان؟ نحن لا نفعل ذلك. وأنت تعلمين هذا».

«لكن...»

«قد تكون هذه آخر مرة نسافر فيها معًا». قال آدم هذا فتوجست آمي، مرة أخرى، من أن يكون مرض من الأمراض قد أصابه... «فبعد ذهابك إلى الجامعة، أظنك ستكونين راغبة في السفر مع أصدقائك». صحيح *تمامًا*... «وبعد ذلك، ربما تمضين عطلاتك في مختبر في مكان من الأماكن، أو في حقل من الحقول، أو في مساعدة بعض العلماء في تغيير نظرتنا إلى العالم، مثلما تفعل أمك و...»

«أوه، يا آدم!».

مضى الأمر على هذا النحو (مهرجان محبة غبي!)، لكن آمي لم تُثِر كبير جلبة... فماذا إن كانت هذه، بالفعل، آخر عطلة يمضونها معًا؟ مع ذلك، لماذا يذهبون إلى الصين؟ لماذا لا يذهبون إلى جنوب فرنسا أو يفعلون شيئًا جديدًا كأن يذهبوا في رحلة على الأقدام إلى مناطق الريف

النائية؟ بطبيعة الحال، صار واضحًا لآمي أن مخطط الرحلة الذي وضعه أبوها وأمها ليس إلا مخطط رحلة بحث عن الجذور حتى إذا لم يستخدما هذه التسمية، وذلك أن آخر محطة لهم قبل عودتهم ستكون مقاطعة يونان، أي المقاطعة التي وُلدت فيها.

طارت أسرة بوين ليلًا من مطار «لاكس». كانوا شبه أموات عندما حطت بهم الطائرة في بيجين بعد رحلة استمرت ثلاث عشرة ساعة. اجتازوا نقطة مراقبة جوازات السفر، ثم الجمارك. وعندما خرجوا عبر الباب المزدوج: *أوه، يا إلهي!* على الدوام، كانت آمي تحس أنها الوجه الصيني الوحيد في بحر من وجوه البيض. وأما هنا، فقد رأت أمامها ما لا يُحصى عددًا من بشر يشبهونها. أبوها وأمها هما المختلفان عن بقية الناس!

رأوا شابة ترفع بطاقة عليها اسم «بوين». قالت لهم إنها ستكون دليلتهما في بيجين. كانت لغتها الإنجليزية هزيلة جدًّا. تنورة متغضنة وبلوزة صغيرة بيضاء وحذاء شبه بالٍ. حقيبة بلاستيكية رخيصة جدًّا معلقة بكتفها. تقدمتهم سائرة عبر جموع الناس. ذراعها ممتدة أمامها كي تخلي طريقًا لأولئك الثلاثة غير المتجانسين. كانت آمي في السابعة عشرة، لكنها تشبثت بأمها تشبثًا شديدًا.

اجتازوا بابًا آخر، فكان ذلك كأنهم دخلوا فرنًا، فرنًا حقيقيًّا، كأن أمها أعطتها صينية عليها عجينة البسكويت وطلبت منها أن تضعها في الفرن الحار، لكنها تفعل ما طلبته أمها فلا يتبادر إلى ذهنها شيء غير «هانزل وغريتل» والساحرة التي أرادت أن تضعهما في فرن.

بشر يتدافعون حاملين حقائب وصناديق من الورق المقوى وأكياسًا مصنوعة من مادة بلاستيكية حمراء وبيضاء وزرقاء... يضعون ذلك كله في صناديق الأمتعة وبطون الباصات، بل حتى على سقوف السيارات. وكانوا يتصايحون. يتمخطون بأصوات عالية، ويسعلون، ويبصقون على الأرض. ما أبشع هذا! والرائحة... ثوم كثير جدًّا وكأن آمي حطّت في فم عملاق أنفاسه كريهة الرائحة. وفوق ذلك كله، تعرق شديد وكثرة من دخان السجائر المنبعثة رائحته من ملابس الناس. مقزز!

قالت أليس: «حبيبتي! أنت تقطعين الدم عن أصابعي».

خففت آمي من شدة قبضتها على يد أمها، لكنها لم تخففها كثيرًا.

تكوّموا في حافلة صغيرة. جلست مرشدتهم في المقدمة مع السائق الذي لم ينطق بكلمة واحدة. زحام السيارات! أمر جنوني! والوقت منتصف الليل! مروا بمبانٍ سكنية رمادية اللون. ضياء مصابيح النيون الكالح منبعث من نافذة هنا ونافذة هناك. مر وقت قبل أن تفهم آمي طبيعة تلك الأشياء المعلقة من النوافذ كلها: عصي من البامبو عليها ملابس مغسولة.

بلغوا فندقهم. فندق ضخم! فندق شديد الفخامة. قدم آدم جوازات السفر ومعها بطاقته الائتمانية. أتى فتى مرتدٍ ملابس الفندق ووضع حقائبهم على عربة، وسار مع الأسرة إلى جناحها. كان أليس وآدم متحمسين كثيرًا يتحدثان من غير توقف عن كل ما سوف يفعلونه. توقفت أليس في منتصف كلامها وحدقت إلى ابنتها. سألتها: «لماذا تكشرين هكذا؟ أتينا في هذه الرحلة من أجلك». وفي وقت لاحق، بعد

استلقائها في فراشها، سمعت أليس أمها تقول لأبيها: «مراهِقة!». في تلك اللحظة، تمنى جزء من آمي أن تموت أليس.

استيقظت آمي صباح اليوم التالي فأحست تشوشًا لأن أمها لا تزال تتحدث عن كل شيء خططت له مع آدم. لكنها الآن مرتدية بنطلونًا قصيرًا مع تيشيرت وعلى رأسها قبعة بيسبول. أحست آمي حرجًا كبيرًا وأرادت أن تدفن رأسها تحت الغطاء، لكن خطة الرحلة ليست هكذا. بعد ساعة من ذلك، بعد أن جعلت أمها تستحم وتأكل وطلت كل جزء بارز من جسدها بالكريم الواقي من الشمس، خرج الثلاثة من الفندق. كان الهواء في الخارج مقززًا. لم تبلغ آمي الحافلة الصغيرة إلا وقد صارت ذراعاها مبتلتين تمامًا. لا يمكن أن يتعرق المرء بهذه السرعة كلها، لكن رطوبة الهواء شديدة وكأن ثمة من يرشها بماء حار. لا تزال الساعة التاسعة صباحًا.

ساروا مجتازين ساحة حارة بعد ساحة حارة: معبد السماء. ساحة تيان آن مين. المدينة المحرمة. والشمس تشويهم شيًّا. سأل آدم دليلتهم عن درجة الحرارة فأجابت: «تمنح الحكومة الناس يوم إجازة إذا تجاوزت الحرارة أربعين درجة».

سألها من جديد: «إذًا، كم تبلغ درجة الحرارة الآن؟»

حدقت الشابة إلى الساحة كأنها ليست واقفة معهم: «سمعت أنها ستبلغ أربعًا وأربعين درجة مئوية، وأن الرطوبة ستكون ثمانين في المئة».

صفر آدم مستغربًا، وتنهدت أليس. أرغمت آمي نفسها على حساب درجة الحرارة وفق مقياس فهرنهايت. *مئة وإحدى عشرة درجة*.

اشترى آدم زجاجات ماء. وراح آل بوين يشربون الماء ويتعرقون ويشربون الماء ويتعرقون. التقط آدم نحو ألف صورة لآمي. وخلال الساعة الأولى، رأت بشرًا من أنحاء العالم المختلفة أكثر مما رأته في حياتها كلها. وما أكثر الصينيين! صينيون في كل مكان!

في ذلك الطقس الشديد القسوة، انتهى الأمر بآمي إلى تبديل ملابسها ثلاث مرات في يوم واحد. كانت تبدل ملابسها الداخلية أيضًا. زارت الأسرة مزيدًا من المواقع السياحية: القصر الصيفي، وسور الصين العظيم، وضريح الجنود في جيان، و«بوند» في شنغهاي. لكن الصين ظلت غريبة. ليس لهذه الصين كبير صلة بما تعلمته عنها في لقاءات «عائلات لها أطفال من الصين»، ولا حتى من خلال ذهابها إلى بيتي صديقتيها ياسمين وجيد. كانت الصين الحقيقية كبيرة، ملوثة، مزدحمة. إن كانت آمي قد حلمت يومًا بأن تلتقي بأمها التي ولدتها، فقد فهمت الآن أن العثور عليها مستحيل... امرأة من بين مليار وثلاث مئة مليون إنسان.

أخيرًا، طارت الأسرة إلى مدينة كومينغ في مقاطعة يونان حيث كان الطقس ألطف كثيرًا. نزلوا في فندق فاخر آخر، وهذا ما جعل آدم يسأل أليس: «هل تصدقين كم تغير كل شيء منذ آخر مرة كنا هنا؟ علينا أن نعترف بفضل دينغ كسياوبينغ. *رائع أن تصير ثريًا...*».

خرجوا مع دليلتهم الجديدة، وسمعت آمي أصواتًا مألوفة على نحو غامض، لكنها غير مفهومة. رأت بشرًا جلودهم مثل جلدها (أشد سمرة). اتضح لها أنهم من قبائل الجبال. وبعض الأحيان، كان الناس

في الشارع يومئون إليها برؤوسهم أو يشيرون إليها بأصابعهم. لكن ما معنى هذا؟ هل عرفوها أم أن وجودها مع أبوين من البيض هو ما لفت انتباههم إليها؟ مرة أو مرتين، أتى إليها أشخاص وكلَّموها باللغة الصينية. كانت آمي تجيبهم بالإنجليزية: «أنا لا أتكلم الصينية». عند ذلك، كان أولئك الناس أنفسهم يلتفتون إلى أبويها ويسألون بإنجليزية ممتازة: «هل هي مرشدتكما السياحية؟» لكن كيف يمكن أن تكون آمي مرشدة سياحية لهما؟

أمضت أسرة بوين اليومين التاليين في نزهات على الأقدام في الجبال بغية التقاط صور في هذا الموقع أو ذاك، فماذا عن رأي آمي؟ المناظر متشابهة كلها حتى إن كان في هذا المكان معبد وإن كان في ذاك المكان تمثال. لكن شيئًا في الجو وفي المناظر كان يجذبها... كأن غبارًا دخل عينها، أو كأن غبار الطلع قد تغلغل في أنفها، أو كأن ثمة ذكرى تحسها لكن تعجز عن التقاطها. وذات يوم، خلال واحدة من تلك النزهات الرامية إلى استطلاع المناظر الطبيعية، وجدت نفسها تنظر إلى مشهد جديد. تتابع التلال، وجدول جارٍ بينها، ودرب متعرج ماضٍ بين المصاطب المدرجة...

«ماما! انظري».

«ما الأمر، يا حبيبتي؟»

أشارت وقد استبدت بها الحماسة والإثارة، «ألا ترين هذا؟... تمامًا مثل قالب الشاي الذي عندي».

سألتها أليس: «ماذا تعنين؟»

«على الدوام، كنا ننظر إلى الأشكال التي تشبه حرف V على أنها حروف V، أو كأنها شيء يشبه رسمًا بسيطًا لطيور محلقة. ولكن، ألا ترين هذا؟ إنها الوديان الضيقة بين الجبال! الخطوط المتموجة هي تلك المصاطب المدرجة. والخط المتعرج...». ترسم بإصبعها ما تتذكره مما رأته على غلاف قالب الشاي... «هو نهر، أو جدول، أو شيء من هذا القبيل. الرسم الذي على قالب الشاي يمثل خريطة».

يقول آدم مستغربًا: «أوه! يا إلهي، أنت محقة».

لكن أليس، المرأة العملية دائمًا، تسألها: «لكن، خريطة ماذا؟».

«خريطة المكان الذي ولدت فيه». كانت آمي شديدة الحماسة لاكتشافها فصارت كأنها تقفز في مكانها. «يعني هذا أن عثوري على أسرتي بالولادة أمر ممكن».

تبادل آدم وأليس نظرات سريعة وقالت آمي في نفسها: *لا تفسدا عليَّ هذا الأمر!*

طوّق أبوها كتفيها بذراعيه وشدها إليه وراح يحدق معها إلى المنظر الممتد أمامهما. «إنها خريطة. أمر مدهش أنك استطعت اكتشاف هذا. مدهش حقًّا. لكن، لا يا حبيبتي...».

قاطعته آمي: «ألا تذكر ذلك الرسم في وسط قالب الشاي؟ كنت أظنه دائمًا رسم شجرة، لكنه ينبغي أن يكون رسمًا يمثل أمي الحقيقية.

أشاحت أليس بوجهها.

قال آدم بصوت خافت: «أمك هي أمك الحقيقية».

«لم أكن أعني هذا. لكن، فكر في الأمر! حرف X علامة على الموضع المقصود. ينبغي أن يكون هنا».

«قد تكونين محقة». ظلت نبرة صوته لطيفة. كان يحاول أن يتدبر أمر زوجته التي أحزنها كثيرًا سماع أن آمي التي لا تعتبرها أمها الحقيقية. حاول أيضًا تدبر أمر ابنته التي بلغت حماستها الذروة... «لكننا في حاجة إلى نقطة بداية مثلما يكون الأمر مع أي خريطة. هذه الوديان والجبال يمكن أن تكون في أي مكان. بل إننا لا نعرف أين هو اتجاه الشمال».

كان ذلك كأنه قنبلة نسفت فرحة آمي كلها. ما قاله أبوها صحيح، ويا لها من خيبة كبيرة! لكنها لم تلبث أن أدركت أمرًا... كنت *أفكر دائمًا في أن والدتي تحاول أن تبعث إليَّ برسالة. وكنت محقة في هذا.*

اقشَعَرَّ جلد ذراعيها.

قالت أليس وهي تمد يدها إليها: «آسفة، يا حبيبتي!».

شدت آمي على يد أمها لأنها لم تشأ أن تجرح مشاعرها أكثر مما فعلت عندما اجتاحتها تلك الفرحة العارمة. أمها التي ولدتها صارت الآن حقيقية في نظرها، صارت حقيقية أكثر من أي وقت مضى.

تلك الليلة، حلمت آمي بوالدتها وبالخريطة. وفي الصباح، دخلت الغرفة الثانية سائرة على رؤوس أصابعها ووقفت عند السرير منتظرة أن يستيقظ واحد من أبويها.

كانت أليس من فتحت عينيها أولًا. أجفلت عندما رأت ابنتها تنظر إليها.

«ما الأمر؟ هل أنت بخير؟».

«أمي الحقيقية... أعني أمي التي ولدتني، تريد مني أن أعثر عليها».

فتح آدم عينيه. «ماذا هناك؟».

قالت آمي: «دعونا نوزع ملصقًا كذلك الذي يوزعه من يفقد كلبًا».

سألتها أليس متشككة، «وأين تضعين ذلك الملصق؟».

«على أعمدة الهاتف. في المطاعم. نفعل مثلما يفعل الناس في موطننا. من فضلك».

قالت أليس: «ما رأيك، يا آدم؟».

استوى آدم جالسًا ودفع ببضع الوسائد خلف ظهره. كان في وجهه ذلك المظهر الجاد نفسه الذي رأته آمي في اليوم السابق عندما قال لها إنها في حاجة إلى نقطة بداية من أجل الاستفادة من الخريطة.

قال لها: «لقد استلمناك في كومينغ، لكنك لم تكوني من هناك. قالوا إنهم أتوا بك من ميتم آخر».

«أعلم هذا. لكن، ربما تكون في زيارة إلى المدينة». لا تريد التخلي عن المحاولة... «نحن نزور المدينة. ماذا لو كانت تزورها مثلنا؟ ماذا لو كانت قد انتقلت للعيش فيها؟ ماذا لو كانت هنا، في الشارع، هذه الدقيقة؟»

كررت أليس من خلفها وهي تهز رأسها حزينة: «ماذا لو؟».

رجتهما آمي: «من فضلكما».

قال آدم: «حتى إذا فعلنا هذا، فنحن لا نريد أن تعللي نفسك بآمال كاذبة».

«لا نريد أن تخيب آمالك. عليك أن تفكري في الاحتمالات!».

عادت آمي إلى غرفتها وفتحت اللابتوب. دخلت إلى خدمة الإنترنت الخاصة بالفندق. أتتها الأعداد من غير مشقة. وهذا ما جعلها تتوقع العثور على ما تبحث عنه. ولكن، ما من أعداد حقيقية. أتى أول ٦١ طفلًا متبنًّى إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٩١. واصلت الأعداد ازديادها حتى قاربت ٦٣٠٠٠ بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠٥. وبعد ذلك، صار العثور على الإحصائيات صعبًا، وتناقصت أعداد الأطفال المتبنين الآتين من الصين. لكن، إن كان عدد الأطفال الصينيين المتبنين يقارب مئة ألف، وإن كان في الصين نحو ٦٥٠ مليون أنثى، فإن احتمال عثور آمي على والدتها لا يتجاوز واحدًا من ٦٥٠٠. لكن الفرصة تتحسن كثيرًا إذا اقتصر الحساب على النساء اللواتي في سن الإنجاب.

قالت أليس بعد أن عرضت عليها آمي ما توصلت إليه: «هذا إن كانت الأرقام التي في الإنترنت صحيحة».

نقرت آمي على قصة وجدتها ذات مرة واحتفظت بها في كمبيوترها. «انظري إلى هذا، يا ماما! إنها مقالة عن فتاة عثرت على أمها. يقولون هنا إن عشرين أسرة اجتمع شملها من جديد».

«كيف؟». قالت أليس هذا في حين حمل زوجها اللابتوب وبدأ قراءة المقالة.

«كانت في رحلة مع أبويها، مثل رحلتنا هذه. كانوا سائرين في الشارع عندما اقتربت منهم امرأة غريبة وقالت لهم: «أنت تشبهين ابنة أختي». احزري ماذا حدث؟ اتضح أن تلك المرأة كانت خالة الفتاة».

«هذه مصادفة لا تحدث إلا مرة في كل مليون حالة».

مالت آمي فوق أبيها ونقرت على بضعة مفاتيح. فتحت صفحة فيها قصة مختلفة. «وماذا عن هذه القصة؟ أسرة أخرى كانت في رحلة مثل رحلتنا تمامًا. طبعت الأسرة ملصقات كي توزعها. كان أول مكان ذهبوا إليه واحدًا من المقاهي. سألوا إن كانوا يسمحون لهم بوضع ذلك الملصق. نظر الرجل والمرأة اللذان يديران المقهى إلى الملصق وانفجرا باكيين. كانت الفتاة ابنتهما. والآن، تلتقي الأسرتان يوم عيد الميلاد من كل سنة».

قالت أليس: «تبدو هذه القصص مختلقة. إن في الإنترنت أمورًا كثيرة لا معنى لها».

رفع آدم رأسه عن اللابتوب: «الحقيقة، يا عزيزتي، أن ما تقوله آمي مأخوذ من صحيفة بوسطن غلوب. والقصة الأولى كانت من نيويورك تايمز».

قالت أليس مكررة التعبير عن مخاوفها السابقة: «لكن، ماذا عن الاحتمالات؟ لا أريد أن يخيب أمل آمي».

قالت آمي: «أعدك بألا أعاني خيبة الأمل».

قال آدم: «ماما محقة. أنت تعلمين هذا».

صاحت آمي متوسلة: «من فضلك، يا بابا! من فضلك». انصب تركيزها كله على أبيها لأنه لا يرفض لها طلبًا إلا في ما ندر... «اسمح لي بهذا! أرجوك!». لكن أليس سبقته إلى الاستجابة: «لا ضرر من المحاولة. هاتي ورقة من طاولة المكتب. دعينا نفكر في ما تريدين قوله».

أمضى الثلاثة الساعة التالية في العمل معًا. حاولوا التركيز في التفاصيل مع اختيار لغة إنجليزية بسيطة:

اسمي آمي براون. وُلدت يوم الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٩٥، أو في يوم قريب من ذلك. وأنا أبحث عن أمي التي ولدتني. عثروا عليَّ في صندوق من الورق المقوى ملفوفة ببطانية زرقاء اللون. كان معي قالب شاي موضوع في الصندوق نفسه. أنا قصيرة القامة. لون بشرتي داكن بالمقارنة مع بقية الصينيين.

إن أردتم معرفة المزيد عني، فأنا بارعة في الرياضيات والعلوم. أحب التزلج وركوب الخيل، أحب أيضًا الخروج في نزهات مع صديقاتي. آمل أن تكونوا راغبين في لقائي.

للاتصال معي، أرجو إرسال إيميل إلى أبي. (ABowen@ ABArbor.com.)

وبعد وجبة الإفطار، خرجوا متجهين إلى مركز الأعمال في المدينة. لم يأتوا معهم بصورة آمي الملتقطة يوم العثور عليها ولا بأي صورة من الصور التي التقطها آدم وأليس يوم استلماها. ليس لديهم هنا غير صورة لها في الصف الرابع كانت في محفظة أليس. فضلًا عن الصورة التي على جواز سفر آمي. وضعت آمي الصورتين على الورقة التي كتبت فيها رسالتها وضغطت على المفتاح كي تنسخها نسخًا كثيرة.

ساروا بعد ذلك في الحي المحيط بالفندق وعلّقوا الأوراق في كل مكان. ومع انتهائهم من ذلك، أدركت آمي أن خطتها لن تثمر شيئًا: قد لا تستطيع والدتها القراءة باللغة الإنكليزية. وقد لا يكون لديها كمبيوتر

كي ترسل إيميلًا. بل لعلها لا تعرف معنى كلمة كمبيوتر، أو معنى كلمة إيميل. ثم إن ثمة بشرًا كثيرين هنا. فأي مصادفة يمكن أن تجعل أمها التي ولدتها تسير في هذا الشارع عينه وترى صورة آمي مرتدية ملابس المدرسة وتقول في نفسها: *أوه، إنها طفلتي*.

صارت آمي في قنوط شديد وأحست أنها تهوي في لجّة الحزن. قلق أبوها وأمها عليها لأن لها سوابق في الإصابة بالقلق والاكتئاب. حاول أبوها إلهاءها بالنكات. واقترحت أمها أن تأخذها لشراء تذكارات من أجل صديقاتها. لكن الحزن كان كبيرًا.

وفي آخر ليلة قبل سفرهم، دقت آمي الباب الفاصل بين الغرفتين.

سألتها وهي تفتح الباب قليلًا: «أأستطيع الدخول؟».

«طبعًا، يا ماما».

جلست أليس على فراش آمي. «يؤسفني أن الأمر لم ينجح. وأنا آسفة لأننا أتينا بك إلى هنا، وأنا...».

«لا تهتمي بهذا الأمر».

«آه، يا حبيبتي. ليتني أستطيع جعلك تدركين...».

طريقة انقطاع صوت أليس أرغمت آمي على سؤالها، «أدرك ماذا؟».

«ليتك تدركين كيف كان شعورنا أنا وأبوك عندما حصلنا عليك. وما عنيته وقتها بالنسبة إلينا. وما أهميتك عندنا الآن. في الشهور التي سبقت ذلك الاتصال الهاتفي الذي أبلغنا بأن نأتي كي نأخذك، فعلت كل ما أستطيع فعله كي نفهم الثقافة الصينية. كنت أتجول في الحي

الصيني، وقرأت كتب آمي تان. وتابعت أفلامًا صينية. كما قمنا أيضًا بإنجاز الترتيبات العملية كلها. تم تفحص وضعنا المالي وتوثيقه. أجريت لنا مقابلات كي يُسمح لنا بالتبني. سافرنا مع ست أسر أخرى. ثلاثة ثنائيات من المتزوجين. وثنائيين من المثليين، وامرأة عازبة مع أمها. وكم كنت تبكين...».

قالت آمي: «رأيت ألبوم الصور». في تلك الصور، يظهر الأشخاص الذين أتوا لتبني الأطفال وهم يبكون ويضحكون والأطفال الصغار يبكون جميعًا. وأما هي، فقد كان فمها ثغرة كبيرة فاغرة، وعيناها مغمضتين إغماضًا شديدًا، وساقاها وذراعاها (بل جسدها كله) متيبسة كأنها من خشب. وجنتاها حمراوين قانيتين لأنها تصرخ بملء صوتها... «كنت أبكي، ولا أنام».

قالت أليس مؤيدة كلامها: «كان الأطفال يبكون. لكنك كنت تنوحين نواحًا شديدًا. تنوحين ولا تنامين. لا شك عندي في أنك تفهمين الأسباب الموضوعية لذلك، الأسباب والنتائج».

«الأسباب الموضوعية؟ ألا تستطيعين، ولو مرة واحدة، أن تتكلمي معي من قلبك، لا مثلما يتكلم العلماء».

تنهدت أليس: «إنني أحاول. أعلم أنني أكون مزعجة أحيانًا، لكنني لا أريد لك إلا أفضل شيء، أفضل شيء على الإطلاق. أتمنى أن تحسي نفسك فتاة ذكية لا تُقهر».

في أذني آمي، كانت أمنية أمها هذه أشبه بضغط عليها كي «تفعل» أكثر، و«تنجز» أكثر، لكنها لم تقُل لها هذا.

تابعت أليس: «مثلما ترين، كان بكاؤك أمرًا طبيعيًّا تمامًا. كنت أكبر سنًّا من بقية الأطفال. لم تسبق لك رؤية شخص أبيض من قبل. لا نظن أنهم كانوا يحملونك كثيرًا. كنت في حاجة إلى وفرة من الحب. أعطيناك الحب فتوقف بكاؤك، لكننا... يا حبيبتي الحلوة... لا نزال منتظرين أن تستطيعي النوم جيدًا».

ها، ها، ها... كلام فارغ، كلام فارغ. «أعلم هذا. كانت نكتة سخيفة، وأنا آسفة».

«من فضلك، كُفِّي عن قول إنك آسفة».

«ما أحاول قوله لك هو أنني كنت أتساءل دائمًا عمَّا إن كان بكاؤك ناتجًا من افتقادك أمك التي ولدتك. أفكر فيها كل يوم منذ أن حصلنا عليك. أنا لم أستطِع الإنجاب. ولهذا أتساءل إن كانت قد خافت عندما أنجبتك. هل كانت الولادة في مستشفى؟ هل كانت أمك وحيدة؟ هل كان والدك معها؟».

قالت آمي معترفة: «وأنا أيضًا فكرت في هذه الأمور مثلك».

لم يمضِ عليَّ يوم لم أتساءل فيه إن كنت أسأت إليك أكثر مما نفعتك عندما انتزعتك من بلدك ومن ثقافتك. فحتى عندما كنت طفلة صغيرة، سألت نفسي إن كنت ستلومينني على ذلك... بل حتى إن كنت ستكرهينني لما فعلت.

«أنا لا أكرهك، يا ماما».

«أنا وأبوك، ومنذ الليلة الأولى، كوّمنا وسائد كثيرة على السرير العريض في غرفتنا لكي نبني لك عُشًّا آمنًا. نام أبوك، لكنني بقيت الليل

كله مستيقظة. بكيت عندما أمسكت إصبع يدي وشددت عليها. لقد أعطتني أمك التي ولدتك أعظم هدية في حياتي كلها... أعطتني ابنة جميلة، لطيفة، موهوبة. أتذكرها كل يوم وأتوقف لحظة كي أشكرها. ابتسامتك الأولى، وسنك الأولى، وأول يوم لك في الحضانة. وأول... أول كل شيء. كنت أفكر فيها، وكنت أشكرها. وهي موجودة معك دائمًا. والدك أيضًا موجود دائمًا. أراهما في دموعك. أراهما في ضحكتك. أراهما فيك بطرق لن تستطيعي إحصاءها. حبهما هو ما أرسلك إليّ».

دمعت عينا أليس، وأحست آمي أن بحر الحب في قلب أمها يكتنفها كلها.

«منذ رأيتك أول مرة حتى هذا اليوم، وكل يوم طالما بقيتُ حية، أعلم أنك الابنة التي وهبني إياها القدر. لن أستطيع أبدًا أن أكون لك بديلًا عن أمك التي ولدتك، لكني فعلت كل ما استطعت، وسأظل أفعل كل ما أستطيع، كي أكمل الرحلة التي كان ينبغي أن تكون رحلتها هي. أحبك، وسأحبك دائمًا».

تمسكت آمي بتلك الكلمات كأنها حبل نجاة.

التقييم

هيلي،

على الرغم من تجاهلك التام تنبيهي إلى الامتناع عن الكتابة عن تجربة الهجرة، فإنني أهنئك لأنك استطعت تناول هذا الأمر من زاوية متميزة فريدة. ثمة الكثير مما ينبغي تعديله عندما تبدئين العمل على

تطبيق التقدم إلى الجامعة، لكن عليك عدم نسيان أنه ستكون هناك، في أنحاء البلاد كلها، شابات كثيرات يمكن أن يكتبن موضوعات مماثلة يتحدثن فيها عن تجربة التبني. بضع ملاحظات صغيرة: لاحظت حضورًا كثيفًا للشخصيات الثلاث آمي وأليس وآدم. (هل ينبغي حقًّا التركيز على الشخصيات إلى هذا الحد؟). انتبهي إلى استخدام اللغة وتذكري أن القاموس لا يكون دائمًا صديقًا لك. وبطبيعة الحال، ثمة كلمات لا أظنك ستستخدمينها في تطبيق الالتحاق بالجامعة. لكني واثقة بأنك تعلمين هذا.

مشاعري متضاربة في ما يخص خاتمة موضوعك. وبما إنني معلمتك، فلن يعجبني أن أراك تعودين إلى استخدام المصادفات على طريقة شكسبير. وبما إنني أم، فأنا أتمنى حقًّا أن تنجح شخصيتك الحقيقية في العثور على الأم التي أنجبتها.

لقد أديت عملًا ممتازًا بالنسبة إلى تلميذة في قسم الرياضيات والعلوم. عليك الآن أن تتابعي العمل على العناصر غير الخيالية مع الحرص على بقاء التجاوب العاطفي الظاهر في سردك القصصي.

أزهار الكَرَز في الربيع

«آما! آما!». صرخات ابني توقظني من نومي، وتوقظ جين.

أربت على كتف زوجي وأقول: «لا بأس! سأذهب لأرى ما به».

أسير في الممر المظلم حافية القدمين قاصدة غرفة بول حيث أجده جالسًا على سريره، مرتعشًا، يداه متشبثتان بلحافه، ودموع جارية على وجهه. يدعو د. كاتز (طبيب الأطفال الذي نذهب إليه) ما يحدث مع بول «نوبات ذعر ليلية». تفاقم الأمر خلال الأسبوعين الماضيين. لكن الطبيب يقول: إن هذا أمر طبيعي جدًّا. «عادة ما ينتاب الخوف الأطفال مع بداية الصف الأول. يجدون أنفسهم الآن مع أطفال أكبر منهم. وأما في الصف الثاني، فثمة أطفال كثيرون يخشون الكائنات الفضائية الغريبة. قد يكون هذا ما يحدث هنا». يرى الروما والنيما وآما الأمور بطريقة مختلفة. إن أرواحًا شريرة تزعج جين-با. لقد اتخذت ديه-جا احتياطاتها، لكن تعليق اللبلاب في أنحاء غرفته لا يبدو أنه أمر مُجدٍ. بل لعل اللبلاب جعل الأمر يزداد سوءًا لأن الأطفال الذين يأتون للعب مع ابني يرون تلك العروق أمرًا غبيًّا، وذلك سواء أكانوا من البيض أم من أكثرية هان.

أجلس على حافة فراشه وأقول له بصوت لطيف: «بول، انظر إليَّ، هل تراني؟»

أسوأ شيء في نوبات الذعر الليلية هذه أنه لا يكون نائمًا، ولا يكون مستيقظًا أيضًا. ينظر إليَّ، لكنه يرى ما يتجاوزني، أو يرى من خلالي. عيناه متسعتان وهو يرتجف. يصرخ من جديد: «آما».

أمد إليه يديَّ وأمر بإبهاميهما على رؤوس أصابعهما محاكية حركة الأكها التقليدية كي يأتي إليَّ. يجلس في حضني، لكني لن أعلم أنه صار صاحيًا تمامًا إلا عندما يناديني: «ماما». نادرًا ما يكون واضحًا معي ويحكي لي ما يراه في أحلامه. لا يقول غير أنها «وحوش». لكنه يحكي لي اليوم بعضًا مما يتذكره.

«كنت ضائعًا في الغابة. بدت لي الأشجار متشققة، متكسرة. لم أسمع أصوات طيور. هدوء وحر. عرق غزير سال على ساقيّ حتى ظننت أنني قد بُلتُ في ملابسي».

أشد ذراعي حوله. في الآونة الأخيرة، بال في ملابسه عدة مرات. لو نشأ في قرية بئر النبع، لتسرب السائل عبر شقوق الأرضية المصنوعة من عيدان البامبو. وأما هنا، فإن د. كاتز يدعو ذلك، «أمرًا ينبغي أن يكون مقلقًا لنا».

يتابع بول كلامه المتلجلج: «ثم أتى المطر. مطر غزير كذلك الذي حكيت لي عنه. أحسست أنني أغرق. الغرق في الغابة موت رهيب، أليس هذا ما قلته لي، يا ماما؟».

ماما! يا إلهي!

ولدينا الآن جفاف».

«ولكن، يا ماما...».

«ششش. أنا معك. أغمض عينيك. أنا هنا، معك».

أغني له إلى أن تصير أنفاسه عميقة. لست في حاجة إلى أن تفسر لي آما أحلام ابني. إنه خائف من المدرسة. أفهم هذا. لكنه التقط أيضًا بعضًا من مواطن قلقي. عليَّ أن أكون أشد حذرًا عندما أتكلم مع إخوتي في الهاتف، وعليَّ أن أكون شديدة الاحتراس في أحاديثي مع جين. خلال السنتين الماضيتين، كانت مواسم الجفاف في جبال الشاي أطول من المعتاد، وصارت الأمطار الموسمية أكثر شدة. صارت براعم أوراق الشاي تتفتح في وقت مبكر، وازدادت مدة موسم القطاف بعد أن كانت عشرة أيام. وأسوأ من ذلك أن تقلبات الطقس تؤذي نمو الأشجار... تمامًا مثلما رأى بول في حلمه. أستطيع تذوّق ذلك التغير في أوراق الشاي، لكني لست من العلماء ولا أعلم ما يعنيه هذا. إلا أنني قلقة، وقد غزا هذا القلق نوم ابني.

لا شيء أسوأ من رؤيتك معاناة طفلك. أسأله كل صباح عن أحلامه. هل سقطت شجرة؟ هل كان في المنام حريق، أو كلب على السطح، أو بيضة مكسورة؟ بدلًا من أن تساعده هذه الأسئلة في استعادة هدوئه وفي فهم مكانه في العالم، صار ابني أشد خوفًا وصارت أحلامه أشد تعذيبًا. يقلقني هذا كثيرًا، وصدقًا... لا أعلم ما ينبغي فعله.

أنسلّ من فراشي عند شروق الشمس، وأسخّن الماء من أجل

الشاي، وأحضّر كرات الأرز مع الفستق المطحون من أجل غداء بول. يدخل جين ويقبّلني، ثم يجلس ويفتح الصحيفة.

يقول بول راجيًا عندما يأتي إلى المطبخ ويرى ما أحضِّره لغدائه: «ألا أستطيع أن آخذ سندويتشًا بزبدة الفستق والجيلي بدلًا من هذا؟ هذا اليوم فقط. هذه المرة فقط».

يسألني كأن من الممكن يومًا أن أفعل شيئًا من ذلك القبيل.

يقول بعد صمت: «لو طلبت هذا من خالتي ديه-جا، لحققت لي رغبتي».

هذا صحيح (تدلل بول إلى أقصى حد)، لكنها الآن في مقاطعة يونان مدة شهر كامل. ذهبت تزور أسرتها مثلما صارت الآن تفعل كل سنة.

يقول ابني مُلحًّا: «ماما، لماذا ترين ما أريده مختلفًا عن كرة الأرز التي عليها فستق من الخارج؟ أريد شيئًا أبيض اللون من الخارج، وبني اللون من الداخل. بني من الخارج، وأبيض من الداخل. ما الفرق؟»

أسأله: «أهذا ما يأكله الأطفالُ الذين من أكثريةِ هان؟». إن كان الأطفال لا يأكلون طعامًا صينيًّا في المدرسة، فربما لا ينبغي أن يأكل بول طعامًا صينيًّا هناك.

«أوه، يا ماما! يأتي الجميع بطعام صيني من البيت».

«إذًا...».

«أديسون يحب زبدة الفستق والجيلي...»

«أديسون». أتذوق طعم هذا الاسم ذو المقاطع الثلاثة على لساني.

ألتفت صوب جين الذي يرفع رأسه عن صحيفة *«الأنباء اليومية الصينية»*.

أديسون؟ أي اسم هذا؟

أتولى إيصال بضعة أطفال إلى المدرسة. وهكذا، أعرّج مع بول على بيتين آخرين ونأخذ طفلين غيره في الطريق إلى المدرسة. الموسيقى منبعثة من راديو السيارة، والأطفال يغنون معها. أتوقف عند الرصيف وأضغط مفتاح قفل أبواب السيارة. بول آخرُ مَن يخرج. يتلكأ عند الباب وهو يضع حقيبته على ظهره.

أسأله: «هل هذا الأديسون أبيض أم من أكثرية هان». لكنه يلوح لي بيده ويغلق الباب، ثم يجري صوب مجموعة أولاد أعرفهم... مولودون هنا كلهم، ومن أكثرية هان كلهم. لا أستطيع البقاء كي أراه يدخل المبنى لأن سيارات وحافلات صغيرة كثيرة صارت خلفي. لكني أحس غصة في قلبي. ما عادت لدينا خيوط نلف بها معاصم أيدينا، لكني سأظل دائمًا متصلة بابني.

أقود السيارة عائدة إلى البيت. لديَّ وقت للتفكير. أنا في السابعة والثلاثين، في صيف حياتي. زوجي ناجح. تمكن من المحافظة على عمله في ميدان الورق المقوى. لكن هذا ليس مدار اهتمامه الحقيقي هذه الأيام. فخلال أشد أيام الركود الاقتصادي ظلمة عندما كان تراجع الأسهم مستمرًّا وكانت أسعار العقارات في انخفاض شديد، بدأ يشتري بيوتًا بأثمانٍ رخيصة، ثم يصلحها ويجهزها ويبيعها لرجال مثله ممن يريدون موطئ قدم لهم في أميركا ومكانًا آمنًا يضعون فيه أموالهم. ومع بلوغ ابننا سنته الخامسة، طرأ على جين تحول جديد،

صار في مستطاعه أخيرًا أن يبعد عنه شبح أبيه. قال لي: «صار بول في مثل سني عندما خنت أبي. وصرت الآن أفهم أن أبي سيحبني مهما فعلت مثلما سأحب ابني دائمًا».

مع تحرر جين من هذا العبء الذي كان يثقل كاهله طوال حياته، بدأ يبني بيوتًا في والنت وريفرسايد وإيرفان ولاس فيغاس (من أجل أشخاص من أكثرية هان). بيوت فيها مطابخ مفتوحة. وصار يسير على منوال فينغ شوي في البناء. لكنه لم يكتفِ بهذا، فقد افتتح مكتبين للعقارات في ردهتي فندق هيلتون وفندق كراون بلازا (أهم فندقين يرتادهما السائحون الصينيون في وادي سان غابرييل)، ووظّف «استشاريين» لتقديم معلومات عن الأقساط المصرفية والمدارس ولمساعدة الناس في الحصول على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة، وكذلك بيع عقارات متنوعة، من البيوت الرخيصة التي يشتريها الناس بغية المضاربة في الفيلات الفاخرة التي تبدأ أثمانها من عشرة ملايين دولار ويشتريها الناس من أجل أبنائهم وبناتهم الذين يدرسون في «جامعة جنوب كاليفورنيا» أو في «جامعة أوكسيدنتال».

وبدوري، أصبت نجاحًا في عملي. فمنذ سنة ٢٠٠٨، صارت أسعار الشاي الجيد في تزايد مستمر. وفي هذه السنة، حلّقت الأسعار عاليًا! بلغت قيمة شاي بيوَّر عنان السماء من جديد. صارت شركتي كبيرة، وصار لها مكاتب في غوانزو وفي سان غابرييل فالي. نبيع شاي بيوَّر خامًا ومعالجًا ومعتقًّا، وتتراوح مستوياته من الشاي الرخيص حتى أنواع الشاي شديدة الندرة وخلائط الشاي الثمينة التي تُقدم هدية إلى

أوسع القادة نفوذًا في الصين. صار رأس مالي كبيرًا، وصرت أتولى توريد الشاي بنفسي. لديَّ اتفاقيات مع قرى جبل مانوو كلها تقريبًا. يأتيني الفلاحون كل سنة لسماعهم أنني أدفع أثمانًا منصفة لا تلاعب فيها. يقولون لي إنهم اكتشفوا أشجار شاي عتيقة أو بساتين شاي مهجورة في أعالي الجبل. أقول لهم إن عليهم أن يأتوني بالشاي من أشجار لا تقل أعمارها عن ثلاث مئة سنة وإن عليهم أن يتذوقوا الشاي أولًا بأنفسهم كي يتأكدوا من أن تلك الأشجار ليست برية إلى حد قد يصيب الناس بالمرض. يتحقق إخوتي الثلاثة من كل دفعة شاي تأتيني. وإذا حاول واحد من الفلاحين أن يدس أوراق شاي رديئة ضمن ما يبيعني إياه، فنحن نمتنع عن التعامل معه بعد ذلك.

وقد بلغ بي الأمر حد إنشاء مصنع لتخمير الشاي في مينغاي. الصالة الرئيسية في المصنع كبيرة جدًّا تعادل مساحتها ملعب كرة قدم أميركية. وأكداس الشاي (تبلغ أبعاد كل كدس منها ثلاثين قدمًا في اثني عشر قدمًا، وارتفاعه قدم واحدة) تغطي أرض الصالة كلها. يبلغ وزن الكدس خمسة أطنان، وكل واحد من الأكداس في مرحلة مختلفة من مراحل التخمر. ومن حول المجمع كله سور عالٍ عليه أسلاك شائكة. تأتيني طلبات كثيرة من ذواقة الشاي العالميين وتجاره وعلمائه. لكني أرفض تلك الطلبات كلها، وأقول، «إن أردتم أن تعلموا أمورًا عن أشجار الشاي العتيقة لدينا، فعليكم أن تذهبوا إلى جبل مانوو». كل دفعة شاي أُنتجها عمل حِرفي متقن: لا مبيدات ولا آلات. والعمل كله قادر على الاستمرار من غير حضوري (إلا خلال موسم قطاف الشاي

عندما أعود مع بول إلى جبالنا كي أشرف على القطاف والتخمير)، وذلك لأنني أحظى بثقة أفراد أسرتي وعونهم.

بنات إخوتي الثلاث اللواتي ولدن جميعًا في سنة واحدة صرن الآن في الثامنة عشرة. إن لدى الحكومة رسالة موجهة إليهن: «واجبكن إزاء الأمة إنجاب طفل عالي الجودة»، لكن أيًا منهن لم تتزوج بعد. وهن يُبعِدن عنهن أولئك الفضوليين الذين يقولون لهن إنهن سيصرن عمّا قريب مثل اللآلئ المصفرّة: أكبر سنًّا من أن يحظين بالحب الكامل. لا تزال أمامهن ثماني سنين قبل أن يُطلق عليهن رسميًّا صفة «شينغنو ـ نساء متروكات». وهذا ما يجعلهن يسخرن من البرامج التلفزيونية التي تعرض نساء يائسات يحاولن الحصول على رجل بأي ثمن: *«تكلفة أن تصيري شينغنو. هيا، هيا، يا شينغنو»* و*«حتى الشينغنو يصيبها الجنون»*. تناكف كل منهن رفيقتيها في شأن «اثني عشر منتجًا لمساعدة الشينغنو في نسيان وحدتها». يتبادلن في أعياد الميلاد هدايا مختارة بغية إبقاء النكتة حية: أداة لتقشير الثوم، ومفارش سرير بألوان قوس قزح، وأباريق شاي لشخص واحد. تعمل ابنة الكنة الأولى في متجري في سوق الشاي في فانغون. وقد بقيت ابنة الكنة الثانية في القرية، لكنها ترتحل بين الجبال على دراجتها الآلية كي تتأكد من أن الفلاحين الذين نشتري الشاي منهم يقطفون أفضل الأوراق على الإطلاق. وأما ابنة الكنة الثالثة فهي مقيمة في سان غابرييل فالي، وتتولى أمر مبيعاتي عبر الإنترنت. عندما تقرر بنات إخوتي (إن قررن) الذهاب «للعمل والأكل مع زوج» فسوف يكون أمامهن رجال كثيرون يستطعن الاختيار من بينهن لأن في الصين

الآن فائض قدره ثلاثون مليون شاب ساعٍ إلى الزواج. ولكن، ما السبيل إلى إقناعهن؟ قالت لي ابنة الكنة الأولى عندما رأيتها آخر مرة: «أفعل ما أحب فعله. وأذهب حيث أريد الذهاب». فليكن ما يكون. لكني أعلم علم اليقين أن حماتي تجلس الآن على مقعدها في حدائق ذكرى الشهداء عندما تكون في غوانزو، أو تتجول في ساحة سان غابرييل (الساحة التي ندعوها مول الصين العظيم)عندما تزورنا، وذلك كي تبحث عن أزواجٍ ملائمين (أثرياء ووسيمين) لبنات إخوتي. فلتحاول بنات إخوتي الإفلات من ذلك!

وأنا وسي-ته لا تزال كل منا تتجنب الأخرى. لكني أسمع الكثير عنها، ولا شك عندي في أنها تسمع عني الكثير. لقد حوّلت مساحات كبيرة من الأراضي التي استأجرتها إلى مزارع قهوة مثلما تعهدت منذ سبع سنين. بل إن مقاطعة يونان صارت الآن نقطة جذب سياحية لمحبي القهوة من أكثرية هان، ويقال إن عدد العاملين في قطاع البن سوف يتجاوز مليون شخص في مقاطعتنا وحدها مع حلول نهاية هذا العام، وذلك لأن المقاطعة تساهم بأكثر من خمسة وتسعين في المئة من إنتاج البن في الصين. ثم إن لهذا القطاع فائدة إضافية أيضًا لأن زراعة أشجار البن صارت وسيلة تستخدمها الحكومة وحكومات بلدان مجاورة (من بينها لاوس) للاستعاضة عن محاصيل الخشخاش الذي يُصنع منه الأفيون. تزود سي-ته شركة ستاربكس في مقاطعة يونان بالبن الذي تستخدمه في منافذها الآسيوية، كما تعاونت مع شركة نستلة لتأسيس معهد للبن في مدينة بيوَّر، في حين قمت بدور الوسيط وساعدت بلدة ليبورن في

فرنسا التي هي موطن كروم بوميريل وسان إميليون في توقيع اتفاقية تجارة وتسويق مع مدينة بيوَّر بغية تبادل المنفعة من خلال ترويج نبيذهم وشاينا لأن ثمة مواد موجودة في هذين المنتجين (البولي فينولات) يقال إنها جيدة جدًّا للصحة.

أضع السيارة في موقفها فأجد رسالة من جين يقول لي فيها إنه لن يعود إلى البيت حتى وقت متأخر من النهار. أجلس إلى طاولة المطبخ وأفتح اللابتوب وأستعرض إيميلاتي باحثة عن واحد بعينه. خلال رحلتي الأخيرة من مطار جينهونغ إلى مينغاي، رأيت من بين اللوحات الإعلانية الكثيرة التي صارت الآن منتصبة عند الطريق لوحة استأجرَتها أسرة بعينها. في ذلك الإعلان وجه طفلة مُكبّر إلى حد جعله غائمًا بعض الشيء. إلا أن الكتابة كانت واضحة تمامًا:

عُثر عليَّ أمام مكتب البريد في جينهونغ يوم الحادي والعشرين من شهر مايو ١٩٩٤. اسمي الأميركي بيثاني برايس. إن كنت أمي، فأرجو أن تتواصلي معي.

تاريخ الميلاد غير تاريخ ميلاد ابنتي، والملابس غير ملابس ابنتي. بل إن صورة تلك المولودة حديثًا بدت لي أقرب إلى شعب داي منها إلى شعب أكها. لكن رؤية ذلك الإعلان شجعتني على إرسال إيميل إلى تلك الفتاة. هل مرت بيثاني هذه بمعهد الرعاية الاجتماعية في كومينغ مثلها مثل ابنتي؟ وهل من الممكن أن يكون أبوها وأمها قد التقيا أَبوي يان-يه الحاليين؟ هل تعرف بيثاني فتيات متبنيات غيرها أتين من محافظة جيشوانغبانا؟ اليوم، ومن جديد، ما من رد على رسالتي.

لم يأتِني أيضًا أي رد على رسائل تركتها في مواقع مختلفة. كتبت الرسالة التالية منذ سنة مضت، بعد عثوري على منشورات كتبتها فتيات متبنيات يبحثن عن أمهاتهن، أو كتبتها أمهات مثلي يبحثن عن بناتهن:

أم مولودة في مقاطعة يونان تبحث عن ابنتها التي تركتها أمام معهد الرعاية الاجتماعية في مينغاي. أعطى معهد الرعاية الاجتماعية في كومينغ ابنتي كي يتبناها أبوان جديدان. وُلدت طفلتي يوم الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٩٥ بحسب التقويم الغربي. أسميتها يان-يه. وضعتها في صندوق. عثرت عليها عاملات التنظيف في الشارع. كنت مختبئة هناك كي أتأكد من تسليمها سالمة. عندي الآن ابن في السابعة من العمر. أتمنى العثور عليك، يا ابنتي الضائعة. لديك أخ، ولديك أم تحبك كثيرًا جدًّا.

لم أتطرق إلى ذكر قالب الشاي. تعلمت من برامج التلفزيون الأميركية أن من الواجب دائمًا، عند التحقيق في جريمة قتل، إخفاء الدليل الأهم حتى النهاية. هل سيلتقط أحد هذا الطعم؟ لكن الإيميلات القليلة التي وصلتني أتت كلها حاملة السؤال نفسه: هل أنت أمي؟ وكنت أجيب بالسؤال التالي: هل كان في بطانيتك شيء عند العثور عليك؟

كأننا نحاول اصطياد سمكة بأيدينا وحدها!

لم أنسَ أبدًا ما قالته لي آما قبل مغادرتي جبل نانوو كي ألد ابني. أرادت أن ألده في أميركا أملًا في أن تحدس ابنتي بأن لها أخًا. أعرف أن يان-يه موجودة هناك. لديَّ صورتها وبصمة قدمها من معهد الرعاية الاجتماعية. (سأظل أبد الدهر ممتنة لأن الموظفات الطيبات هناك اعتنين

بها، ولأنها ظلت محمية من أن تُسرَق. الحكومة الصينية نفسها تقدِّر أن ما يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و٦٠٠٠٠ من الأطفال «يُفقدون» ويصيرون ضحايا الاتجار غير المشروع ويُصدَّرون إلى الخارج مثلما تُصدَّر سلع صناعية كثيرة. أتألم لحال الأمهات في الصين ولحال الأمهات هنا اللواتي لا بد أنهن يتساءلن دائمًا...). بصرف النظر عن ذلك، ألا ينبغي أن يكون لديَّ مزيد من الأدلة والآثار التي ترشدني إلى يان-يه؟ هذا ما يجعلني أبحث في الإنترنت عندما يذهب جين إلى اجتماعاته، وكذلك في الليل عندما يجافيني النوم، وفي فترات بعد الظهر أيام الأربعاء أثناء تدريبات كرة القدم التي يذهب إليها بول.

صادفت مواقع كثيرة تعلن عن «جولات لم الشمل في المياتم» حيث تستطيع الفتيات (وأسرهن أيضًا) رؤية المهود التي نمن فيها ولقاء الأشخاص الذين سهروا عليهن. أيمكن أن تكون ابنتي قد ذهبت إلى الصين مع «مؤسسة بناتنا الصينيات» أو مع «جولات الأصول للصور والبحث عن الجذور»؟ حتى إن كانت قد ذهبت، فهل يُعقل أن تصطحب الجهة التي تنظم الجولة واحدة من الفتيات مع أسرتها إلى بلدة صغيرة كمثل مينغاي؟ هل يمكن أن يجعلوا أشخاصًا كمثل ابنتي يان-يه يرون معهد الرعاية الاجتماعية في كومينغ حيث تم العثور عليها؟ ألن تكون راغبة (هي أو أبواها) في إلقاء نظرة على ملفها؟ لكن ذلك الحريق أتلف الملفات كلها. مع ذلك، أذهب كل أسبوع إلى مواقع الإنترنت التي تعلن عن هذه الجولات وأتفحص صور الآباء والأمهات البيض أو صور الأمهات العازبات، ممن يسافرون مع بناتهم الصينيات.

تبدو الفتيات أميركيات تمامًا بأحذيتهن الخفيفة وبنطلوناتهن القصيرة وبلوزاتهن الملونة. هل ستكون يان-يه شبيهة بي؟ ... شبيهة بسان-با؟ شبيهة بآما؟ شبيهة بوالدته؟ لكني لم أرَ أي فتاة تبدو عليها سمات الأكها، ولم أرَ أي فتاة تشبه أي شخص من دمنا.

رأيت في صفحة فيسبوك ترعاها مجموعة دولية للأطفال الصينيين المتبنين صورًا لأطفال صغار ملتقطة يوم العثور عليهم ويوم تسليمهم إلى أسرهم الجديدة. رأيت طفلة رضيعة مرتدية بدلة شتوية قذرة وعلى رأسها قبعة محيكة قرمزية اللون. على وجنتيها طفح جلدي لشدة الحر. رأيت طفلة أخرى غارقة في نوم عميق مرتدية بلوزة لها ياقة عريضة منقطة. رأيت صورة ثالثة لطفلة أظنها في الشهر الثامن عشر من عمرها حفاظها متدلٍّ حتى أعلى جوربيها الطويلين اللذين يبلغان ركبتيها وفي قدميها صندل بلاستيك أحمر اللون. ورأيت صورًا لأطفال رضع على رأسهم قبعات وأوشحة تشير إلى أقلياتهم الإثنية، لكني لم أرَ شيئًا من صنع الأكها. ملأ الأمل قلبي يوم اكتشفت موقعًا يطلب عيّنات DNA كي يطابق بين الأمهات والبنات. أرسلت عينة، لكني لم أتلقَّ ردًّا.

ذهبت إلى صف «أسر لديها أطفال من الصين» في لوس أنجلوس كي أقدم دروسًا عن الشاي. (قيل لي إن هذه المجموعة قديمة وإن الأشخاص الذين يديرونها الآن جدد كلهم، متطوعون كلهم. وكان واضحًا أن ما من سجلات لديهم عن عمل المجموعة في ما مضى). قمت أيضًا بتطوير برامج لتذوق الشاي في «مكتبة هنتينغتون» من أجل الكبار والأطفال. وفي عطلات نهاية الأسبوع، أزور من يعلنون عن

بيع أشياء فائضة لديهم علَّني أجد قوالب شاي... ألا يمكن أن تكون ابنتي، أو أهلها، قد قرروا أن قالب الشاي الذي تركته معها لا يستحق الاحتفاظ به؟

لم يحالفني الحظ حتى الآن في أيٍّ من هذه النشاطات كلها.

أنظر إلى ساعتي. إنها العاشرة. يصلني إيميل خاص بالعمل، لكني أقرر أن أنصرف أولًا إلى استعراض مقالات الصحف (في الصين وفي أميركا)، وكذلك النظر في بضع مدوّنات على الإنترنت أعجبتني ونالت ثقتي، وذلك كي أبحث عن أي مقالات عن فتيات صينيات متبنيات عثرن على أمهاتهن أو أسرهن أو إخوتهن وأخواتهن. تساعدني هذه القصص في البقاء على تفاؤلي وتجعلني أتساءل إن كانت ابنتي تبحث عني مثلما أبحث عنها.

إن شاءت ابنتي يومًا أن تنشر شيئًا بغية البحث عني، فأين تنشره؟

إن أرادت ابنتي يومًا استئجار لوحة إعلانية، فأين تكون تلك اللوحة؟

إن أرادت ابنتي أن تحاول معرفة شيء عن قالب الشاي الذي عندها، فإلى أين تأخذه؟

يقال إن الحزن الكبير ليس إلا انعكاسًا لقدرة المرء على الفرح الكبير. وأنا أرى الأمر من الناحية الأخرى. أنا سعيدة، لكن في داخلي حيِّزًا خاويًا لن يهدأ عذابه أبدًا لأنني فقدت يان-يه. وبعد هذه السنين كلها، صار هذا العذاب رفيقًا لي، مثله مثل «الصديق الساكن مع الطفل». إنه يغذيني ويرغمني على التنفس في تلك اللحظات التي يكون

فيها الاستسلام شديد السهولة. عذابي جلب الوضوح إلى حياتي. لعل الأمور التي وقعت لي حتى الآن كانت عقابًا لما فعلته في حياة سابقة! أو لعله قدري! أو لعله كله ليس إلا جزءًا من دورة طبيعية... مثله مثل حياة أزهار الكرز في الربيع أو الأوراق المتساقطة في الخريف، حياة قصيرة، لكنها مشهودة.

لن أتوقف أبدًا عن بحثي عن يان-يه. وأما الآن، فقد صارت الساعة الحادية عشرة وعليَّ أن أرغم نفسي على الالتفات إلى متابعة أعمالي.

مراسلات عبر الإيميل بين هيلي ديفيس والأستاذة آنابيث هو: أطروحة عليا في جامعة ستانفورد. الأسبوع الأول من شهر أكتوبر ٢٠١٥.

الأستاذة هو،

أشكرك جزيل الشكر لأنك وافقت على أن تكوني مشرفة عليَّ خلال السنة التالية من عملي على أطروحتي. عندما زرتك الأسبوع الماضي في مكتبك، طلبت مني أن تري مسودة اقتراحي البحثي. هذه هي المسودة الأولى:

أثر التغير المناخي في الخصائص الحسية والطبية للشاي (Camellia sinensis) المأخوذ من أشجار الشاي في المناطق المدارية في الصين

تشتمل هذه الأطروحة على ميدانين دراسيين اثنين: ١- كيف تتأثر المركبات المسؤولة عن طعم الشاي ورائحته ومظهره (مزيج من الأحماض الأمينية والكاتتشينات والثيوبرومين والميثيل كسانثين والسكاكر الحرة) بفعل التغير المناخي العالمي؟ ٢- تقود كثرة التنوع البيولوجي في الغابة المدارية إلى وجود سلسلة غذاء غنية تساهم في تقليل تفشي الحشرات والطفيليات. وعلى وجه التحديد، تشكل المركبات المذكورة آنفًا أدوات دفاع في مواجهة العوامل الممرضة والحشرات المؤذية والإجهاد التأكسدي التي تظهر في بيئة الأشجار النامية ضمن موئلها المتنوع بيولوجيًا الذي تتزايد المخاطر المحدقة به. تبين دراسات كثيرة أن هذه الحمايات الطبيعية

مفيدة للبشر أيضًا. ومن بينها، تُعتبر الكاتتشينات (التي هي مجموعة من مونوميرات البوليفونيليك فلافان ٣) أهم مكونات الشاي التي تعزز الصحة. وأهم هذه المكونات هو «إيبيغالوكاتوتشين -٣- غاليت» لأنه أشدها فعالية من الناحية البيولوجية، وقد دخل ميدان «ثقافة العافية». ومع اشتداد مواسم الأمطار بفعل أثر التغير المناخي، بدأ كثير من مركبات مضادات الأكسدة هذه يشهد تناقصًا بلغ خمسين في المئة، في حين تزداد المركبات الأخرى. بالتالي، كيف تتأثر دفاعات أشجار الشاي الطبيعية بالتغير المناخي في العالم وكيف ستكون آثار ذلك على المنافع الصحية الكامنة في أوراق الشاي؟ تشتمل المواد والطرائق على استطلاعات بين الفلاحين، ومقابلات معهم، وجمع نماذج من أوراق الشاي واختبارها.

أشكرك على وقتك وآمل أن أسمع رأيك في أقرب وقت مناسب لك.

هيلي ديفيس

*

هيلي،

يبدو هذا طموحًا كبيرًا. ولكن، ما الذي أستطيع توقعه من طالبة أنهت دراستها في تخصصين اثنين، البيولوجيا وعلوم الأرض؟ لا بد أن هدفك غير مقتصر على التخرج بدرجة الشرف التي سيحرزها جميع من اختاروا كتابة أطروحة متقدمة، ولا حتى على التخرج بدرجة امتياز (أفترض أن معدل درجاتك عالٍ بما يكفي لذلك، ولا أشك أبدًا في أنه

سيكون عاليًا)، فقد يصل حد نيل «جائزة فايرستون» للعلوم الاجتماعية والطبيعية.

لديَّ بضعة أسئلة عملية قبل التعمق في أفكار أطروحتك:

١. أود أن أعرف سبب اهتمامك الشخصي بهذا الموضوع الغامض. أرجو ألا تخطئي فهمي! يبدو أن الفائزين بجائزة فايرستون يتخصصون في موضوعات غامضة، وهذا ما يحظى بتقدير لجنة الجائزة. وسوف يوجب عليك هذا الأمر أن تتعمقي كثيرًا موضوعك.

٢. أفترض أن الذهاب إلى مقاطعة يونان جزء من خطتك. فهل تعتزمين تقديم طلب للحصول على منحة زمالة دراسية أو غير ذلك من أشكال التمويل؟ وهل تفكرين في منحة دراسية ضمن دراسة أكاديمية أوسع جارية الآن؟ تشغلني مسألة كيفية وصولك إلى تلك المزارع، وأين ستقيمين، وكيف تتواصلين مع الناس. أستطيع القول باسم الجامعة إننا لا نريد أن تفعلي شيئًا يمكن أن يضعك في خطر أو أن يحمّلك مشقة كبيرة.

٣. تبدو هذه الأطروحة دراسة تمتد على عدة سنوات. فهل تخططين لمتابعة هذا البحث في دراستك بعد الجامعية؟

٤. في ما يتصل بـ«المنافع الصحية» التي تشيرين إليها: نعلم أن الشاي الأخضر يتمتع بنسبة عالية من البوليفينولات. إن مضادات الأكسدة هذه تكافح الجذور الحرة التي يرى علماء كثيرون أنها تساهم في عملية التقدم في السن بما في ذلك الأذيات التي تصيب الـDNA، وبعض أنواع السرطانات، والآفات القلبية الوعائية، إلخ. لكن، وبمعزل عن

دراسة «المركز الطبي في جامعة ميريلاند»، هل تستطيعين الإشارة إلى ما يؤكد مزاعم وجود هذه المنافع الصحية؟ أنا لست مهتمة بالحملات التسويقية ولا بالأدلة التي يتناقلها الناس ولا بأية افتراضات عن الشاي لا تكون من خلفها وقائع ومعلومات تؤيدها. أريد رؤية وثائق حقيقية عن هذا الأمر قبل أن تسيري في هذه الدراسة.

٥. أفترض أن من بين الأسباب التي دفعتك إلى مفاتحتي في أمر الإشراف على دراستك هو أنني صينية. وإذا كان الأمر هكذا، فأنا آمل بأن تفكري في أن تضيفي إلى أطروحتك ميدانًا ثالثًا مع أنه ليس منتميًا إلى دائرة «العلم الملموس»: كيف نوفق بين الشِّعر والفلسفة المتصلين بالشاي وبين الحقائق العملية الخاصة بزراعة الشاي ومعالجته؟ ترعرعت وأنا أسمع من أبي وأمي المهاجرين معتقدات عتيقة عن الشاي: *كل ساعة يقضيها المرء في شرب الشاي تكون تكثيفًا لساعات الشاي كلها التي أمضاها الناس من قبل، والحقيقة أنك تستطيعين العثور على الكوني من خلال فرادة الشاي.* من وجهة نظري الشخصية، أرى انقطاعًا حقيقيًّا بين مشاعر من قبيل *«الشاي هو فنجان البشرية»* وبين الحياة الشاقة التي يعيشها مزارعو الشاي. إن استطعت إدماج هذه الجوانب الإنسانية ضمن موادك وطرائق بحثك، فأظن أن هذا سوف يسترعي انتباه لجنة الجائزة ما يجعل أطروحتك تتميز عن بقية الأطروحات جميعًا.

آمل ألا أكون قد أثقلت عليك.

الأستاذة آنابيث هو

*

الأستاذة هو،

أشكرك على أسئلتك الفطنة التي تحث على التفكير. أدرك الآن أنه كان من واجبي أن أزيدك اطلاعًا على مرجعيتي. دعيني أحاول فعل ذلك، بالإضافة إلى الإجابة عن أسئلتك:

ذهبت الصيف الماضي إلى «معرض الشاي العالمي» الذي أقيم في جنوب كاليفورنيا حيث أعيش. وقد جرّبت أنواع شاي من تايلاند وفيتنام وسريلانكا وغانا وأوغندا... من كل مكان، على ما يبدو. وقد كان قسم كامل من المعرض مخصصًا لشاي مقاطعة يونان، لشاي بيوَّر خاصة، الذي هو شديد الندرة في الصين وأشد ندرة في العالم. كان الناس في المعرض يراهنون على أن ذلك الشاي سيكون «الأمر الكبير التالي القادم» هنا حيث شهدت مبيعات الشاي السائب والمغلف والجاهز للشرب زيادة ثابتة خلال العقدين الماضيين. وفي هذه السنة، تُقدّر قيمة مبيعات الجملة في قطاع الشاي الولايات المتحدة بمبلغ ١١,٥ مليار دولار. ويبدو لي أن اللحظة الفاصلة كانت إقدام شركة ستاربكس في سنة ٢٠١٢ على شراء شركة «تيفانا». ثم إن الأمر ليس في حاجة إلى أي عبقرية لملاحظة مقدار التشابه بين ذواقة الشاي وذواقة النبيذ فالطرفان يتحدثان عن المحاصيل، ومواسم الجني، والأصناف، والمصادر الجغرافية، وآثار الضوء والتربة والطقس على المذاق، وبالطبع، أثر عمر الشجرة في مذاق أوراقها. بل إن اللغة المستخدمة في وصف النكهة تكاد تكون هي نفسها: «حامضية، تليها نفحات من الأوركيد والخوخ».

وقد التقيت في ذلك المعرض أشخاصًا لم أتوقع رؤيتهم: أطباء وعلماء. مقاطعة يونان معروفة بأنها «مركز عالمي للتنوع البيئي». ويقال إن في تلك المقاطعة «تنوعًا للنباتات المزهرة يضاهي كل ما في بقية نصف الكرة الأرضية الشمالي كله من تنوع»، وهذا ما يمنح المقاطعة ثراء لا وجود له في أي مكان آخر في العالم. لا تتجاوز مساحتها أربعة في المئة من مساحة الصين، لكنها موطن لأكثر من نصف أجناس الطيور والثدييات، فضلًا عن خمس وعشرين أقلية إثنية من أصل خمس وخمسين أقلية في الصين كلها. دفعني هذا كله إلى التفكير في الاحترار العالمي وأثره في طبيعة الضوء وكثافته، ذلك الأثر الذي من شأنه أن يغير المنتج النهائي، سواء أكان نبيذًا أم شايًا. تأتي النباتات ذات الخصائص الطبية من غابات الأمازون المطيرة. ألا يمكن أن يأتي شيء مماثل من الغابات الاستوائية في مقاطعة يونان؟ وتمامًا مثلما في الأمازون، تتأثر جبال الشاي في مقاطعة يونان بالتطوير العقاري وبالتلوث (تلوث الهواء خاصة، الأمر الذي أعلم أنه موضع اهتمام خاص عندك). وأخيرًا، التقيت في ذلك المعرض رجلًا اسمه شون وونغ. جعلته يرى قالب شاي موجود عندي فشجعني على أخذه (دعاه «نموذجًا مثاليًّا») إلى منشئه الأصلي مثلما يفعل كثير من الذواقة وهواة جمع نماذج الشاي. لم تكن تلك أول مرة أسمع هذا الاقتراح. قال لي الرجل إن في وسعي أن أسافر معه. أكاد أطير فرحًا بهذه الفرصة.

آمل أن تري إجابتي مفيدة!

هيلي

*

هيلي،

أريد منك أن تتعمقي أكثر وأن تجيبي على أسئلتي المحددة. أنا موجودة هنا كي أتحداك. آمل أن تفهمي هذا. ومن فضلك، لا تسيئي فهم ما أقول، لكني أريد أيضًا أن أسألك عن علاقتك بذلك الشخص الذي دعاك إلى السفر معه. ماذا تعلمين عنه؟ وهل سيساعدك حقًّا في بحثك؟ ما الذي يدفعه إلى اصطحاب فتاة شابة إلى تلك المنطقة النائية؟ لا شك عندي في أنك تدركين ما ترمي إليه أسئلتي. والحقيقة أن إقدامي على طرح هذه الأسئلة يجعلني أحس شيئًا من عدم الارتياح.

أمامك مسيرة أكاديمية واعدة. ومع تلك المسيرة، تأتي فرص عظيمة ومسؤوليات عظيمة. أظنك ستكونين مستاءة عندما تقرئين هذا، لكن من واجبي (إذا وافقت أن أكون مشرفة عليك) أن أحرص على سلامتك نيابة عن أهلك وعن الجامعة، وكذلك كي يكون ضميري مرتاحًا.

الأستاذة آنابيث هو

*

الأستاذة هو،

هذه إجاباتي عن أسئلتك:

١. إن لاهتمامي بهذا الموضوع ارتباطًا وثيقًا جدًّا بنشأتي. أبي مختص في الأشجار. وفي طفولتي، كنت ألازمه أثناء عمله في العناية بالبساتين وزيارة الأشجار المريضة. رأيت كيف يمزج مكونات مختلفة كي يغذي الأشجار بها أو يرشها بها بحسب حاجتها. قال لي ذات مرة:

«أنت تتعلمين إلى جانبي». وقد تعلمت بالفعل لأنني كنت أصغي إلى كلماته فيتشربها جسدي مثلما تتشرب الأشجار الأدوية والمواد المغذية. وبفضل أبي، كان لي اطلاع مباشر على الآثار الكارثية التي خلّفها جفاف كاليفورنيا على أشجارنا التي ضعفت وصارت فريسة للآفات والطفيليات. وخلافًا لمعظم طلبة ستانفورد (بل حتى لمعظم العلماء)، كنت شاهدة على اختناق وموت عدد كبير جدًّا من الأشجار نتيجة ما لا مفر لنا من استنتاج أنه التغير المناخي العالمي. كما أن أمي، كونستانس ديفيس، عالمة بيولوجية. ربما سمعت بها! أنا نتاج مشترك لأبي وأمي، وهذا هو مصدر اهتمامي بموضوع أطروحتي.

٢. صحيح. أخطط للسفر إلى مقاطعة يونان. لست في حاجة إلى تمويل. ستوفر أسرتي كل ما يلزمني. ستكون سفرتي الأولى خلال عطلة الربيع التي توافق موسم قطاف أوراق الشاي في مقاطعة يونان. أوافقك على أن انضمامي إلى مجموعة دراسة أخرى سيكون فرصة لي. في الوقت الراهن، ثمة دراسة متعددة الاختصاصات يقوم بها معهد تافتس للبيئة بالتعاون مع دائرة الإثنوبيولوجيا في وزارة التعليم الصينية بتمويل من المؤسسة الوطنية للعلوم (يشتمل الفريق على عالم إيكولوجيا كيميائية، وعالم أثنوبيولوجيا ثقافية، وعالم في التربة والمحاصيل، وعالم في الاقتصاد الزراعي، علماء غيرهم). تتناول هذه الدراسة آثار الحوادث المناخية المتطرفة على غلّة محاصيل شاي المصاطب المدرجة والشاي البري في مقاطعة يونان. وأنا على تواصل مع د. جوان باري التي تقود هذا الفريق. وقد وافقت د. باري على مشاركتي في المشروع

(من الممكن أن يتم القسم الأكبر من هذه المشاركة من خلال عملي على اللابتوب في غرفتي في السكن الجامعي، وكذلك من خلال تحليل نماذج الشاي في المختبر الموجود في الجامعة هنا). خطتي في الوقت الحالي أن أسافر إلى جبال الشاي بمفردي مدة أسبوع واحد كي أتفق مع أشخاص يزودونني بالأنباء وكي أجمع نماذج شاي من أجل مشروعي. وبعد ذلك، سأنضم إلى فريق تافتس طوال الأسبوع الثاني. تقول د. باري إنها تتطلع إلى رؤية نتائج أبحاث.

٣. أجل، أرى هذا الأمر دراسة تمتد على عدة سنوات، وآمل أن أتمكن من متابعتها إن تم قبولي في برنامج جامعة ستانفورد بعد الجامعي، أو إن ذهبت إلى واحدة من جامعات الساحل الشرقي التي تأتيني عروض منها حاليًّا. وأما الآن، فأنا راغبة في أن أبدأ بحثي بالطريقة التي بيّنتها في إيميلي السابق.

٤. وأما عن سؤالك المتصل بمنافع الشاي الصحية، فدعيني أكتفي بالقول إن ثمة الآن مئتي دراسة جارية في أنحاء العالم تتناول كلها هذا الموضوع. صدقيني عندما أقول لك إنني أمضي في هذا الأمر مفتوحة العينين تمامًا ومزودة بكل ما يقتضيه العلم الغربي من صرامة وتشكك.

٥. النقطة الأولى: لا علاقة أبدًا لعِرقك بحقيقة أنني طلبت منك أن تكوني مشرفة عليَّ. لقد رأيت (ولا أزال مقتنعة بهذا) أن عملك على أثر الجسيمات الموجودة في الهواء في الأطفال الذين يعيشون على نهر دلتا في يانغتسي، كان مؤشرًا على توافق حسن بيننا.

النقطة الثانية: أقدر اقتراحك أن أُدرج الشعر والفلسفة الصينيين

على أطروحتي. والحقيقة أنني قمت ببعض الأبحاث. أظن أنه سيكون أكثر اشتمالًا (وأشد إثارة للتفكير) القيام أيضًا بإدراج بعض الأفكار الأميركية الشائعة عن الشاي. فعلى سبيل المثال، خصص عدد من مجلة «*بون آبتيت*» حيزًا للشاي (أظنها المرة الأولى). وفي ذلك العدد، تقول رائدة الطهاة الأميركية أليس ووترز إن شاي بيوَّر ساعدها في خفض مستوى الكولسترول لديها مئة نقطة وفي «التخلص من القهوة». صحيح أن هذا ليس شعرًا، لكن قول شخص مثل أليس ووترز من هذا النوع من خلال هذا المنبر العام (مجلة مختصة بالمأكولات، لا مجلة علمية) يؤدي إلى زيادة الاهتمام بالشاي عامة وبشاي بيوَّر خاصة. وبالتالي، يؤدي هذا إلى جعل دراسة أثر التغير المناخي في أشجار الشاي أمرًا أشد إلحاحًا.

وختامًا، عليَّ أن أتناول مخاوفك في شأن رفيق سفري. مع أن ما من أحد قادر على فهم دوافع شخص آخر فهمًا تامًّا، لكنني لا أعتقد أن لديه أي اهتمام رومانسي بي. (أفترض أن هذا ما كنت تريدين الإشارة إليه، إن لم يكن الأمر كذلك، فسوف أكون في حرج شديد). إنه شخص شديد الولع بالشاي. لم أدرِ من قبلُ أن ثمة أشخاصًا من هذا النوع. وأنا أرى نفسي محظوظة لأنني صرت على صلة بشخص خبير في هذا الميدان قادر على التعامل مع كثير من الأمور اللوجستية التي تثير قلقك.

آمل أن تظلي موافقة على النظر في أن تكوني مشرفة على بحثي.

المخلصة لك،

هيلي ديفيس

*

عزيزتي هيلي،

أعرف أمك، بالطبع! كل من يعمل في مجالنا يعرف أمك نتيجة جودة أعمالها وأهميتها. نحاول منذ سنين جعلها تعمل معنا في قسم البيولوجيا. لكنها تقول دائمًا إنها غير راغبة في «اقتلاع أسرتها من موطنها الحالي». كان عليَّ أن أفطن إلى الأمر. لم يسمح لي جهلي بالربط بين اسم عائلتك ومواهبك وبين هوية أمك. تقبلي اعتذاري.

أعتذر أيضًا عن دوري في سوء التفاهم الآخر. يسعدني أن أكون مشرفة على بحثك. زوريني في مكتبي يوم الثلاثاء القادم من أجل مزيد من الحديث. بالنظر إلى إيميلك الأخير، أود أن أعلم (من بين أمور أخرى)، إن كنت مهتمة بالشاي عامة أم أن اهتمامك مقتصر على شاي بيوَّر الذي أشرت إليه. أرى فائدة حقيقية في تضييق المنظور بحيث لا يكون بانوراميًا أو موسوعيًّا بل يتعمَّق دراسة صنف واحد فقط.

أراك يوم الثلاثاء.

الأستاذة آنابيث هو

*

عزيزتي الأستاذة هو،

ياي! ستكون أمي مسرورة جدًّا عندما أخبرها بهذا. لا أطيق انتظار بدء عملي معك.

هيلي

*

مكتبة
t.me/soramnqraa

طلقٌ كالريح

أسأله، «هل تلاحقني؟ أينما ذهبت، أراك أمامي».

يبتسم لي السيد هوانغ ابتسامة متملقة. «آه، يا تينا! لعل من المقدر لنا أن يعرف أحدنا الآخر. هل فكرت في هذا من قبل؟»

لا.

يقول: «أخاطبك الآن باسمك الأميركي. متى تخاطبينني باسمي الأميركي، جون؟».

غير ممكن أبدًا.

نحن واقفان في شرفة بيت الشاي في حديقة «الدراسات الصينية» في مكتبة هنتينغتون. نحن في أوائل شهر فبراير، وقد أتينا كي نحتفل بسنة القرد الوشيكة، وكذلك كي نساهم في جمع المال من أجل المرحلة الأخيرة في الحديقة الصينية. مدافئ تلطف جو الشرفة والقناديل الصينية المعلقة بالأشجار على امتداد شاطئ البحيرة تشع ألقًا عقيقيًا، والناس يتناولون المقبِّلات والشامبانيا. كل شخص معروف في المجتمع الأميركي الصيني في لوس أنجلوس موجود هنا. دومونيك نغ من

مصرف إيست ويست ومعه زوجته، وبيغي وأندرو شيرنغ من شركة باندا إكسبرس، والأخوان وو من شركة وو العملاقة للألعاب. يتكلم بعض الناس لغة الماندرين، لكن أكثرهم يتكلم الإنجليزية كي لا يكون فظًّا مع أثرياء باسادينا القدامى الذين يساندون مكتبة هانتينغتون منذ عشرات السنين.

«هل أعجب البيت الجديد جيان-رونغ؟» أطرح عليه هذا السؤال محاولة أن أكون مهذبة معه. باعت شركة جين السيد هوانغ، بيتين، قصرين في واقع الأمر، في سان مارينو وفي باسادينا.

يرفع كتفيه ويقول: «يسرني أن يكون قريبًا مني. الاقتصاد في الصين يشهد تباطؤًا. أستطيع أن أجني مالًا أكثر من خلال عملي في الروافع هنا. الآن، ستصير لقاءاتنا كثيرة». أبتسم، لكنه يعرفني منذ زمن طويل كافٍ لإدراك أنها ابتسامة غير صادقة.

على أنه يتابع كلامه غير آبه بتلك الابتسامة الكاذبة، «سوف أذهب في الربيع إلى جبال الشاي من أجل موسم القطاف. هل لي أن أزوركم؟».

أجيبه، «أنت مُرحَّب بك دائمًا في قرية بئر النبع. لن أنسى أبدًا مساعدتكما إيانا، أنت وجيان-رونغ، عندما تهاوت أسعار الشاي».

«وهذه السنة، هل تأخذينني إلى ذلك البستان الخفي...».

لم أكبر بعد إلى حد يجعلني غير قادرة على تعلم كلمات إنجليزية جديدة. «شفاؤك من هذا الأمر متعذر. هل تعرف هذا التعبير؟».

يتخلى عن كل تظاهر بأن الحديث الجاري بيننا حديث عادي. «هل سمعت أن كلية شاي بيوَّر صار لديها الآن مركز للدراسات مزود

بنظام تحديد الموقع الجغرافي الذي يستطيع رصد مكان كل شجرة شاي تجاوز عمرها مئة سنة، وذلك في ستة وعشرين جبلًا من جبال الشاي في مقاطعة يونان».

على الفور، أحس انقباضًا في معدتي. أبتلع ريقي كي أغالبه.

يتابع كلامه: «يريدون حماية تلك الثروات الثمينة في الصين. بعد أن يسجلوا مواقع تلك الأشجار، يصيرون قادرين على مراقبتها للتأكد من أن ما من أحد يقطع شجرة منها كي يسهل عليه قطاف أوراقها، أو يحفر كتابات ورسومًا على لحائها. من أعالي السماء، يستطيعون الرؤية عبر الضباب والغيوم ويستطيعون تمييز معالم الجبال والصخور والتجاويف».

أحاول إبقاء تعابير وجهي محايدة إلى أقصى حد ممكن، وأترك عينيَّ تطوفان بين الناس المجتمعين. أين هو جين؟ أنا في حاجة إليه الآن.

يقتحم السيد هوانغ صمتي: «ليست كلية شاي بيوَّر المؤسسة الوحيدة أو الشخص الوحيد الذي يملك نظام تحديد الموقع الجغرافي. هل تعلمين أنني أستخدمه؟ هل تعلمين ما يعنيه هذا؟ منذ إحدى وعشرين سنة، لا زلت باحثًا عن...».

«لا!». لا أستطيع ضبط نفسي. أشيح عنه بوجهي. أسير بين أزواج الناس المتحدثين، وأفرّ إلى واحد من الممرات الضيقة الماضية حول البحيرة.

يناديني متحولًا إلى اسمي الأصلي: «لي ـ يان! انتظري!»

أحاول استجماع شتات نفسي.

يقول عندما يلحق بي: «ثمة أمور كثيرة لا تعلمينها».

«لا أريد سماعها».

«أنت لم تثقي بي يومًا، لكن عليك البدء الآن».

«لماذا؟ كي تستطيع أن تتسلل وتشق طريقك إلى حياتي؟».

يجيبني بنبرة دفاعية حارة: «هذا غير منصف على الإطلاق. لست أدري كيف تلومينني على أمور وقعت لك عندما كنت صغيرة. لكني لا أعلم شيئًا عن تلك الأمور ولا أعلم أنني فعلت أي شيء شديد السوء. ألا تستطيعين التفكير في الأمر بطريقة مختلفة؟ لعل زيارتي لجبل نانوو ساهمت في تمهيد الطريق أمام نجاحك...».

«لقد علمتنا كيف نتعامل مع شاي بيوَّر. ولكن، لا علاقة لك بالمجرى الذي اتخذته حياتي».

«حقًّا!؟ إذًا، كيف تظنين أنك استطعت دخول كلية الشاي؟ تعلمين أن ثمة معرفة بيني وبين معلم الشاي سون، فهل علمت أننا كنا صديقين منذ زمن بعيد جدًّا؟ لولا هذا... لماذا كان قبولك في البرنامجين الدراسيين معًا مع أن ما من شخص واحدٍ من قبائل التلال كان مقبولًا في أي واحد من الفرعين؟».

أقول له: «إذًا، أشكرك لأنك غيّرت حياتي».

أتحرك كي أذهب، لكنه يمسكني بذراعي، بكل لطف: «هل تساءلت يومًا عمن يكون شريكك السري في متجرك في سوق الشاي؟».

«غرين جيد...» تعلو يدي إلى فمي لشدة دهشتي... «أكان ذلك أنت؟».

«صحيح. كانت تلك واحدة من شركاتي. لقد كنت شريكك».
ينتظر قليلًا إلى أن أستوعب هذا النبأ الجديد... «وقد أتيت هنا الليلة كي أحذرك من خطط مركز الدراسات الذي حدثتك عنه».

«لا أفهم هذا. لماذا تفعل أي شيء من هذه الأشياء كلها؟».

«كان عليَّ أن أرد الجميل لأسرتك». يخبو صوته وتحدق عيناه عبر البحيرة. انعكاسات القناديل الحمراء مترقرقة على سطح الماء. أنتظر. يتابع كلامه أخيرًا: «أمك أنقذت حياة ابني».

«ماذا تقول؟». يأتي سؤالي حادًّا أكثر مما أردت، لكني لا أستطيع تفادي الإحساس بأنه يحاول أن يسجل عليَّ نقطة.

يقول لي: «أنت لم تسأليني أبدًا عن زوجتي».

كلامه صحيح. ما أغرب هذا!

يخرج محفظته من جيبه ويريني صورة شابة جميلة تحمل طفلًا بين ذراعيها. يقول: «أحببتها كثيرًا. أصابها سرطان الثدي بعد ولادة جيان-رونغ. لم تعِش كي ترى عيد ميلاده الأول».

«يؤسفني سماع هذا».

«فقدان الزوجة أمر فظيع، وسوف أظل على الدوام مشتاقًا إليها. لكن، ما من شيء كان يمكن أن يجعلني مستعدًّا للعذاب الذي أحسسته عندما تم تشخيص إصابة جيان-رون بسرطان العظام. كان في الثالثة من عمره».

لا أجد كلامًا أقوله. أحاول التوفيق بين هذه المعلومات وبين ذكرياتي عن لقائي الأول. صوت سيارة الجيب الجبلية العتيقة تشق

طريقها عبر الغابة، وكيف أقلقتني رؤية السيد هوانغ بملابسه الغريبة، والصبي الذي من غير شعر على رأسه مرتديًا ما أعلم الآن أنه تيشيرت عليه صورة بارت سيبمسون وكيف عبر بوابة الأرواح آتيًا صوب الجزء الرئيسي في القرية كأنه يعلم تمامًا أين يريد الذهاب. كان كل شيء في تلك اللحظات غريبًا، مخيفًا. من أين علم أن جيان-رونغ كان مريضًا؟

يقول السيد هوانغ كأنه يرد على شكوكي: «كان قد خضع لمعالجة كيميائية وإشعاعية. جربنا العلاجات البديلة. لن أخوض في التفاصيل كلها، لكن أصدقاء لي في هونغ كونغ أخبروني عن الخصائص الطبية لشاي بيوَّر. كان عليَّ أن أعثر على أنقى أنواع الشاي وأقواها. أتيت إلى الجبال وسألت في كل مكان عن اسم أفضل طبيب ريفي...».

«لكنك أتيت إلينا لأنك كنت من ذواقة الشاي...».

«لم أكن ذواقة، لكن ابني كان يموت، وكان عليَّ أن أصير ذواقة بأقصى سرعة ممكنة».

أظل مصرة: «قلت إنك من هواة جمع الشاي. أتيت لكي تصنع شاي بيوَّر. وقد صنعته. أخذته معك و...».

«صنعت شاي بيوَّر. وأخذته معي. هذا صحيح. بعت القسم الأكبر منه. ليس هذا ما يفعله من يهوى جمع الشاي».

هل كنا ساذجين إلى حد تصديق كل ما قاله آنذاك؟ بالطبع، كنا ساذجين. مع هذا، ينبغي أن أتظاهر بأنني في حاجة إلى مزيد من الإقناع.

«كيف أستطيع إثبات ذلك بأفضل طريقة؟ آه، أمر سهل! كان في وسعي أن أصير أول شخص يصنع شايًا «بسيطًا وأنيقًا حقًّا». لقد حاز

كل منا، أنا والسيد لو، ما يلزم لصنع شاي متميز جدًّا، لكني لم أذهب إلى جبل نانوو من أجل ذلك. أتيت إلى بئر النبع من أجل أمك. هي الشخص الذي نصحني به كل إنسان قابلته. إن كان ثمة دواء يشفي ابني، فهو عندها».

أعيد في ذهني شريط تلك الأسابيع. لا بد أن جيان-رونغ فقد شعره بعد العلاج الكيميائي. وعلى الرغم من أن آما ظلت غير واثقة بالسيد هوانغ، فقد كانت تبدي ولعًا خاصًّا بذلك الصبي، وتسمح له بالجلوس معها في قسم النساء في البيت وقت العصر كلما ألمّ به تعب. ثمة أيضًا سلوك السيد هوانغ الذي كان يبدو لي سلوكًا بالغ الغرابة: ما أسهل المساومة معه! وكيف كان يقول: «أريد هذا»! وكم كان مستعدًّا لدفع المال مقابل أوراق الشجرة الأم عندما أتانا في زيارته الثانية. خلال تلك الفترة كلها، كنت غارقة في التفكير في سان-با وكنت أجهل العالم الخارجي فلم أفتش عمّا هو كامن تحت السطح في كلامه.

«شاي أمك شفى ابني».

«أنت لا تصدق هذا فعلًا».

«لكني أصدقه، وأريد أن أبرهن على هذا. إنني أموّل دراسات شاي بيوَّر في أنحاء العالم، ونحن نكتشف فوائده الكثيرة. لكن في الشاي الآتي من بستانك شيئًا مختلفًا».

«هل يعني هذا أنك تسألني عن بستاني من أجل منفعتك الشخصية؟».

يجيبني وقد أهانته كلماتي: «لا! ألا تستطيعين رؤية الأمر، يا لي-يان. علينا أن نحمي هذه الأشجار. إن كنت قادرًا على العثور على بستانك

فكم سيطول الزمن قبل أن يجده مركز الدراسات أو قبل أن يجده تاجر شاي عديم الأخلاق؟ أشجار الكافور لن تستطيع إخفاء أشجارك الخاصة إلى الأبد».

معنى هذا أنه يعلم موقع البستان. لعله ذهب إليه بالفعل!

«قالبا الشاي الخاصان اللذان صنعناهما...» يخبو صوته من جديد ... «كانت فيهما خيوط صفراء تنمو وتنتشر».

«أذكر أنك قلت لي هذا من قبل. كانت آما تعتمد عليها دائمًا في الحالات الصعبة»... *تلك الخيوط موجودة في قالب الشاي الذي وضعته مع يان-يه*...

«تلك الخيوط هي التي تتمتع بهذه القدرات. لقد جُبت الجبال سنوات طويلة باحثًا عن مصادر أخرى، لكنني لم أجد شيئًا. إنها غير موجودة إلا في بستانك، وهي التي أنقذت جيان-رونغ عندما عاوده السرطان سنة ٢٠٠٧».

أتذكر قدوم السيد هوانغ إلى متجري في سوق الشاي وإخباري أنه ذهب إلى قريتي. أتذكر عجبي من أن أحدًا لم يذكر لي هذا الأمر، ولا حتى آما.

أسأله: «هل عالجته آما مرة ثانية؟».

يومئ برأسه. «قلت لجيان-رونغ إن الشاي سيكون مفيدًا له في تهدئة اضطراب معدته بعد المعالجة الكيميائية. تقبل كلامي ولم يطرح أي أسئلة لأنه يحب أمك ويحب جبل نانوو. لم يعاوده السرطان منذ ذلك الوقت».

«إذًا، انسَ الأمر وكن شاكرًا لشفائه».

يقول لي راجيًا: «لي-يان! شفي ابني مرتين من مرض السرطان. لكن السرطان قتل زوجتي. هل كان لديها استعداد وراثي للإصابة بالسرطان أم أن الأمر ليس إلا سوء طالع؟ كيف أعلم ما سيصيب أحفادي وأبناء أحفادي؟».

أجيبه محاولة أن تكون نبرة كلامي خفيفة: «جيان-رونغ ليس متزوجًا حتى الآن، وأنت لا تعجبك أبدًا تلك الفتيات اللواتي يخرج معهن».

لكن هذا ليس وقتًا للمزاح.

يميل السيد هوانغ صوبي ويقول: «سيأتي يوم ويعثر على فتاة مناسبة. وعندها، ماذا؟ أنتم تسردون أنسابكم، فماذا عن نسبي ونسب أحفادي؟ ماذا عن جيان-رونغ؟ أنت تعرفينه منذ واحد وعشرين عامًا. ماذا لو مرض، أو مرض ابنه أو ابنته؟ قد لا تكون أمك على قيد الحياة. وقد لا تكونين ولا أكون على قيد الحياة. لن تكون لدى ابني وأحفادي وسيلة لحماية أمانهم وأعمارهم. أنت لم تثقي بي يومًا، لكن عليك أن تثقي بي الآن. أنا رجل يحب ابنه حبًّا عميقًا. لو كنت مكاني، فماذا تفعلين من أجل ابنك؟»

*

لا أقول لجين شيئًا عن حديثي مع السيد هوانغ. لا أتصل بآما كي أتداول وإياها في ما قاله لي. أحتفظ بالمعلومات كلها في داخلي، وأحاول معالجتها. من بين كل ما قاله، يظل سؤاله الأخير ماثلًا أمامي: *لو كنت*

مكاني، *فماذا تفعلين من أجل ابنك؟* أجد نفسي أنظر إلى بول وهو يمر بقوس الكمان على أوتاره، وعندما يسدد الكرة في تمرينات كرة القدم، وعندما يستيقظ باكيًا في الليل. نحن الأكها نفكر كثيرًا في أسلافنا وفي عالم الأرواح حيث يقيمون، لكن أبناءنا وبناتنا في عالم الأحياء يمدون لنا خطوطًا صوب المستقبل. سوف يكونون أسلافًا لمن يأتون بعدهم. علينا أن نحميهم. لكن، بأي ثمن؟ أصير مدركة ما ينبغي فعله عندما يأتي وقت سفري مع بول إلى الصين في الشهر القادم. آمل أن يكون الرأي الذي توصلت إليه كافيًا لإقناع آما.

في طريقنا إلى قرية بئر النبع، نتوقف توقفًا وجيزًا عند معهد الرعاية الاجتماعية كي نعطيهم ملابس وألعابًا وكتبًا، وبعض الأمور الضرورية الأخرى. يحب بول هذه الزيارات، يحبها دائمًا. صحيح أنه لا يزال في الثامنة، لكنه يحب أن يصنع أشياء للأطفال، أشياء من قبيل دمى مصنوعة من أكياس النايلون. لكنه سألني هذه المرة إن كنا نستطيع تقديم ثلاثة لابتوبات. «سيكونون قادرين على ممارسة الألعاب. بل من الممكن أيضًا أن يتعلموا القراءة قليلًا. وعندما يكبرون، إذا لم يتبناهم أحد، سيستطيعون أداء واجباتهم المدرسية. ماما، من فضلك!». قلت لجين قبل سفرنا إن ابننا مُقدَّر له أن يلتحق بجامعة عظيمة لأنه بدأ منذ الآن بناء سجل طيب في ميدان الخدمة الاجتماعية. ضحك زوجي وقبّل رأسي.

انطلقنا بعد ذلك قاصدين جبل نانوو. يكون الانشغال شديدًا في موسم قطاف الشاي فلا أذهب مع آما لزيارة بستاني إلا قبل يوم واحد

من سفري. لكن الأمر مختلف هذه المرة. بعد وصولي مباشرة، أطلب منها أن تذهب معي إلى بستاني المخفي. بلغت آما ثماني وسبعين سنة على هذه الأرض. عاشت طوال حياتها في جبل نانوو تتنفس هواء نقيًّا وتأكل طعامًا طازجًا وتمشي في هذه الجبال كي تعتني بأشجار الشاي هذه وتعتني بالناس أيضًا. إنها قوية. أجد نفسي متخلفة عنها وهي صاعدة في الدروب الجبلية التي لا تفتأ تضيق وتضيق إلى أن يكاد آخر درب منها يختفي. تنتظرني عند الصخرة، ثم ندور معًا حولها.

ما قيمة سنة إضافية بالنسبة إلى الشجرة الأم والشجرات الشقيقات؟ لم يطرأ على هذه الأشجار أي تغير خلال ثمانية وعشرين عامًا انقضت منذ أن علمت بوجودها. في وقت من الأوقات، كنت أرى هذا البستان مكانًا للمعاناة والألم والموت. لكني الآن أتشرف بأن يكون ميراثي. إلا أنه قد يكون أهم كثيرًا من ذلك. أمضي من فوري إلى الشجرة الأم وأداعب لحاءها. تكتسي كفّا يدي غبارًا أصفر اللون فأمد يدي كي تراهما آما.

أسألها: «هل تعلمين ما هذا؟».

«إنه نعمة أتت بها إلى هذا المكان أمهاتنا المرتحلات وقت سفرهن ...».

«يعتقد السيد هوانغ أنه أكثر من ذلك».

يتجهم وجهها عندما تسمع اسمه. تدير إليَّ ظهرها وتسير حتى حافة الجرف. تظل يداي مبسوطتين أمامي وأنا سائرة إليها كي أقف إلى جانبها. نحدق معًا إلى الجبال أمامنا.

أقول لها: «يقول إن الخيوط الصفر هي التي شفت جيان-رونغ».

تنظر إليَّ بطرف عينها وتتعمد ألَّا تنظر إليَّ. «كان الصبي موشكًا على الموت عندما أتى إلينا أول مرة. كان في وسع أيٍّ كان أن يرى ذلك. فعلت ما استطعت فعله. جعلته يشرب شاي الشجرة الأم وأعطيته أدوية أخرى».

«وأنا صنعت قالبي شاي من أوراق الشجرة الأم وحدها. أخذهما السيد هوانغ من أجل ابنه».

«لم أعلم إلا بقالب واحد فقط».

أنتظر مزيدًا من التوبيخ. لكنها تقول: «يعني هذا أنك ساعدته أيضًا. تعلمين أن ليس كل من يمرضون في جبالنا يشفون. كان حظه طيبًا».

أسألها: «ماذا إن مرض من جديد؟».

«إنني أنظر إليه كل سنة عندما يزورونا. هو في صحة جيدة. إن جاءني في يوم من الأيام مريضًا، فسوف أفعل ما أستطيع فعله من أجله مثلما أفعل من أجل كل مريض في جبل نانوو».

«وماذا يحدث عندما تصيرين عند أسلافنا؟ ماذا إن أصاب المرض واحدًا من أطفال جيان-رونغ؟».

«تستطيعين أن...».

لا أتركها تنهي جملتها. «أستطيع توليد طفل. وأستطيع مساعدة فتاة أصابتها بُثُور. وأما أكثر من ذلك. أنت آخر امرأة في سلالتنا لديها

هذه المهارات. لا نعلم السبب الذي جعل جيان-رونغ يشفى مع أن كثيرين غيره لم يشفوا». أُتيحُ لها وقتًا كي تستوعب ما أقول. ثم أضيف: «ثمة أمر آخر».

سأظل أحترم آما ما حييت. لقد زرعت الخضار، وجنته، وحصدت الأرز، وربّت حيوانات، وذبحتها، وطهت الطعام لأسرة كاملة، وغزلت خيوطًا، وحاكت نسيجًا، وصنعت ثيابًا، وطرزت تلك الثياب. سارت في كل درب من دروب جبلنا. ولّدت النساء واعتنت بالضعفاء والمرضى والمحتضرين. أحبها، ويجرحني عميقًا اضطراري إلى أن أشرح لها فكرة الأقمار الاصطناعية وأنظمة تحديد الموقع الجغرافي. هذه أمور شديدة البعد عنها مثلما كانت الكهرباء والهواتف والتلفزيون بعيدة عني في يوم من الأيام. تبدو كأن الأمر قد هالها كثيرًا عندما أفصح عن النتيجة المرعبة.

«الناس يبحثون عن هذا المكان. وقد صار السيد هوانغ يعلم موقع البستان».

تقول آما بإصرار يحمل ثقل أجيال كثيرة: «لكن ما من أحد يستطيع رؤيته. لن أسمح أبدًا لذلك الغريب...».

«ألا تدركين الأمر؟ قد لا يكون هو». أكاد أختنق عندما أتقبل أخيرًا ما قاله لي تلك الليلة في الحفلة... «لن يكون هو. إنه يحذرنا. فكري في ما يعنيه هذا! استحالة تجنب ما سوف يأتي... أمر لا سبيل إلى التحكم فيه... كالريح».

«لا يجوز أن يأتي أي رجل إلى هذا المكان». يعذبني سماع خوفها وسماع حزنها... «من يأتي يموت مثلما مات جدك».

وأنا أيضًا أرى هذا مأساويًّا، قاسيًا، مخيفًا، لكنني أخاطبها بمنطق أعلم أنها ستفهمه. «ما أصاب جدي كان قدرًا. كان ممكنًا أن يصيبه في أي مكان».

«لكن من واجبنا أن نحفظ هذا المكان سرًّا».

أرفع كفي بحيث لا تستطيع تجنب رؤيتها. «ألم يحِن الوقت كي نعلم ما هذا؟ من أين أتى في الأصل، وهل ثمة مزيد منه في ذلك المكان؟ هل هو ناجع، وكيف؟ هل من الممكن صنعه؟ إن كان قادرًا على المساعدة في...».

«لكن النساء من أسلافنا...»

«نعم... النساء من أسلافنا، وأنت، وأنا، مرتبطات جميعًا بهذه الخيوط الصفراء. أنت وأجيال من نساء قبلك عملتن جميعًا على حماية الشجرة الأم والشجرات الشقيقات من الحروب والقوافل والرُّحّل الذين ظلوا قرونًا كثيرة يعبرون جبل نانوو. لكن ثمة الآن بشرًا... قد يكونون رجالًا خشنين أو نساء شريرات أو تجارًا مخادعين أو علماء لا رحمة في قلوبهم. سيأتون إلى هذا المكان مستعينين بنظام تحديد المواقع الجغرافي سواء أردناهم أم لم نُردِهم. لعل جداتنا كن يحمين الشجرة الأم من أجل هذه اللحظة».

تقول آما قانطة: «سوف أساعد ذلك الصبي دائمًا».

«إن كنت قادرة على معالجته، فلماذا لا تكونين قادرة على معالجة أولئك الذين في ذلك الجبل المجاور؟ هل يمكن أن تمتنعي عن معالجة شخص يأتيك من ييوو أو من لاوبانزهانغ إن كان مريضًا أو كانت

زوجته عليلة أو إن جاء حاملًا بين ذراعيه طفلًا محمومًا. لن تمتنعي بكل تأكيد! إن قلت نعم لشخص آتٍ من جبل قريب، فماذا عن الناس الذين في بقاع أخرى من الصين؟».

تبكي آما. إنني أحاصرها بحقائق لا تستطيع إنكارها. وعلى غير انتظار، أراها امرأة محطمة، هشة، عجوزًا. أنا التي أفعل هذا بها!

تتمتم بصوت مرتعش: «من الذي نستطيع أن نوليه ثقتنا كي يأخذ هذا البستان؟ وماذا سيصيب الأشجار ما إن يعلم آخرون بأمرها؟».

أحتضنها وأشدها بين ذراعيّ. لست أدري إجابة عن سؤالها.

حجٌّ إلى الأصول

نتمهل عند مدخل منطقة التفتيش الأمني في المطار. مظهر ماما أنيق في بنطلون ذي لون بني خفيف وكنزة من الكشمير بلون الدُّرَّاق. بابا مرتدٍ بنطلونًا قصيرًا وفوقه تيشيرت فريق ليكرز. وأنا في بنطلون جينز ضيق وسترة لها قبعة. شعري مربوط حزمة واحدة خلف رأسي. ومعي في حقيبتي الظهرية قالب الشاي واللابتوب والكتب وبضعة أشياء ضرورية أثناء الرحلة.

يقول بابا: «أود أن أراه». يكرر هذه الجملة للمرة الخامسة.

فكم أستطيع الإتيان بإجابات متنوعة. سوف يأتي. لعله صار في الداخل منذ الآن. وحتى إذا لم يظهر (مع أنه سيظهر)، فلا مشكلة لديَّ. أجرِّب إجابة مختلفة هذه المرة. «أنا واثقة من أنه سيأتي».

يرمقني بابا بعينيه، وتقول ماما: «كفَّ عن القلق، يا دان! فكر في الأماكن التي ارتحلتُ إليها من أجل أبحاثي...».

«ارتحالك لا يعجبني أيضًا. ثم إنك لست ابنتي الصغيرة...».

«ستصير في الحادية والعشرين و...»

«هذا في الخريف، أعلم. ولكن...»

أقول: «انظرا! من الأفضل أن أدخل منطقة التفتيش الأمني. لا أريد أن أتأخر عن موعد الطائرة».

يتنهد بابا: «هل أنت ذاهبة حقًّا كي تطيري مع شخص صيني لم يلتقِه أيٌّ منَّا من قبل؟»

«أوه، يا بابا! يا لك من أب! أنا أحبك لهذا السبب».

يبتسم لي ابتسامة واهية. لكنه محق... لماذا لم أجعلهما يتعرفان إليه عندما كنت قادرة على ذلك؟ لأنني أردت أن أفعل هذا وحدي، أن أبرهن على قدرتي، أن أبهر ماما وبابا باستقلاليتي، إلخ، إلخ.

تحتضنني ماما وتهمس في أذني: «أحبك! انتبهي إلى نفسك! أتمنى أن تتصلي بنا، وإذا لم تستطيعي، فعليك أن تعديني بأن ترسلي إيميلًا أو رسالة نصية كي نعلم أنك في أمان». أحاول الانفكاك عنها فتحتضنني بقوة أكبر... «عرفت القلق من قبل... تلك الليالي المخيفة عندما كدت تموتين، وتلك النوبات التي كانت تأتيك في المدرسة الثانوية. لكن هذا أمر مختلف، أمر جديد تمامًا. لذا، لا تجعليني أبدو مخطئة. لن يسامحني أبوك أبدًا، ولن أسامح نفسي».

أجيبها همسًا: «لا داعي إلى القلق. سأكون بخير». لكن هذا بعيد عن الحقيقة، بعيد كل البعد، لأنني خائفة كثيرًا على الرغم من كلماتي الجريئة. *أين هو؟ كيف أستطيع الذهاب في هذه الرحلة بمفردي؟*

يتكرر الأمر نفسه مع بابا. ثم أقف في الصف وأخرج جواز سفري. لكن بابا وماما لا يذهبان. حتى بعد أن أجتاز التفتيش الأمني وأصير

على السلم المتحرك الصاعد إلى البوابات، أراهما واقفين حيث تركتهما. جولة جديدة من الابتسامات ومن التلويح بالأيدي، ثم أصير بمفردي.

أصل إلى بوابة الصعود إلى الطائرة فأجد أن مسافري الدرجة الأولى ودرجة الأعمال قد صاروا في الطائرة. وأما «المواشي»، وأنا منهم، فهم يدخلون الآن عبر ممر آخر. لا أستطيع رؤية إن كان شون قد صار جالسًا في الطائرة. كان تطوّع أبي وأمي (إن كانت كلمة تطوع مناسبة) بأن يحجزا لي مقعدًا يسمح بالنوم من أجل هذه الرحلة الطويلة من لوس أنجلوس إلى غوانزو واحدة من بين طرق كثيرة حاولوا من خلالها إقناعي بالعدول عن هذه الرحلة. لديهما أميال كثيرة تسمح بأن يحجزا لي مقعدًا في درجة رجال الأعمال من غير أن يكلفهما ذلك قرشًا واحدًا. عندما جاء الوقت الذي استطاعا فيه تقبل حقيقة أنني ذاهبة مهما يكن من أمر وعرضا عليَّ ترقية الحجز إلى درجة رجال الأعمال (قالا: هذا أقل ما نستطيع فعله)، كان عليَّ أن أترفَّع عن ذلك وأقول: «أوه، يا ماما ويا بابا، أنا ممتنة كثيرًا لهذا العرض، لكنني أريد أن أكون مثل غيري من الناس». وها أنا الآن ماضية مع جمع من البشر الغرباء، ذاهبة إلى مغامرة في مكان مجهول مثلما كان شون وبقية الأشخاص في فريق تافتس يصفونه تكرارًا.

وأخيرًا، أنا في الممر داخل الطائرة.

تتحرك الطائرة متجهة إلى مدرج الإقلاع. تهدر محركاتها وتنطلق مسرعة إلى أن تعلو تاركة الأرض وتمر فوق الشاطئ الرملي ماضية صوب المحيط. تنحرف الطائرة يمينًا، جهة الشمال. تتشبث يداي بمسندي المقعد عندما تصادف الطائرة اضطرابات هوائية.

لو لم ألتقِ شون لَمَا كنت هنا الآن. ذهبت منذ سنة واحدة (كانت تلك نزوة عارضة) إلى معرض الشاي في مركز لونغ بيتش للمؤتمرات. حضرت في اليوم الأول ندوة تتحدث عن استخدام النكهات الفريدة لأنواع الشاي المختلفة من أجل تحضير كوكتيلات فنية. «هذه هي الموجة القادمة». حظيت تلك الندوة بأكبر قدر من الشعبية والإقبال. وقد خرجت من الصالة ثملة قليلًا لكثرة ما شربت من نماذج شاي «إيرل غراي» الممزوجة مع الويسكي والفودكا مع شاي الكركديه ومكعبات الجليد. تناولت أيضًا مشروبات لها أسماء من قبيل «تي-تيني» (مع الفودكا والخزامى وإكليل الجبل والبابونج)، و«سن-تشا فليب» (مع الجن والشاي الياباني الأخضر وبياض البيض المخفوق)، و«شاي ليبر» (مصنوع من ويسكي «وايلد تيركي» والعسل والشاي والريحان). قلت وقتها لواحدة من الحاضرات في الندوة: «لو لم أكن ذاهبة إلى الجامعة، لكان من الممكن أن أفتتح بارًا أقدم فيه أنواعًا مختلفة من المشروبات المصنوعة من الشاي والثلج الجاف وكرات السوائل المخثَّرة، والخلائط، والرغوات. كيمياء، لكن بطريقة أخرى!». لم تتكرم عليَّ تلك المرأة حتى بابتسامة صغيرة. أهل الشاي هؤلاء يتعاملون مع الأمر بجدية كبيرة.

ذهبت بعد ذلك إلى جلسة تتناول علوم الشاي. لست أدري ما كنت أتوقع سماعه هناك، لكن الجلسة لم تكن استعراضًا للدراسات الجارية في العالم لتفحص المنافع الصحية المزعومة لهذا الشراب الذي أنا مهتمة به لأسباب شخصية مع أني لا أشرب منه غير الشاي بالحليب الذي أشتريه في سان غابرييل فالي، ولا يعجبني فيه شيء غير «كريّات التابيوكا»...

أظن أن كوكتيلات الشاي صارت تعجبني أيضًا. لم أتوقع أنهم يقدمون الشاي حتى في هذه الندوات العلمية. بدأ أولئك العلماء من معهد تافتس و«معهد أبحاث الشاي» وكذلك من مكان اسمه «مختبر أبحاث مضادات الأكسدة» (مهما يكُن ذلك المختبر) عرض بيانات كثيرة عن نوع بعينه من أنواع الشاي اسمه شاي بيوَّر يقال إنه مفيد في حالات الداء السكري وانخفاض الضغط، وكذلك أنه يطيل العمر وله أثر مُسكِّن في مجموعة واسعة من الحالات، من غثيان المرتفعات حتى النقرس وأعراض مرض الإيدز. يتحدثون كأنه دواء سحري! قلت في نفسي: *إن من الناس من يصدق كل شيء!* أكره أولئك الناس الذين يقتاتون على مخاوف الضعفاء والمرضى ويبثون فيهم آمالًا زائفة في حين يكون عليهم أن يعتمدوا على الطب والعلم. بهذا كنت أهنئ نفسي لأني ذاهبة إلى جامعة ستانفورد من أجل العلم الحقيقي. لكنهم راحوا يعرضون صورًا جعلتني أحس أنني في درس من دروس الكيمياء أو البيولوجيا.

تجارب سريرية عشوائية مزدوِجة التعمية مضبوطة بدواء وهمي

آثار الشاي على وزن الجسم واستقلاب الطاقة والتعافي من الشدة النفسية

المشروبات المحتوية على كاتيشينات الشاي الأخضر والكافيين والكالسيوم: زيادة إنفاق الطاقة في وضع الراحة خلال ٢٤ ساعة بمقدار ١٠٦ كيلو كالوري (٤,٦٪) لدى ٣١ شخصًا رشيق الجسم في سن الشباب.

في تجربة سريرية عشوائية مزدوِجة التعمية مضبوطة بدواء وهمي استمرت اثني عشر أسبوعًا واستخدمت ٧٥٠ ملغ من خلاصة الشاي

الأخضر فيها ١٤١ ملغ كاتيشينات وشملت أشخاصًا بدينين قليلي الحركة: زيادة مصروف الطاقة في حالة الراحة وتناقص وزن الجسم على الرغم من عدم وجود أي تغير من حيث الطعام الذي يتناوله أولئك الأشخاص.

وفي تجربة سريرية عشوائية مزدوِجة التعمية مضبوطة بدواء وهمي استخدمت الشاي الأسود، تمت قسمة ٧٦ شخصًا من الذكور إلى مجموعتين متساويتين. تلقت المجموعة الأولى شرابًا مصنوعًا من الشاي فيه كافيين، وتلقت المجموعة الثانية شرابًا آخر (وهميًّا) فيه كافيين. تم تكليف المجموعتين بمهام صعبة مع قياس مستويات الكورتيزول وضغط الدم وصفيحات الدم والشدة النفسية، وذلك قبل التجربة وبعدها. في غضون خمسين دقيقة من إنجاز تلك المهام، انخفضت مستويات الكورتيزول بنسبة ٤٧ في المجموعة الأولى بالمقارنة مع انخفاضها بنسبة ٢٧ عند أفراد المجموعة الثانية.

على غير انتظار، أحسست أنني صرت واقفة على أرض صلبة. راحوا يعرضون صورًا فيها نسب كيميائية، وجرعات، وفيها أيضًا منهجية الدراسة بالنسبة إلى مجموعات من الجنسين من أعمار مختلفة ومن بلدان مختلفة، وذلك عبر دراسات شملت تحمّل الغلوكوز والأمراض القلبية الوعائية وكثافة العظام والوظيفة المعرفية وداء تدهور الأعصاب، وبالطبع، أنواعًا مختلفة من السرطان. تراوحت نتائج تلك الدراسات من «مقنعة» إلى «ملتبِسة في أحسن الأحوال». لا أستطيع القول إنني تقبلت تلك الأمور التي سمعتها ورأيتها، لكنها أثارت حماستي. وكنت

واثقة بأنني لا أستطيع أن أعزو ذلك إلى عيّنة «سن-تشا فليب» الثانية التي شربتها قبل ذلك. وفي آخر ذلك العرض، طلبت بطاقات المشاركين جميعًا، وكانت من بينهم د. باري التي وافقت في وقت لاحق على السماح لي بالعمل معها في بحثها.

سرت في ممرات المعرض، وكان عندي دوار خفيف. في ذلك المعرض أمور كثيرة تشبه ما يكون في أي معرض آخر: مجموعة كبيرة من البائعين... من سيدات إنجليزيات مولعات بالشاي إلى أشخاص يروجون لمزارع شاي في كينيا، ومن نساء يابانيات مرتديات الكيمونو يعرضن طقوس تقديم الشاي الرسمية إلى أشخاص غريبين من بورتلاند يعرضون منتجات مستخلصة من الزهور. توقفت لحظة كي أنظر إلى شاب (صيني، وسيم، أكبر مني بنحو خمس سنين) يصب الشاي لمجموعة من الأشخاص ويترك السائل يفيض على حواف الفناجين. كان منظرًا غير أنيق أبدًا ولا يشبه الأناقة التي رأيتها في جناح اليابانيين. انتبه الرجل إلى أنني أنظر إليه فناداني: «انضمي إلينا». رآني مترددة فاستحثني بجملة لا بد أنها مثل صيني. *«انقضاء كل لحظة انقضاء للحياة، كل لحظة من الحياة هي الحياة في حد ذاتها»*. من عساه يقول هذا لشخص غريب عنه؟ كنت واثقة بأنني لم أسمع هذه الجملة من قبل، فدخلت الجناح وجلست مع الجالسين. عرّفني بنفسه وقال إن اسمه شون وونغ.

قال: «تفضلي!»، قالها وهو يصب الشاي من دورق زجاجي في فنجان من البورسلان الأبيض... «أريد أن تجرّبي شاي بيوّر». تفتحت

في فمي أول رشفة من ذلك السائل: مرارة تفجرت فيها حلاوة أزاحتها. كان يراقب ردة فعلي مبتسمًا (ابتسامة لنفسه أكثر مما هي ابتسامة لي)، ثم راح يخمّر أنواعًا أخرى من شاي بيوَّر كل واحد منها أفضل من سابقه. كان لواحد من تلك الأنواع «*هويغان*» قوي. شرح هذه الكلمة بأنها تعبير عن الأثر الطاغي لهذا الشاي على التنفس وعلى تفتح الصدر... أثر جعل العالم مشوشًا، لحظة واحدة. قال لي: «هذا لأنك الآن تشربين التاريخ».

ضحكته جعلت نبضات قلبي تتسارع. صدقًا، كدت أعجز عن رفع عيني عنه. وجنتاه حادتان، وعيناه يقظتان، وشعره لامع. كان ودودًا، وكان واضحًا أنه من ذوّاقة الشاي. أسلوبه اللامبالي في صب أنواع الشاي الثمين وترك السائل يفيض على حواف الفناجين الصغيرة تعبيرًا عن الوفرة كان فيه سحر غريب. لماذا أقام هذا الكشك في المعرض؟ لا يزال هذا أمرًا غير واضح، لكني كنت أذهب إلى المدرسة الثانوية مع فتيات كثيرات يشبهنه، وأجد نفسي الآن محاطة بزملائه (فتيان وفتيات) من جامعة ستانفورد، وهم جميعًا جزء من النخبة الدولية الثرية من جمهورية الصين الشعبية.

لست أدري ما جعلني أفعل هذا، لكني ذكرت له قالب الشاي الذي عندي. أظنني فعلت هذا كنوع من المباهاة والتشدق... أو لأنني أردت إطالة وقتي معه. أثار الأمر اهتمامه على الفور.

قال لي: «يقولون إن من الممكن العثور على أثمن أنواع الشاي هنا في جنوب كاليفورنيا. لا بد أن هذا القالب قد أتى به واحد من الرحالة منذ مئة سنة بعد أن جاءه هدية أو تلقاه نظير أمر من الأمور».

سألته: «ما قيمته؟».

«في السنة الماضية، بيع قالب من شاي بيوَّر زنته ثلاث مئة وثمانون غرامًا -أقل من باوند واحد- بمليون ومئتي ألف دولار من دولارات هونغ كونغ، وذلك في مزاد علني. يعادل هذا المبلغ مئة وخمسين ألف دولار أميركي».

قلت: «لا يمكن أبدًا أن يبلغ ثمن قالب الشاي الذي عندي أي مبلغ قريب من هذا».

«وما أدراك؟».

أتيت في اليوم التالي، وجلبت معي قالب الشاي كي أرى إن كان أحد، هو أو غيره، يستطيع أن يخبرني عنه شيئًا. راح الناس يعرضون مبالغ كبيرة جدًّا لشرائه، لكن شون قدّم عرضًا أشد إغراءً: «مثلما يبحث شخص عن الشاي، يبحث الشاي عن الشخص. تعالي معي إلى الصين مدة أسبوع. سوف نذهب في حجٍّ إلى المكان الذي هو منشأ قالب الشاي هذا. ضعي نفسك بين يدي. وسوف أهتم بكل شيء».

حجٌّ إلى مكان المنشأ...

أضاف: «أنا ذاهب على أي حال، وفي مقدورك أن تستفيدي مني. أعني أن تستفيدي من خبرتي».

لا بأس! ... لم أكن صادقة تمامًا مع الأستاذة هو، ولا مع أبي وأمي، ولا حتى مع نفسي. لا شك أبدًا في أنني جادة تمامًا في شأن المشروع الذي طلبت من الأستاذة هو أن تكون مشرفة عليّ أثناء إنجازه. ولديَّ أيضًا في لابتوبي مشروع معهد تافتس، وقد تفحصت في المختبر نماذج

شاي كثيرة من أجل د. باري، وهذا ما سوف يساعدني في إنشاء قاعدة انطلاق من أجل بحثي. عندما أكون في الصين، سألتقي المزارعين وأجمع نماذج الشاي بنفسي. سوف أفوز بجائزة جامعة ستانفورد. لكن ثمة أمر آخر في ما يتصل بشون جعلني أقبل عرضه. ثمة أمر آخر بالإضافة إلى أن ذلك العرض يوفر لي دليلًا على الأرض يتكلم لغة البلاد.

عدت إلى ستانفورد، وتابعنا التواصل عن طريق الإيميل. التقينا مرة واحدة في بيته عندما عدت في عطلة الشتاء، وذلك كي نراجع خطة سفرنا. كنت قد استنتجت أنه ثري فلم يفاجئني عنوانه في باسادينا في مكان قريب جدًّا من زاوية شارع همينغبيرد. تبين لي عندما ذهبت إلى ذلك العنوان أنه ليس «بيتًا»، بل أكثر من ذلك قليلًا. كان قصرًا قديمًا بناه شخص واسع الثراء. قدّرت أن ثمنه يمكن أن يبلغ خمسة عشر مليون دولار. يعني هذا أن شون ليس ثريًّا فحسب، بل هو ثري جدًّا. من الخارج، بدا لي البيت وحديقته جميلين، معتنى بهما جيدًا. لكن المكان من الداخل كان كأنه «على الهيكل». مضينا بين مواد البناء قاصدين قسم الخدمة القديم الذي لا يزال على حاله. غرف مريحة، دافئة. كان من الممكن أن يحدث شيء يؤدي إلى شيء آخر، لكن اهتمام شون كله ظل منصبًّا على مشروع السفر. وهكذا كان اهتمامي. ينبغي أن يظل الأمر هكذا. حجزنا غرفتين منفصلتين في كل محطة من محطات سفرنا. لديَّ الإيميلات التي تثبت ذلك. فضلًا عن هذا، لا يمكن أن يحدث شيء إذا لم يكن شون على متن هذه الطائرة...

انتظرت إلى أن انطفأت إشارة ربط الحزام قبل أن أسير في الممر صوب مقدمة الطائرة. بلغت الستارة التي تفصل بين المقاعد المخصصة للنوم وبين درجة رجال الأعمال، مررت عبرها محاولة أن أبدو منتمية إلى ذلك المكان. أكثر الناس من الصينيين، وأكثرهم يحتسي الشامبانيا. تسألني واحدة من المضيفات: «هل مقعدك هنا؟». لقد أمسكت بي. أعود إلى مقعدي، وأخرج اللابتوب. وأحاول العمل. لقد جمعت كثرة من المواد عن الأماكن التي سأذهب إليها، وأريد الآن رؤية إن كانت طقوس الشاي واستخداماته الطبية الشعبية مختلفة بين قبائل الجبال. أريد أيضًا معرفة كيفية معالجة الشاي من أجل شربه. لا بد لي من التعمق في الأمر...

بعد نحو ساعة من ذلك، سمعت رجلًا يقول لي: «كان عليك إخباري أنك مهتمة بالأقليات العرقية في مقاطعة يونان».

إنه شون. استند بمرفقه إلى ظهر المقعد الذي أمامي وصارت يده متدلية على مسافة إنشات من وجهي. بدا أنيقًا إلى حد يصعب تصديقه... هذه ليست واحدة من الكلمات التي أستخدمها في وصف أي رجل.

«ظننت أنك تأخرت عن موعد الطائرة». أحاول إبقاء صوتي متزنًا، لكني لست واثقة بنجاحي في ذلك لأن شدة ارتياحي لوجوده معي على متن الطائرة تكاد تجعلني غير قادرة على التفكير.

تعلو زاويتا فمه قليلًا. ليست ابتسامة، ليست تكشيرة. لا أعلم ما يدور في ذهنه.

يقول لي: «أعرف بعض الفلاحين من أقليات داي وبولانغ وأكها. يكتب الجميع عن أقلية داي لأن عددها كبير ولأن لديها لغة مكتوبة».

تتحرك يده المتدلية أمام وجهي كأنها تزيح جانبًا هذه الفكرة لأنها لا قيمة لها. يبدو كأنه يستعرض قائمة القبائل في ذهنه، قبيلة بعد قبيلة. يقول بعد ذلك: «قد تكونين مهتمة بأقلية أكها لأن ثقافتها تشبه ثقافة شعب كري في كندا. ثقافة إحيائية. ثمة روح لكل كائن حي».

«لقد قرأت عنهم وقرأت عن شعب كري. وأما الجانب العاتم فهو أن للأكها سمعة سيئة تشبه سمعة ذلك الشعب الأصلي من شعوب أميركا. يسرفون في إنفاق مالهم، ويشربون، ويتعاطون المخدرات...»

تلمع عيناه: «ما أسهل أن يسقط المرء في فخ الصور النمطية».

«أوه! أنا لم أقل إنني مقتنعة بهذه الأفكار» ... «يرى الناس في الغرب أن الفرد أهم شيء، لكن شعب أكها يرون أنفسهم حلقة من حلقات سلسلة الحياة الطويلة، حلقة قريبة من بقية حلقات البشر والثقافات، وتشكل تلك الحلقات كلها موجة واحدة تمضي صوب الشاطئ كي تحمل مولودًا جديدًا إلى بر الأمان».

أحس نفسي غاضبة. «أمر لافت أن تذكر المواليد الجدد. إن كان لكل شيء روح، فما قصة هؤلاء الناس مع التوائم؟».

«انتهى هذا الأمر منذ زمن». يقول هذا ويبدو عليه الآن قدر من الضيق... «كان لديهم اعتقاد ثقافي يرون أن له أسبابًا منطقية. وقد ساروا قرونًا طويلة وفق هذا الاعتقاد. من تكونين حتى تديني ثقافتهم؟».

قبل أن تسنح لي فرصة توضيح رأيي أو الدفاع عن نفسي، يربت بيده على ظهر المقعد مرتين (انتهى الكلام!)، ويبتعد سائرًا في ممر الطائرة ويختفي خلف الستارة الفاصلة بين القسمين.

تعلّق الفتاة الجالسة إلى جانبي: «كان ذلك مزعجًا!».

أجده في انتظاري عندما أخرج من الطائرة في غوانزو. كانت لديَّ ساعات طويلة كي أصيغ في ذهني إجابة مناسبة عن سؤاله: لا يعني وجود قناعة ثقافية عند جماعة من الناس (سواء أكان ذلك ربط أقدام الفتيات في الصين أم ختان الإناث في إفريقيا) أن علينا، من حيث نحن كائنات بشرية، أن نقبل تلك الممارسات. لكنه يبدو كأنه نسي سوء التفاهم الذي نشأ بيننا... أو مهما يكن ذلك الذي نشأ. نمضي في إجراءات الدخول، ثم نحمل حقائبنا ونمر عبر النقطة الأمنية الخاصة بالطيران الداخلي ونصعد إلى طائرة ذاهبة إلى كومينغ. ومن جديد، لا نجلس معًا، ولا نجلس معًا في الرحلة التي بعدها، الرحلة إلى جينغهونغ.

بعد ثلاث سفرات جوية متتالية طالت على امتداد ساعات كثيرة واختلافات كبيرة في التوقيت، بلغ مني الإرهاق والإعياء مبلغًا جعلني لا أكاد أنتبه إلى أي أمر في المطار الأخير غير أنه مطار صغير، مهلهل، خافت الإنارة. نجد في الخارج سائقًا ينتظرنا حتى يأخذنا إلى ييوو حيث يقع مركز استلام الشاي من جبال الشاي الستة وتقع نقطة بداية طريق الشاي والخيل وموطن «ملكة شاي بيوَّر». ستكون هذه البلدة مكان إقامتنا خلال أربع ليالٍ قادمة. قرأت أن هذه الرحلة بالسيارة تستغرق ست ساعات على طريق فيها حفر كثيرة ومنعطفات خطرة. يا لها من مشقة بعد تلك الساعات الطويلة من الطيران ومن الانتظار في المطارات. أتناول قرص درامامين[١]. أطوي سترتي ذات القبعة فأجعلها

(١) دواء يستخدم للوقاية مما تسببه مَشاقُّ السفر من غثيان وقيء ودوار، ولمعالجة تلك الآثار أيضًا.

وسادة أسند رأسي عليها. يغفو شون على الفور في ناحيته من المقعد الخلفي، لكني لا أستطيع النوم على الرغم من شدة الإرهاق. الصين! وأنا الآن متجهة إلى «أعماق مكان مجهول».

*

هذه رحلة شديدة الاختلاف عن الرحلة التي قمت بها مع أبي وأمي. عليَّ أن أعتاد سريعًا استخدام مراحيض من غير مقاعد، وكذلك استخدام ورق المرحاض بدلًا من مناديل المائدة ورؤية الناس يقذفون بعظام الدجاج والأسماك على الأرض مباشرة. نذهب إلى كشك في الخارج من أجل إفطارنا (على الرغم من شدة آثار السفر وفارق التوقيت) ونطلب حساء النودلز مع الفلفل الحار. الحساء مطهو على موقد مفتوح. نجلس على كراسيٍّ بلاستيكية صغيرة كأنها كراسي أطفال من حول طاولة خفيضة كطاولات الأطفال (أمر غريب جدًّا)، طاولة تبدو كأن أحدًا لم يمسحها يومًا. كلب يلوك عظمًا على الأرض عند قدمي. لا أرى أي وجه أبيض، لكن ثمة أشخاصًا آخرين من الواضح أنهم غرباء عن ييوو: رجال صينيون مرتدون بنطلونات أنيقة وقمصانًا منشاة وأحذية لامعة.

يهمس شون: «تجار شاي. انظري كيف يتصرف الواحد منهم مع الآخرين. شيء يشبه «فورة الذهب». لقد عثرت على عرق ذهب، لكني لن أدلك عليه. وهم يتفحصوننا أيضًا... يتفحصوننا كي يقدروا كم يمكن أن نكون أثرياء وكي يقرروا إن كنا سنجعل سعر الشاي يرتفع هذه السنة». تصل وجبة النودلز فأحذو حذو شون وأسكب الشاي

الحار على عودي الطعام وبقية مستلزمات المائدة، ثم أسكب الماء المتسخ على الأرض. من غير فعل هذا، ستصيبنا إسهالات أو ما هو أسوأ منها. ليس في تاريخ العالم وباء لم يكن آتيًا من الصين.

يبتعد عنا تجار الشاي سريعًا مثلما أتوا إلينا سريعًا. يتصل شون ببعض الفلاحين والتجار مستخدمًا تطبيق «ويتشات» الذي هو نظام للرسائل الفورية يتيح له الكلام في هاتفه بدلًا من الكتابة بالحروف الصينية المعقدة، ويوجز لي مجريات كل مكالمة: «قلت لهم أن يتوقعوا وصولنا عند الساعة الرابعة»، أو «قالوا أن نعرِّج عليهم غدًا. لم يحدث من قبل أن أتت امرأة. إنهم تواقون إلى رؤيتك». نكون موشكين على الانصراف عندما يجلس إلى جانبنا رجل يقول إنه تاجر شاي جديد. يفتح سحاب حقيبته الصغيرة كي نرى حزمًا من أوراق نقدية من فئة مئة يوان. يسأل عن المكان الذي ينبغي أن يذهب إليه كي يشتري الشاي. يرسله شون إلى مصنع عائلي لمعالجة الشاي واقع على مسافة قريبة.

ننهض ونسير مبتعدين وأسأله: «ألا ينبغي أن أرى ذلك المصنع؟».

«سوف آخذك غدًا إلى مكان أفضل، أكثر أصالة. واليوم، دعيني أصحبك في جولة في البلدة».

احتكامًا إلى ما ظل باقيًا من البلدة، أتخيل أن ييوو كانت في ما مضى مكانًا جميلًا جدًّا. لكن الشارع الرئيسي الآن ليس إلا صفًّا من متاجر أسمنتية خرقاء يجللها الغبار والتراب المنبعث من بيوت قديمة يجري هدمها ومن مبانٍ قبيحة رخيصة يجري إنشاؤها. نسير مسافة على طريق الشاي والخيول، ويخيب أملي لأنني لا أرى فيه شيئًا يستحق

الذكر: ممر مرصوف بالحجارة عرضه لا يتجاوز أربعة أقدام يمضي ملتويًا عبر الجزء القديم من البلدة ثم ينحدر نازلًا. وفي طريق عودتنا إلى الشارع الرئيسي، نعبر أزقّة هادئة فيها بضعة بيوت تقليدية مبنية من طوب صلصالي غير مشوي، بيوت لا تزال حواف سقوفها ملتوية إلى الأعلى. دجاجات تلتقط طعامها من الأرض، وأزهار متدلية على الجدران. وأمام كل بيت من تلك البيوت، نساء منهمكات في تصنيف أوراق الشاي، ورقة فورقة (الشابات منهن مرتديات بنطلونات جينز وقمصان خفيفة، والنساء الأكبر سنًّا مرتديات ملابس تقليدية. لكن كل واحدة منهن تضع غطاء رأس أو وشاحًا). لا بد أن مظهر ييوو كان هكذا قبل أن تأتيها أيام الرخاء، مظهر أكثر أصالة وجمالًا يعطي إحساسًا بالصين الخالدة.

*

خطتنا لليوم التالي أن نذهب إلى لاوبانزهانغ التي هي موطن ملك شاي بيوَّر. تمضي بنا السيارة في طريق ترابية ضيقة شديدة السوء. نمر بقرى في كل واحدة منها ما يتراوح من عشرة بيوت إلى خمسين بيتًا. ألمح بضع بوابات خشبية يدوية الصنع تبدو شديدة الشبه بمدخل مزرعتنا في كولورادو: عمودان اثنان وعارضة أفقية. اسم مزرعتنا مكتوب على قرص خشبي مثبت إلى تلك العارضة الأفقية. وأما هنا، فإن زينة كل بوابة من هذه البوابات مؤلفة من منحوتتين تُمثِّلان رجلًا وامرأة لهما أعضاء جنسية ضخمة كما في الأعمال الإباحية. يصعب التوفيق بين بدائية هذه الأشكال وبين حقيقة وجودها في بلد صار الآن قوة اقتصادية عظمى.

يصير الانقطاع الثقافي أشد وضوحًا عندما يُضطر السائق إلى التوقف لأن عددًا من الحافلات الصغيرة يسد الطريق أمامه. سائحون يابانيون يلتقطون صورًا لزملائهم الواقفين تحت أشجار الشاي على جانبي الطريق. نخرج من السيارة ونتحدث معهم قليلًا باللغة الإنجليزية. من حولنا جبال يجللها ضباب رمادي. أحاول في ذهني المطابقة بين هذه الصورة وبين العلامات التي على قالب الشاي، لكن من غير طائل.

يعود السائحون إلى حافلاتهم (ما أغرب رؤيتهم هنا!). يشير شون إلى سائقي الحافلات كي يساعدهم في المناورة عبر الطريق الضيقة لإخلائها أمامنا. وأخيرًا، نصير قادرين على العودة إلى سيارتنا. يأخذنا سائقنا إلى بيت مُزارع شاي ميسور. بيت حديث نظيف من حوله مجموعة مبانٍ لمعالجة الشاي. وفي فناء البيت، نحو اثنتي عشرة امرأة جالسات حول سلال كبيرة مسطحة. إنهن منهمكات في تصنيف أوراق الشاي. يقدمني صاحب البيت، السيد بيو، إلى مجموعة النساء قائلًا إنني عالمة أميركية فيشرحن لي كل خطوة من خطوات إعداد الشاي. بل إنني أجرّب عملية «قتل الخضرة» وعجن أوراق الشاي. وقرابة وقت الظهر، تصل عدة سيارات حاملة مشترين آتين من أنحاء العالم. نجلس من حول طاولة خفيضة في سرادق على كراسيٍّ بلاستيكية صغيرة ككراسي الأطفال (بالطبع)، ونتذوق شايًا يبلغ ثمن أونصتين منه ألف دولار. لا أتكلم الصينية، لكنهم يتكلمون الإنجليزية جميعًا.

يسألني واحد من تجار الشاي من تايوان عن مشروعي فأحكي له عنه قليلًا وأنهي كلامي بـ«حيثما نظرت، تقريبًا، أرى فرصة أخرى

لإجراء دراسة علمية. وعلى سبيل المثال، ما الأثر الذي سيكون للتلوث في صناعة الشاي؟».

يقول السيد بيو ساخرًا: «ليس لدينا ضباب دخاني».

أقول مشيرة إلى الضباب الرمادي المعلق بين التلال: «أصحيح هذا؟ ما الذي أراه في الهواء؟ لقد نشأت في لوس أنجلوس. أعلم كيف يبدو الضباب الدخاني. من الممكن أن تكون الريح قد ساقت هذا الضباب الذي تراه هنا من مكان يبعد ألف ميل. لكنني أتساءل أيضًا إن كان ما تفعله الأقليات العرقية من قَطْع للأشجار وإحراق للأرض بغية زراعتها يؤدي إلى تغير مناخي في هذه المنطقة».

يومئ الآخرون برؤوسهم إيماءات مهذبة، لكنني لست واثقة بأنهم يوافقونني الرأي.

أواصل كلامي: «ما السبيل إلى معرفة العمر الحقيقي لقالب شاي بيوَّر قديم؟ هل يمكن أن يكون فيه شيء يساعد في إطالة عمره؟ وهل نعتبر شاي بيوَّر شرابًا دوائيًّا أم مادة معتقة لذيذة الطعم عندما نشربها، أم شرابًا فحسب؟».

يسألني شون: «وماذا عن الأمور الاجتماعية؟ هل يمكن اعتبار الشاي رمزًا للقيمة: سلعة تمثل تغيرًا للقيمة على المسرح العالمي بالنسبة إلى النساء وبالنسبة إلى الصين؟»

عند سماع كلمة «نساء» يتبادل الآخرون نظرات سريعة كأننا جميعًا ثلة من شباب مراهقين لا مجموعة رحالة من أنحاء العالم جالسة أمام بيت واحد من المزارعين، بيت يبعد أميالًا كثيرة عن أي شيء يشبه ما

أعتبره مدينة. لكنهم يعودون سريعًا إلى ما كانوا فيه من كلام لأن الظاهر أن لدى كل واحد منهم رأي في شأن الأماكن التي ينبغي أن أذهب إليها وما يستحسن أن أراه وما ينبغي أن ألتقيه. وبعد ذلك، يخرج أكثرهم الهواتف المحمولة وتصير لديَّ ولدى شون أرقام جديدة نستطيع التواصل مع أصحابها عن طريق تطبيق «ويتشات». سيكون لديَّ أشخاص كثيرون من أجل مشروعي عندما ألتقي فريق معهد تافتس.

بعد أن نتذوق نحو اثني عشر نوعًا من أنواع الشاي، يقدمون إلينا وجبة طعام على طاولة قريبة من مكان جلوسنا (من جديد، طاولة كطاولات الأطفال): ملفوف مقلي، وطماطم، وبيض مخفوق، ولحم البقر مع الزنجبيل المبشور، ونوع من أنواع الجذور النباتية المقرمشة. نعود إلى طاولة الشاي بعد فراغنا من تناول الطعام. يقول شون بعد جلوس الجميع: «هيلي، لماذا لا تريهم قالب الشاي الذي معك. قد يستطيع واحد من الجالسين هنا تحديد هوية غلافه». أُخرج القالب من حقيبتي وأضعه على الطاولة. الناس مهذبون، ولا يمد أحد منهم يده كي يلمس القالب، لكنهم يقفون جميعًا كي ينظروا إليه، ويمطون أعناقهم، ويشيرون بأصابعهم، ويتناقشون.

يقول السيد بيو: «لا بد أن يكون من صنع شركة شاي لم تعد موجودة». هذا تخمينه.

يدلي التاجر القادم من تايوان بدلوه: «أو عائلة مفقودة».

وتقول صديقة أحدهم: «أو من بستان مهجور منذ زمن بعيد واقع في أعالي الجبال».

يسألني السيد بيو: «ما عمره؟».

أجيبه: «لا أدري».

يقول أحدهم: «قوالب الشاي المصنوعة قبل الخمسينيات لم تكن لها أغلفة. إذًا، هذا يشير إلى...»

يقاطعه التاجر الآتي من تايوان: «لكن من الواضح أنه أقدم من ذلك كثيرًا. يوحي شكله بأن عمره مئات السنين».

أحس قدرًا من الرضا لأن قالب الشاي غامض في نظرهم مثلما كان على الدوام غامضًا في نظري.

يسألني السيد بيو: «هل تذوقته؟».

تصدمني هذه الفكرة، وأقول: «لم أفتحه أبدًا».

يقول السيد بيو: «فلنفعل ذلك الآن، فلنتذوقه». ويمد يده إلى القالب.

بسرعة انقضاض أفعى، يمسك شون بمعصم يد مضيفنا. «هيلي هي التي تقرر متى تفتحه، وهي تقرر إن كانت راغبة في فتحه».

يحل على المجموعة كلها صمت مرتبك.

يقول السيد بيو مازحًا في محاولة منه لتبديد تلك اللحظة المتوترة: «لم يحدث يومًا أن أتى لزيارتنا شاب بصحبة فتاة. انظروا الآن كم يحب أن يظهر مسيطرًا على كل شيء». يضحك الآخرون جميعًا. يرخي شون يده عن ذراع الرجل.

يصبون لنا مزيدًا من الشاي. وبعد بضع ساعات، أصعد إلى السيارة

مع شون، حقيبة ممتلئة نماذج من الشاي وهدايا قدمها إلينا مضيفنا الذي يقول لنا مودعًا: «سوف تتذكرين دائمًا هذا اليوم الذي أمضيناه معًا».

نعود إلى ييوو ونسير في الشارع المغبر قاصدين مطعمًا على واجهاته الزجاجية لطخات من شيء لا أدري ما يكون. يطلب شون لنا حساء مع تشكيلة بسيطة من أطباق الخضراوات. كان كل شيء في نهارنا سريعًا فلم تسنح لنا فرصة للكلام في أي أمر يتجاوز الشاي والترتيبات العملية. يسألني الآن إن كانت هذه زيارتي الأولى إلى الصين.

أسأله: «هل أبدو غريبة عن المكان إلى هذا الحد؟».

يرفع كتفيه كأنه يقول لي: أجل.

أقول له: «هذه زيارتي الثانية. كنت في السابعة عشرة عندما أتيت أول مرة. أنا طفلة متبناة وقد اصطحبني أبي وأمي إلى الصين لاكتشاف الجذور».

«وهل عثرت على جذورك؟». يسألني بنبرة باردة ولا تبدو عليه أي دهشة لما سمعه مني.

«جذوري؟ لا. لكن، لا مشكلة عندي». أحس أنني مضطرة إلى الشرح... «لديَّ أسرة مُحبة. ترعرعت في بيت جميل. وأنا أتلقى تعليمًا ممتازًا وأسير في طريق تحقيق أحلامي...».

«وهذا سبب وجودك معي».

عجبًا! لحظة صمت مرتبك. أرغم نفسي على متابعة الكلام. «منذ بضع سنين، حدثني أحدهم عن أمر دعاه «أطفال صينيون متبنون. شاكرون، لكنهم حانقون. نعم. لقد كنت شاكرة، ولا أزال. ونعم

أيضًا. كنت حانقة، ولا أزال. كان صعبًا عليَّ أن أفصل بين ما ينبغي أن أكون شاكرة له وما أنا شاكرة له بالفعل. أظن أن هذا ما جعلني أقرر أن أكون «شاكرة، وحانقة معًا». لا. لا، شاكرة، لكني حانقة. كان ذلك منذ زمن بعيد. والآن، أظن أن ما أحسه يشبه إحساس الناجي بالذنب. هل تفهم ما أعنيه؟».

«أظنني أفهمه». يجيبني وقد علت وجهه مسحة حزن، لكني لا أجد نفسي مستعدة للاستفسار عن ماضيه.

أتابع كلامي: «كان من الممكن أن ينتهي بي الأمر إلى حياة شديدة السوء. بدلًا من ذلك، حظيت بحياة شديدة الروعة. ثمة فتيات كثيرات مثلي يرين أن حاجتنا إلى التعبير عن أنفسنا أكبر مما يحتاجه الناس الذين ولدوا في المستشفى وأتوا إلى البيت من غير أي تعقيدات أخرى». أرغم نفسي على الكف عن الكلام. لكني أضيف: «لعل هذا أكثر مما أنت راغب في معرفته».

«أنا راغب في معرفة كل شيء عنك».

أظنني استدرجته إلى قول هذا، لكني لا أستطيع أن أجيبه بشيء لأن حديثنا اتخذ وجهة مختلفة. هو أيضًا، يبدو عليه الحرج. هل سيتحدث الآن عن نفسه؟

لست محظوظة إلى هذا الحد.

«هل ترين نفسك صينية أم أميركية؟».

أجيب: «أميركية مئة في المئة، وصينية مئة في المئة. لست «نصف هنا ونصف هناك». أنا كلي هنا وكلي هناك. سوف تظل ملامح وجهي صينية

طوال عمري، لكني أنظر إلى المرآة فلا أرى أن مظهري صار مختلفًا عن مظهر الأسرة التي ولدت فيها، ولا أرى أنني لا أجد نفسي صينية بما فيه الكفاية. لا أرى شيئًا غير نفسي». تفاجئني عبارتي الأخيرة. أمضيت عمري كله أواجه مشكلة في هويتي. فهل وصلت الآن، هل وصلت فعلًا، إلى نقطة القبول؟

يقول لي: «أنت نوع جديد من المواطن العالمي. تستطيعين أن تكوني جسرًا بين ثقافتين وبين بلدين».

«ثمة شيء من المبالغة في هذا، فما رأيك؟».

«لا أرى مبالغة. الأمر ليس متصلًا بك وحدك. أنت ومن مثلك نتاج سياسة الطفل الواحد التي انتهت الآن، أليس هذا صحيحًا؟ سمعت أنه قد جرى تفادي أربع مئة مليون ولادة، لكنكم واقعون ضمن فئة خاصة لأن منظورك، ومنظور النساء اللواتي مثلك، فريد تمامًا. إنه أوسع من المنظور الفردي لدى كل واحدة منكن. وبطريقة من الطرق، تقع عليكن مسؤولية جسيمة...»

«كنت أنفر من هذه الفكرة. لكنها صارت تمنحني إحساسًا بالهدف...».

«من الممكن أن تكون قدرات المتبنين الصينيين في أنحاء العالم قدرات ينبغي أن يُحسب حسابها».

لا أشك الآن في أنه يحاول مناكفتي. أبتسم له نصف ابتسامة، ثم نعود إلى تناول طعامنا.

وبعد ذلك، يسير معي حتى باب غرفتي في الفندق. لا أشك في أن

بابا سيكون مرتاحًا إن علم أن ليلة أخرى قد انقضت من غير «أي أمور غريبة».

*

ذهبنا صباح اليوم الثالث كي نزور فيلًّا نائية لا يستطيع المرء أن يرى منها أي بيت آخر، لكنها لها إطلالة ذكرتني كثيرًا بإطلالة وادي توبانغا في موطني. أرضية غرفة المعيشة من رخام أبيض، وفيها شاشة تلفزيون مسطحة عملاقة تتألق ألوانها ضمن خزانة ضخمة. ثروة من الشاي موضوعة في أكياس كبيرة مكدسة عند الجدران. تدعونا مضيفتنا إلى البقاء لتناول وجبة الغداء. تقول: «سنذبح دجاجة». وفي اللحظة التي تلت ذلك، أسمع صوت قطع رقبة الدجاجة على بعد بضع إنشات مني. أتذوق كل ما يوضع أمامي بما في ذلك كف الدب وكف آكل النمل... لأنني أحاول أن أكون مهذبة. أريها قالب الشاي، لكنها لا فكرة لديها أبدًا.

نتوقف بعد ذلك عدة مرات كي نلتقي بعض الفلاحين. وحيثما ذهبنا، تحدث أمور ثلاثة. الأول: يُسخّن الماء فور وصولنا، وتُنقع أوراق الشاي، وتُصب فناجين الشاي. نلتقي أشخاصًا يتعاملون مع الشاي على أنه شيء ثمين، لكننا غالبًا ما نصادف فلاحًا أو ابنه ممن يدخنون من غير انقطاع. الرماد وأعقاب السجائر في كل مكان مع أننا نتذوق شيئًا يعتمد تذوقه على الرائحة والنكهة. بل إن رجلًا كان يحلق ذقنه أمامنا ونحن جالسان نرشف الشاي الذي قدمه إلينا. يحكي لي الناس قصصًا عجيبة عن الفقر والتضحية وشظف العيش، وعن الثروة التي

هبطت عليهم بين عشية وضحاها. ويعتز الفلاحون بالإشارة إلى ما لديهم الآن من ماء جارٍ وأجهزة تلفزيون ودراجات آلية. الأمر الثاني: أعرض قالب الشاي على الناس. لدى كل واحد منهم نظرية عنه، لكن أحدًا لا يستطيع أن يقول لي شيئًا واضحًا ولا أن يحدد مصدره. والأمر الثالث: الناس لطيفون معي، لكنهم يسخرون من شون من غير أدنى قدر من الرحمة. أراه يضحك. أراه يحمرّ خجلًا. أراه يخفض رأسه ويمر بأصابعه في شعره... منزعجًا، لكن مسرورًا. وبعد ذلك، يترجم لي كل شيء (أو أظن أنه يترجم لي كل شيء)، وإلا لماذا يقول لي أشياء من قبيل «يقولون إن شعرك كالحرير»، أو «يتساءلون إن كنت من أقلية إثنية وكم طفلًا تستطيعين أن تنجبي في أميركا»، أو «يريدون منك أن تعلمي أنك ستكونين على الدوام في سعادة وأمان معي».

ومع ترحالنا من مكان إلى مكان، يظل شون جالسًا في ناحية من مقعد السيارة الخلفي، وأظل جالسة في ناحيتي. لكن الحفر في الطرق كثيرة وكذلك المنعطفات... وهنالك قوانين الفيزياء أيضًا... هكذا كان الأمر، وأما غير ذلك، فنحن لا نفعل أي شيء من تلك الأمور الواضحة كأن نسير متقاربين كثيرًا بحيث تتلامس أصابعنا أو يطيل أي منا النظر إلى عيني الآخر عندما يقول لي شيئًا من قبيل «عندما نشرب أفضل أنواع الشاي نكون، أنا وأنت، ماضيين في حوار مع الريح ومع المطر، في ذلك الحوار الذي يمضي فيه الطاويون فوق جبال الغيوم. ومن خلال شرب الشاي، وبين الجداول، وتحت ظلال القمر، ندرك أن الانفصال بين الإنسان والطبيعة غير حقيقي». *أعني... ما هذا الكلام!* من لا تحب أن

تنام مع شخص يتكلم هكذا؟ لكنه لا يبادر بأي حركة، وتظل عيناي، معظم الوقت، متعلقتين بمناظر الطبيعة. خرجت من قبل مع بعض الشبان، وكانت لي بضع علاقات قصيرة. لكن إحساسي الآن مختلف. أستطيع الانتظار. لكن الترقب يزيد رغبتي اضطرامًا.

*

نمضي الشطر الأكبر من يومنا الرابع في السيارة لأننا نسافر من ييوو إلى مينغاي، ثم إلى جبل نانوو الذي يقول لي إن فيه أكبر عدد من بساتين الشاي العتيقة. نقيم في نُزل عتيق. ثمة مطبخ في المبنى الرئيسي ومعه مقهى وحيز صغير لمعالجة الشاي قائم في الطابق السفلي. تعيش الأسرة في الطابق العلوي. ويقيم النزلاء في أكواخ مبنية وفق الأسلوب التقليدي (أكواخ قائمة على ركائز، مبنية من عيدان البامبو والقش)، أكواخ قائمة عند حافة الوادي. كوخي مجهز بسرير... ولا شيء غيره. لا كهرباء. المرحاض والدوش في مبنى منفصل يستخدمهما النزلاء جميعًا. نتناول طعامنا في الخارج على ضوء الشموع. تعد لنا والدة صاحب المكان وجبة بسيطة من خضار يزرعونها عندهم... حساء منكهة بالنعناع البري الطازج، وفاصولياء مطهوة على البخار مع الفلفل الحار، وخضراوات أخرى مع فلفل مبشور، وبيض مخفوق مقلي مع الطماطم. نتناول وجبتنا جالسين على تلك الكراسي الصغيرة نفسها وأمامنا الطاولة الصغيرة نفسها. يقدمون إلينا بعد العشاء شرابًا ناريًّا من صنع بيتي، ويؤدي صاحب البيت عددًا من أغاني أقلية داي الخاصة بجلسات الشراب، وذلك أمام حفنة من النزلاء. وأخيرًا يطلب منا أن نشاركه ما

يدعوه «أغنية حب بين شخصين من الأكها» اشتهرت في الآونة الأخيرة من خلال برنامج للمواهب في التلفزيون الصيني.

يترجم لي شون كلمات الأغنية عندما يغني الرجال مخاطبين النساء: «تتفتح الزهور في أوجها منتظرة قدوم الفراشات...»

ثم تغني النساء للرجال: «أقراص الشهد تنتظر النحلات كي تصنع العسل...»

ويغني الرجال: «زهرة جميلة تنادي حبها...»

نصير الآن قادرين على الانضمام إلى الكورس: «آلو ساي، آه-إي-آه-إي-أو-آه-إي-آه-إي-أو».

وبعد انتهاء الغناء، يعطونا مصابيح زيت. يصحبني شون إلى كوخي. ينحني صوبي وتمس شفتاه شفتيَّ مسًّا رقيقًا. يبتعد قليلًا كي يرى استجابتي. أحس الهواء بيننا ثقيلًا فلا أكاد أستطيع التنفس. يضع يده على ظهري ويجذبني إليه. قبلته ليست مثل أي شيء عرفته من قبل. وبعد دقيقة واحدة، نصير داخل غرفتي الصغيرة. تتراقص شعلة مصباح الزيت. يخلع عني ثيابي متمهلًا ويقول لي: «أنت جميلة». لم أعرف في حياتي ما يجعلني مستعدة لما أحسه عندما نمارس الحب.

أظل بعد ذلك مستلقية بين ذراعيه. أمر استثنائي يحدث. ولكن، هل كان أسرع مما ينبغي؟ ينهض مستندًا إلى مرفقه كي يستطيع النظر إلى عينيَّ. لست أدري كيف، لكني أحس أنه يعرفني معرفة تامة وأنني أعرفه. عند ذلك، يقول لي أهم شيء.

«أحببتك لحظة دخولك كشكي في معرض الشاي. لقد أتيت بك

إلى المكان الذي أحبه أكثر مما أحب أي مكان آخر في العالم. ألن يكون رائعًا إن استطعنا أن نمضي حياتنا مرتحلين في العالم، نشرب الشاي ونقرأ الأشعار العظيمة».

تمر لحظة تغيب فيها عني حقائق حياتنا. نتضاجع مرة أخرى، وتكون أروع من الأولى. وعندما يغفو، أترك أنفاسي تحذو حذو أنفاسه.

*

يبدأ الصباح التالي مثلما يبدأ كل صباح (شون على تطبيق «ويتشات» يتواصل مع الناس الذين سنذهب لرؤيتهم)، لكن كل ثانية من هذا الصباح عابقة بفرحة هانئة. ثم نجلس في السيارة وننطلق. وبعد ساعة، نسلك دربًا ضيقًا غير مُعبَّد لا أكاد أستطيع أن أدعوه طريقًا. نبلغ بوابة يحرسها رجلان. يعرف الرجلان شون على الفور ويشيران إلينا بالمرور، لكننا لا نجتاز مسافة طويلة قبل أن نبلغ بوابة أخرى. هذه البوابة مزينة كمثل البوابات التي كنت ألمحها عند مرورنا بها على الطريق الرئيسية: رجل له قضيب ضخم، وامرأة بثديين نافرين.

يقول شون، «علينا أن نمشي بقية المسافة. يوقف السائق السيارة هناك. أمضي مع شون وأجتاز البوابة (يحذرني ألا أمس عموديها)، ونسير في الممر الذي يليها. حفيف أوراق الأشجار في الريح، وصرير الجنادب، وغناء الطيور. الهواء المداري الرطب أحسه دافئًا، لطيفًا على جلدي. أول ما أراه عندما نبلغ القرية بضعة أطفال حفاة يغسلون أطباقًا في معلف. لكن هذه القرية، في آخر الأمر، شديدة الشبه بالقرى الأخرى التي زرناها. الجميع منهمك في معالجة الشاي. أشخاص يأتون بسلال

من أوراق الشاي ويفرشونها على مصاطب مرتفعة عن الأرض كي تذبل قبل أن «يقتلوا خضرتها» في قدور منصوبة في الخارج ومن تحتها نيران الحطب. يعجنون أوراق الشاي، أو يبخرونها، أو يضعونها تحت الحجارة المدورة الثقيلة التي تضغطها كي تصير قوالب شاي.

نبلغ بيتًا نجد أمامه مجموعة نساء جالسات من حول سلاسل مسطحة. إنهن يصنفن أوراق الشاي. واحدة منهن عجوز مرتدية ملابس الأقلية العرقية كلها. وصبي صغير، في الثامنة أو في التاسعة، جالس إلى جانبها.

يصرخ الصبي بلغة إنجليزية لا لكنة فيها: «جيان-رونغ! قالت ماما إنك ستأتي». يجري إلى شون ويرمي نفسه بين ذراعيه.

تنهض المرأة العجوز: «جيان-رونغ».

أنظر إلى شون مستفهمة. يقول موضحًا: «يعرفونني باسم هوانغ جيان-رونغ. هذا اسمي بلغة ماندرين. وهذا الصبي اسمه بول».

يقول الصبي مبتهجًا: «عندما أكون هنا، مع جدتي، يصير اسمي جين-با».

ويقول شون: «إنه يعيش في أركاديا».

أقول: «يعني هذا أننا جاران». يا لها من رحلة!

المرأة العجوز التي يقولون لي إن اسمها سو-سا لا تتكلم الإنجليزية، لكنها تبدو سعيدة لرؤية شون. تأخذنا إلى طاولة تحت سقيفة من البامبو والقش حيث تصب لنا الشاي واحدة من حفيداتها... لا أنتبه إلى اسم الحفيدة.

يقول لي شون: «أود حقًّا أن تلتقي تينا لأنها قد تعلم شيئًا عن قالب الشاي الذي معك. لكن، لماذا لا نجعل سو-سا تراه أثناء انتظارنا وصولها؟ لا تعلمين أبدًا ما...».

أتناول القالب من حقيبتي وأضعه على الطاولة فتشهق المرأة العجوز وتجري مبتعدة كأنها رأت شبحًا. يضحك الصبي الذي من أركاديا. «جدتي... إنها شديدة التطير...»

تظل المرأة عند زاوية البيت الكبير. تسترق النظر إلينا، وتمسح عينيها، ثم تختفي من جديد. ينظر شون إليَّ ويرفع كتفيه. تصب الحفيدة لنا مزيدًا من الشاي، لكن الأمر كله غريب.

أقول وأنا أنهض عن الكرسي: «هل تبكي؟ لعل علينا أن ننصرف!».

قبل أن يفلح شون في الإجابة، تعود العجوز إلينا وتخاطبه غاضبة.

يترجم ما قالته. «تظن أن أبي هو الذي أرسلنا». لكنه يبدو حائرًا مثلما أنا حائرة.

«أبوك؟».

«إن لأبي وهذه الأسرة تاريخًا طويلًا».

تشير العجوز إلى الجبل وتطلق سيلًا من عبارات موجهة إليَّ.

يترجم شون. «تريد أن تذهبي معها». من الواضح أنه يختصر كلامها... «تقول إنكما يجب أن تذهبا وحيدتين».

أسأله متوترة: «ماذا تريد مني؟». أن أكون في قرية نائية مع شون أمر، لكن ذهابي وحدي مع عجوز مجنونة أمر مختلف تمامًا.

يجيبني شون: «تقول إن ذهاب الرجال ممنوع». لكن صوته يزداد علوًّا مع نهاية كلامه... «ستكونين بخير». لا تطمئنني هذه الكلمات إلا قليلًا.

«لا أريد الذهاب إلى أي مكان».

تنقض العجوز وتختطف قالب الشاي وتجري به مبتعدة. من غير تفكير، أجري خلفها، لكنها أقوى مما يبدو عليها، أقوى كثيرًا. قدماها واثقتان في اندفاعها صاعدة دربًا جبلية ضيقة. أنا أصغر منها كثيرًا، لكني لست فلاحة ولم أعتَد العيش في الجبال العالية. أجد نفسي مضطرة إلى التمسك بأغصان الأشجار وبالأعشاب الطويلة كي لا أسقط على الأرض. نمضي أعلى فأعلى. كان عليَّ أن أعود أدراجي بعد خمس دقائق، لكن الأوان قد فات لأنني لا أعلم أين صرنا. نحن في الغابة. أواصل اللحاق بها عبر شبكة من دروب كخيوط العنكبوت. قرود تزعق بين الأشجار. وطيور تصيح خائفة. نصف ساعة، ساعة، أكثر من ذلك. لا أستطيع ترك العجوز تغيب عن عيني، ليس فقط لأن قالب الشاي سيضيع مني إن فعلت، بل أيضًا لأنني سأكون ضائعة. تحرقني رئتاي، وتؤلمني ساقاي، ولا أستطيع التفكير إلا في بابا وماما... كم أحبهما... وكم سيصيران محطمين إن لم أعد إلى البيت!

تتوقف العجوز في فسحة بين الأشجار وتسمح لي أخيرًا بأن أصل إليها. ألهث ولا أكاد أستطيع التنفس، لكنها في أحسن حال. ترمقني بنظرة ثابتة، ثم تمسكني بأعلى ذراعي بقبضة يد حازمة وتديرني صوب الوادي. ترفع قالب الشاي أمامي وتشير إلى الجبال. وعلى الفور، أرى الأمر كله...

الجبال المتتالية، والمصاطب المدرجة، والنهر. يجعل هذا الإدراك ساقيَّ تخوران من تحتي. أتكون هذه المرأة العجوز أمي؟ هذا غير ممكن.

تسير وتجرني خلفها، ونسير صاعدتين. نعلو ونعلو. وطوال الوقت، أسمعها تكرر أصواتًا غريبة، *آما آما آما*. تتوقف من حين إلى آخر وتشير إلى بطنها ثم تشير إلى الجبل. وبعد وقت قصير، يختفي الدرب أمامنا. أرى أمامنا صخرة كبيرة: إنها الدائرة المتعرجة التي أعرفها تمامًا. لا يمكن أن يعثر أحد على هذا المكان من غير خريطة لأنه مخفي على نحو حسن جدًّا. تدس العجوز قالب الشاي داخل سترتها. ومثلما يفعل سرطان، تدور حول الصخرة ملتصقة بها، وأدور في إثرها. أرتعش ارتعاشًا شديدًا، لكني أفلح في الوصول إلى الناحية الأخرى من الصخرة.

أشجار كافور عمرها مئات السنين تصنع مظلة فوقنا وتؤوي تحتها عددًا من أشجار الشاي. تخرج العجوز قالب الشاي من سترتها، لكني لست في حاجة إلى أن تشير لي إلى الشجرة التي كانت الرمز الذي أراه في أحلامي وأتساءل عنه طوال حياتي. في الأعلى، بين الأغصان، أرى امرأة تقطف أوراق الشاي فيتأكد لي انطباعي بأن هذا البستان، مع أنه مخفي هنا، مكان خاص معتنًى به جيدًا... وكأن هاتين المرأتين هما الوحيدتان اللتان تأتيان إليه. أبدًا الإحساس بشيء... ذكريات... مع أن من المستحيل أن تكون عندي أي ذكريات. عندها، من مكان عميق في داخلي، يشع إحساس عميق بحب كل ما هو حولي، إحساس تكمله موجات حب مقابل تأتي إليَّ وتحيط بي. هذا كله يبدو مستحيلًا. أنا حائرة، لكن هذه المشاعر تكتسحني.

وأخيرًا، تلحظ المرأة التي على الشجرة وجودنا. تتسع عيناها، ثم يحل عليها سكون تام كأن قلبها كف عن الخفقان وكأن عضلاتها تجمدت. ثم أراها تتحرك وتهبط بخطوات بطيئة حذرة تنتقل من غصن إلى غصن. تبلغ الأرض وتجول عيناها بين العجوز وبيني. لحظة حيرة وتشوش. ثم تأتي المعرفة. وأنا أعرفها أيضًا، لأنني كنت أرى قسمات وجهها كلما نظرت إلى صورتي في المرآة.

أمي. آما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وتقدير

تبدأ رواية «فتاة الشاي من طريق هَمينغبيرد» بحلم وبقول مأثور لدى قوم أكها: «لا مصادفة، لا قصة». يصح قول الأمر نفسه على كتابة هذه الرواية. كنت في رحلة، واستيقظت ذات صباح فكان نصف العنوان في رأسي: (شيء - شيء من طريق همينغبرد. لم أدرِ ما قد يكون ذلك الشيء) إلى أن أتاني أثناء مناسبة استضافتها سوزان ماكبيث من مؤسسة «أدفينشرز باي ذا بوك»، وكنت متحدثة فيها. كانت قد رتبت أمر مشاركة كينيث كوهن كي يقدم طقس تذوق الشاي الصيني، شاي بيوَّر، وذلك قبل إلقائي كلمتي. لم يأتِ آخر ذلك اليوم إلا وقد صار عنوان روايتي جاهزًا عندي وصارت الخلفية التاريخية للرواية جاهزة أيضًا.

بدأت أرتب رحلة إلى جيشوانغبانا كي أكون حاضرة أثناء موسم قطاف الشاي في الربيع، فسأل تشوي تسانغ الذي كان على رأس كلية سانتا مونيكا، زوجي عن المشروع الذي أعمل عليه. وعند سماعه أن له علاقة بالشاي، سأله: «هل يمكن أن يكون ذلك شاي بيوَّر؟». شاعت

المصادفة أن يكون تشوي وزوجته إيكهو قد ذهبا خلال الأسبوع الذي سبق ذلك إلى مأدبة صينية جلسا فيها إلى جانب وان وو (إلين) لوو التي هي أكبر مستوردي شاي بيوَّر إلى الولايات المتحدة. وفي الأسبوع الذي أعقب ذلك، أخذتني أنجلينا شيه مع إكهو بسيارتها إلى «تلال هاسندا» كي نلتقي إلين في بيت واحدة من صديقاتها. تمتلك تلك الصديقة (اسمها ليندا لوي) شركة «بانا تي كومبني» التي يقتصر القسم الأكبر من عملها على شاي بيوَّر. (أنصح القارئين المهتمين جميعا بزيارة موقعها: www.banateacompany.com). أمضينا فترة بعد الظهر في تذوق أنواع مختلفة من شاي بيوَّر كان من بينها شاي عمره خمسون عامًا. راحت ليندا تتذكر ترعرعها في جبال الشاي وكيف أرادت حفظ الطرائق التقليدية في صنع هذا الشاي النادر وشربه، والترويج لتلك الطرائق. وتحدثت ليندا عن تاريخ فن تذوق الشاي وعالمه وثقافته، ذلك العالم الذي نشأ من حول ورقة الشاي.

وفي نهاية تلك الزيارة، سألت ليندا إن كنت أستطيع مراسلتها بالإيميل ملتمسة النصح في شأن الأشخاص الذين يستحسن أن ألتقيهم عندما أذهب في رحلتي إلى الصين. قالت لي... تذكروا أن تعارفنا لم يمضِ عليه إلا ساعات قليلة... «لماذا لا تأتين معي في رحلة الشراء القادمة؟». اكتشفت أن موعد رحلتها يوافق، بل يوافق تمامًا، التاريخ الذي حددته من أجل رحلتي. وهكذا سافرنا معًا فذهبنا أولًا إلى غوانزو حيث زرنا سوق فانغون للشاي، ثم إلى مقاطعة يونان حيث زرنا جينهونغ ومينغاي ونانوو وييوو، فضلًا عن مغامرات جانبية

أخذتنا إلى لووشلويدونغ وقرى أخرى. أنا ممتنة امتنانًا عميقًا لأولئك الناس جميعًا الذين ساعدوني في بناء قصتي. أشكر ليندا خاصة، وعليَّ أن أشكرها مرة أخرى لأنها كانت مرشدتي في معرض الشاي العالمي (مرتين!) حيث عرّفتي عدد كبير من أشخاص رائعين أعانوني على تطوير قصتي تطويرًا كبيرًا جدًّا (من بينهم أنجي لي التي هي مالكة شركة «١٠٠١ بلاتوز تي»، والساعات التي أمضتها في الترجمة وفي تطوير ذائقتي. ليندا نصيرة نشيطة لشاي بيوَّر، لا تعرف التعب، وأنا الآن سعيدة جدًّا بأن أدعوها صديقتي.

رافقتنا في السفر جيني دود من شركة «جينيز تي» وشريكها، بودا تامانغ صاحب «همالايا باردو فالي تي» التي هي مزرعة للشاي في نيبال. يا لتلك المغامرات التي كانت لنا. شكري الكبير لكل من لي لين لحرصه في قيادة السيارة، ومعلم الشاي تشان (فيسبر) غوو يي لما يتسم به من حماسة ومعرفة، وكذلك لأنه أخذنا في جولة في مستودع تخمير الشاي الضخم الذي يملكه، وللسيد ليو الذي دعانا إلى سقيفة شاي في أعالي الجبال حيث جرّبنا أنواعًا كثيرة من الشاي ونظرنا إلى سقائف التجفيف وحصلنا على معلومات عن أنظمة تحديد الموقع الجغرافي التي تتولى مراقبة أشجار الشاي العتيقة. أشكر كذلك تشين جينج الذي كان مضيفنا في نزل فوجين جي في جبل نانوو لأنه علمنا كيف نضغط قوالب الشاي ونغلفها ونزيّنها بورق الأرز. أشكره أيضًا لجمال أدائه أغاني الحب لدى الأكها. وأشكر صديقته وأمه وابنته لحرصهن على أن نتناول طعامًا جيدًا وعلى تقديم الشاي إلينا كي نتذوقه ونتحدث عنه. أشكر آه-بو،

تلك المرأة الشابة من قوم أكها، لأنها لم تكتفِ بأن تحكي لي قصتها، بل حكت أيضًا قصصًا أخرى سمعتها من الكبار على مر السنين. وأشكر ووي يان في، كنة آه-بو، لذهابها معنا إلى التلال العالية كي نزور أشجار الشاي القديمة وكي نرى أرجوحة القرية. علمتني هذه الأسرة أيضًا كيف يتم «قتل الخضرة» وعجن أوراق الشاي. (عمل شاق!).

التقينا في مدينة ييوو مالك مصنع شاي مزدهر اسمه جينغ بي نونغ. في ذلك المصنع نحو ثلاثين امرأة يعملن معًا على تصنيف أوراق الشاي. قدم إلينا وجبة غداء (اشتملت على واحدة من دجاجات كثيرة قص رقابها من أجلنا) وحكى لنا قصة لو لي جين، وسعيه إلى صنع شاي «بسيط وأنيق حقًّا». زرنا وو كسيوفن، سيدة الأعمال التي هي مزارعة شاي استثنائية. يُقَدم شايها هدية إلى أشخاص في أعلى دوائر الحكومة الصينية. تحدثنا مع الفلاحين - في بيوتهم، وفي الطرق، وفي أعالي الجبال النائية. وتحدثنا مع تجار شاي آخرين ومع ذواقة شاي. أشكرهم جميعًا، أشكرهم جزيل الشكر للمعرفة والخبرة التي استقيتها منهم ولقبولهم أن يحكوا لي قصصهم الشخصية الملهمة، وإن تكن قاسية أو حزينة. أشكر وكيلة الأسفار الرائعة جيني بويس لأنها أخذتني إلى جبال الشاي وأعادتني منها.

أود أيضًا أن أقرّ بفضل المؤلفين الذين فتحوا بصيرتي على تاريخ الشاي وثقافة الشاي وأصول الشاي: جون بلوفيلد (فن الشاي الصيني)، وبياتريس هوهينيغر (الجاد السائل) هي أيضًا محررة (عميقًا في التاريخ: فن الشاي) ومشاركة فيه إلى جانب مشاركين آخرين من

بينهم ستيفن د. أويونغ وجون إ. ويلز جونيور)، وكذلك لو يي (كلاسيكيات الشاي)، وألان ماكفرلين وأليس ماكفرلين (ذهب أخضر: إمبراطورية الشاي)، وفيكتور ه. مير وإيرلنغ هوه (تاريخ الشاي الحقيقي)، وجينهونغ زهانغ (شاي بيوَّر: قوافل قديمة ورقيّ مديني). في سنة ٢٠٠٨، نشرت «فن الشاي» عددًا خاصًّا بشاي بيوَّر فيه مقالات تحدثت عن جبال الشاي المختلفة وأزمة الشاي وتسعيره على المستوى العالمي، وكانت المقالات بأقلام باو زهو وتشين زهينغ وي وتشين زهي تونغ وآرون فيشر وهيدي كايزر وغوانغ تشونغ لي ولي جون وليو يينغ يين ويانغ كاي وييهوان جي وزهينغ زكيسيان وزهاو يي. قرأت أيضًا مقالة كريستينا لارسون: «رجل ثري، رجل بيوَّر» في «تشاينافايل» التي استطلعت مسائل الأصالة والتسعير، كما زودتني مقالة مارك جينكينز في «ناشيونال جيوغرافيك» بمعلومات مهمة عن طريق الشاي والخيل.

وذات يوم، وعلى نحو غير منتظر، تلقيت إيميلًا من آريس هان تطلب إجراء مقابلة معي بصفتي صينية أميركية. أرادت الحديث عن اهتمامي الشخص بالشاي، وذلك من أجل مشروع تعمل عليه. تابعنا بعد ذلك مراسلات نشيطة بيننا وتكلمنا في كل شيء ذي صلة بالشاي. وقد وجدت في الإنترنت مقالات لافتة عن مزارع الشاي في مقاطعة يونان وعن زراعته أيضًا، وكانت مقالات نشرها «مركز التراث العالمي التابع لليونيسكو». كتب هذه المقالات كل من بيف بيرنز وبيتر بيفرلي. وقد استطلعت مجلة «بون آبيتيت» في عددها الصادر في ١٥ مايو ٢٠١٥ الاهتمام المتفجر بالشاي في الولايات المتحدة. وفي معرض الشاي

العالمي، حضرت جلسة تذوق برعاية «شركة يونان للشاي» حيث تعلمت أمورًا كثيرة عن «شاي الشعر الأصفر». وبعد ذلك، ذهبت إلى ندوات تناولت أسرار شاي بيوَّر الكيميائية (قدمها كيفن غازكوين)، والتاريخ الاجتماعي للشاي (قدمها بروس ريتشادسون وجين بيتغرو) وخلائط الشاي (قدمتها أبيتيل سينت كلير).

وقد كانت للكتابات العلمية لكل من جيفري ب. بلومبيرغ وبرادلي و. بولينغ وتشونغ-ين أوليفر تشين مساهمة كبيرة في تلك المقاطع من الرواية التي كانت مكرسة لما يُحكى عن الجوانب الصحية للشاي. كما كانت لعالمة البيولوجيا الإثنولوجية، د. سيلينا أحمد، شديدة الكرم والفائدة. استمعت إلى أحاديث كثيرة لها، وكان حظي طيبًا عندما ذهبت إلى محاضرتها في متحف التاريخ الطبيعي في لوس أنجلوس، تلك المحاضرة التي اشتملت على اختبارات تذوق للكوكتيلات المختلفة التي يدخل فيها الشاي وغيره من النباتات والخلائط. لقد سافرت مع المصور مايكل فريمان على طول طريق الشاي والخيل وأنتجت كتابًا مدهشًا بعنوان «طريق الشاي والجياد». كان الملخص العلمي عن الدراسة المتعددة الاختصاصات (رعتها جهات متعددة) التي تناولت آثار التغير المناخي العالمي على الأشجار القديمة في مقاطعة يونان، (وشاركت فيها د. أحمد) هو مصدر إلهام العمل الذي أنجزته هيلي. أشكر د. أحمد لما تتمتع به من ذهن وقّاد، وأشكر تفانيها وإجابتها عن أسئلتي الكثيرة.

أنا مدينة كثيرًا لكتابات بول و. لويس الذي كان مبشّرًا، عمل مع قوم أكها في بورما من خلال جمعية الإرسالية المعمدانية الأميركية

الأجنبية، وذلك بين سنتي ١٩٤٧ و١٩٦٦، ثم ذهب سنة ١٩٦٨ إلى شمال تايلاند كي يكمل دراسته عن الأكها بصفته عالم أنثروبولوجيا. وقد كان من بين مصادري القيّمة عمله المعنون «ملاحظات إثنوغرافية على الجوانب الثقافية لدى قومي أكها وهاني في بورما» (كتبها بالتعاون مع باي بيبو). كما كان لكتابات ديوليو تشوبوه وماريان نابيس («ديوليو: حياة وتاريخ امرأة من الأكها» ضمن «*تنمية أم استئناس؟ الشعوب الأصلية في جنوب شرق آسيا*»). وثوماس س. مولاني (مصالحة مع الأمة)، وتشيه يي شيه (*مفاوضة الإثنيات في الصين*)، وزهانغ ويوين وزينغ كينغنان (بحثًا عن أقليات الصين) أثر كبير من حيث تطوير فهمي قوم أكها. إن كنتم مهتمين بمعرفة المزيد عن ثقافة أكها، ففي وسعي أن أنصحكم بمواقع الإنترنت التالية: «مؤسسة تراث أكها» (مع شكر خاص لماثيو ماكدانييل الذي استخدمت استخدامًا شبه حرفي ما ورد في مقالته عن معتقدات الأكها ونمط حياتهم ورؤيتهم أنفسهم حلقة من حلقات سلسلة الحياة الطويلة)، و«أقلية أكها» - معلومات وتفاصيل، الصين الإثنية، متحف قبائل الجبال الافتراضي، و«شعوب العالم: أكها».

منذ سنوات طويلة، التقيت جين ران التي جمع مئات القصص من نساء في الصين. أنا معجبة جدًّا بعملها. وقد تشرفت بمساعدتها إياي في مشاريع مختلفة على امتداد السنين. كتابها «رسالة من أم صينية مجهولة» عمل قوي يحطم القلوب لا بد لكل أسرة تبنَّت طفلًا صينيًّا من قراءته. وقد زودتني مقالات باربارا ديميك ولورا فيتزباتريك بمعلومات عن الأطفال الصينيين الذين سُرقوا من أسرهم لأغراض التبني غير

القانوني، فضلًا عن جوانب مظلمة أخرى لسياسة الطفل الواحد في الصين. وانتقالًا إلى التجربة الأميركية، أود التنويه بكتاب كاي براك «دموع صامتة: رحلة الأمل في ميتم صيني». وكتاب *«أتمنى لك سعادة إلى الأبد»* لجيني بوين التي أنشأت «مؤسسة نصف السماء». بعد فراغي من كتابة الرواية، نصحني أحدهم بمشاهدة فيلم «مكان في الوسط» الذي هو عمل وثائقي قوي عن فتيات متبنيات في سن المراهقة ذهبت واحدة منهن إلى الصين وعثرت على الأم التي ولدتها. أود أن أنصحكم جميعًا بمشاهدته.

في فترة مبكرة من مساري المهني، دعيت إلى الكلام في أماكن مختلفة من البلاد في حلقات عديدة من «أسر لها أطفال من الصين». أشكر من كل قلبي أمهات كثيرات في تلك المنظمة، وأشكر أمهات الأطفال المتبنين اللواتي أعرفهن معرفة شخصية. وأود أن أنوه خاصة بمارثا غروفز التي لم تكتفِ بإطلاعي على قصتها، بل حكت لي أيضًا قصص نساء كثيرات غيرها، وذلك من خلال مقابلاتنا وإيميلاتنا. وقد كانت المقالات التي كتبتها في «لوس أنجلوس تايمز» ذات أهمية خاصة. التقيت على امتداد سنين كثيرة شابات كنّ طفلات متبنيات من الصين، لكنني أردت في هذه الرواية أن أوسِّع اتصالاتي في أنحاء البلاد كي أعثر على فتيات راغبات في إطلاعي على تجاربهن. أود توجيه شكر كبير جدًّا إلى كل من شارلوت كوتر وكاثرين هولز، وكلتاهما كانتا طفلتين متبناتين ثم صارتا عضوين في مجلس إدارة «تشايناز تشلدرن إنترناشيونال»، وذلك لقاء الساعات التي أنفقتاها في الإجابة عن أسئلتي. ومنذ عشر

سنين تقريبًا، تتواصل مراسلات الإيميل بيني وبين تيرانس ماي الذي يعيش في ولاية كولورادو. لقد أطلعني، هو وابنته المتبناة ليان ماي، على جوانب مختلفة من فترات مختلفة في حياتهما. وكتبت إليَّ ليليان بون عن تجربتها من حيث هي أميركية صينية متبناة، في حين وفّرت لي مقالة جولي فراغًا في «نيويورك تايمز» بصيرة إضافية من خلال تناولها قصة طفلة متبناة صارت الآن أمًّا. وحتى أكون واضحة، ينبغي القول إن شخصية هيلي في هذه الرواية لا تمثل كل طفلة صينية متبناة. هيلي شخص قائم بذاته، ولها مشكلاتها الخاصة بها. على الرغم من هذا، أستطيع القول إن أمورًا كثيرة تقولها وتحسها، وكلمات كثيرة تستخدمها (فضلًا عمَّا تقوله في جلسة المعالجة النفسية) آتية من نساء شابات ارتحلن عبر طريق التبني الصيني اللافتة. ما كان لقصة هيلي أن تكون على هذا النحو لولا عونهن.

أمضي جزءًا كبيرًا من وقتي في سان غابرييل فالي، لكنني اعتمدت على المعارف التخصصية لدى أصدقاء وأقارب كي يساعدونني في التفاصيل. ورحت أنتقل من مكان إلى مكان وأتناول مأكولات أشتريها من متاجر في طريقي. أعطتني مارا ليونغ نيكولز خلاصة عمَّا تكونه حياة هيلي التي ترعرعت في باسادينا. وقدم إليَّ نيك موك استشارات في ما يتصل بالجفاف والطفيليات التي تهاجم الأشجار التي يصيبها الضعف. كما ساعدتني كتابات كل من أندرو خوري وتيم لوغان وإ. سكوت ريكارد وفراند شايونغ وكلير سبيغل في معرفة تفاصيل التأثيرات الصينية على سوق العقارات في جنوب كاليفورنيا، فضلًا عن المشكلات التي تعترض الطلبة الآسيويين الأميركيين في المدارس الثانوية.

إن لكل تفصيل من التفاصيل أهميته بالنسبة إليَّ. وأنا أحاول أن أكون دقيقة إلى أقصى حد ممكن. (أنا مسؤولة عن أخطائي كلها). تعلمت الكثير من أعمال الكتاب والدارسين التالية أسماؤهم: دينيز إليوت (في الضغوط النفسية الواقعة على المراهقين الأميركيين الآسيويين)، ومي يين لي ود. فلوريان كنوذ (في منسوجات الأقلية الإثنية)، وآلن ت. تشينغ (عن ملكة الورق المقوى)، وليتا هونغ فينتشر ودون لي وماري كاي ماجسيتا وجولي ماكينن (في ظاهرة «النساء المتروكات»). وقد وجدت في كتاب *«النساء ونوع الجنس والتنمية الريفية في الصين»* مقالة لافتة تتحدث عن حملة رعاية الفتيات، وقد كانت مقالة بقلم ليزا كلوند، فضلًا عن مقالة أخرى تحدثت عن الإنجاب والعقارات في الريف الصيني، وكانت بقلم لوريل بوسن.

لقد أطلت الآن في الكتابة عن جميع الأشخاص الذين ألهموني بحكمتهم وفضلهم وخبرتهم -سواء أكان ذلك من خلال شخوصهم أم من خلال كتاباتهم- لكني آمل أن تسمحوا لي ببضعة سطور إضافية أشكر فيها الناس الذين ساعدوني في إخراج هذه الرواية إلى العالم: وكيلتي ساندي ديجكسترا، ومن يعملون في مكتبها، فقد كانوا جميعًا مخلصين متحمسين. أشكر أيضًا سوزان مولداو التي كانت كأنها عرّابتي، وأشكر ترحيب نان غريهام الحار بي في مؤسسة سكريبنر. محررتي الجديدة كاثرين بيلدن كانت لها عين دقيقة وكان لها قلب حنون على صفحاتي، فضلًا عن حماستها ودقتها الأخلاقية. أشكر بو بلوميز لأنه أمسك بيدي ولم يفلتها أبدًا. وفي البيت، ما كنت قادرة على فعل ما فعلت لولا مساعدة نيكول

برونو وماريا ليموس و(أحيانًا) ستيفاني دونان. لقد كانت أختي كلارا ستوراك ظهيرًا لي فقد عملتُ باقتراحاتها التحريرية من غير طرح أي سؤال. توفيت أمي، كارولين سي، أثناء وضعي اللمسات الأخيرة على مسودة مخطوطي. لكني كنت سعيدة الحظ لاستطاعتي أن أقرأ عليها القسم الأكبر من هذه الرواية. سوف أشتاق إليها وأفتقد مساندتها. وما كان لشيء من هذا أن يهمني لولا ولداي ألكساندر وكريستوفر ولولا كنتي إليزابيث. ولا أنسى حفيدي هنري وزوجي ريتشارد كيندال. وأخيرًا، أوجه إليكم شكري العميق لما تحمله رسائلكم إليَّ كل يوم من قوة وإلهام وحب ومداعبات مازحة.

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عن الكاتبة

ليزا سي، صاحبة عدد من الروايات التي ظهرت ضمن قائمة نيويورك تايمز، ضمن أفضل الكتب مبيعًا: «*زهرة الثلج والمروحة السرية*»، و«*زهرة الفاونيا العاشقة*»، و«*فتيات شنغهاي*»، و«*الدمى الصينية*»، و«*أحلام الفرحة*». كما كانت ليزا سي مؤلفة رواية «*على جبل الذهب*» التي أتت ضمن قائمة نيويورك تايمز للكتب الأفضل مبيعًا وحكت قصة استقرار أسرتها الأميركية الصينية في لوس أنجلوس. تشرّفت ليزا سي بلقب «امرأة السنة على المستوى الوطني» الذي تمنحه منظمة النساء الأميركيات الصينيات، وذلك سنة ٢٠٠١. كما تلقت في خريف سنة ٢٠٠٣ «جائزة المتحف الأميركي الصيني لصانعي التاريخ».

تتخذ رواية "فتاة الشاي" من جبال "يونان" الصينية النائية مسرحًا لسردية إنسانية معقدة، تنسج خيوطها حول صراع الهوية وتوترات الحداثة في مواجهة التقاليد. تتبع الرواية مسار "لي يان"، الفتاة المنتمية إلى قبيلة "آكها" التي تُكرّس حياتها لزراعة شاي البوير وِفق طقوس متوارثة منذ قرون. لكن ظهور أول سيارة جيب في القرية - صدمة الحداثة الأولى - سيُحدث شرخًا في نسيج المجتمع، لتبدأ "لي يان" رحلتها المريرة نحو التحرُّر الفردي، متحديةً المأساة الشنيعة التي واجهتها نتيجة العُرف القبلي.

تكشف الرواية اغتراب الأمومة؛ بين أمٍّ غارقة في صمتها وابنةٍ تعيش حياة ميسورة لدى أسرة تبنّتها، حياة لا ينقصها إلّا الحياة. هذه الرواية تأريخٌ أدبيٌّ لتراث "آكها" المندثر، يُفكّك ثنائيات التضحية والتحرر. عبر سرد عابر للثقافات، تطرح الرواية أسئلة عن كيف تُستغَل المجتمعات الأصلية وتُستنزَف هويّتها. إنّها رواية كالشاي، تختمر ببطء، بمرارتها وحلاوتها.

الناشر

*****

ليزا سي: روائية أميركية من أصول صينية، وُلدت في باريس عام ١٩٥٥. اشتهرت برواياتها التي تتناول التاريخ الثقافي والاجتماعي للمرأة الصينية، من أبرز أعمالها "زهرة الثلج" و"المروحة السرية" الحائزة على جائزة المكتبة العامة في لوس أنجلوس. نالت عدة تكريمات، منها: لقب "امرأة العام" من منظمة النساء الأميركيات الصينيات، و"جائزة صانعو التاريخ" من المتحف الأميركي الصيني. يتميَّز مشروعها الروائي بالبحث العميق في الهويات المهاجرة، التحولات الاجتماعية عبر الأجيال، والتقاليد الصينية العريقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليزا سي

فتاة الشاي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 888889

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com